مرثيات

هياكل أولية لصياغات معرفية موسعة

كامل الهاشمي

دار السلام
بيروت - لبنان

مرئيـــــات

هياكل أولية لصياغات معرفية موسعة

مرئيات

هياكل أولية لصياغات معرفية موسعة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

جميع حقوق النشر محفوظة ومسجلة للناشر
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة طبع
أو ترجمة أو نسخ الكتاب أو أي جزء منه إلا بترخيص
خطي من الناشر تحت طائلة الشرع والقانون

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٠٩٦١٣٤٦١٥٩٥
بيروت - لبنان ٠٠٩٦١١٤٧٢١٩٢
E-mail:daralsalamco@hotmail.com

مرئيات

هياكل أولية لصياغات معرفية موسعة

كامل الهاشمي

شبكة الفكر
alfeker.net

دار السلام
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

تقديم

تشكل هذه المرثيات مجموعة كبيرة من الأفكار التي تسنى لي تدوينها بشكل سريع ومختصر من أجل أن تكون أصولاً جاهزة لكتابات موسعة تالياً، وقد تحول بالفعل العديد منها إلى ذلك، ولكن الكثير منها بقي ضمن صورته الأولية كأطروحات أولية يمكن التوسع فيها والإضافة عليها، ولأن الوقت لا يسمح لي ببسط وبيان وتفصيل كل ما أدونه من أفكار ورؤى فقد إرتأيت أن أقدمها بهذه الصورة بحيث يمكن للقارئ والباحث أن ينطلق منها كأطر أولية يستند إليها في تقديم معالجات موسعة ومسهبة للمواضيع التي تناولتها هذه المرثيات، والتي توزعت بين هموم وقضايا شاملة ومتنوعة، والله أسأل أن ينفع بها القرّاء والمعنيين . . .

سيد كامل الهاشمي
١٥ شعبان ١٤٢٦
٢٠ سبتمبر ٢٠٠٥
جدحفص- مملكة البحرين

دور علماء الدين بين الدولة والأمة

قال الإمام علي عليه السلام: (أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز) [نهج البلاغة، الخطبة٣].

الدولة كيان زائل متغير بحسب طبيعته، وهي مؤسسة تدار وفق متطلبات المصالح العقلائية التي تتغير بتغير الأزمان والظروف والأحوال، وهي مصالح معيشية لا يعجز الناس بما هم عقلاء عن تدبيرها والوصول إليها، بينما الحفاظ على الأمة بما هي عنصر ثابت ورئيسي في تحقيق مهام ومتطلبات التكامل الإنساني هو الأمر الأساس في ما ينبغي للعلماء أن يقوموا به من دور ومسؤولية، وهو ما نجد التركيز عليه في الخطاب القرآني حينما يتحدث عن الغاية الأساسية والهدف المركزي في دور الأنبياء والرسل الذين يعتبرون أساس المشروعية في ما يتمثله العلماء الذين هم خلفاءهم من دور إذ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

فغاية دور الأنبياء والرسل ومن تبعهم ولحق بهم من علماء الدين والشريعة، هي الاعتناء بالعدل وتحقيق مقتضياته ورفع موانع إقامته سواء كانت الدولة متحققة أم غير متحققة، نعم بما أن وجود الدولة كإطار تنظيمي يسهم في تحقيق العدل وإقامة القسط كان من مهام العلماء الدعوة إليها، ولكن هذا لا يعني بالضرورة الالتزام بإدارتها ومباشرة شؤونها الخاصة والجزئية، وإنما غاية ما يعنيه ضرورة مراقبة

مسيرها وملاحظة أدائها في ما يرتبط بالهدف العام من وجودها في دنيا الإنسان وهو إقامة العدل والقسط، كما ألمحت إلى ذلك الآية المباركة، وهو فحسب ما ينبغي أن يعني علماء الدين من وراء مشروع الدولة، وهو ما عناه بالضبط الإمام علي عليه السلام في قوله المتقدم. وعبر هذا الفهم نصل إلى تحديد دقيق لدور العلماء في ما يرتبط بعلاقتهم بالدولة، فدورهم ليس مباشرة مهام وشؤون الدولة، وإنما الرقابة والإشراف على مسارها في ما يرتبط بإقامة متطلبات العدل والقسط، وحينما يصطدم الحاكم بهذا الهدف ويتجاوز هذه الغاية بصورة أو أخرى يكون من مسؤولية علماء الدين إيقافه والإنكار عليه.

إشكالية تخطى الحدود وتجاوز الأدوار: مازلنا في مسار الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية عند المسلمين نخلط كثيراً بين السياسي والديني، وهذا الخلط إنما كان من أنصاف السياسيين الذين لا يحسنون الوقوف عند أدوارهم، وعند أنصاف العلماء الذين لم يستطيعوا لحدّ اليوم أن يفهموا الحد الفاصل بين السياسة كممارسة بشرية قابلة للنقد والتخطئة، وبين الدين بوصفه رؤية إلهية مقدسة تتعالى على نقائص ونقائض البشر، وهذا الفهم يشكل عائقاً كبيراً وخطيراً في الوقت نفسه يحول بين المسلمين وبين القدرة على تجاوز الأزمات الملازمة للعمل السياسي في مجتمعاتنا، ولا شك أن أنصاف العلماء هؤلاء يتحملون على أقل تقدير نصف المسؤولية عبر ما يشيعونه من فهم سياسي خاطئ للدين يلغي الحدود بين السياسة والدين، ومثل هؤلاء مع إخوانهم السياسيين الذين يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، هم بلاء بليت به الأمة، وهم من عناهم الأمير بقوله: (وآخر قد تسمى عالما وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس شركا من حبائل غرور وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمن من العظائم ويهون كبير الجرائم، يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع، وأعتزل البدع وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، فذلك ميت الأحياء) [نهج البلاغة، الخطبة ٨٧].

إشكالية السلطة في المجال العربي الإسلامي

(عن حنان بن سدير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: نعيت إلى النبي صلى الله عليه وآله نفسه، وهو صحيح ليس به وجع. قال: نزل به الروح الأمين فنادى: الصلاة جامعة، ونادى المهاجرين والأنصار بالسلاح. قال: فاجتمع الناس، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، فنعى إليهم نفسه ثم قال: أذكر الله الوالي من بعدي على أمتي، ألا ترحم على جماعة المسلمين، فأجل كبيرهم، ورحم صغيرهم، ووقر عالمهم، ولم يضر بهم فيذلهم، ولم يفقرهم فيكفرهم، ولم يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولم يجمرهم «أي يحبسهم» في ثغورهم فيقطع نسل أمتي) [قرب الإسناد، الحميري القمي، ص ١٠٠].

تتخذ السلطة مسارين في عملية تثبيت مشروعيتها السياسية التي تعطيها الحق في الأمر والنهي والاختصاص بتدبير الشؤون العامة للدولة والمجتمع، فهي إما أن تكون سلطة عمودية، وهذا هو طبيعة السلطة الدينية، فهنا لا مجال لتثبيتها إلا النص المتعالي الصادر عن صاحب الحق الأصلي في الملك والسلطنة والتدبير وهو الله تعالى شأنه، وإما أن تكون سلطة أفقية، وهذا هو طبيعة السلطة الدنيوية، وهنا لا مجال لتثبيتها إلا بالتوافق الحاصل بين الجماعة الواحدة، والذي يمكن التوصل إليه بوسائل متعددة، أهمها الشورى قديما، والانتخابات النزيهة حديثاً، وقيمة هاتين الوسيلتين في كشفهما وحكايتهما عن رأي الأغلبية، والمشكلة في الاجتماع السياسي العربي والإسلامي أنه قد تم تخطي هذين الخيارين، فلم ينتج هذا الاجتماع لا دولة دينية تعتمد الشريعة، ولا دولة دنيوية تعتمد العقل، وإنما اعتمد في الحقيقة والواقع إطاراً ثالثاً لتأسيس المشروعية السياسية اللازمة للحكم، وهو الاستبداد وإمارة التغلب التي جعلت من الدولة العربية الإسلامية على الدوام دولة

أشبه بدولة الطبيعة بحسب التقسيم الخلدوني.

محنة التجربة السياسية في العهد العلوي: أهم تجربة سياسية دينية كشفت عن عجز الاجتماع العربي الإسلامي عن تحقيق كلتا الدولتين الدينية والدنيوية تتجسد في محنة الحكم والسلطة في عهد الإمام أمير المؤمنين، والذي توفر في مرحلة سابقة على المشروعية الدينية عبر النص عليه من قبل الرسول الأكرمﷺ كما تعتقد الشيعة، وتوفر لاحقاً على المشروعية السياسية عبر التوافق عليه من قبل الجموع الثائرة على عثمان كما تعتقد السنة، وهو ما يوضحهعليه السلام بقوله: فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون عليّ من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون) [نهج البلاغة، قسم الخطب، رقم ٣]. ولكن كلا المشروعيتين اللتين حظا بهما عليه السلام تمّ الخروج عليهما ومصادرتهما كما يشير في خطبته هذه، لتستفرد دولة الطبيعة والاستبداد بمهام الحكم والسلطة منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، ولا جديد أبداً في هذا المجال استطاع العقل السياسي العربي الإسلامي أن ينتجه معرفياً أو يحققه عملياً منذ تلك اللحظة.

إشارة نبوية: نلمح في جملة من الأحاديث النبوية إنباء صادقاً عن مستقبل التجربة السياسية في المحيط العربي الإسلامي بما تتضمنه من إشكالية عميقة في افتقاد حتى الحدود الدنيا من متطلبات المشروعية، كما في هذا الخبر (عن كعب بن عجرة قال خرج إلينا رسول اللهﷺ ونحن تسعة خمسة وأربعة أحد العددين من العرب والآخر من العجم فقال: اسمعوا هل سمعتم أنه سيكون بعدي أمراء من دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه وليس يرد على الحوض ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وسيرد على الحوض) [السنن الكبرى، النسائي ج ٤، ص ٤٣٥].

غياب آلية التوافق

الإشكالية الدائمة المطردة في الاجتماع السياسي العربي الإسلامي

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٥].

تتبدى أهمية هذا الخطاب القرآني الكريم في التذكير من قبله تعالى بالنعمة المنسية من قبلنا نحن المسلمين، والتي كانت السبب في أن نتعرف على أنفسنا وأن ندرك حقيقة وجودنا الاجتماعي والسياسي، والذي نعبر عنه بـ«نحن»، فحينما توحّد الاجتماع العربي الإسلامي على آلية واحدة لصنع توافقاته الدينية والاجتماعية والسياسية والمدنية استطاع أن يحقق أكبر معجزة تغييرية في تاريخ البشرية من خلال إيمانه برسالة الرسول الأكرمﷺ وفي فترة زمنية قياسية بكل المواصفات، ولكن هذا التوافق سرعان ما انخرم وانفتق بعد وفاة رسول اللهﷺ، وحتى ما كان ممكناً أن يكون سبباً لاستمرار هذا التوافق، والمتمثل في التوافق المتوقع من قبل المسلمين على مرجعية القرآن الكريم، لم يحظ بهذا الأمر، بل حظي بمقابله وعكسه على التمام، فقد صار القرآن آلية لإثارة التباين والاختلاف بين المسلمين، فصار المسلمون يضلون ويضلون به بدل أن يهدون ويهتدون به، وهو ما جلاّه بكل وضوح هذا الخبر المهم للغاية: (أخرج الحكيم الترمذي عن عمر ابن الخطاب قال

أتاني رسول الله ﷺ وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون أتاني جبريل آنفا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون فمم ذاك يا جبريل؟ فقال: إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل فيم يسلم من سلم منهم قال بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه) [الدر المنثور، جلال الدين السيوطي ج ٣، ص ١٥٥].

والربط بين المرجعيتين النظرية والعملية في حديث الثقلين المتواتر والمشهور بين كافة المسلمين يعطي تصديقاً بضرورتهما معاً وعدم قابلية التفكيك بينهما، بمعنى الحاجة المستمرة من أجل صنع توافق اجتماعي يحقق متطلبات النظم والحياة الطيبة والكريمة إلى مرجعية عملية بشرية مباشرة ينتهي إليها الإنسان، في الوقت الذي تكون هذه المرجعية المحققة للتوافق البشري العام مستندة من حيث مشروعيتها إلى مرجعية نظرية متوافق عليها أيضاً وهي القرآن الكريم، ولكن القرآن الكريم يعجز كمرجعية نظرية معرفية عن تحقيق متطلبات التوافق العملي حينما يكون لوحده، لأن ذلك ليس من شأنه ولا هو بمقدوره، وإنما من الضروري أن تنضم إلى مشروعيته النظرية التوافقية مشروعية عملية محسوسة تتمثل في إطار بشري محدد، ومن هنا نتفهم لماذا تم القرن الأكيد من قبل رسول الله ﷺ بين القرآن والعترة، وفي الوقت نفسه نتفهم خطأ ولغوية وتفاهة مقولة: حسبنا كتاب الله، والتي استخدمت كمقولة ساهمت أيّما مساهمة في هدم وتدمير وتفتيت الاجتماع العربي الإسلامي منذ لحظة انطلاقها من قبل السلاطين إلى يومنا هذا الذي تتكرر فيه على ألسنة القراء الذين يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون.

التطور التكاملي للأنظمة الاعتقادية

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران ٩٠]، وقال عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران ١٧٣]، وقال جلّ جلاله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ [محمد ١٧].

يمثل كل من الكفر والإسلام والإيمان أنظمة اعتقادية يفرز كل منها تجلياته الخاصة به والمتناغمة معه، ولكل واحد منها مراتب متعدّدة ومتكثرة، وقد تجتمع بعض مراتب كل منها في الذات الواحدة، فالنفاق هو مرتبة تجمع بين ظاهر الإيمان وباطن الكفر، وكما قد لا تتجاوز التجربة الوجدانية للفرد حدود الإسلام فكذا قد لا تتجاوز التجربة الوجدانية للمجتمع هذه الحدود، وهو ما أراد القرآن التنبيه عليه حينما تحدّث عن البعض من الناس بالقول: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ..﴾ [الحجرات ١٤]، محدّدا في الوقت نفسه مبادئ وضرورات الإيمان بالقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات ١٥].

وفي ضوء ذلك يصبح الإسلام مفهوماً يتسع كدين لكل مراتب الاعتقاد بإله واحد، ولا يختص بالمسلمين أصحاب الرسالة المحمدية، ويكون الإيمان الذي هو الاعتقاد المقترن بالعمل الصالح سبباً لنجاة كل من حصله من الناس في الآخرة من دون أن يقتصر الأمر على المسلمين بالمعنى الأخص كما يعتقد كثير من الناس

خطأ، وهو ما يصرّح به الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة ٦٢].

وفي هذا السياق نفسه جاءت مرويات أئمة أهل البيت عليهم السلام لتؤكد هذا الأمر وتزيده وضوحاً، فعن عبد العزيز القراطيسي قال: (قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا عبد العزيز إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم، يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولن صاحب الاثنين لصاحب الواحد: لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشرة، فلا تسقط من هو دونك، فيسقطك من هو فوقك وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملن عليه مالا يطيق فتكسره، فان من كسر مؤمنا فعليه جبره) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٦٦، ص ١٦٥-١٦٦].

وعن سدير قال: (قال لي أبو جعفر عليه السلام: إن المؤمنين على منازل منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ست ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو، وعلى صاحب الثنتين ثلاثا لم يقو، وعلى صاحب الثلاث أربعا لم يقو، وعلى صاحب الأربع خمسا لم يقو، وعلى صاحب الخمس ستا لم يقو، وعلى صاحب الست سبعا لم يقو، وعلى هذه الدرجات) [ن م، ج ٦٦، ص ١٦٧-١٦٨].

ملاحظة نقدية مهمة: لأن الإيمان كما ثبت مما تقدم هو على مراتب ودرجات فإنه لا يحق لأيّ كان أن يخرج الآخرين ممن يختلفون معه في الفروع أو الأصول من كل مراتب الإيمان والإسلام مادامو متمسكين ولو بالحدود الدنيا منهما، وهو الأمر الذي أراد الإمام الصادق عليه السلام التحذير من الوقوع فيه بقوله: (ما أنتم والبراءة يبرأ بعضكم من بعض؟ إن المؤمنين بعضهم أفضل من بعض، وبعضهم أكثر صلاة من بعض، وبعضهم أنفذ بصيرة من بعض وهي الدرجات) [ن م، ج ٦٦، ص ١٦٨].

المبادئ الأساسية لثقافة إنسانية مشتركة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات ١٣].

تتركز التباينات بين الجماعات البشرية في أمور عديدة أهمها: ١- اللغة. ٢- الجنس. ٣- أنماط التفكير. ٤- الخلفية الثقافية (العادات والتقاليد والأعراف والمسلمات النظرية والعملية). ٥- الأطر المؤسساتية وعلى رأسها الدولة ضمن مفهومها الحديث. ولا شك إن في هذه التباينات التي توزع وتصنف الجنس البشري الواحد ما هو موروث وما هو مكتسب، وما هو مستحيل التغيير كالجنس، وما هو صعب التغيير كأنماط التفكير والثقافة، وما هو سهل التغيير كاللغة، ولكن هذه التباينات رغم وجودها لم ولن تمنع البشر في كل زمان ومكان أن يدركوا حاجتهم الدائمة لثقافة مشتركة تجمع وتربط بينهم بالرغم من تبايناتهم، في الوقت الذي تعترف هذه الثقافة بالخصوصيات الفريدة لكل ثقافة من الثقافات البشرية المتنوعة والمتكثرة. وقد عمل القرآن الكريم على التأسيس لهذه الثقافة البشرية المشتركة، من خلال قوله المتقدم.

وهذه الآية المباركة تؤسس للمبادئ المطلوبة من أجل تكوين وتشكيل ثقافة إنسانية مشتركة، وتلك المبادئ هي:

أولاً: وحدة الجنس البشري: وهو ما عناه تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾. فالناس -كل الناس- خلقوا من حقيقة واحدة، لا يتمايز فيها الأبيض من الأسود، والغني من الفقير، وفي ضوء الوعي بهذه الحقيقة ينفتح لنا الباب لفهم السياق الذي أراد الإسلام تأسيسه كمبدأ أولي في التعامل مع مختلف

الناس في ما تربطنا بهم من علاقة، وهو المبدأ الذي جلّاه الإمام علي عليه السلام بقوله لمالك الأشتر يوم أن ولاّه على مصر: (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق) [نهج البلاغة، الكتاب ٥٣].

وفي ضوء هذا المبدأ أيضاً أسّس لنا الذكر الحكيم أصلاً أولياً في علاقتنا العملية مع الآخرين عبر قوله لنا: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة ٨٣]، وفي ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: (﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ أي للناس كلهم مؤمنهم ومخالفهم، أما المؤمنون فيبسط لهم وجهه، وأما المخالفون فيكلمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان) [البحار، ج٧٢، ص ٤٠١].

ثانياً: الإقرار بخصوصيات الآخرين واحترام ثقافاتهم: وهو المبدأ الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، فالاعتراف بخصوصيات الشعوب والقبائل، ونسبة الجعل إلى الله تعالى نفسه يعني أن التباين بينها في ثقافاتها وعاداتها هو أمر طبيعي ومشروع ومن آياته كما أفصح هو نفسه عن ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الرّوم ٢٢]، وفي ضوء هذا المبدأ أمرنا أن لا نتجاوز على مقدسات الآخرين كي لا يتجاوزا على مقدساتنا فقال: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ١٠٨].

ثالثاً: التفاضل في ضوء المكتسبات والسعي الذاتي: وهو المبدأ الآخر والأخير الذي عناه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وهو مبدأ يؤصل لثقافة إنسانية راقية لا ترى أساساً للتفاضل والتمايز بين البشر إلا في ضوء السعي والعمل الذي ينجزه الإنسان بنفسه ويرتقي من خلاله في درجات التكامل على قاعدة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم ٣٩].

تحديات المسلم المعاصر بين متطلبات المسجد وضرورات السوق

قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ [الجمعة: ٩-١١].

لا أعتقد أن هذه الآيات المباركة من سورة الجمعة جاءت في سياق الإشارة إلى إشكالية مؤقتة شهدتها العلاقة بين السوق والمسجد في عهد الرسول الأكرم ﷺ فحسب، وإنما تتخطى إشارتها ودلالتها الزمان المحدّد والمكان المقيّد لتتحدث عن إشكالية ستظل مستحكمة ومستمرة في العلاقة بين الدين والدنيا، كما بين الدين والسياسة، وهي إشكالية عويصة للغاية، إذ من المهم جدا أن نستعرض طبيعة الصراع بين المؤسسة الدينية (المسجد) والمؤسسة التجارية (السوق)، وهو الصراع الذي تبلور في تاريخ الاجتماع الديني الإسلامي كإشكالية كبيرة أثارها القرآن ضمن قوله المتقدم.

واليوم الاجتماع المدني الإسلامي يستعيد نفس الإشكالية في مواقفه المتضاربة من رغبات التدين من جهة، ومن رغبات التنمية من جهة أخرى، فهل من الممكن تحقيق تنمية اقتصادية تقوم على مراعاة علاقات المسجد؟ وهل من الممكن تحقيق تنمية دينية تقوم على مراعاة علاقات السوق؟ أعتقد أنه تحد كبير من الصعب الجزم بأننا نمتلك قدرة المواءمة من خلاله بين متطلبات السوق ومقتضيات المسجد، لاسيما في ظل تحديات العصر الراهن الذي أقام مشاريعه التنموية على

مبدأ الفصل بين متطلبات السوق ومستلزمات المسجد.

ولتوضيح جوهر الإشكالية بين قيم السوق وقيم المسجد نستطيع القول: أننا أمام خيارات متعدّدة في رسم الصور الممكنة لهذه العلاقة، وهي باعتقادي لا تخرج عن صور ثلاث:

الصورة الأولى: أن نغلّب قيم المسجد على قيم السوق، وبالتالي تتأخر أولويات التنمية على حساب أولويات العبادة، وهو ما يرسخ أكثر وأكثر تعقيدات إنجاز تنمية حقيقية في واقعنا المعاصر، والتي نعاني نحن أصلاً من تخلف في معدلاتها، ويوقعنا في حالة من الرهبنة التي ما أرادها الله تعالى لنا كما لم يردها لؤلئك الذين قال عنهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد ٢٧].

الصورة الثانية: أن نغلّب قيم السوق على قيم المسجد، وبالتالي نستعيد صورة مشوهة من التجارب الإنسانية المبتورة والتي طغت قيم السوق على حياتها فأضحت تفتقد كل القيم الإنسانية التي يمكن أن تمايز بين الإنسان وبقية الحيوانات التي تأبى أن تتعالى على المادة، وهذه هي الحياة التي يريد أن يعيشها الكثير من الناس ممن عناهم تعالى بقوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ [البقرة ٢٠٠].

الصورة الثالثة: وهي الصورة الأكثر تعقيداً وصعوبة، لأنها تحدّد لكل مجال متطلباته الخاصة التي تستدعيها طبيعة هذا المجال، فللسوق والتجارة منطقهما الخاص في الربح والخسران، وللمسجد والعبادة أيضاً منطقهما الخاصة في الربح والخسران، والجمع بينهما في صورة توليفية وتوفيقية تعطي لكل مجال استحقاقاته هو ما يريدنا الله تعالى منزل الدين وخالق الدنيا أن ننجزه في تجربتنا المعيشية حينما يعلمنا أدب الدعاء بقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢].

معادلة النجاح في الإدارة العامة

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح ٢٩].

تحقيق النجاح في الإدارة لأي مهمة أو عمل أو حتى فكرة هي مهمة تكاملية تشبه ناتجاً رياضياً يتشكل من مئة وحدة، ويمكن تحصيله بطرق متعددة، كالمعادلات الرياضية التي يتمّ حلها بعدة أساليب تنتهي في النهاية كلها إلى نتيجة واحدة مثل محاولة تجميع العدد ١٠٠ فإنها تكون بإضافة ٥٠ إلى ٥٠، وتكون بإضافة ٣٠ إلى ٧٠، وتكون بضرب ٢٠ × ٥، وهلما جرا.

ومن خلال تدبرنا في النص القرآني المتقدم نكتشف أن الصورة الجميلة للأداء العملي المكتمل والناجح الذي يرسمه الله تعالى للرسول ﷺ وصحبه الأخيار يعطي انطباعاً واضحاً عن المبدأ المتقدم في معادلة النجاح في العمل الإداري، فالعمل الناجح هو العمل الذي يحقق المطلوب منه على أتمّ وجه وأكمله، وهنا القرآن الكريم يرسم لنا الصورة العملية لحياة الرسول ﷺ وأصحابه عبر استعراض المقومات التي ما كان يمكن لذلك الدور المطلوب منهم أن يتحقق من دون وجودها وتحققها، فالنجاح يتبلور كمعطى قائم شاركت عدّة عوامل مجتمعة ومتناغمة ومتكاملة في تحقيقه، وهذه العوامل هي شبيهة أتمّ الشبه بالعوامل التي لا يمكن أن تحقق أيّة علّة تأثيرها في أيّ معلول من دونها، إذ أن الرابطة بين العلة ومعلولها -

كما يقول الفلاسفة- إنما تتحقق في ظل أمور ثلاثة:

أولها: وجود المقتضي، والذي يعني وجود القابلية لتأثير العلة في معلولها وتأثر المعلول بعلته، فالسكين المصنوعة من حديد إنما تقطع الأشياء القابلة لأن تقطع بها، ولا تقطع الأشياء المعدنية الصلبة لعدم وجود القابلية عندها.

وثانيها: ارتفاع المانع، والذي يعني أن لا يكون هناك ما يعيق العلة من إتمام تأثيرها في المعلول، أو يعيق المعلول من تلقي التأثير من علته، كما في الإبصار فإنه حتى لو وجدت العين السليمة ووجد الشيء المرئي، إلا أن رؤيته غير ممكنة في ظل عدم وجود النور وتحقق الظلام، فلابد من ارتفاع هذا المانع حتى يتحقق الإبصار.

وثالثها: تحقق الشرط، والذي يعني إن كل ما هو دخيل في تحقق العلاقة الوجودية بين العلة والمعلول لا مناص من تحققه لكي يتمّ التأثير والتأثر، وإلا فلا، فوجود النور بين العين المبصرة والصورة المرئية شرط في تحقق الرؤية، ومن دونه الرؤية غير ممكنة.

وقد قدّم الله تعالى عدّة تصويرات لهذه المبادئ الثلاثة، منها قوله سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٥].

دور الفتنة في مهام الفرز الشخصي والتمحيص الاجتماعي

قال الإمام علي عليه السلام: (المتعبد على غير فقه كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح، وركعتان من عالم خير من سبعين ركعة من جاهل لان العالم تأتيه الفتنة فيخرج منها بعلمه، وتأتي الجاهل فتنسفه نسفا، وقليل العمل مع كثير العلم خير من كثير العمل مع قليل العلم والشك والشبهة) [البحار، المجلسي ج ١، ص٢٠٨].
الفتنة ظاهرة مستمرة تتحرك في المجتمع الإنساني لتختبر من خلالها إمكانيات الإنسان ومصداقيته في ما يطرحه ويتبناه من قيم ومبادئ، وليتم من خلالها أيضاً فرز الكثير من المفاهيم والممارسات والشخصيات المختلطة ببعضها البعض والغير متميزة بشكل واضح ومحدّد، وهو ما يوجب الافتتان بمعنى الضلال وعدم القدرة على التمييز، وهو الأمر الذي تقتضيه طبيعة الوضع حينما تختلط فيه الأوراق فيصعب تمييز الصالح من المفسد، وهنا تبرز أهمية الفتنة في إنجاز هذه المهمة، وهو ما استدعى أن يأمرنا الدين بأن لا نكره الفتن لأنها تنطوي على خير كثير قد لا نبصره منذ اللحظات الأولى، ولكننا في نهاية المطاف سنراه وسنستشعره بالتأكيد.

ولأن الفتنة ظاهرة لا يمكن إلا أن تتواجد وتتحرك في حياة البشر لأن الحياة البشرية بنيت في هذه الأرض على هذا المبدأ كما قال سبحانه وتعالى في ما حكاه من قصة أبينا آدم عليه السلام: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦]، فالأرض إذن هي مجال ودائرة الفتنة والاختلاف والعداوة والتباين إلى أجل محدّد وأمد معين.

وهو الأمر الذي استدعى أن يكون حتى القرآن مجال فتنة وابتلاء وتمحيص رغم كونه كتاب هداية، لأن من يتفاعل ويتعامل مع هذا الكتاب هو الإنسان المفتتن على الدوام، ولذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾ [آل عمران ٧].

وهو الأمر الذي بينه هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، (أخرج الحكيم الترمذي عن عمر ابن الخطاب قال أتاني رسول الله ﷺ وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون أتاني جبريل آنفا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون فمم ذاك يا جبريل؟ فقال: إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل فيم يسلم من سلم منهم قال بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه) [الدر المنثور، جلال الدين السيوطي ج ٣، ص ١٥٥].

ولذا من الضروري فهم سياقات الفتنة وكيف تتحرك في المجتمعات وتفرز الطيب من الخبيث فيها، وهو ما يسلط عليه الضوء هذا الخبر (عن أبي جعفر عليه السلام، خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كلام الله، يقلد فيها رجال رجالا، ولو أن الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، ولو أن الحق خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى) [المحاسن، البرقي ج ١ ص ٢٠٨].

منطق المنافسة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦].

الإحساس بالمنافسة والشعور بالتحدي هو ما يدفع الإنسان للترقي والتكامل، وهو الشعور الذي أرادنا الدين أن نرسخ جذور الإحساس به في نفوسنا على الدوام عبر خطابات تحفيزية وتحريضية وتشجيعية متعددة كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، ومن الواضح أن السياق الذي يضع فيه الباري تعالى مبدأ المنافسة والجو الذي يحركه فيه هو الجدير بالمنافسة والحقيق بها، لأن المنافسة ترتقي قيمة وأهمية كلّما كان المتنافس عليه أكثر قيمة وأهمية، ولا يوجد في نظر العقل والدين والمنطق ما هو أكثر أهمية وقيمة من نيل رضا الله تعالى واستحقاق الخلد في جنته، وهي أعلى درجات الفوز التي تبتغيها وتقوم عليها وتستهدفها كل منافسة، وأدنى درجاتها في المنطق القرآني هو مجرّد النجاة من النار والخلاص من شرّها كما قال تعالى: ﴿. فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران ١٨٥].

وفي كلمة في غاية الروعة تؤسس لهذا المبدأ في حياة الرسالة الخاتمة كلها يقول رسول الله ﷺ: (بعثت والساعة كفرسي رهان يسبق أحدهما صاحبه بإذنه إن كانت الساعة لتسبقني إليكم) [كتاب النوادر، قطب الدين الراوندي، ص ١٢٧]، وهنا يتبدى لنا مفهوم في غاية الروعة يحاول الرسول الأكرم ﷺ من خلاله القول: إنني كصاحب مشروع رسالي عالمي وإنساني سأبقى في حال تنافس مع اللحظة الأخيرة من حياة الإنسان على هذه الأرض، وهي اللحظة التي لن أبقى مستسلماً لها

وإنما منافساً لحلولها، فهل هي تسبقني إلى الناس وتنهي حياتهم قبل أن يصل الدين الذي حملت مهمة أدائه إليهم؟ أم أنني أتحفز لاستباقها فأوصل ديني إلى كل الناس قبل أن تنتهي حياتهم وتجربتهم الإنسانية على هذه الأرض، وهو التنافس الذي يعلمنا الذكر الحكيم أنه سيحسمه لصالح هذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ حينما يبشر رسول الله ﷺ بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة ٣٣].

وفي ضوء ذلك ندرك أن المنافسة هي المبدأ الأساس في الفاعلية الإنسانية بمعنى أنها هي التي تزودنا بالطاقة المحركة، ولأنها كذلك فقد يكون من الضروري أن نفهمها ضمن ما هو المطلوب في تحقيقها من عناصر وهي نفس العناصر التي تكوّن مضمون أيّة لعبة نتنافس من خلالها ويمكن تحديدها في التالي: ١- التحدي. ٢- الفوز. ٣- الاستعداد. ٤- الحافزية. ٥- الإثارة. ٦- تجنب الخسائر. ٧- تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح.

والدين من حيث كونه فاعلية حراكية تنافسية لا يفترق من هذا الحيث عن اللعب، ولكن ما يمايز بين الدين واللعب هو الغائية التي ينطوي عليها الدين، والتي تحول اللعب واللهو إلى عبادة، كما تحول عبادة الآخرين ممن يفتقدون هذه الغائية إلى لعب ولهو كما أخبر تعالى عن صلاة المشركين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً . .﴾ [الأنفال ٣٥]، ولأجل ذلك نجد أن الإسلام أسبغ صفة المنافسة على كل فاعلياته الحركية من أجل استثارة طاقات الإنسان وتحفيزه، حتى العلاقة بين العالم والمتعلم تخضع لهذا المبدأ، ففي الخبر (عن أبى جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن معلم الخير يستغفر له دواب الأرض وحيتان البحر وكل ذي روح في الهواء و جميع أهل السماء والأرض وان العالم والمتعلم في الأجر سواء يأتيان يوم القيمة كفرسي رهان يزدحمان) [بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار، ص ٢٣].

قضية المهدي ومنطق الفتنة

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٦-١٧].

قد نجد ضرورة للانطلاق من هذا البيان القرآني لإيضاح الفكرة التي نريد الوصول إليها، والتي ربما تصطدم كثيراً بفهمنا التقليدي لقضية الإمام المهدي عليه السلام ومسألة حركته في عصر الظهور، فالفهم السائد هو أنها قضية إعجازية سيتم تدبرها من قبل الله تعالى من دون أن يستطيع البشر إعاقتها، وبالتالي فليبق الإنسان المؤمن ينتظر تلك اللحظة من دون أن يحرك ساكناً حتى يأتي اليوم الموعود ولم يضرب بسيف ولم يطعن برمح، ولكن هذا التصور يصادره المبدأ القرآني الذي تثير الحديث عنه الآية المباركة، إذ تتجلى الفتنة كمنطق عام ومستمر ومتواصل في كل ما يريد الباري عزّ وجلّ أن يصل إليه الإنسان، بما في ذلك النعمة والبلاء على السواء، فالبلاء هو فتنة يختبر من خلالها صبر الإنسان وقدرته على التحمل والثبات، والنعمة أيضاً كذلك هي فتنة، لأن الكثير من الناس يفتتنون بها وينسون من أعطاهم إياها، كما يحصل للإنسان إذا استغنى، إذ يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧]. وفي الآية المباركة في صدر الكلام نرى أن الله تعالى يجعل جزاء الاستقامة على الطريقة المثلى والصحيحة أن يسقي الناس ماء غدقاً كثيراً مباركاً طيباً ينبت به الزرع ويكثر به الخير، ولكن ذلك لا يخرجه عن منطق الفتنة التي يعاد اختبار الإنسان من خلالها ولكن في سياق آخر غير سياق البلاء والشدة، وفي هذا السياق نفسه أراد لنا أئمة أهل البيت عليهم السلام أن نفهم قضية الإمام المهدي عليه السلام في ما يرتبط بمجريات حركة الظهور، وهي المجريات التي سيتحكم فيها منطق الفتنة بالمستوى الذي تحكم وجرى في حركة الرسول المؤسس صلى الله عليه وآله،

وهو المعنى الذي عملت على إبرازه والتأكيد عليه جملة من النصوص الدينية، كما في هذا الخبر عن بشير النبال إذ يقول: (لما قدمت المدينة قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنهم يقولون إن المهدي لو قام لاستقامت له الأمور عفوا، ولا يهريق محجمة دم، فقال: كلا والذي نفسي بيده لو استقامت لأحد عفوا لاستقامت لرسول الله صلى الله عليه وآله حين أدميت رباعيته، وشج في وجهه، كلا والذى نفسي بيده حتى نمسح نحن وأنتم العرق والعلق، ثم مسح جبهته) [محمد بن ابراهيم النعماني: كتاب الغيبة، ص ٢٨٤]. وهو ما تمّ التأكيد عليه في الحديث الآخر (عن المفضل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وقد ذكر القائم عليه السلام، فقلت: إني لأرجو أن يكون أمره في سهولة، فقال: لا يكون ذلك حتى تمسحوا العلق والعرق) [نفس المصدر].

ومن الواضح أن هذين الخبرين وأمثالهما كثير تستهدف كلها التأكيد على أن وضعية التكامل التي يبتغيها الإنسان ويطلبها طلباً حثيثاً لا يمكن أن تتحقق خارج إطار المنطق الإلهي للفتنة، والذي يعمل على تطوير قدرات وإمكانيات الإنسان على رغم ما قد يتصوره تجاه الفتنة ومجرياتها من تصورات خاطئة تستوجب كرهه لها ونفوره منها، بينما هي تنطوي على خير كثير، أقله أنها تعلّم الإنسان الكثير من الأمور التي ما كان يعرفها ويدركها لولا الفتنة، وفي هذا السياق كان من صفات المؤمن الاستلذاذ بتقلبات الواقع الحياتي كما يشير إلى ذلك باقر العلوم محمد بن جعفر بقوله: (لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: حتى يكون الموت أحب إليه من الحياة، والفقر أحب إليه من الغنى، والمرض أحب إليه من الصحة. قلنا: ومن يكون كذلك؟ قال: كلكم، ثم قال: أيما أحب إلى أحدكم يموت في حبنا أو يعيش في بغضنا؟ فقلت: نموت والله في حبكم أحب إلينا. قال: وكذلك الفقر والغنى والمرض والصحة. قلت: إي والله) [الشيخ الصدوق: معاني الأخبار، ص ١٨٩].

الإنسان بين التحرير والتعبيد
المفارقات العميقة بين خطاب الدين وخطاب السياسة

يتداخل ويتضارب الخطابان الديني والسياسي في جوهرهما ومحتواهما، فتداخلهما من حيث توجههما معاً لصياغة حركة الإنسان والتحكم في تصرفاته، فالإنسان هو ساحة عمل الاثنين ومجال التقائهما، وتضاربهما ينشأ من كون كل واحد منهما يريد تسيير الإنسان ضمن مسار مغاير ومناقض للآخر، فالخطاب الديني خطاب أخروي روحي متعال، والخطاب السياسي خطاب دنيوي مرحلي زمني، وهذا ما عليه كلا الخطابين من حيث طبيعتهما الأولى، ولكن ربما تقصم كل منهما لباس الآخر بلا مشروعية ولا مبرر سوى الانسياق وراء نزعة الهيمنة ورغبة الإقصاء وضيق الأفق ومحدودية التفكير الإنساني الذي يستخدم الخطابين ويوظفهما معا في ما هو خارج من ضرورات الدين ومتطلبات السياسة، ولذا صار التصادم بين الخطابين يتغلب على إمكانيات التوافق بينهما، ودوافع التدافع تهمش مساحات التصالح بين الاثنين من أجل الإنسان ومصلحة الأوطان.

وفي القرآن الكريم نجد هذا التمايز العارض والطارئ على طبيعة الخطابين، والذي يستجرهما لتصادم دائم ومستمر يشخص كحالة سلبية في الخطاب السياسي الاستبدادي، وفي الخطاب الديني المتطرّف، والذي يحرّم القرآن الكريم على مروجيه استخدام شعارات الدين وغاياته الشريفة والنظيفة في النطق والتحدث باسم الدين، فالدين ليس مطية يمتطيها من هبّ ودبّ، وخطاب الدين في جوهره وأصله خطاب تحريري توعوي كما يشير إليه قوله تعالى في ما تحدّث به عن رسالة خاتم الأنبياء ﷺ إذ يقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف ١٥٧].

وفي المقابل فإن خطاب السياسية خطاب ترويضي تعبيدي كما يفصح عنه موسى عليه السلام في ما خاطب به فرعون: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١-٢٢]، وهو ما جاء كرد على فرعون في خطابه لموسى حينما عيّره فـ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء ١٨].

وقد يخطئ من يظن أن العبودية يمكن أن تنحصر في وضعية محدّدة أو زمن معين، أو نوع مخصوص من الناس، أو عبر علاقة بشيء واحد فحسب، بل هي تتجلى ضمن مظاهر جلية وخفية وأخفى، فهناك عبودية عبيد السلطان ممن يستعبد الحاكم ذواتهم وأفكارهم وضمائرهم ويستلب مصائرهم وخياراتهم، وهناك عبيد الدنيا الذين يجرون وراء الدرهم والدينار ولا يبصرون في الحياة سواهما، وهناك عبيد الشهوات الذين لا يستطيعون الفكاك منها ولا التخلص من إسارها، وهناك عبيد تراث الآباء والأجداد الذين يعيقون بجمودهم وتكلس أفكارهم كل محاولة للتجديد والإحياء والتطوير، وهناك عبيد الأحبار والرهبان والفقهاء ممن لا يرون الحق إلا في ما اعتادوا عليه من هذه المرجعيات، وهناك عبيد الأعراف والتقاليد والعادات، وهذه العبودية التي تسترق الإنسان وعياً وضميراً وفكراً وحركة هي ما أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يفضحها في علاقة الناس حتى بأقدس المقدسات وهو الدين فقال في كلمته الخالدة التي لا تنسى أبد الدهر: (الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون) [العلامة المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٨٣].

بناء العقول الثلاثة
تحديدات النهضة في العالم الإسلامي

قال رسول اللهﷺ: (إنما يدرك الخير كلّه بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له) [المجلسي: بحار الأنوار، ج٧٧، ص ١٦].

بقيت إشكالية تجلية وتوضيح واستيعاب مفهوم العقل من جهة، وتفعيل وترسيخ وتجذير متطلباته في الواقع الإنساني من جهة أخرى، أهم إشكالية تواجهه مقتضيات النهضة والتغيير في عالمنا الإسلامي منذ لحظة تكون نواته الأولى إلى يومنا هذا، مرورا بالكثير من التعرجات الصاعدة والهابطة التي استوعبت تاريخنا الطويل والممتد من دون أن نحسم خياراتنا في تحديد موقف أخير من دور العقل في حياتنا الدينية والمدنية، وهو الأمر الذي استدعى أيضاً أن لا تكون خياراتنا تجاه دور الدين في حياتنا محسومة أيضاً، لأن الدين والعقل يشكلان النسبة المئوية التي تنتظم الحياة الدنيوية وتستحصل السعادة الأخروية بهما معاً، فالإبهام الذي يجري على أحدهما يجري على الآخر، وغيبوبة الواحد منهما عن وعي الفرد أو الجماعة تستدعي بالضرورة غيبوبة الآخر، وهو ما عناه الرسول من كلمته المتقدمة حينما قال: (ولا دين لمن لا عقل له)، ولأنه (إنما يدرك الخير كله بالعقل) كما قال عقل البشر ومن جمع مراتب العقل كلها إمام الخلق وسيد المرسلينﷺ فإنه يتوجب علينا أن نفحص مكونات هذا العقل الذي لا يدرك الخير إلا به لنكتشف ما هي مكنوناته المطلوب منّا الاشتغال عليها من أجل تجليتها وتفعيلها لنحقق ما هو المطلوب من خير لهذه الأمة، والتي قال الله تعالى عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . .﴾ [آل عمران ١١٠].

العقل واحد في عين كثرته وكثير في عين وحدته: يحتاج الإنسان من أجل صياغة حياته صياغة منزنة ومنضبطة يحقق من خلالها متطلبات وجوده على هذه الأرض والعيش فيها باستقرار وأمن ورفاهية إلى عقول ثلاثة مجتمعة متآزرة تتفاعل في بناء ذاته وحركته وهي العقول الثلاثة التالية:

١- **العقل المعرفي الفلسفي**: وهو العقل الذي أسهم الإسلام في رفع رصيده بشكل بارز وغير متوقع، مؤسساً لأول مرّة في تاريخ التفكير العربي ما يمكن أن نسميه معرفة فلسفية تقوم على أساس البرهنة والاستدلال المنطقي، وهو العقل الذي أنتج منظومة المعارف الإسلامية، وشارك بشكل ملحوظ حتى في صياغة تقنيات العلوم الشرعية والمعارف التي اعتمدت النص أساساً كالفقه والتفسير وعلم الحديث، وهو العقل الذي ينتظر منا محاولة جادة للاشتغال على تنميته من جديد في تجربة النهضة التي نريد تحقيقها لعالمنا الإسلامي والعربي.

٢- **العقل الاجتماعي السياسي**: وهو العقل التواصلي الذي يبني أسس العلاقات الإنسانية وفق مبادئ العدل والتسامح، ويطور الآليات اللازمة لتحقيق حياة اجتماعية وسياسية أكثر حميمية ودفء مما نعيشه اليوم في ظل عالم مضطرب ومملوء بالأحقاد والضغائن، والتي أسهم الفكر الديني المتخلف والمنغلق والمشوه في زرع ونشر الكثير من بذورها، وغذته رغبات الهيمنة والتسلط والاحتقار للشعوب المقهورة التي بنتها الأمركة ورضيعتها العولمة.

٣- **العقل المعيشي التدبيري**: وهو العقل الذي يبني الدنيا وفق نظام عقلائي يحقق للناس مصالحها المعيشية ويسهم في رفاهيتها وتنمية إمكانياتها الاقتصادية من دون أن يلغي علاقتها بالآخرة والدين أو يشوهها، وربما نجد إشارة جميلة ومختصرة لضرورة استكمال بناء هذه العقول الثلاثة من أجل تحقيق نهضة حضارية في عالمنا الإسلامي المعاصر في قول الإمام علي عليه السلام: (ثلاث تكمل المسلم: الفقه في الدين، والتقدير في المعيشة، والصبر على النوائب) [الليثي الواسطي: عيون الحكم والمواعظ، ص ٢١٤].

القرآن الكريم بوصفه كتاب إرشاد يومي

قال الله تعالى: ﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم ١].

هذه الآية المباركة تنطوي على كل ما هو مطلوب من عناصر أساسية في أيّ كتيب إرشادي يستهدف إرشاد الإنسان إلى كيفية التعامل الصحيح والتعاطي السليم مع إرشاداته ومحتوياته، فلقد احتوت الآية على العناصر الثلاثة التي تتقوم بها العملية الإرشادية والمتمثلة في:

أولاً: الرسالة (المحتوى النظري): والذي تمثل في مضامين هذا الكتاب العزيز التي استقطبت واستوعبت كل شاردة وواردة مما تعني الإنسان وتهممه في بناء ذاته واستكمالها وتحقيق خيرها الممكن لها، ولأنه كذلك قال فيه منزله عزّ شأنه: ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل ٨٩]، وقال أيضاً: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء ١٠٦].

ثانياً: الرسول: (الخبير الممارس): وهو الرسولﷺ المعني الأول والأهم بتطبيق وتفعيل مضامين الرسالة التي حملها الكتاب العزيز، وتكمن أهمية وجود هذه الشخصية في ما يرتبط بعلاقتها بتبليغ الرسالة في قدرتها الاستثنائية على تجسيد مفاهيمها والالتزام الدقيق بنصوصها، ومن أجل ذلك كانت سيرته تعزيزاً حياً للرسالة في ما تريد إيصاله من رؤى وأفكار، وفيه قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨].

ثالثاً: الطريق بين المبدأ والغاية (خطة العمل): وهي ما يعنينا الإشارة إليها في هذا المقام، فالقرآن لم يكتف بتحديد الأهداف الكلية للرسالة، وإنما أمعن في ذكر التفاصيل التي يلتقي بها الإنسان في حياته اليومية ليتحول من خلال ذكرها وبيان الموقف المطلوب تجاهها إلى كتاب إرشاد عملي يضع خطة عمل محكمة تستهدف هداية الإنسان وتقوم على البصيرة والوضوح في مختلف تفاصيلها بما تقتضيه طبيعة خطة العمل من تفصيل وبيان يتجاوز حدود الكليات والعموميات، وهو ما ألمح إليه حامل رسالة القرآن إلى الإنسان في ما حكاه تعالى عنه بقوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف ١٠٨].

منهجية القرآن في الإرشاد العملي: عمل القرآن على أن يتحول في حياة الإنسان المؤمن إلى كتيب إرشادات يومية توجه للإنسان في كل موقف أو شأن من مواقف وشؤون الحياة، ويحدد له المطلوب منه في مواجهة هذا الموقف أو الشأن وكأنه تحد خاص يواجه إيمانه، وأنه دائما سيكون بين خيارين لا ثالث لهما إما النجاح أو الفشل في مواجهة الموقف، وهذه هي أهم ما يمكننا الإشارة إليه من تحديات إنسانية تعامل معها القرآن الكريم كمصيدة يمكن للإنسان أن يقرر على الدوام أن يعلق في وسطها أو أن يخرج منها بسلام: ١- النساء. ٢- الشهوات. ٣- حب الأكل. ٤- حب الجاه والشهرة. ٥- الطاغية. ٦- الابتلاء والمشاكل والأزمات. ٧- الخمر وما يذهب العقل. ٨- القمار وما يذهب المال. ٩- الربا والاستغلال. ١٠- اللهو واللعب وما يذهب العمر والوقت. ١١- إتباع خطوات الشيطان. ١٢- الزنا والفاحشة. ١٣- موبقات اللسان من الغيبة والنميمة والكذب واللغو. ١٤- حب المال والجمع والادخار. ١٥- القتل. ١٦- الفتنة عن الدين. ١٧- مصادرة الحق في الوطن. ١٨- الاختلاف والتباين في وجهات النظر. ١٩- التدافع والعداوة. ٢٠- السلام. ٢١- الحرب. ٢٢- النعم والخيرات. ٢٣- الفقر. ٢٤- المرض. ٢٥- المصيبة. ٢٦- الأمانة والوديعة. ٢٧- التجارة والربح والخسارة. ٢٨- الهجرة. ٢٩- الصبر. ٣٠- حب الراحة وإيثار الدعة والسكون.

مراحل الفتنة في الخطاب القرآني

قال الإمام علي عليه السلام: (إن الفتن إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت نبهت، ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات، يحمن حول الرياح يصبن بلدا ويخطئن بلدا) [نهج البلاغة، الخطبة ٩٣].

يكثر حديث القرآن الكريم عن الفتنة وكأنها ضرورة لا مناص من مواجهتها ووجودها في حياة الإنسان، بل لا معنى لحياة الإنسان من دونها، ولأنها كذلك فإن القرآن الكريم الكتاب الذي عنى بالإنسان وبكل شؤونه وأحواله مستهدفاً على الدوام هدايته ونجاته وسعادته اهتم برسم طريق الخلاص من الفتن والنجاة من شرورها، وهو يتحدث عن الفتنة حينما تتشكل منذ بدايتها إلى انتهائها في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة تبلور وبروز الفتنة كحدث عبر إرهاصاته ومقدماته، وهي إرهاصات ومقدمات على الإنسان أن يكون مبكراً في إدراكها كي لا تلتبس عليه الفتن ويخدع بها.

المرحلة الثانية: مرحلة بلوغ الفتة أوجهها وبروزها كتحد للذات يضعها على مفترق طرق، ولا شك أنها مرحلة خطيرة وبالأخص حينما يقفل خط الرجعة إلى الوراء واستعادة ما فقده الإنسان من إيمانه واستقامته.

المرحلة الثالثة: تحديد الخيارات في مواجهة الفتنة وحسمها إما بالخروج منها أو الوقوع في فخها، وهي المرحلة الأصعب التي يواجهها الإنسان لأنه يكون قد استهلك في أجواء الفتنة التي عاشها الكثير من قدراته على التفكير والتخطيط والتنفيذ.

نموذج تطبيقي من القرآن الكريم: عنى القرآن الكريم باستعراض جملة من

الفتن أو أجواء الفتنة التي يمرّ بها الإنسان وتواجهه في حياته ولعل أفضل تصوير قرآني للفتنة وأجوائها كان في ما طرحه حول موقف يوسف عليه السلام في مواجهة امرأة العزيز، وهي الفتنة التي تحدث عنها القرآن الكريم بالقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٢٢-٣٤].

ولا شك أننا هنا أمام نص قرآني من أروع النصوص التي عنت بالحديث عن الفتنة في حياة الإنسان المؤمن وكيفية الخلاص منها رغم ضغوطاتها وإكراهاتها التي يصعب تجاوزها إلا من خلال إدراك الإنسان للتقنية التي تحرك الفتنة من خلالها شخوصها وضحاياها ومعرفته بالمخارج التي تنطوي عليها في ذاتها مهما بدت كالحة ومظلمة.

التوازن بمنطق الاعتدال في إدارة الثنائيات

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان ٦٧].

الإنسان موجود متميز يقف على الدوام بين ثنائيات متكثرة لا حد لها تواجهه في كل موقف يعرض له في حياته، ودائما يكون المطلوب منه أن لا يميل إلى إحدى الجهتين وأن يحافظ على توازنه في مواجهة الاستدعاءات التي تفرضها الثنائيات الحافة به، وهو جوهر مبدأ الوسطية الذي ميز الله تعالى به الأمة المسلمة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . .﴾ [البقرة ١٤٣].

ويمكننا أن نتلمس ضرورة التوازن من خلال إدارة الثنائيات التي تحيط بحياتنا ومواقفنا عبر منطق الاعتدال الذي يبتعد بنا عن أن نقع في الإفراط أو التفريط في كلّ شؤون حياتنا، ولعل أهمها:

الاعتدال في الاعتقاد بين الإفراط والتفريط: فأكثر الناس تقع أسرى الإفراط أو التفريط في صياغاتهم العقائدية، فيحركون مؤشر العقيدة إما إلى الغلو القائم على الإمعان في التأويل والبحث عن البواطن، أو إلى السطحية القائمة على النظر الساذج والوقوف عند ظواهر الأمور من دون فحص وتعمق، ولكننا ندرك أن الدين له باطن وظاهر، وعلى الإنسان أن لا يكتفي بالوقوف عند الظاهر ملغياً الباطن فيقع في التعطيل، ولا يلغي الظاهر لأجل الباطن فيقع في التأويل المتعسف، وهو ما نصح به الله تعالى أهل الدين فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ

إِلاَّ الْحَقَّ . . .﴾ [النساء ١٧١].

الاعتدال في الاجتماع بين الإفراط والتفريط: تحقيق الاعتدال في علاقات الاجتماع البشري هو من أصعب الأمور التي تواجه الإنسان في مجال ضبط معدل التوازن في علاقاته مع الأصدقاء والأعداء على السواء، ولأن العدل هو المطلوب وهو الطريق الوحيد لتحقيق التوازن في كل شؤون الحياة أمرنا الله تعالى أن نقيم علاقاتنا مع الأعداء والأصدقاء وفق هذا المبدأ، فقال في مجال العلاقة بيننا وبين الأعداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة ٨]. وفي مجال العلاقة بيننا وبين الأصدقاء ومن نحبهم ونودهم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

الاعتدال في الاقتصاد بين الإفراط والتفريط: ولا شك إن تقدير المعيشة وتدبير شؤون الحياة الاقتصادية والمادية وفق منطق التوازن والاعتدال هو تجل آخر من تجليات هذا الأصل الإسلامي الأصيل، وهو ما أراد تعالى أن يؤسسه في سياق مدحه للمؤمنين بالقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان ٦٧]. كما نلمح تعبيراً قرآنياً آخر ورد في الشأن نفسه في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء ٢٩]. والعدل والاعتدال في إدارة المعيشة هو فضيلة محفوفة برذيلة البخل والتقتير التي ذمها الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة ٣٣ وبرذيلة الإسراف والتبذير التي ذمها تعالى بقوله: ﴿. . وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام ١٤١].

التأصلات الأولى للعنف في التاريخ البشري

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٣٠].

ليس بمستغرب أبداً طبيعة العنف البشري الذي يتجلى اليوم في عصرنا الراهن بأبشع صوره من قتل ودمار وحروب وخراب تفوح رائحة الموت منه في الكثير من بقاع هذا العالم، أقول: ليس بمستغرب كل ذلك بعد أن أنبأنا الأعلى عن ما سيكون عليه تاريخ هذا الإنسان على هذه الأرض، وهو التاريخ والواقع الذي استبشعت الملائكته ما سيكون عليه، ولاسيما أن العنف بدأ يتأصل كظاهرة في البدايات المبكرة جداً لتاريخ الإنسان، وفي نطاق أقرب العلاقات البشرية، أعني علاقة الأخ بأخيه، وهو التأصل الخطير الذي وثّقه القرآن الكريم توثيقاً دقيقاً فقال تعالى في ما خاطب به نبيه الكريمﷺ:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ

لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٢٧-٣٤].

وليس من المهم فحسب أن نقرأ هذا النص كمقطع توثيقي تاريخي يستهدف الإشارة إلى تأصل العنف كمنهج في حياة الإنسان في مواجهة ما يعترضه من أزمات ومشاكل وخلافات، وإنما الأهم من ذلك أن نعي السياق الذي وضع الله تعالى فيه هذه القضية وأثارها، لأن النص يربط حلقات ثلاث لها دورها في الكشف عن أسباب استمرار وتواصل دورة العنف في تاريخ البشرية منذ بدأ الخليقة حتى منهاها، وتلك الحلقات هي:

الحلقة الأولى: العنف المتأصل في الطبيعة البشرية: وهذه الحلقة تتكشف كمرحلة في التاريخ البشري عبر الصراع الدامي بين ابني آدم، وهو الصراع الذي اعتبره القرآن اللحظة التأسيسية للعنف في التاريخ البشري.

الحلقة الثانية: العنف المتأصل في الاجتماع البشري: وهذه الحلقة تبرز كمرحلة تاريخية ذات امتداد زمني طويل يستغرق مساحات ممتدة من واقع الإنسان على هذه الأرض، وأهم ما في هذه المرحلة ارتباطها ببني إسرائيل بشكل خاص كما يشير النص المتقدم، والذي يكشف أيضاً عن إثارة هذه الأمة للظاهرتين اللتين خشيت الملائكة منهما، وهما ظاهرتا القتل والفساد، وكل معطيات التاريخ البشري تدلل على الدور المتميز لليهود في نشر القتل والفساد في أرجاء المعمورة قديماً وحديثاً.

الحلقة الثالثة: العنف رغم تأصله إلا أنه حالة مرضية يمكن علاجها: وهذه هي الحلقة المهمة جداً في مواجهة ظاهرة العنف، والتي يعالجها القرآن ضمن مستويين: الأول يستهدف استئصال جذور الظاهرة، والثاني يستهدف علاجها عبر فتح باب التوبة للذين قد يكونون انجرفوا وراء هذه الظاهرة من دون وعي وقصد، وهذه هي قمة الحكمة في معالجة الأخطاء.

التعقل كغاية للتدين

قال رسول الله ﷺ: (إنما يدرك الخير كلّه بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له) [المجلسي: بحار الأنوار، ج٧٧، ص ١٦].

يتحرك الدين الحق في حياة الإنسان كإطار يستهدف التوفيق بين أفكار وسلوكيات الإنسان وبين منطق العقل، ولذا ليس من شأن الدين ولا يمكن أن يكون من شأنه أن يتحرك أو أن يحرك الإنسان باتجاه يخالف أو يناقض ضرورات العقل، وربما لا نستطيع العثور على بيان وتصريح أوضح من هذا الذي نقلناه عن رسول الله ﷺ، والذي يفصح عن أمرين مهمين ومترابطين في الوقت نفسه:

أولهما: إن الطريق إلى الخير بكل أصنافه وأنواعه بوصفه المطلوب الأسمى للإنسان إنما ينحصر تحصيلة بالعقل، ولما كان الدين في حدّ ذاته خيراً فالعقل لا مناص من أن يدرك هذا الخير ويطلبه ويحرّك الإنسان باتجاهه، لذا الإنسان يتدين لأنه محب للخير المطلق ومشتاق إليه.

ثانيهما: إن الدين لا يمكن حصول السعادة من خلاله وبه إذا لم يتأسس على أساس العقل، لأن الدين في المبدأ هو ضرورة عقلية إنما يثبتها ويدركها العقل، فلو تأسس بعيداً عن العقل لكان في حقيقة الأمر مجرّد وهم وخرافة، لذا فمن يفتقد العقل لا ينعم بالدين ولا ينتفع به.

وفي ضوء ذلك يتبين لنا أن غاية التدين هي أن يصير الإنسان موجوداً عاقلاً بتمام معنى العقل والتعقل، وهو المعنى الذي انطوى عليه الخطاب القرآني في كلياته وجزئياته، بحيث لا نغالي إذا ما قلنا أن ليس هناك من هدف أخير للقرآن الكريم وبالتالي للدين برمته إلا أن يصير الإنسان عاقلاً، أي مكتمل العقل، فهي

الغاية الأخيرة التي تنتهي إليها كل غاية وتبدأ من أجلها كل بداية، وهو ما نلمح الإشارة إليه والتصريح به في العشرات من آيات الذكر الحكيم، كما في قوله تعالى بشكل كلي: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة ٢٤٢]، وكما في قوله بشكل تفصيلي: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام ١٥١]

ولأن الناس يعيقون تحصيل وحصول هذه الغاية فلذلك جاء القرآن الكريم في العديد من آياته ذاماً هذا التلكؤ والبطأ في تحصيل هذه الغاية كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

ونلمح ربطاً جميلاً بين العقل والإيمان في حديث مروي أيضاً عن رسول الله ﷺ، ويفصح الحديث عن قيمة العقل كآلة يعتمدها الإيمان وكغاية يبتغيها في الوقت نفسه، فيقول: (عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله: لم يعبد الله عز وجل بشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلا حتى يجتمع فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، يستكثر قليل الخير ممن غيره، ويستقل كثير الخير من نفسه، ولا يسأم من طلب العلم طول عمره، ولا يتبرم بطلاب الحوائج قبله، الذل أحب إليه من العز، والفقر أحب إليه من الغنى، نصيبه من الدنيا القوت، والعاشرة وما العاشرة لا يرى أحدا إلا قال هو خير مني وأتقى، إنما الناس رجلان فرجل هو خير منه وأتقى، وآخر هو شر منه وأدنى، فإذا رأى من هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا لقي الذي هو شر منه وأدنى قال: عسى خير هذا باطن وشره ظاهر، وعسى أن يختم له بخير، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وساد أهل زمانه) [الشيخ الصدوق: الخصال، ص ٤٣٣].

تجاذبات التجربة البشرية بين الحرب والسلام

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

يختلف المنظور الذي ننظر من خلاله للتجربة البشرية، فهناك من يستخدم منظوراً تجزيئياً يستهدف من خلاله النظر إلى مسار التجربة البشرية بوصفه مسارات متعددة، وليس مساراً واحداً مترابطاً ومتكاملاً، ولا شك أن لهذا المنظور مبرراته الموضوعية التي تستلزمها طبيعة البحث والتفكير، وهو منظور استخدمه حتى القرآن الكريم في حديثه عن الرسل والأنبياء عليهم السلام فقال في ما خاطب به النبي الكريم ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ..﴾ [غافر ٧٨]، وقال أيضاً في مقام بيان التفاضل بين الرسل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾ [البقرة ٢٥٣].

وفي مقابل هذا المنظور التجزيئي يثير القرآن نفسه النظر إلى الرسل والرسالات بوصفها حلقات مكتملة ومتواصلة في سلسلة زمنية وتاريخية طويلة وممتدة يرتبط آخرها بأولها، وينتهي أولها إلى آخرها، وهو المنظور الذي عنت ببيانه الآية المباركة من سورة الحديد، ونحن هنا نريد أن نستخدم هذا المنظور التكاملي في النظر إلى مضامين الرسالات الإلهية الثلاث الكبرى (اليهودية والمسيحية والإسلام) في ما يرتبط بموقفها الشامل والكلي من الحرب والسلام، والذي تأسس تاريخياً كما نعتقد وفق الأولويات التي كانت تدركها كل رسالة في

مرحلتها التي نزلت فيها، وفي مساحتها البشرية والجغرافية التي تحركت من خلالها، وهو ما استدعى التباين الظاهري بين الأدوار في حياة كل نبي من الأنبياء الثلاثة (موسى وعيسى ومحمد) رغم توافقهم في الأهداف والغايات الكلية، وهو ما يتيح لنا إبصاره المنظور التكاملي الذي نستخدمه في رؤيتنا للرسالات الثلاث بما هي مراحل متكاملة في التاريخ الإنساني العام والشامل.

فالحرب في حركة نبي الله موسى عليه السلام كانت تفرضها الضرورات المرحلية التي استدعتها طبيعة المواجهة مع فرعون وجنوده، وهي الطبيعة التي بينها تعالى بقوله عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٤]. والسلام في حركة نبي الله عيسى عليه السلام فرضته أيضاً طبيعة المرحلة التي أرهقت تداعيات الحروب والمنازعات فيها الناس مما كان يستدعي أن يتمثل عيسى عليه السلام دور داعية السلام، فلذلك كانت أولى كلماته وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

الحرب والسلام في حركة نبي الإسلام ﷺ: في الإسلام يتركز خطاب الحرب مقترنا بخطاب السلام، وتتلاقى ضرورات السلام مع مقتضيات الحرب ضمن ثنائية تكاملية تقتضيها طبيعة الدين الكامل، فيقول تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٥٧-٦١].

محاكمة نظرية الإمامة عند الشيعة
في ضوء معطيات العلوم الإدارية الحديثة

قال علي عليه السلام: (وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة) [نهج البلاغة، الخطبة ١٣١].

يبدو هذا النص المروي في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام من أهم وأوضح وأصرح النصوص التي تعطي تحديداً دقيقاً للإمامة في ضوء منظورها الديني الذي يرتقي بها إلى درجة رفيعة من حيث ما تتطلبه ويشترط فيها كي لا تتحول إلى ممارسة سلطوية ناقصة أو مبتورة، إلا أن يراد إخراجها من حيزها الديني الإلهي وتحويلها إلى مسألة بشرية محضة، تعني الناس من حيث تفاصيلها وخصوصياتها، ولا تنتمي إلى الدين والعقيدة، وهو ما تمثلته الإمامة في مسارها البشري الذي انفصل عن تأسيسها الديني منذ لحظة انفصامها وانفصالها عن شخوصها الحقيقيين الذين قرن رسول الله صلى الله عليه وآله بينهم وبين القرآن الكريم حينما خاطب المسلمين بالقول: (معاشر الناس، إني راحل عن قريب ومنطلق إلى المغيب، فأودعكم وأوصيكم بوصية فاحفظوها، إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا) [مستدرك الوسائل، النوري ج ١١، ص ٣٧٢-٣٧٤].

فلسفة القرن بين الرسالة وشخوص الأئمة عليهم السلام: تتجلى هذه الفلسفة حينما ننظر إلى الإمامة بوصفها التأطير الضروري الوجود في حياة البشر من أجل استكمال

أنفسهم ووصولهم إلى غاياتهم، وهي الغايات التي من واجبات مشرّع الدين أن يهديهم إليها وأن يتمّ الحجة ببيانها وإيضاحها بمقتضى قوله : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ١٠]، وإلا لزم العبث من تكليفهم وحسابهم من دون نصب ما يهتدون به، وهو ما نفاه تعالى عن نفسه بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون ١١٥]، وفي هذا السياق نفهم فلسفة القرن بين القرآن الكريم بوصفه التأسيس النظري للدين، وبين شخوص الأئمة المعصومين عليهم السلام بوصفهم التجسيد العملي للرسالة، ولذلك اشترط الأمير عليه السلام في إمام المسلمين تلك الشروط المتقدمة، وهو تبرز أهميته الدراسات الإدارية الحديثة عبر تناولها لفن القيادة والضرورات التي يستلزمها هذا الدور من أجل تحقيق متطلباته، ويختزل «أوكونر» الشروط المطلوبة في القيادة حتى من دون أن يسبغ عليها مفهوماً دينياً تأليهياً بالقول تحت عنوان «أركان القيادة الثلاثة»: (ما الذي يملكه القادة ليضعهم في المقدمة؟ وعندما يصبحون هناك ما الذي يبقيهم فيها؟ السلطة- مركزهم الرسمي. المعرفة- ما يعرفونه. القدوة- أفعالهم التي تجعل الآخرين متحمسين لأن يصبحوا مثلهم. هذه هي الأركان الثلاثة للقيادة، ويحتاجها القائد -كلها- كي يقف بثبات) [جوزيف أوكونر: البرمجة اللغوية العصبية وفن القيادة، ص٧٢].

وحينما نقارن بين كلمة الأمير عليه السلام وهذه الاشتراطات نرى أن الإمامة كمفهوم قيادي مهم تتأرجح بين حدود عليا وحدود دنيا، وكلمة الأمير عليه السلام عنت ببيان ما يبقي الإمامة ضمن الحدود الدنيا التي إذا ما تجاوزتها فإنها تفتقد أيّ نصيب من المشروعية الدينية والسياسية، بينما أبرزت كلمة «أوكونر» ما هو مطلوب في القيادة ضمن حدها الأعلى من المشروعية، وهو الحد الذي لم يرد الدين سواه، لأنه ما تتم به الحجة على الناس من قبل الخالق سبحانه وتعالى، وهو الحد الذي عبر الأمير عليه السلام عن توفره عليه بقوله: (أما والله لقد تقمصها فلان وإنه ليعلم أن محلي منها محا القطب من الرحا، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير) [نهج البلاغة، الخطبة ٣].

محدّدات الدور المعرفي
منهجيات بناء مهارات التفكير العلمي

يتأسس الدور المعرفي للمفكر العالم عبر المرور بثلاث مراحل تضمنها هذا الحديث: (عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الإنصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع، قال: ثم مه؟ قال: الحفظ، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: نشره) [الكليني: الكافي، ج١، ص ٤٨]، وتفصيل هذه المراحل الثلاث بالبيان التالي:

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس والاستقبال: هناك نصّان دينيان مهمان للغاية يحدّدان بدقة أولوية المعرفة المؤسسة على العقل والعلم في تشكيل الدور الإنساني ضمن أدنى فاعليته وأقصاها، وهذا النصان هما: أولا: قول علي عليه السلام: (هبط جبرئيل على آدم عليه السلام فقال: يا آدم إني أمرت أن اخيرك واحدة من ثلاث، فاختر واحدة ودع اثنتين فقال له آدم: وما الثلاث يا جبرئيل؟ فقال: العقل، والحياء، والدين قال آدم فإني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه فقالا له: يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيثما كان، قال: فشأنكما، وعرج) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ١ ص ٨٦]، والثاني قول ابن عباس: (خيّر سليمان النبي بين العلم والملك والمال، فاختار العلم، فأعطى الملك والمال معه) [روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، ص ١١].

المرحلة الثانية: مرحلة المعالجة والتمييز: ومن الجميل جداً والملفت للنظر في هذه المرحلة أن تتمّ المشاكلة في النصوص الدينية بين مهام النحل ودور المفكر

في معالجة المعرفة التي تتلقى من مصادر متنوعة، من أجل أن تتمّ عملية التصفية والتنقية، وهي العملية التي تمهد للدور الأخير من أدوار حركة المعرفة في المجتمع، والمتمثل في مهمة الإرسال والنشر، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]، ويقول الإمام علي عليه السلام: (خذ من كل علم أحسنه فإن النحل يأكل من كل زهر أزينه فتولد منه جوهران نفيسان: أحدهما فيه شفاء للناس والأخر يستضاء به) [عيون الحكم والمواعظ، الليثي الواسطي، ص٢٤٣].

المرحلة الثالثة: مرحلة الإرسال والنشر: من الضروري أن يقوم المفكر اليوم بتنقلات بين الأرض والسماء وبين الوحي والعقل وبين الشرق والغرب وبين الظاهر والباطن وبين متطلبات العلم وضرورات العمل من أجل أن يستخرج من كل شيء أحسنه فيكون كالنحل في حركته الدؤبة بين الأزهار والأشجار فيخرج من بطنه شفاء للناس، وكذا المفكر الذي يقوم بهذه التنقلات يبنى وعياً فكرياً مستوعباً لما هو المطلوب إنتاجه من أجل بناء وصناعة مجتمع المعرفة، وهو التأطير الذي يضع الإمام علي عليه السلام ضمنه هذه المهمة حينما يوصي أتباعه بالقول: (كونوا في الناس كالنحلة في الطير ليس شيء من الطير إلا وهو يستخفها، ولو يعلمون ما في أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها، خالطوا الناس بألستنكم وأجسادكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم، لكل امرئ ما اكتسب، وهو يوم القيامة مع من أحب) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٢٧، ص ٤١٠].

وبهذه المراحل الثلاث تستكمل محدّدات الدور المعرفي الذي تنجز من خلاله مهام بناء وتأسيس مهارات التفكير العلمي عند الإنسان المسلم، وهي المهام التي فصّلت في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله المتقدم، فكان الإنصات والإصغاء تعبيراً عن مرحلة الاستقبال، وكان الحفظ والعمل تعبيراً عن مرحلة المعالجة والتمييز، وكان النشر تعبيراً عن مرحلة الإرسال.

العقلانية الإسلامية... مبادئ إدارة العقل في الإسلام

قال النبيﷺ: (لكل شيء آلة وعدة وآلة المؤمن و عدته العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر فسطاط يلجئون إليه و فسطاط المسلمين العقل) [المجلسي: بحار الأنوار، ج١، ص٩٥]. الحديث عن العقل أو بالأحرى عن «إدارة العقل» حديث له ضرورات تفرضه علينا، ولعلّ أهمها تتمثل في أننا كمسلمين لم نستطع لحد اليوم أن ننجز تجربة اجتماعية عامة تستند إلى العقل في كل معطياتها ومجالاتها، وهي التجربة التي يشير الحديث المتقدم إلى ضرورة إنجازها حينما يعتبر العقل الفسطاط الذي يلجأ إليه كل المسلمين، مما يعطي انطباعاً بأن المراد هو أنسنة العقل وجعله ظلاً يستظل به الجميع في مختلف شؤون حياتهم، وهذا الأمر هو جوهر العملية التي نسميها بإدارة العقل، ومن أجل أن نجيد هذه العملية أعتقد أننا بحاجة إلى معرفة تحديدات أربعة:

التحديد الأول: حقيقة العقل: العقل جوهر مجرّد له مراتب: أولها العقل الهيولاني، وثانيها العقل بالملكة، وثالثها العقل بالفعل ورابعها العقل الفعّال.

التحديد الثاني: أقسام العقل: ينقسم العقل المطلق إلى أقسام ثلاثة هي:

١- **العقل النظري**: ومهمته إدراك الأشياء كما هي عليه، وإلى أهمية بنائه أشار عيسىعليه السلام بقوله: (خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا نقاد الكلام فكم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله، كما زخرف الدرهم من نحاس بالفضة المموهة، النظر إلى ذلك سواء، والبصراء به خبراء) [ن م، ج ٢، ص ٩٦].

٢- **العقل العملي**: ومهمته عمل الأشياء كما ينبغي أن تكون، وإلى أهمية

بنائه أشار الصادق عليه السلام بقوله: (ما بعث الله نبيا قط حتى يسترعيه الغنم، يعلمه بذلك رعية الناس) [علل الشرائع، الصدوق ج ١، ص ٣٢].

٣- **العقل الوسيط**: ومهمته تحويل المعرفة إلى ممارسة، وإليه أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: (العاقل إذا علم عمل وإذا عمل أخلص وإذا أخلص اعتزل) [عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص ٢١].

التحديد الثالث: وظائف العقل: تختزل في إيصال الإنسان العاقل إلى كماله الممكن له، وهو ما عناه الحديث التالي: (عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان. قال: قلت: فالذي كان في معاوية؟ قال: تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل) [معاني الأخبار، الصدوق، ص ٢٣٩-٢٤٠].

التحديد الرابع: إدارة العقل: بمعنى كيف نؤسس ونبني مهارات العقل؟ والجواب: لا تكتمل مهارات بناء العقل الإنساني إلا عبر إعادة بناء عقول ثلاثة متجاورة هي:

١- **العقل الفلسفي النظري (بناء الأفكار)**: وهو يستهدف بناء المنظومة الفكرية والمناهج المعرفية، أي تعليم قواعد التفكير).

٢- **العقل الأخلاقي الاجتماعي (بناء المشاعر)**: وهو يستهدف بناء منظومة القيم الأخلاقية والمعايير الاجتماعية، أي تعليم قواعد التواصل).

٣- **العقل التدبيري المعيشي (بناء الممارسات)**: وهو يستهدف بناء أنظمة المعيشة وطرق الإدارة العامة، أي تعليم قواعد التنمية). وبناء هذه العقول الثلاثة والتركيب بينها في تحقيق الدور المطلوب من المسلم هو ما يتناسق مع المسؤوليات الثلاث التي أنيطت بهذا الإنسان وهي: ١- الإيمان بالله. ٢- التعارف الاجتماعي. ٣- إعمار الأرض، وهي الوظائف التي تمت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج ٤١].

أوليات العقل

إعادة اكتشاف وتأصيل دور العقل في النظام الوجودي الإسلامي

رغم كل ما قيل عن الدور الذي تسنمه العقل في بناء وتأسيس تراثنا الديني الإسلامي في العديد من مقولاته وأفكاره، إلا أنه مازال هناك متسع كبير للحديث عن هذا الدور، والتعرف على آفاق مستجدة أراد الدين لنا أن نعمقها ونؤصلها في علاقتنا بالعقل، وحديثنا هاهنا ينصب على الأوليات التي أقرّ بها الدين للعقل، وهو ما نسعى لبيانه عبر استعراضنا للخبرين التاليين:

الأول: في الحديث عن رسول الله ﷺ: (يا علي إن أول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب) [الحر العاملي: الجواهر السنية، ص ١٤٥].

الثاني: (عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: اقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلى منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما أني إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب) [الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ١ ص ٣٩].

الأهمية الكبرى لهذين الخبرين أنهما يؤسسان لأولية العقل في أربعة مجالات هي:

١- **أولية العقل في الوجود والتكوين (البعد التكويني)**: فالعقل هو أول الموجودات صدوراً عن الخالق عزّ اسمه بحكم المناسبة والسنخية المفترضة بالضرورة العقلية والفلسفية بين العلة ومعلولها، ومن هنا قال الفلاسفة إن: الصادر الأول عن الواحد لابد أن يكون واحداً مجرّداً عاقلاً.

٢- أولية العقل في التكليف (البعد التكليفي): فالعقل مبدأ التكليف، لأن من لا يمتلك العقل لا يصح تكليفه، ولا يجوز عقلاً وشرعاً توجيه الأمر والنهي إليه، فالعقل مناط التكليف إذن.

٣- أولية العقل في التفضيل (البعد الأخلاقي): فمناط التكليف الذي في ضوئه تتفاوت مراتب الناس ودرجاتهم إنما هو بقدر عقولهم واستعداداتهم المعرفية التي توجب تفاوتاً بينهم في إدراك الحق من الباطل والتمييز بينهما.

٤- أولية العقل في الحساب والجزاء (البعد الحقوقي): فمناط الحساب والثواب والعقاب هو العقل، وهو مبدأ مسلّم به في كل القوانين والأعراف، والذي يؤخذ بفعله هو العاقل لا المجنون ولا الصبي ولا فاقد العقل، وليس ذلك إلا لأن العقل أساس معتبر في تثبيت وإثبات الحقوق.

النتيجة: أن العقل هو الأول في كل شيء: فمن خلال البيانات السابقة اتضح لنا أنه لا قوام لأي أمر في عالم الوجود إلا بالعقل، ولولاه ما ثبت حق ولا أنكر باطل، وهو الأمر الذي يوضحه هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، فقد روي (عن الحسن بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: أن أول الأمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلا به، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونورا لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنهم مخلوقون، وأنه المدبر لهم، وأنهم المدبرون، وأنه الباقي وهم الفانون، واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليلة ونهاره، وبأن له ولهم خالقاً ومدبرا لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وأن الظلمة في الجهل، وأن النور في العلم، فهذا ما دلهم، عليه العقل. قيل له: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟ قال: إن العاقل لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته، علم أن الله هو الحق، وأنه هو ربه، وعلم أن لخالقه محبة، وأن له كراهية، وأن له طاعة، وأن له معصية، فلم يجد عقله يدله على ذلك وعلم أنه لا يوصل إليه إلا بالعلم وطلبه، وأنه لا ينتفع بعقله، إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الذي لا قوام له إلا به) [الكافي، الكليني ج ١ ص ٢٩].

إشكاليات الدور الجماهيري في مواجهة الاستبداد السياسي

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ٢٠٠].

قال الإمام علي عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية بعد أن أعطاه الراية في يوم الجمل: (تزول الجبال ولا تزل، عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، أرم ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه) [نهج البلاغة، الخطبة ١١].

من المهم جداً من أجل إنجاح العمل الجماهيري أن نتفهم الدور المضاد الذي يقوم به الطغاة والمستبدون من أجل إفشال المشروع الجماهيري في كل أبعاده ومستوياته، ولاسيما في ما يرتبط بتحديد صلاحيات السلطة وتشريع قيود معينة لأدائها ومحاسبتها، ومن أجل ذلك يتحرك الطغاة باتجاه مضاد لرغبات الجماهير، وهم يستغلون تحقق أمور ثلاثة في الدور الجماهيري تمثل إشكاليات محورية تعيق نجاح هذا الدور، وتتمثل هذه الإشكاليات في التالي:

١- **إشكالية معرفية تتجسد في الجهل**: فالجماهير التي لا تستطيع أن تبني رؤية في ما تتطلبه المواجهة من مستلزمات ومتطلبات في كل مرحلة وموقف، لا توفق في تحقيق انتصار على المستبد والطاغية، وعدم تحديد الدور المطلوب يفضي إلى تباينات في الرؤى والمواقف تشق الصف الجماهيري الواحد، وهنا يذكرنا الباري تعالى بموقف قوم فرعون في إتباعهم لهذا الشخص الجاهل المستبد، إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ

وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ٩٦-١٠١].

٢- **إشكالية نفسية تتجسد في الملل**: فالجماهير التي تسأم وتمل تعجز عن دفع عجلة التغيير إلى الأمام، وكثيراً ما يراهن الطغاة والمستبدون على هذا العامل في حركة الجماهير، لأنه كما جاء في الحديث: (ولا لملول وفاء) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٤٥٠]، فمن يملّ ويكلّ ويتعب في المطالبة بالحق لا يمكنه استحصاله والتمتع به، ومن هنا قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (لنا حق إن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى) [عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص ٤٢٠].

٣- **إشكالية عملية تتجسد في التخبط**: وهو الإفراز الأخير الذي يعكس طبيعة التداعيات الفكرية والانهيارات النفسية التي تعيشها الجماعة التي تستهدف تحقيق التغيير في الواقع الاجتماعي والسياسي الذي تعيشه، ولا شك أن هذا التخبط يتخذ مظاهر متعددة يغيب عنها التنسيق الذي يتمكن من توجيه قوى الجماهير للسير في اتجاه واحد، فيكون مثلها كما قال تعالى في شأن الناس الذي يضطربون ويتخبطون في تحديد مواقفهم في وقت الأزمة والمحنة: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٥٠-٥١]، أو يكون ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

وحينما تتحقق هذه الإشكاليات الثلاث في الواقع العملي للجماهير فإن ذلك يؤذن بوقوعها في ضياع يعيق تحركها ويمنعها من تحقيق رغباتها مهما امتد بها العمر، ولا يمكن تجاوز ذلك إلا عبر بناء أسس تنظيمية يقوم عليها العمل الجماهيري في كل شؤونه، كما قال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك ٢٢].

السلوك الإنساني
بين نوازع الطبيعة الأولى ومقتضيات الطبيعة الثانية

قال الإمام علي عليه السلام: (أيها الناس تولوا من أنفسكم تأديبها واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها)، تتحكم في إدارة النصيب الأكبر من سلوكيات الإنسان طبائعه الأولي التي نشأ عليها من دون تهذيب وتأديب، وعادة ما تكون هذه الطبائع الأولى سلبية، وهو ما يستوجب من الإنسان مغالبة نوازع طبيعته الأولى وتحكيم مقتضيات الطبيعة الثانية التي يستدعيها العقل أو الشرع أو الذوق، وهذان موقفان مشرقان في هذا المجال:

الموقف الأول: وهو عن الإمام الكاظم عليه السلام، فقد (قيل: إنه كان بالمدينة رجل من ولد عمر بن الخطاب يؤذيه ويشتم عليا (صلوات الله عليه) وكان قد قال له بعض حاشيته: دعنا نقتله فنهاهم عن ذلك أشد النهي، وزجرهم أشد الزجر، وسأل عن العمري فذكر له أنه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه في مزرعته فوجده فيها، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمري: لا تطأ زرعنا فوطأه بالحمار حتى وصل إليه، فنزل وجلس عنده وضاحكه، وقال له: كم غرمت في زرعك هذا؟ قال لهّ: مائة دينار. قال: فكم ترجو أن تصيب فيه؟ قال: لا أعلم الغيب. قال: إنما قلت لك: كم ترجو فيه؟ قال: أرجو أن يجيئني مائتا دينار. قال: فأعطاه ثلاثمائة دينار، وقال: هذا زرعك على حاله. قال: فقام العمري فقبل رأسه وانصرف. قال: فراح إلى المسجد فوجد العمري جالسا، فلما نظر إليه قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته. قال: فوثب أصحابه فقالوا له: ما قصتك؟! قد كنت تقول خلاف هذا! فخاصمهم وسابهم، وجعل يدعو لأبي الحسن موسى عليه السلام كلما

دخل وخرج. قال: فقال أبو الحسن موسى عليه السلام لحاشيته الذين أرادوا قتل العمري: أيما كان أخير: ما أردتم أو ما أردت؟ أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار) [دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري، ص ٣١١].

الموقف الثاني: وهو يتمثل في قصة تروى عن الإمام الرضا عليه السلام، ف(عن الهروي قال: سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: أوحى الله عزّ وجلّ إلى نبي من أنبيائه: إذا أصبحت فأول شيء يستقبلك فكله والثاني فاكتمه والثالث فاقبله والرابع فلا تؤيّسه والخامس فاهرب منه. قال: فلما أصبح مضى فاستقبله جبل أسود عظيم فوقف وقال: أمرني ربي أن آكل هذا، وبقي متحيّراً، ثم رجع إلى نفسه فقال: إن ربّي جلّ جلاله لا يأمرني إلاّ بما أطيق، فمشى إليه ليأكله، فكلّما دنا منه صغر حتى انتهى إليه فوجده لقمة فأكلها فوجدها أطيب شيء أكله؛ ثم مضى فوجد طستاً من ذهب فقال: أمرني ربّي أن أكتم هذا، فحفر له وجعله فيه، وألقى عليه التراب، ثم مضى فالتفت فإذا الطست قد ظهر، فقال: قد فعلت ما أمرني ربّي عزّ وجلّ فمضى؛ فإذا هو بطير وخلفه بازي فطاف الطير حوله فقال: أمرني ربّي أن أقبل هذا، ففتح كمّه فدخل الطير فيه، فقال له البازي: أخذت صيدي وأنا خلفه منذ أيام، فقال: إن الله عزّ وجل أمرني أن لا أؤيّس هذا، فقطع من فخذه قطعة فألقاها إليه ثم مضى؛ فلما مضى فإذا هو بلحم ميتة منتن مدوّد فقال: أمرني ربي عزّ وجلّ أن أهرب من هذا، فهرب منه ورجع. ورأى في المنام كأنه قد قيل له: إنك قد فعلت ما أمرت به، فهل تدري ماذا كان؟ قال: لا، قال له: أما الجبل فهو الغضب، إن العبد إذا غضب لم يرَ نفسه وجهل قدره من عظم الغضب، فإذا حفظ نفسه وعرف قدره وسكّن غضبه كانت عاقبته كاللقمة الطيّبة التي أكلتها؛ وأمّا الطست فهو العمل الصالح إذا كتمه العبد وأخفاه أبى الله عزّ وجلّ إلاّ أن يظهره ليزيّنه به مع ما يدّخر له من ثواب الآخرة؛ وأما الطير فهو الرجل الذي يأتيك بنصيحة فاقبله واقبل نصيحته؛ وأما البازي فهو الرجل الذي يأتيك في حاجة فلا تؤيّسه، وأما اللحم المنتن فهي الغيبة فاهرب منها) [المجلسي، بحار الأنوار، ج١٤، ص ٤٥٦-٤٥٧].

الإصلاحي الأحمق

الإصلاحي الأحمق هو نمط شائع من الشخصيات التي تتحرق من أجل الإصلاح وتبتغيه بكل إخلاص وجدية، ولكنها لا تعرف السبيل إليه، ولا يمكنها التوصل إلى تحقيقه، فتظل تمارس الخطأ تلو الأخطاء، ولا تخرج من أزمة إلا وتكون الأخرى بانتظارها، ويقدم سبحانه وتعالى نموذجاً بارزاً لهذا النمط من الشخصيات في قوله للمؤمنين محذراً إياهم من إدخال مثل هذه العناصر في مهام الإصلاح والتغيير: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧].

وانطلاقاً من إدراك الدور الخطير الذي يمكن للأحمق حتى لو كان إصلاحياً أن يقوم به وينتجه في حركة المجتمع ومن يتصلون به مما يخلّف الكثير من الارتباك والتخبط في الأداء العام، ويضيع كل الجهود المبذولة لخدمة القضايا المشتركة وإنجاحها، فقد أبدى الإسلام عبر نصوصه التحذير تلو التحذير من الاغترار بمساره والتعاطف معه، مؤكداً على أهمية تحكيم العقل في كل شؤون الحياة ومساراتها، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: (إنما يدرك الخير كلّه بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له. وأثنى قوم بحضرته على رجل حتى ذكروا جميع خصال الخير، فقال رسول الله ﷺ: كيف عقل الرجل؟ فقالوا: يا رسول الله نخبرك عنه باجتهاده في العبادات وأصناف الخير تسألنا عن عقله، فقال: إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم. وقال: قسم الله العقل ثلاثة أجزاء، فمن كنّ فيه كمل عقله، ومن لم تكن

فيه فلا عقل له: حسن المعرفة لله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله) [المجلسي: بحار الأنوار، ج٧٧، ص ١٦].

(وقال الرضا عليه السلام: قال علي بن الحسين عليهما السلام: إذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وهديه، وتماوت في منطقه، وتخاضع في حركاته، فرويدا لا يغرنكم، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف نيته ومهانته وجبن قلبه فنصب الدين فخاً لها، فهو لا يزال يختل الناس بظاهره فإن تمكن من حرام اقتحمه. وإذا وجدتموه يعف عن المال الحرام فرويدا لا يغرنكم فإن شهوات الخلق مختلفة فما أكثر من ينبو عن المال الحرام وإن كثر، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها محرما. فإذا وجدتموه يعف عن ذلك فرويدا لا يغركم حتى تنظروا ما عقده عقله، فما أكثر من ترك ذلك أجمع، ثم لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله، فإذا وجدتم عقله متينا فرويدا لا يغركم حتى تنظروا أمع هواه يكون على عقله؟ أو يكون مع عقله على هواه؟ وكيف محبته للرئاسات الباطلة وزهده فيها فإن في الناس من خسر الدنيا والآخرة يترك الدنيا للدنيا، ويرى أن لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحللة، فيترك ذلك أجمع طلبا للرئاسة، حتى إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبأس المهاد. فهو يخبط خبط عشواء يقوده أول باطل إلى أبعد غايات الخسارة، ويمده ربه بعد طلبه لما لا يقدر عليه في طغيانه. فهو يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، لا يبالي بما فات من دينه إذا سلمت له رئاسته التي قد يتقي من أجلها، فأولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابا مهينا. ولكن الرجل كل الرجل نعم الرجل هو الذي جعل هواه تبعا لأمر الله، وقواه مبذولة في رضا الله، يرى الذل مع الحق أقرب إلى عز الأبد من العز في الباطل، ويعلم أن قليل ما يحتمله من ضرائها يؤديه إلى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد، وإن كثير ما يلحقه من سرائها إن اتبع هواه يؤديه إلى عذاب لا انقطاع له ولا يزول، فذلكم الرجل نعم الرجل، فبه فتمسكوا، وبسنته فاقتدوا، وإلى ربكم به فتوسلوا، فإنه لا ترد له دعوة، ولا تخيب له طلبة) [ن م، ج٢، ص٨٤-٨٥].

إعادة تركيب العلاقة بين الصورة والواقع

قال العلي العظيم في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد ١١].

العلاقة بين الصورة الذهنية في نفس الإنسان والواقع الخارجي الذي يعيشه علاقة دقيقة وغريبة في الوقت نفسه، فالكثير من الناس تتشبث بالواقع الخارجي الذي أنتجته وصنعته محاولة استخراج وصناعة صورة نمطية منه تفرضها على الآخرين ممن لا يمتلكون قناعة ولا رضا به، ففرعون على سبيل المثال كان يريد أن يفرض شرعيته السياسية التي كان يستشعر الحاجة إليها في دعم سلطانه وتقوية حكمه عبر إقناع الناس بأنه يملك شؤون واقعهم ومصير حياتهم وتحديد مصالحهم، فكان يبتغي صنع صورة جميلة لحكمه عبر ادعائه امتلاك شؤون الواقع، وهو ما تحدّث عنه القرآن الكريم بالقول: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥١-٥٥].

ولكن هذا المنطق الفرعوني لم يكن جديراً بتحقيق التغييرات المطلوبة في الواقع، بل ارتد عكسياً على فرعون وقومه، وهو الأمر الذي أراد الباري سبحانه تعالى أن يبرزه كقاعدة منطقية لا تقبل التغيير، تفيد أن التغيير ينبغي من أجل أن يكون تغييراً حقيقياً مثمراً أن يبدأ من النفس ومن الداخل، فقال سبحانه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ

ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٢-٥٤].

وفي هذا النص القرآني المتقدم تتضح طبيعة العلاقة الصحيحة التي يريد أن ينشئها الباري عزّ وجلّ بين الداخل والخارج، أو بتعبيرنا السابق بين الصورة والواقع، فالإنسان بإمكانه أن يعيد صياغة الواقع الخارجي عبر إعادة صياغته وتصحيحه لصوره الذهنية وأحكامه العقلية وقيمه الأخلاقية التي يحملها في نفسه عن الواقع، ومن هنا يبدأ التغيير الحقيقي الذي يتخذ من تغيير الذات محوراً يقوم عليه تغيير الواقع الخارجي لعالم الإنسان، وفي هذا المجال يمكننا أن نتعرف على التأثير الكبير الذي تتركه الصورة النفسية الداخلية على الواقع الخارجي عبر هذا الموقف الخالد للسيدة زينب بنت علي بن أبي طالب عليهما السلام، فحينما سألها الطاغية ابن زياد: (كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟) أجابته قائلة: (ما رأيت إلا جميلا، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يا ابن مرجانة) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٥٤، ص ١١٥-١١٦].

وفي هذا الموقف الزينبي الرائع يتجلى التسليم بأعلى مراتبه ودرجاته، وهي النظرة التي تغيّر على الدوام من طريقة تعاملنا مع مصائب الحياة وشدائدها بشكل إيجابي، وكما تقول «ماكساين شنال» صاحبة كتاب «الشدائد تصنع الأقوياء.. تحويل المحن إلى نعم» في ص٧٠: (يعني التسليم -على نحو أساسي- التخلي عن إيمانك بقدرتك الكلية الشاملة، وتسليم التحكم بنتيجة الوضع إلى القدرة اللامتناهية التي تحرك الكون كله. فأنت لا تتخلى عن التحكم بنفسك بل بالنتيجة فقط. إنك بالحقيقة تسترد السيطرة على نفسك بواسطة تعديل أفكارك وأفعالك وفق الظروف المستجدة، مما يساعدك في النهاية على الوصول إلى النتيجة المرغوبة).

التأطير الاجتماعي للمعرفة الدينية
تطبيقات عملية لاستنتاجات علم اجتماع المعرفة

هناك جملة من النصوص الدينية التي تصلح لإلقاء الضوء على ما يثار اليوم في علم اجتماع المعرفة تجاه الكثير من مساحات معرفتنا الدينية التي نتلقاها كمسلمات لا تقبل الجدل بينما هي تشكلت ضمن ظروف وملابسات وحيثيات اجتماعية خاصة وبعد ذلك تحولت إلى أنماط تقاس المعرفة الدينية من خلالها، وهذه ثلاث نصوص إسلامية مهمة في هذا المجال يمكنها أن تثير أمامنا إشكاليات التأطير الاجتماعي للمعرفة بشكل عام، والمعرفة الدينية بشكل خاص:

النص الأول: قول رسول الله ﷺ: (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، وكان منها طائفة طيبة فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجاذب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس وشربوا منها، وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءا ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله، وتفقه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ١ ص ١٨٤].

النص الثاني: قول علي عليه السلام: (وإنما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس: رجل منافق يظهر الإيمان، متصنع بالإسلام لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله ﷺ متعمدا، فلو علم الناس أنه منافق كذاب، لم يقبلوا منه ولم يصدقوه، ولكنهم قالوا هذا قد صحب رسول الله ﷺ ورآه وسمع منه، وأخذوا عنه، وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والكذب والبهتان فولوهم

الأعمال، وحملوهم على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله، فهذا أحد الأربعة. ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحمله على وجهه ووهم فيه، ولم يتعمد كذبا فهو في يده، يقول به ويعمل به ويرويه فيقول: أنا سمعته من رسول الله ﷺ فلو علم المسلمون أنه وهم لم يقبلوه ولو علم هو أنه وهم لرفضه. ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئا أمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ، ولو علم أنه منسوخ لرفضه، ولم علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه. وآخر رابع لم يكذب على رسول الله ﷺ، مبغض للكذب خوفا من الله و تعظيما لرسول الله ﷺ، لم ينسه، بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به كما سمع لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلم الناسخ من المنسوخ، فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ فإن أمر النبي ﷺ مثل القرآن ناسخ ومنسوخ [وخاص وعام] ومحكم ومتشابه قد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان: كلام عام وكلام خاص مثل القرآن وقال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ما عنى الله به ورسوله ﷺ وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأله عن الشيء فيفهم وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه حتى أن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأل رسول الله ﷺ حتى يسمعوا) [نهج البلاغة، الخطبة ٢١٠].

النص الثالث: قول عمر بن الخطاب: (أتاني رسول الله ﷺ وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون أتاني جبرئيل آنفا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون قلت: أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون فمم ذاك يا جبرئيل؟ فقال: إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير. قلت: فتنه كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون. قلت: ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون، وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون. قلت يا جبرئيل فبم يسلم من سلم منهم فقال: بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه) [تفسير الميزان، السيد الطباطبائي ج ٨، ص ٣٨٦].

الشرعية الدينية للأخطاء السياسية
اختلالات مسار العلاقة بين المثقف والسلطة في التاريخ الإسلامي

روى السيوطي في الدرّ المنثور: (وأخرج الحكيم الترمذي عن عمر ابن الخطاب قال أتاني رسول اللهﷺ وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون أتاني جبريل آنفا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون فمم ذاك يا جبريل؟ فقال: إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل فيم يسلم من سلم منهم قال بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه) [الدر المنثور، جلال الدين السيوطي ج ٣، ص ١٥٥].

هذا الحديث مهم، بل هو أكثر من مهم، لأنه يكشف وبشكل غير معهود الاختلالات التي اعترت مسار العلاقة بين الدين والسياسية، أو بتعبير آخر: بين المثقف والسلطة في التجربة التاريخية للإسلام، ولأن هذه العلاقة ارتسمت في واقعنا التاريخي بالشكل الذي يطابق تماماً منطوق هذا الحديث فلا داعي أبداً للاهتمام بإثبات الحديث من حيث سنده، بعد أن صدّق الواقع المعاش دلالته، ويكسب هذا الحديث أهميّته من عدّة نواح:

أولها: في ما يرتبط براوي الحديث نفسه، وأعني به الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، إذ لا ينبغي أن ينسى أن راوي الحديث هذا الذي هو بهذا اللحاظ يعتبر مثقفاً بالمصطلح الشائع اليوم، وقارئاً بالمصطلح الشائع في زمن صدور النص، هو

نفسه سيصبح سلطاناً وحاكماً، وبعبارة أخرى: سيصبح سياسياً، وهو بذلك يستعيد عملياً نفس الإشكالية التي أثارها عبر هذا الحديث نظرياً، والسؤال المهم الذي يواجهنا في ملاحظتنا لهذين الدورين اللذين مارسهما الخليفة الثاني هو: لأي دور انتصر عمر؟ لدور المثقف الراوي صاحب المرجعية الدينية أم لدور الخليفة الحاكم المعني بالمصلحة السياسية؟ ما أعتقده أن نظرة يسيرة على موقف الخليفة الثاني من مسألة تدوين الحديث النبوي تفيدنا جداً في التوصل لإجابة صحيحة عن هذا السؤال، أضف إلى ذلك أن قوله في الحديث: (أتاني رسول الله ﷺ وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي) فيه إشعار بتحمله مسؤولية ثقيلة لم ينهض بها كما ينبغي ويجب.

ثانيها: إن التضليل المعرفي والثقافي والديني سيكون باسم الدين نفسه عبر استخدام شعاراته، وهو ما أفاده الحديث بقوله: (بكتاب الله يضلون).

ثالثها: إن اختلال الوظائف وانحراف الأدوار سينال السلطتين الأكثر أهمية وتأثيراً وفاعلية في المجتمع المسلم، والمتمثلتين أولاً في السلطة السياسية وثانياً في السلطة المعرفية، وهو ما أفيد بقوله: (وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم)، فالقراء والأمراء هم من سيفسدون كل تلك التجربة البشرية الرائعة التي أسس لها رسول الله ﷺ.

رابعها: إن الانحراف عن هدي الرسالة والخروج عن سمت العدالة سيبرز أول ما يبرز عبر عملية استبداد سياسي تستعيد الموروث الجاهلي في التعصب والأنفة والكبرياء، وسيلحق ذلك انصياع خطير ومدمر من قبل القوى المثقفة لإرادة السلطة، وهو ما أفاده الحديث بقوله: (يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون، وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون)، وبذلك ستنحدر الأمة إلى منزلق من القليل أن يقال عنه بأنه خطير، بل هو في حقيقة الأمر مميت وقاتل، وهو ما لابد أن يكون قد حصل لأن القائل هو الصادق المصدق، ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر ٣٣]، وإن الرائد لا يكذب أهله.

مبادئ العلاقات الأخوية في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ٩-١١].

تتمحور العلاقات الثنائية دائماً وأبداً في الإسلام على محور العدل، من دون فرق بين عدو وصديق، وقريب وبعيد، وشريف ووضيع، وهو ما أراد النص القرآني المتقدم التأسيس إليه في دائرة العلاقة بين المؤمنين بقوله: ﴿.. فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، ولأن البعض ربما يلتزم العدل في علاقته بمحبيه دون مبغضيه فقد حذّر الله تعالى من هذا التفريق حينما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة ٨].

ومن الطبيعي أن تنال العلاقات الأخوية بين المؤمنين قسطاً كبيراً من اهتمام الشارع المقدس الذي أنشأ بنفسه مبدأ العلاقة الأخوية في الدين والإيمان بينهم حينما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ولا شك أن لهذه الأخوة الإيمانية حقوقها ومقتضياتها، وهي الحقوق والمقتضيات التي عنى رسول الله ﷺ ببيانها في هذا الحديث الذي يرويه عنه أمير المؤمنين عليه السلام، إذ يقول: (قال رسول الله ﷺ:

للمسلم على أخيه ثلاثون حقا لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو: يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافي صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عطسته ويرشد ضالته، ويرد سلامه ويطيب كلامه ويبر إنعامه، ويصدق إقسامه، ويوالي وليه ولا يعاد، وينصره ظالما ومظلوما، فأما نصرته ظالما فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوما فيعينه على اخذ حقه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه، ثم قال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئا فيطالبه به يوم القيامة فيقضي له وعليه) [وسائل الشيعة (الإسلامية)، الحر العاملي ج ٨، ص ٥٥٠]

ويكشف الإمام علي عليه السلام عن أن للأخوة الإيمانية مرتبتين: أعلى وأدنى، ويسمي أصحاب المرتبة الأولى بـ «إخوان الثقة»، كما يسمي أصحاب المرتبة الثانية بـ «إخوان المكاشرة»، فيقول كما في هذا الحديث المروي عنه عليه السلام، (عن يعقوب بن بشير، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام رجل بالبصرة فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الإخوان؟ قال: الإخوان صنفان إخوان الثقة وإخوان المكاشرة فأما إخوان الثقة فهم الكف والجناح والأهل والمال فإذا كنت من أخيك على حد الثقة فابذل له مالك وبدنك، وصاف من صافاه، و عاد من عاداه، واكتم سره وعيبه، وأظهر منه الحسن. واعلم أيها السائل إنهم أقل من الكبريت الأحمر. وأما إخوان المكاشرة فانك تصيب منهم لذتك فلا تقطعن ذلك منهم. ولا تطلبن ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان) [الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٤٩].

الأدوار المبتورة

قال الله تعالى: ﴿.. الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا..﴾ [المائدة ٣]. إكمال العمل وإنجازه على الوجه المطلوب أصل أصيل في ثقافة الإسلام العملية، ويقابل ذلك التهور أو التسرع أو الفوضى أو التقصير في إنجاز العمل، وهو الأمر الذي يحوّل العمل في النتيجة إلى صفر مهما كبر وعظم وطال العمل، ولا ترتبك أهمية هذا المبدأ بالممارسات العملية الحياتية فحسب، بل هو أصل سار في كل الشؤون والقضايا، حتى في ما يرتبط بنفس الدين ورسالته، فهذه الرسالة قيمتها في اكتمالها وتماميتها، كما أشارت إلى ذلك وصرّحت به الآية المباركة، وهو المعنى الذي أراد الرسول الأكرمﷺ أن يوجهنا إلى أهمية التعامل بمقتضاه في علاقتنا بهذا الدين القيم، محذراً إيانا من ترك الأعمال مبتورة أو منقوصة وغير مكتملة، فإن في ذلك تبديداً للجهد واستهتاراً بالعمل، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى) [الكافي، الكليني ج ٢ ص ٨٦].

ولأن ناتج العمل المبتور هو الضياع وهدر القوى فقد عنى الإمام علي عليه السلام بإبراز خطورة هذه الظاهرة السلبية في الممارسة الإنسانية سواء كانت سياسية أم اجتماعية أم معيشية أم غيرها، فقال لما قبض رسول اللهﷺ وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة: (أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن

النجاة. وعرجوا عن طريق المنافرة وضعوا عن تيجان المفاخرة. أفلح من نهض بجناح. أو استسلم فأراح هذا ماء آجن. ولقمة يغص بها آكلها. ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه) [نهج البلاغة، الخطبة ٥].

ويذكرنا قوله عليه السلام: (ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه) بقول الله تعالى في شأن دعاء الكافرين من اتخذوهم أنداداً من دونه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ [الرّعد ١٤].

ومن هنا يكون من السفاهة بمكان أن يطمع أهل الشرك والكفر في الجنة، وهم من مارسوا أعمالاً مشينة وآمنوا بعقائد رديئة لا تتناسب وطهر الجنة ونقائها وصفائها، وهو ما أراد الله تعالى أن يثير الحديث عنه مذكراً بأهمية استيعاب قوانين الوجود في كل ما نريد الحصول عليه من نتائج تتناسب مع أسبابها، ولا تخرج عنها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

والنتيجة أن العمل المبتور أو الناقص والفاقد لأي جزء من أجزاء اكتماله وتمامه لا يمكن أن تترتب عليه إلا النتيجة التي تتناسب معه وتتناسق مع طبيعته، وقاصمة الظهر أن يتوقع الإنسان من عمله الفاسد النتيجة المرضية، ومن سعيه القاصر النتيجة المكتملة، وهو ما عناه الإمام علي عليه السلام حينما قال: (قصم ظهري عالم متهتك، وجاهل متنسك، فالجاهل يغش الناس بتنسكه، والعالم ينفرهم بتهتكه) [ميزان الحكمة، محمدي الريشهري، ج ٣، ص ٢٠٩٥-٢٠٩٦]. وقد روى المؤرخون: (إن أول من بايعه طلحة بن عبيد الله وكانت إصبعه أصيبت يوم أحد فشلت فبصر بها أعرابي حين بايع فقال: (ابتداء هذا الأمر يد شلاء لا يتم) ثم بايعه الناس في المسجد. ويروى أن الرجل كان عبيد بن ذويب فقال: يد شلاء وبيعة لا تتم) [مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب ج ٢، ص ٣٧٥].

الحياة المؤسسة معرفيا

قال الإمام علي لكميل بن زياد: (يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة) [تحف العقول- ابن شعبة الحراني ص ١٧١].

هذا النص العلوي يختصر كل ما يمكن أن يقال في ضرورة بناء الحياة والممارسة وفق منطق العلم وقواعد المعرفة، فالحياة معنى لا يستقيم في جوهره ولا يتحقق في مضمونه إلا حينما يمارسه الإنسان انطلاقاً من رؤية معرفية، ولا شك أن الدين حينما يتنزل من الله تعالى فلأنه يريد أن يكون تلك الرؤية المعرفية التي يستند إليها الإنسان في بناء كل شؤون حياته، إذ لا أفضل منه في فعل ذلك كما يشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿. . وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة ٥٠]، ومن هنا كانت الاستجابة لدعوة الدين وكلمته إحياء وحياة للإنسان كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال ٢٤].

ونجد تفاصيل المهمة التي يقوم بها العلم والمعرفة في حياة الإنسان في هذا الحديث الذي يرويه أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ يقول: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال و الحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، ودليل على السراء والضراء، وسلاح على الأعداء، وزين للأخلاء، يرفع الله به أقواما يجعلهم في الخير أئمة يقتدى بهم، ترمق أعمالهم، وتقتبس آثارهم، وترغب

الملائكة في خلتهم، يمسحونهم في صلاتهم بأجنحتهم، ويستغفر لهم كل شيء حتى حيتان البحور وهوامها، وسباع البر وأنعامها، لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف، ينزل الله حامله منازل الأخيار، ويمنحه مجالس الأبرار في الدنيا والآخرة، بالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويؤخذ، وبالعلم توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، والعلم إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه الله السعداء ويحرمه الأشقياء) [الخصال، الشيخ الصدوق، ص ٥٢٢-٥٢٣].

ومن البيّن أنه كلما تطورت حياة الإنسان وارتقت كلما تعقدت وتشابكت، وهنا تبرز ضرورة العلم والمعرفة من أجل الإحاطة بالتفاصيل واستيعاب الجزئيات من أجل إدارة الحياة وفق منطق علمي دقيق ومعرفي شامل، إذ ما من فعل إلا وله ضابطة ينبغي له السير وفقها، وهذا هو مضمون مفهوم «الحدود» في المصطلح القرآني، وهو المفهوم الذي ركّز الذكر الحكيم على ضرورة مراعاته والتزامه فقال: ﴿. . وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ. .﴾ [الطلاق ١].

وابتعاد مسارات الحياة عن التأسيس وفق مقتضيات العلم والمعرفة معناه الوقوع في براثن التخبط والتيه والضلال والسقوط، لأن الممارسة الحياتية لابد أن تتأسس وفق علل أربع سليمة ومستقيمة يستقيم بها الفعل الإنساني وينضبط، وهي: ١- العلة المادية (ما هو؟). ٢- العلة الصورية (كيف هو؟). ٣- العلة الفاعلية (ممن هو؟). ٤- العلة الغائية (لما هو؟).

وأهمية تأسيس الحياة علميا ومعرفيا بينته العديد من النصوص الدينية من قبيل قول الإمام علي عليه السلام في مجال المقارنة بين حياة وممارسة العالم وحياة وممارسة الجاهل: (المتعبد على غير فقه كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح، وركعتان من عالم خير من سبعين ركعة من جاهل لأن العالم تأتيه الفتنة فيخرج منها بعلمه، وتأتي الجاهل فتنسفه نسفا، وقليل العمل مع كثير العلم خير من كثير العمل مع قليل العلم والشك والشبهة) [البحار، المجلسي ج ١، ص٢٠٨].

متطلبات إدارة العمل في المؤسسات الخيرية

قال الإمام علي لكميل بن زياد: (يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة) [تحف العقول- ابن شعبة الحراني ص ١٧١].

يتحرك العمل المؤسسي سواء كان عملاً نفعياً أم غير نفعي عبر مسارين:

المسار الأول: العمل المؤسسي المنظم: وهو العمل الذي أرادنا الله تعالى أن ننجزه في حياتنا عبر الانتظام ضمن إطار الأمة الواحدة عبر مفهومها القرآني الذي لا يحدد الأمة وفق العدد وإنما وفق الأداء، وهنا الأداء الذي تتحول من خلاله الأفراد والجماعات إلى أمة واحدة فاعلة ومصلحة يتجسد في القيام بوظائفها ضمن الحدود والضوابط العقلائية والشرعية المنظمة للعمل، وهو ما أمر به الباري عزّ وجلّ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٥].

المسار الثاني: العمل المؤسسي الفوضوي: وهو العمل الذي يفتقد ولو بعض أسباب النجاح والقبول سواء عن علم وقصد، أم عن جهل وغفلة، ويكفي وجود أي خلل بسيط في العمل في أي من علله الأربع (المادية والصورية والفاعلية والغائية) كي يسقط ويفسد، وهو ما عناه تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا

مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٤٨-٥٢].

أساس العمل المؤسسي بين الحسن والقبح الفعليين والفاعليين: يمكننا افتراض احتمالات أربعة في العمل المؤسسي: ١- القبح الفعلي والفاعلي. ٢- الحسن الفعلي والقبح الفاعلي. ٣- الحسن الفاعلي والقبح الفعلي. ٤- الحسن الفعلي والفاعلي. وإلى ضرورتهما في الفعل والفاعل أشار علي عليه السلام بقوله: (أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم) [البحار، المجلسي ج٢٤، ص ٢٥٦].

علاقة الإنسان بالمؤسسة والعمل المؤسسي: تبرز هذه العلاقة ضمن صورة تجسيدية يمثلها القرآن الكريم في موقفين متباينين من مؤسسة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

العمل المؤسسي الإسلامي بين الفوضى والنظام: عنى رسول الله صلى الله عليه وآله ببيان إشكالية الفوضى بقوله: (يوشك أن تداعى الأمم عليكم تداعي الأكلة على قصعتها، قال قائل منهم: من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من عدوكم المهابة منهم، وليقذفن في قلوبكم الوهن!! قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت) [ميزان الحكمة، الريشهري ج ١ ص ١١٠].

التنمية التكاملية في الاقتصاد الإسلامي

تقوم فكرة التنمية التكاملية في الاقتصاد الإسلامي على مبدأ تحقيق التوازن في الأخذ والعطاء بين الغني والفقير، وهو المبدأ الذي أشار إليه الإمام علي بقوله لجابر: (يا جابر قوام الدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام لله فيها بما يجب عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء) [نهج البلاغة، قصار الحكم، ٣٧٢].

وفي التنمية التكاملية يتم النظر إلى أيّ خلل في الأداء التنموي بوصفه خروج عن مسار الالتزام الجدي بمقتضيات التوازن بين عمليتي الأخذ والعطاء، أو مهمتي الادخار والتوزيع، أو القبض والبسط، وهو ما أراد الله تعالى أن يحثنا على الالتزام به كمبدأ في إدارة شأننا المعيشي والاقتصادي فقال: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء ٢٩]، وفي بيان هذه الآية المباركة يقول القرطبي: (ضرب بسط اليد مثلا لذهاب المال، فإن قبض الكف يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها. وهذا كله خطاب للنبيﷺ والمراد أمته، وكثيرا ما جاء في القرآن، فإن النبيﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك) [تفسير القرطبي، القرطبي ج١٠، ص ٢٥٠].

وهذا التوازن في الأداء التنموي حينما يفتقد فإن طرفي المعادلة التي تتحكم في توجيه وإدارة وضبط العلاقات البشرية تختل بشكل كامل، ولا يمكن أن يكون

الاختلال في طرف واحد من أطراف المعادلة، بل لابد من شمولها لكلا الطرفين، وهو ما بيّنه الإمام علي عليه السلام بقوله: (إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، وإن جاعوا وعروا وجهدوا فبمنع الأغنياء، وحق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه) [ميزان الحكمة، محمدي الريشهري ج ٣، ص ٢٣٠٨].

وتوضيحاً لهذا المبدأ يقول العلامة شمس الدين: (على أساس من هذا الوعي جعل الإمام الإصلاح الاقتصادي أساسا للإصلاح الاجتماعي. ولقد كان من الطبيعي جدا -حتى عند المفكرين والمصلحين- في عصر الإمام وقبله أن يوجد أناس جائعون فقراء، وأن يوجد أغنياء يحارون كيف ينفقون أموالهم، فلم يكن الفقر بذاته والغنى بذاته مشكلة اجتماعية تطلب حلا، لأنها في نظرهم أمر طبيعي لا محيد عنه. إنما المشكلة هي: كيف السبيل إلى إسكات الفقراء وحماية الأغنياء؟ فكان الإمام -بعد النبي الأعظم صلى الله عليه وآله- هو أول من كشف أن الفقر والغنى مشكلة اجتماعية خطيرة، ونظر إليها على أساس أفاعيلها الاجتماعية. إن فلسفة الفقر عنده تجتمع في هاتين الكلمتين: (إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني) و(ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع) ومن هنا أصبح من أبرز المشاكل التي حفل بها منهجه الإصلاحي يوم ولي الحكم، مشكلة الفقر والغنى) [دراسات في نهج البلاغة، محمد مهدي شمس الدين، ص ٣٩-٤٠].

ويبرز الإمام الرضا عليه السلام المعادلة الدقيقة التي افترضها الإسلام لحل مشكلة الفقر بقوله: (اعلم أن الله تبارك وتعالى فرض على الأغنياء الزكاة بقدر مقدور وحساب محسوب فجعل عدد الأغنياء مائة وخمسة وتسعين، والفقراء خمسة وقسم الزكاة على هذا الحساب، فجعل على كل مائتين خمسة: حقا للضعفاء، وتحصينا لأموالهم، لا عذر لصاحب المال في ترك إخراجه، وقد قرنها الله بالصلاة) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٣٩، ص ٣٥].

مقال في الالتزام العام

قال الإمام علي عليه السلام: (أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه عندي أزهد من عفطة عنز) [علل الشرائع، الشيخ الصدوق ج ١، ص ١٥١].

الالتزام إحساس أخلاقي في جوهره يرفض الفرد الملتزم من خلال الشعور به الرضوخ للرغبات الداخلية مهما ثقلت، وللضغوط الخارجية مهما كبرت، وبذلك يبدو نفساً كبيرة تتعالى على الصغائر، ولعلّنا لا نجد مستوى من الالتزام أعلى مما يذكره الإمام علي عليه السلام في قوله: (والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى. نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين) [نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤].

ومن اللطيف أن نتعرّف على القضية التي قال فيها الإمام علي عليه السلام هذه الكلمة، وقد ذكرها هو بنفسه بقوله: (وَالله لان أبيت على حسك السعدان مسهدا، وأجر في الأغلال مصفدا، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد، وغاصبا لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها والله لقد رأيت عقيلا، وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعا، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنما سودت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكدا وكرر علي القول مرددا فأصغيت إليه سمعي

فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقا طريقي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه. أتئن من الأذى ولا أئن من لظى. وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها، ومعجونة شنئتها كأنما عجنت بريق حية أو قيئها، فقلت أصلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرم علينا أهل البيت. فقال لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية. فقلت هبلتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني، أمختبط أنت أم ذو جنة أم تهجر. والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى. نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين) [ن م].

ويمكننا تقسيم الالتزام من حيث متعلقاته، فتارة يكون متعلق الالتزام قيمة أخلاقية مجرّدة مثل الإحساس بالرقابة الإلهية ومراعاتها كما في قوله تعالى في شأن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف ٢٣].

وتارة يكون متعلقه قيمة معرفية مثل رفض بيع العلم بثمن بخس، كما في قوله تعالى في شأن المؤمنين الملتزمين من أهل الكتاب: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران ١٩٩].

وتارة يكون متعلقه قيمة مادية كحفظ الأعراض والأموال والوقت والموعد، وقد مدح الله تعالى كل ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٣٢-٣٥].

العقلانية السياسية بين خطاب التحريض وخطاب الترويض

كيف نؤسس لممارسة العقلانية السياسية في حركة رجل الشارع؟ أو كيف نبني مجتمعا من المواطنين الملتزمين؟ وكيف يمكن للأفراد أن يلتزموا عملياً بالموازنة بين حقوقهم وواجباتهم في إدارة شؤونهم العامة والخاصة؟

قد تبدو الإجابة على هذه الأسئلة المفتاح الذي من خلال استخدامه يمكننا الولوج عبر بوابة العقلانية السياسية إلى المجتمع الحرّ العادل، وهو المجتمع الذي جعلت إقامته وتأسيسه الغاية النهائية في الحياة الدنيا من وراء كل الرسالات والنبوات فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

ولكن تحقيق «العقلانية السياسية» يبدو أمراً بعيد المنال في تجاربنا السياسية العربية والإسلامية، ولاسيما في ظل بقاء نوعين من الخطاب السياسي يتجاذبان عقل وإرادة وحركة المواطن من دون أن يتمكن -هذا المواطن المسكين- من الخروج عن هذا التجاذب باستحداث تبعية واعية لخطاب جديد متوازن ومنضبط وعقلاني يعمل على إحداث التوازن المطلوب في الممارسة السياسية العامة بين ضرورات التحريض ورغبات الترويض، وهي الضرورات والرغبات التي يستخدمها طرفا المعادلة السياسية (السلطة والمعارضة) في عالمنا العربي الإسلامي أسوأ استخدام، وبالخصوص من بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وفي ضوء هذا التجاذب فقد أضحت أنظمة الفعل السياسي المتضاربة في عالمنا العربي والإسلامي تشتغل بالشكل التالي:

١- **نظام الفعل السياسي القائم على خطاب الترويض:** وهو النظام الأكثر

فاعلية وحضوراً في الخطاب السياسي المنتج والمروج من قبل السلطة والدولة، وهو استعادة ممقوتة ومكروهة للخطاب الفرعوني المحكي في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥١-٥٥].

٢- **نظام الفعل السياسي القائم على خطاب التحريض:** وهو الخطاب الذي اعتادت المعارضة أن تلتزمه في غالب أوقاتها وأحوالها، مما حول دورها إلى معارضة تفكيكية يمكن لها أن تسهم في زعزعة الكيان السياسي الحاكم وإقلاقه، ولكنها لا تنجح بالضرورة في فهم متطلبات الترويض التي تستدعيها الضرورات الوطنية والمصالح العامة في أحيان كثيرة، مما يتوجب عليها أن تمارس مهمة تركيبية تتنازل فيها عن غرورها وكبريائها لصالح الآخرين ممن يشاركونها الوطن والمصير، وهو الموقف الذي أعطانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام درساً بليغاً في متطلباته حينما قال بعد سلبه حقه في الخلافة للمرة الثالثة وبعد أن عزم القوم على مبايعة عثمان: (لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلِمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة التماسا لأجر ذلك وفضله، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه) [نهج البلاغة، الخطبة ٧٤].

٣- **نظام الفعل السياسي القائم على خطاب العقل:** وهو الخطاب الأكثر فرادة وندرة وصعوبة واحتياجاً له في وضعنا الراهن، وصعوبة هذا الخطاب تكمن في متطلباته الخاصة التي تقتضي توازناً دقيقاً بين العقل والعاطفة، ولأنه خطاب ثنائي التوجه فهو يمثل جوهر الإدارة العقلانية القائمة على الموازنة بين الثنائيات وإدارتها، وهو خطاب الإيمان والعقل الصادر من وعي حكيم يتمثل في ما حكاه تعالى من قول مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر ٢٨].

الإيمان ... التجربة الذاتية في تجلياتها الإنسانية

قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء ٦٥].

لعلّنا لا نلمح آية في الذكر الحكيم تحدّد معالم وعناصر ومستويات الإيمان كهذه الآية التي بين أيدينا، فقد بيّنت وفصّلت فيها مراتب ودرجات الإيمان ضمن مستوياته الثلاثة، وهي المستويات التي إذا ما حصلت تحققت حقيقة الإيمان، مما يعني أن الإيمان أمر رابع ينتظم ويشمل ويجمع تلك العناصر الثلاثة ويحصل من ورائها، فلا إيمان بلا عمل، ولا إيمان بلا إرادة، ولا إيمان بلا قناعة، وهو ما سيتبين من تفصيصنا لأجزاء الآية المباركة في تعريف وتوضيح ما يتقوّم ويقوم به الإيمان:

أولاً: تعريف الإيمان: قال الراغب الأصفهاني في معجم مفردات ألفاظ القرآن في مادة «أمن» ما نصه: (والإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ذلك: ﴿الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾ ويوصف به كل من دخل في شريعته مقرّاً بالله وبنبوّته، قيل: وعلى هذا قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾، وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصّدّيقون﴾).

ثانياً: عناصر الإيمان: من البين أن الآية المباركة قد نفت تحقق الإيمان إلا بوجود الأمور الثلاثة المذكورة فيها مجتمعة، بمعنى أن الإخلال بأي واحد منها

كفيل بنفي استحقاق الإنسان صفة الإيمان، ولا شك أننا هنا أمام مفهوم قرآني راق للإيمان يستهدف الإحاطة بكل أبعاده وتجلياته، والمتمثلة في الأبعاد الثلاثة التالية:

البعد الأول: الإيمان العقلي: أي الإيمان بوصفه قناعة عقلية فكرية تقوم على أساس العلم، وليس إلا العلم، فالإيمان القائم على الجهل وعدم المعرفة لا يحكي عن الإيمان إلا من حيث كونه قناعة نفسية يتعصب الإنسان فيها لرأيه من دون أن يستند إيمانه بهذا الرأي إلى مبررات موضوعية، ومن هنا فالإيمان العقلي ممارسة معرفية تكاملية يتوصل الإنسان من خلالها إلى بناء قناعات فكرية محكمة، وهي حركة بين الأسباب والمسببات للربط بينها واكتشاف النظام الوجودي الذي تنطوي عليه فيما بينها من علاقة وترابط.

البعد الثاني: الإيمان النفسي: أي الإيمان بوصفه حالة نفسية شعورية أفرزها وأنتجها الإيمان العقلي المتقدم وتأسست عليه وقامت به واستندت إليه، وهو ما يعطي لهذا الإيمان النفسي قيمته المعرفية والشعورية في ما يريد أن يعطيه للذات الإنسانية من قدرة على تحويل الفكرة المجرّدة إلى ممارسة عملية تحكي عن الدور الوسيط الذي تقوم به النفس السوية في التوفر على هذه القدرة الضرورية لتفعيل دور الإيمان في حياة الإنسان، والربط من ثم بين العلم والعمل.

البعد الثالث: الإيمان العملي: أي الإيمان بوصفة ممارسة عملية فعلية، وهو المظهر والتجلي الأخير للإيمان ضمن مستوييه العقلي والنفسي، كما أنه الثمرة المرجوة من وراء الإيمان في مرتبتيه السابقتين، وهو المجال الذي يختبر من خلاله صدقية إيمان الإنسان، وهو ما يبعد الإيمان عن أن يقف عند حدّ التنظير العقلي، أو حدّ التأطير النفسي، فلا يتواصل مع ما هو المطلوب منه في النتيجة، وهو أن يتحول إلى فعل وممارسة، وهو ما أراد تعالى أن نعيه حينما خاطبنا بالقول: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ١-٢].

بناء مهارات التحكم الذاتي

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٦].

مهارات التحكم الذاتي هي المهارات التي يتحكم الإنسان من خلالها ويسيطر على انفعالاته ويوجهها بطريقة سليمة، ولاسيما في مواجهة المواقف الصعبة والمعقدة والمفاجئة والمربكة، مثل حالات الغضب والاعتداء، أو السب والإهانة، أو المصيبة والنعمة، أو الفرح والحزن، أو الحرب والكارثة، أو الهزيمة والانتصار، أو الخيانة، أو لحظة اكتشاف الحقيقة، . . . الخ.

من الخطأ الاعتقاد بأن بناء مهارات التحكم الذاتي تعتمد فقط على وجود انفعالات منضبطة وتصرفات معتدلة، بل هي تحتاج أول ما تحتاج إلى أفكار ورؤى

متزنة. فتحقيق مقتضيات ومتطلبات التحكم الذاتي لا يمكن أن توجد إلا حينما يكون هناك هدوء في الأفكار فيتلوه هدوء في المشاعر ليختم ذلك كله بهدوء في الممارسات، وهو ما استجمعه تعالى في الوصف المتقدم لعباده الصالحين، الذين سمّاهم بـ «عباد الرحمن». ويمكننا تحديد أصول مهارات التحكم الذاتي لدى هؤلاء العباد في المجالات التالية:

١- **مهارات التحكم الذاتي في بناء وتوجيه الأفكار المستقيمة:** ومن خلال هذه المهارات تتمكن الذات من بناء تصورات ومفاهيم وأفكار نظرية تطابق الحق والحقيقة، وتبتعد عن المغالطة والتحيّز والإبهام والتناقض، وكل ما ينتقص من علمية وموضوعية الفكرة التي يؤمن بها الفرد، وهو ما أفاد تعالى وجوده في حياة عباد الرحمن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، ولا شك أن في ذلك إشارة إلى التوحيد الذي هو الأصل الأصيل لكل عقيدة سليمة يعتنقها ويؤمن بها الإنسان، فهي المبدأ الأول والتجلى الأسلم لاستقامة التفكير.

٢- **مهارات التحكم الذاتي في بناء وتوجيه الانفعالات المتزنة:** وعبر هذه المهارات يتمكن الفرد من التحكم في انفعالاته فيوجهها عبر منظور عقلائي وشرعي من دون أن يشط بها إلى حدّ الإفراط أو حدّ التفريط، وهو ما أفاد تعالى وجوده في حياة عباد الرحمن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

٣- **مهارات التحكم الذاتي في بناء وتوجيه الممارسات المنضبطة:** وهذه المهارات هي التشكل الأخير للذات الذي يبرز مهاراتها العقلية والنفسية، وقدرتها على الضبط والانضباط في كل شؤونها، وهو ما أفاد تعالى وجوده في حياة عباد الرحمن بقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

أخلاقيات البطل القدوة
مفارقات الصورة بين الثقافتين الأمريكية والإسلامية

على الدوام تعتبر صورة البطل أداة رمزية تثير الرغبة في الإقتداء به والتماهي معه، ومن ثم إعادة تمثيل وإخراج أدواره التي قام بها في حياته، أو إنتاج ما يقاربها وينتمي إليها، ووفق ذلك تكون هذه الرمزية التي يحتلها البطل ضرورة نفسية واجتماعية نحتاجها كبشر من أجل إلهامنا واستثارة نوازع الخير والفضيلة والإيثار فينا، وكدلالة على أهميتها نجد أن المجتمعات التي لا تتوفر على صور رمزية لبطولات تاريخية حقيقية تفتعل وتبتدع صوراً من وحي الخيال كي ما تشبع هذه الحاجة الغريزية التي تستشعرها، وهو أمر لم تفعله المجتمعات الأسطورية القديمة فحسب، بل هو بالضبط ما تمعن في فعله أرقى وأطور الحضارات البشرية الحديثة، والتي تتبجح بالعلمية كمبدأ في التعاطي مع مختلف الظواهر الاجتماعية، رافضة إدخال الأسطورة والخيال والميثولوجيا في محاولة تفهم وتفسير كل ظواهر الوجود والحياة، ولكنها حينما تصطدم بإشكالية فقدان الرمزيات البطولية المؤثرة والملهمة فإنها سرعان ما تسمح لنفسها بأن تغرق إلى أذنيها في وحل الخرافة واللامعقول.

وتأسيساً على ذلك فإن الرغبة في تمثل وتجسيد معاني البطولة والفتوة والشهامة تملي على الإنسان الأمريكي بشكل خاص اختلاق شخصيات وأدوار ومهام بطولية لا واقعية لها، من أجل أن يستجيب لمتطلبات الرغبة في الإقتداء بشخصيات ملهمة ولو كانت وهمية ولا مجال لوجودها في الواقع، ولذلك حينما لم يجد الإنسان الأمريكي ما يرضي حسه الأخلاقي بالمثال المتجسد للبطل على أرض الواقع أمعن في الخيال فاخترع الرسوم الكرتونية لسدّ هذا الشعور بالفراغ، وكما

يقول «دنيس دينبرغ» في مقال له عن «دور الأبطال والبطلات في القصة الأميركية»: (نحن نعلم الأطفال عن الدينصورات «بشكل مقزز» في المدارس الابتدائية لأنها تثير خيالهم. في حين تعمل صناعة الإعلان المنتشرة في كل مكان على استخدام الرسوم المتحركة للاستحواذ على عقول الأطفال وقلوبهم. لكننا نتجاهل الكثير من الشخصيات العظيمة حقاً - الأبطال - التي يمكن للأطفال أن يتعلموا منها الكثير) [دون إي. إيبرلي: بناء مجتمع من المواطنين، ص١٨١].

وما يدفع الفرد الأمريكي اليوم لاختلاق هذه الشخصيات وإناطة أدوار ومهام بطولية وهمية بها هو ندرة أو انعدام مثل هذه الشخصيات في واقعه المعيشي اليومي، وربما في هذا السياق تأتي صناعة البطولة لشخصيات قامت بمهام يراد النظر إليها على أنها بطولية ومشرّفة، ولكن الوجه الآخر لهذه الشخصيات وبطولاتها المزعومة مملوء بالكثير من التشوهات، وهو الأمر الذي تمثله حتى بعض المسلمين في هذا المجال حينما أرادوا أن يختلقوا صورا بطولية لشخصيات لا تمت إلى البطولة والفتوة والشهامة بصلة، كما هو الشأن بالنسبة إلى بعض الصحابة قديماً وبعض الرؤساء حديثاً.

ويكفينا للتدليل على هذه الحقيقة استذكار تلك الشخصيات البطولية أو الرمزية المحنطة التي يحكيها أبطال ورموز السينما والغناء والفن والحرب والتجارة في المجتمع المعاصر والمليئة بمظاهر السقوط الخلقي في الشق المستور عن أعين الناس من حياتها، وحينما نقارن هذه الصورة الأمريكية عن البطل القدوة مع تلك الصورة التي عمل الإسلام على تقديمها، نجد أن الفارق بين الصورتين يتسع إلى الحد الذي ينعدم أيّ مجال للمقارنة المعقولة بينهما، فأي مقارنة بين هذه الصورة المفتعلة للبطل وبين مفهوم القدوة الذي ربطه الإسلام بشخص الرسول الأكرم ﷺ فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب ٢١]. وبشخصيات الأنبياء العظام عليهم السلام فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . .﴾ [الأنعام ٩٠]؟؟؟

المجاميع غير المؤهلة للإصلاح

قال الله تعالى في ما حكاه من شأن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: ٥٤-٥٧].

هذا النص القرآني يثير تساؤلاً كبيراً للغاية، وهو كيف يوجه موسى عليه السلام أمره لبني إسرائيل بقتل أنفسهم، والحال أن كل دعوة نبوية هي في الصميم دعوة للحياة وللاستفادة من كل إمكانياتها؟

يمكننا أن نفهم هذا الأمر من خلال استعراض تاريخ بني إسرائيل، وهو التاريخ المليء بأكثر قدر من محاولات الإصلاح والتغيير، والتي ظلّت تقدم الشاهد تلو الشاهد، والحجة تلو الحجة على أن هؤلاء الناس يصعب تغييرهم، أو يكاد يستحيل ذلك، وهو ما عناه تعالى بقوله فيهم: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٢-٧٤].

وهذا النمط من الأمم أو الناس التي تتكسر على صخرة عنادها وإصرارها وجمودها كل مجاديف الإصلاح والتغيير والتطوير هي ما يطلق عليها اليوم في علم

الأناسة «الانثربولوجيا» مصطلح: «المجاميع غير المؤهلة للإصلاح» كما يشير إلى ذلك بريجنسكي في كتابه: «الفوضى» ص١٣.

وقد تظهر هذه المجاميع أو الجهات غير المؤهلة للإصلاح حالة من النفاق في رفع شعارات الإصلاح لتبعد عن نفسها شبهة إعاقة محاولات الإصلاح والتغيير، وهو ما عناه تعالى بقوله عن بعض الناس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١-١٢].

ومن الملفت للنظر أن العجز عن تحقيق معدلات إصلاح وتغيير في أيّ مجتمع بشري مردّه إلى ضعف قدرات الفهم والتدبر والالتزام عند الأكثرية الساحقة من أفراد هذا المجتمع، وهي ظاهرة عنى القرآن بالإشارة إليها في أكثر من مورد فقال عن الجماعة المتخلفة التي وجدها ذو القرنين خلال تجواله في الأرض: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف ٩٣]، ونفس هذا الوصف أطلقه الباري تعالى في أكثر من مورد على المنافقين ممن يعجزون عن إصلاح ذواتهم وتغيير أنفسهم فقال: ﴿. . وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء ٧٨]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون ٣].

وفي هذا السياق الذي تتعقد فيه مهام الإصلاح، بل تغدو مستحيلة وغير ممكنة، لا يبدو أن هناك خياراً أمام من يريد إنجاز عملية الإصلاح وتحقيق شرائطها إلا أن يلغي وجود هذه المجاميع غير المؤهلة للإصلاح أو أن يستبدلها بخير منها، وهو ما بينه تعالى في ما خاطب به المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

تجاذبات الدعوة والدولة في تاريخ الإسلام
تأسيس منهجي لإدارة إشكالية العلاقة بين الدين والدولة

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

التأسيس النظري: هذه الآية باعتقادي أهم آية على الإطلاق في الذكر الحكيم تؤسس للفصل بين دور الدعوة ووظيفة الدولة أولاً، وتفصح عن مستوى العلاقة بين الدعوة والدولة ثانياً، وتحدد السابق واللاحق منهما في رسم الإطار المعيشي للرسالة الشاملة لهما ثالثاً.

التأصيل التاريخي: في الوقت الذي كان التأسيس النظري يرسم مساراً في غاية الروعة يحكم طبيعة العلاقة المنسجمة والمستقيمة بين الدعوة والدولة، فإنه في المقابل كان التأصيل التاريخي لهذه القضية يتحرك ضمن مسار مخالف تماماً لمسار التأسيس النظري، ولم يكن التأصيل التاريخي للعلاقة بين الدعوة والدولة، أو بالتعبير السائد بين الدين والسياسة، يسعى للفصل بينهما واستقلال كل منهما عن الآخر في مجالاته ومساحاته المختصة به، كما حدث في التجربة العلمانية الأوروبية، بل كان يتحرك باتجاه ابتلاع الدولة لمشروع الدعوة، وهو ما أدى إلى انشقاق خطير في الرسالة الواحدة التي جاءت لتجمع بين الاثنين، وهذا الانشقاق انفرز كتشكلين متضادين منذ اللحظة الأولى التي رغبت فيها الدولة بابتلاع دور الدعوة وتقليم أظافرها وتقليص حدودها، فالتشكل الأول مثله الإسلام السني الذي ابتلعت فيه الدولة استحقاقات مشروع الدعوة، والتاني مثله الإسلام الشيعي الذي ابتلعت فيه الدعوة ضرورات وجود الدولة.

التصادم بين التأسيس النظري والتأصيل التاريخي: في هذا الشأن تكفينا مؤنة

إطالة الكلام هذه الرواية التي تفصح عن كل ما يمكن قوله، بل وحتى أكثر مما نريد قوله، وهي: روى السيوطي في الدرّ المنثور: (وأخرج الحكيم الترمذي عن عمر ابن الخطاب قال أتاني رسول الله ﷺ وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلحيتي فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون أتاني جبريل آنفا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون فمم ذاك يا جبريل؟ فقال: إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون وتتبع القراء أهواء الأمراء فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، قلت: يا جبريل فيم يسلم من سلم منهم قال بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه) [الدر المنثور، السيوطي ج ٣، ص ١٥٥].

التقاطع بين دور الدعوة ووظيفة الدولة: الدولة مؤسسة طبيعية ترعى مصالح جميع مواطنيها ورعاياها بلا استثناء وبلا تمييز بين مواطن وآخر، بينما الدعوة هي مؤسسة توافقية جعلية ترعى مصالح أتباعها والمؤمنين بها والمنضوين تحت لوائها بالدرجة الأولى، وقد تهتم بالخارجين عن محيطها ولكن بدرجة ثانية، وهذا أمر طبيعي في كل دعوة دينية أو غير دينية، ولكن التمييز بين المواطنين ورعايا الدولة أمر مرفوض وغير مقبول لا في الدولة الدينية ولا في غيرها، فليس هناك مواطن درجة أولى ومواطن درجة ثانية، وحينما يوجد ذلك في أيّة دولة فمعنى ذلك هو أدلجة دور الدولة وانحرافها عن مسارها الطبيعي، حتى لو رفعت العلمانية شعاراً والتحفته دثاراً. وحينما يكون سلاح الفكر قوة الإقناع يكون الإسلام دعوة، وحينما يكون الإقناع بالقوة هو سلاح الفكر يتحول الإسلام إلى دولة، والإسلام في الأساس دعوة تدعو من جملة ما تدعو إلى تشكيل الدولة بوصفها ضرورة حياتية إنسانية كبقية الضرورات التي عنى الإسلام بها، ولكن الخطأ الذي حصل في تاريخ المسلمين هو أن تحول الإسلام إلى دولة ابتلعت فيما ابتلعت الدعوة فأضحى المتن مغيباً في الحاشية، والحاشية تطغى على المتن، وهذا هو جوهر الاختلال الوظيفي في العلاقة بين الدعوة والدولة في تاريخ الإسلام.

ثلاثية أنظمة الصيانة والتوجيه والتحكم في إدارة الذات الإنسانية

قال الإمام علي عليه السلام: (العلم ثلاثة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٢٠٨].

لأن الذات الإنسانية بغض النظر عن جنسها ولونها وعوارضها الأخرى تتوفر بحسب طبيعتها الأولية على أبعاد ثلاثة وجودية هي البعد العقلي المجرّد، والبعد الشعوري المثالي المتوسط، والبعد الحسي المادي، كان من الضروري أيضاً أن يتوفر لكل بعد نظام صيانة وتوجيه وتحكم يديره ويدبر شؤونه بما يتناسب ومتطلباته ورقيه وكماله، فكان الفقه هو نظام الصيانة والتوجيه والتحكم لبعده العقلي، والنحو هو نظام الصيانة والتوجيه والتحكم لبعده المثالي المتوسط، لأن النحو هو مبرمج اللغة التي هي نظام تواصل واتصال يقتضي بطبعه وجود طرفين، وكان الطب هو نظام الصيانة والتوجيه والتحكم لبعده المادي المحسوس، وبذلك تنتظم كل العلوم الإنسانية في ثلاثية الفقه والنحو والطب، وهو الأمر الذي أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: (العلوم ثلاثة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان).

ملاحظة في غاية الأهمية: لأن هذه العلوم الثلاثة تتفق من حيث مجال عملها ودائرة حركتها الكلية، فهي تعمل وتتحرك على الإنسان الموجود الذي له وحدة واحدة تحكم وجوده الواقعي وتشخصه الخارجي، ولأنها من جهة أخرى تختلف من حيث متعلقها الخاص وأسلوبها المميز لكل بعد من أبعاد هذا الوجود الإنساني الواحد والمتكثر في الوقت نفسه، فقد احتاجت من أجل أن ينتظم عملها ويستقيم

أداؤها إلى نظامي فصل ووصل متكاملين ومتداخلين، وهو الأمر الأكثر صعوبة وتعقيدا في إدارة العلاقة بين هذه الأنظمة الثلاثة.

في الوقت الذي تحدد كلمة الأميرعليه السلام هذه الأنظمة المعرفية الثلاثة بدقة، فإنها من جهة أخرى تثير ثلاث إشكاليات معرفية تواجه هذه الأنظمة الثلاثة كلها، وتتمثل تلك الإشكاليات الثلاث في: ١- إشكالية العلمية. ٢- إشكالية الموضوعية. ٣- إشكالية الدقة. لأن كل معرفة تفتقد قيمتها التصديقية حينما لا تكون علمية، أو حينما لا تكون موضوعية، أو حينما لا تكون دقيقة. وتلك هي جوهر الإشكاليات المعقدة التي تواجه أنظمتنا الثلاثة المعرفية، التي تستهدف إدارة أبعادنا الوجودية الثلاثة، فهل إلى حل تلك الإشكاليات من سبيل؟ هذا هو السؤال الصعب، بل الأصعب الذي ينبغي علينا الاشتغال بكل جدية عليه، وهو ما لا يمكننا تقديم إجابة علمية وموضوعية ودقيقة عليه إلا عبر الاشتغال على بناء وصياغة وتنمية عقول ثلاثة في واقعنا الإنساني هي:

١- **العقل الفلسفي (نظام التفكير)**: وهو العقل الذي يؤسس لنظام التفكير المنطقي والعلمي عند الإنسان.

٢- **العقل الاجتماعي (نظام التواصل)**: وهو العقل الذي يؤسس لنظام العلاقات الاجتماعية وضوابط التواصل الاجتماعي.

٣- **العقل المعيشي (نظام التدبير)**: وهو العقل الذي يؤسس لنظام المعيشة ومتطلبات إدارة شؤون الحياة في بعدها المادي والاقتصادي.

وهي العقول التي يتمّ الربط بينها وبين استحقاق الإنسان نعمة التمكين في الأرض في قوله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج ٤١]، فبإقامة الصلاة تمت الإشارة إلى نظام العقل الفلسفي الديني، وبإتيان الزكاة تمت الإشارة إلى نظام العقل المعيشي، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمت الإشارة إلى نظام العقل الاجتماعي، وبذلك تمت كلمة ربك حقاً وصدقاً لا مبدل لكلماته.

الأساس الفلسفي للسلوك الإداري في السلطة

السلوك الإداري للسلطة الحاكمة على المستوى العملي المباشر إنما هو في الحقيقة انعكاس وتجلي للمفاهيم الفلسفية والقيم المعرفية التي يحملها ويستبطنها أصحاب السلطة في ذواتهم، فمن يحمل نظرة ازدراء واحتقار تجاه بقية الناس لا يمكن أن تكون ممارسته للسلطة وإدارته لشؤونها إلا انعكاساً تجسيديا لهذه القيم والمفاهيم، وهو الأمر الذي أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يفصح عنه حينما تحدث عن ثالث الخلفاء في الخطبة المعروفة بالشقشقية بالقول: (فصغى رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره مع هن وهن إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته، فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون) [نهج البلاغة، قسم الخطب، رقم ٣].

وهو المنهج الذي سار عليه الأمويون حينما نزوا على خلافة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بغير وجه حق، وبلا أيّة مشروعية دينية أو سياسية لتتحول الخلافة في أيامهم ومن خلالهم إلى ملك عضوض أذهب كل ما تبقى من رائحة النبوة ومعالم الخلافة التي يزعمون أنها كانت راشدة، والتي في الواقع لم تكن إلا التأسيس الأولي لهذا النهج الأموي في إدارة شؤون السلطة السياسية، وقد استمر الأمويون يستبدون بأمور المسلمين من دون مراعاة لأيّة قيمة من قيم الدين، وحينما واجهوا مأزقاً كبيراً في أول وأهم وأخطر ثورة إصلاحية ضدهم انطلقت بقيادة سليل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فإنهم واجهوها عبر تجسيدهم العملي لكل ما

انطوت عليه نفوسهم من رؤى متخلفة وقيم هابطة في وعيهم الفكري عبر ممارسة إدارية مستبدة تتمثل في أبسط مستوياتها ضمن مواجهتهم للمجتمع الكوفي الذي أراد في البدء أن يقف مع الحسين في ثورته، ولكنه انتكس وتراجع لما أن رأى سياسة غير معهودة في العقوبة والتنكيل، وهو ما يفصح عنه هذا النص الذي يتحدث عن تقلبات موقف الكوفيين من مسلم بن عقيل سفير الحسين عليه السلام إليهم بالقول: (وقام الناس مع ابن عقيل يكثرون حتى المساء وأمرهم شديد فأمر عبيد الله من عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس فيمنوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ويخوفا أهل المعصية الحرمان والعقوبة ويعلموهم وصول الجند من الشام إليهم وتكلم كثير بن شهاب حتى كادت الشمس أن تغرب فقال أيها الناس الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشر ولا تعرضوا أنفسكم للقتل فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت وقد أعطى الله الأمير عهدا لئن أقمتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريتكم العطاء ويفرق مقاتليكم في مغازي الشام وأن يأخذ البريء منكم بالسقيم والشاهد بالغائب حتى لا يبقى له بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جنت أيديها وتكلم الأشراف بنحو من ذلك فلما سمع الناس مقالتهم اخذوا يتفرقون وكانت المرأة تأتي ابنها وأخاها فتقول انصرف الناس يكفونك ويجئ الرجل إلى ابنه وأخيه ويقول غدا يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر انصرف فيذهب به فينصرف فما زالوا يتفرقون حتى أمسى ابن عقيل في خمسمائة فلما اختلط الظلام جعلوا يتفرقون فصلى المغرب وما معه إلا ثلاثون نفسا في المسجد فلما رأى أنه قد أمسى وليس معه إلا أولئك النفر خرج متوجها إلى أبواب كنده فلم يبلغ الأبواب إلا ومعه عشرة ثم خرج من الباب فإذا ليس معه إنسان فالتفت فإذا هو لا يحس أحدا يدله على الطريق ولا يدله على منزله ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو فمضى على وجهه متحيرا في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب) [اللواعج الأشجان، الأمين، ص ٥٤-٥٥].

الوجودية التوحيدية
التأسيس الأممي لمستقبل إنساني مشترك

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ٦٤].

هذه الدعوة التي حملها الرسول الأكرمﷺ قبل ١٤ قرناً من اليوم لأهل الكتاب ليست دعوة مرحلة وزمنية، انتفت ضرورتها بانتفاء أسبابها التي كانت قائمة يومذاك، وإنما هي تتجدّد بتجدّد حركة الأديان الفاعلة في حياة البشر كلها في ما تريد أن تنشأه من علاقة قائمة على أساس البحث عن المشتركات والتوافق على الأصول الأولية، والتي لا يعقل أن لا تكون حاضرة في الأديان الإلهية كلها، وهي الأصول والمبادئ التي يحصرها الخطاب القرآني المتقدم في أصلين ومبدأين أساسيين لا مناص من التوافق على التسليم بهما، وهما: أولا: التوحيد في العلاقة العمودية بين الله تعالى وجميع خلقه بلا استثناء. وثانياً: المساواة في العلاقة الأفقية بين البشر كافة وتجريم كل مظاهر العبودية في علاقة البشر بعضهم ببعض.

التأسيس لحياة مشتركة: وفق هذين المبدأين تقوم الحياة المشتركة التي يريدها الله عزّ وجلّ أن تتشكل بين مختلف الأديان، لتعيْد اكتشاف الرباط المشترك بين هذه الأديان، والتي تجعل من الأديان مراحل متكاملة ومتلاحقة في مسار التطور الإنساني الواحد، وهو ما عناه بالضبط خاتم الرسل والأنبياء حينما قال: (مثلي في الأنبياء مثل رجل بنى حائطا فأكمله إلا موضع لبنة منه، وكنت أنا تلك اللبنة، فلا رسول بعدي ولا سنة بعد سنتي) [عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسائي ج ٤ ص ١٢٢].

الوجودية التوحيدية: تمثل هذه عمق الرؤية التوحيدية المشتركة بين الأديان الإلهية كلها، ولاسيما الثلاثة الكبرى منها، وأعني بها اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي -أي الأديان- تبرز عبر هذه الرؤية بوصفها مراحل من الوعي التاريخي للإنسان لحقيقة الدين الواحدة، والتي تتجسد عبر مرحلتها النهائية الخاتمة والجامعة في الإسلام، بوصفه الدين الذي جاءت تبشر به كل الرسالات الإلهية على الإطلاق، وهو ما يعنيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران ١٩]، وهذا المشروع التوحيدي للأديان يتناغم مع النزعات الوجودية والمفاهيم المعرفية والمسارات التاريخية للأديان الثلاثة الكبرى في تاريخ البشرية، والتي نمت كإنسان واحد يمرّ بأطوار النمو والتكامل الطبيعية حتى يستوي إنساناً كاملاً جامعاً لكل مراتبه الوجودية في وحدة جامعة شاملة، وهكذا كانت الأديان ضمن سياق الوعي بها من قبل المتدينين، فاليهودية كانت هي الطور المادي للإنسان المتدين، ولذا نجد النزعة الحسية المادية حاضرة بكل قوة في السياق التاريخي والزمني للتدين اليهودي، والمسيحية كانت هي الطور المثالي للإنسان المتدين، ولذا نجد النزعة القلبية المثالية حاضرة بكل قوة أيضاً في السياق التاريخي والزمني للتدين المسيحي، والإسلام كان هو الطور العقلي للإنسان المتدين، ولذا نجد النزعة الفلسفية العقلية حاضرة بكل قوة في السياق التاريخي والزمني للتدين الإسلامي.

الثقافات الوريثة للأديان: اليوم تبرز ثلاث ثقافات اشتغلت تاريخياً شغلاً مميزاً على هذا المشروع التوحيدي، لتتشكل حركتها بوصفها روافد مختلفة تلتقي في نهاية المطاف في مصب واحد تمتزج فيه، وهي أولاً الثقافة الإيرانية التي اشتغلت بشكل مميز على العقل الفلسفي، والثقافة العربية التي اشتغلت بشكل مميز على العقل الاجتماعي عبر اشتغالها على اللغة التي هي أساس التواصل الإنساني، والثقافة الأوروبية التي اشتغلت بشكل مميز هي الأخرى، ولكن على العقل المعيشي التدبيري، وهكذا تكاملت هذه الثقافات الثلاث وتشكلت كروافد تصب في التبشير بمشروع إنساني متكامل عمل الجميع على إنجازه والوصول إليه.

إعادة إنتاج الإسلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران ١٩].

تعمل اليوم أطراف متعددة وتيارات متباينة على إعادة صياغة وإنتاج الإسلام بعد توافق الجميع على أن الإسلام سيظل مكوناً رئيسياً من مكونات الأمة، مهما كانت طبيعة علاقتها مع الإسلام، والمهم من هذه التيارات أو التوجهات هي:

١- **الإسلام الأمريكي**: وهي الصيغة التي تعمل أمريكا على بنائها وترويجها عن الإسلام منذ انتصار الثورة الإسلامية في العام ١٩٧٩م، واكتشاف أمريكا والغرب مدى القدرة التي مازال يمتلكها الدين الإسلامي في تحريك الشعوب المسلمة.

٢- **الإسلام الرسمي**: الإسلام الرسمي تشكلت معالمه الأولى في عهد الخلافة الراشدة، وأضحت أكثر تحديداً مع الأيام ومن خلال المسار العملي للسلاطين والحكام والملوك في الدول الثلاث الأموية والعباسية والعثمانية، وساهم في صياغته طيف كبير جداً من العلماء والمفكرين من أهل السنة، والذين مثلوا الجهة الداعمة التي تسبغ الشرعية على الأنظمة الحاكمة.

٣- **الإسلام السلفي**: رغم أن الإسلام السلفي، ولاسيما في مرحلته الأخيرة قد تشكل ونما في أحضان الإسلام الرسمي، إلا أنه كان يكبر بشكل مواز له، بل ومضاد له، شيئاً فشيئاً منذ أحمد بن حنبل، ومروراً بابن تيمية، وانتهاء بمحمد بن عبد الوهاب في العصر الحديث، وما تلى ذلك من نشوء الحركات السلفية الجهادية التكفيرية.

٤- **الإسلام الشعبوي**: ظلّ الإسلام الشعبوي الذي ينتمي إلى الفئة الساحقة من عوام المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً يظهر نفسه عبر الكثير من المظاهر، وربما حتى الاعتقادات، إلا أنه عجز عن أن يشكل ثقلاً مؤثراً في توجيه حياة المسلمين في مقابل الثقل الذي توفرت عليه الأنماط الأخرى من الإسلام.

٥- **الإسلام الشيعي**: هو النمط الأكثر إثارة للجدل والخلاف والحراك في الساحة الإسلامية منذ اللحظات الأولى لبروزه وتميزه، ورغم أنه ظل في الماضي الحاضر الغائب في عملية الموازنة والمقارنة بينه وبين الإسلام السني الرسمي والسلفي على الدوام، إلا أنه بدأ يبرز في الفترة الأخيرة بشكل استثنائي كاشفاً عن عوامل حراك وتجدد في داخله ما كانت منظورة ومتوقعة لدى الكثير من المحلّلين والباحثين.

٦- **الإسلام العلماني**: هو نمط من الإسلام غالباً ما كان يصاغ وينتج من قبل شخصيات أكاديمية تأثرت معرفياً بالمناهج الغربية المنتجة في الجامعات والمؤسسات البحثية، ولاسيما في ظل المعالجات الواسعة التي قام بها المستشرقون لقضايا وشؤون الإسلام: التاريخية والعقيدية والتشريعية.

٧- **الإسلام التنويري**: هو نمط آخر من أنماط دراسة الإسلام ومحاولة استيعابه، ورغم أنه يلتقي ضمن مسارات متعددة مع سابقه إلا أنه تميّز بمحاولة التأكيد على تمسكه بالأصول الإسلامية، بخلاف الإسلام العلماني الذي بدا منفلتاً بعض الشيء عن التمسك بهذه الأصول والإقرار بها، وهو يقوم بمحاولة للإصلاح تشبه محاولة الإصلاح البروتستاني للمسيحية في عصر النهضة الأوروبية.

٨- **الإسلام الروحي**: الإسلام الروحي برز أول ما برز عند متصوفة الإسلام الذين سأموا مظاهر التمزق والاختلاف والصراع على حطام الدنيا بين المسلمين، وحاولوا أن يبنوا لهم نظام حياة منعزل عن هذا الجو، وتطورت المحاولة إلى بناء نظام معرفي جديد، وفي العصر الحديث هناك العديد من التوجهات لاسيما في الغرب تتبنى هذا التوجه الروحي للإسلام.

بناء الحياة وفق منطق الطبيعة والعقل والدين

من الصعب بناء الحياة وفق منطقين أو نظامين، فضلاً عن ثلاثة أنظمة، وهي الصعوبة التي واجهها المسلمون في بناء حياتهم الدينية والدنيوية، وضمن جميع تجلياتها الطبيعية والعقلية والدينية، رغم أن الإسلام أصرّ على تلازم المسارات الثلاثة (الطبيعي/ العقلي/ الديني)، وأن كل واحد منهم معزز للآخر ومكمل ومؤيد له، والعيش وفق مقتضيات هذه الثلاثة والمواءمة بينها هو ما أراد الرسول الأكرمﷺ أن يؤسس له عبر التأسيس لدور العقل في إنجاز هذه المهمة فقال: (لكل شيء آلة وعدة وآلة المؤمن وعدته العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر فسطاط يلجأون إليه وفسطاط المسلمين العقل)، ولكن المسلمين أخفقوا على مستوى التجربة الإنسانية العامة في التأسيس لدور العقل وتفعيل مهامه، وبالتالي أخفقوا في التنعم بمزايا المسار أو الطور الديني، فخسروا العقل والدين معاً، وهو ما عناه المفكر المغربي عبد الله العروي بقوله: (المجتمعات الإسلامية، العربية والأعجمية، المستقلة بذاتها أو الخاضعة لحكم غيرها، بعيدة في سلوكها (العام والخاص) عن العقل، وبالتالي عن العقل والدين معاً) [العروي: مفهوم العقل].

١- **العيش وفق منطق الطبيعة**: ونلمح إشارة إليه في هذه الرواية (عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ الله لَكُمْ﴾ قال: نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأما أمير المؤمنين عليه السلام فحلف أن لا ينام بالليل أبدا، وأما بلال فانه حلف أن لا يفطر بالنهار أبدا، وأما عثمان بن مظعون فانه حلف أن لا ينكح أبدا" إلى أن قال: "فخرج رسول الله ﷺ ونادى:

الصلاة جامعة، وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟ ألا إني أنام الليل وانكح وافطر بالنهار، فمن رغب عن سنتي فليس منى، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [وسائل الشيعة (الإسلامية)، الحر العاملي، ج ٦١، ص ١٤٨]. و(عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاءت امرأة عثمان بن مظعون إلى النبي صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله إن عثمان يصوم النهار ويقوم الليل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله مغضبا يحمل نعليه حتى جاء إلى عثمان فوجده يصلي، فانصرف عثمان حين رأى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: يا عثمان لم يرسلني الله بالرهبانية، ولكن بعثني بالحنيفية السهلة السمحة، أصوم واصلي وألمس أهلي، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٢٢، ص ٢٦٤].

٢- العيش وفق منطق العقل: وهو ما يوضحه هذا الخبر (عن عبد الله بن سنان، قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلا مبتلى بالوضوء والصلاة، وقلت: هو رجل عاقل، فقال: أبو عبد الله عليه السلام: وأي عقل له وهو يطيع الشيطان؟ فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: سله، هذا الذي يأتيه من أي شيء هو؟ فانه يقول لك: من عمل الشيطان) [وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي ج ١، ص ٦٣].

٣- **العيش وفق منطق الدين**: وإليه دعا تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال ٢٤].

إدارة الجماعات في ظل تحولات الوضع القيادي

استفتاح: قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح ٢٩]. يتخذ الدور القيادي الفاعل والمؤثر والقادر على التوجيه والضبط والتحريك مناح ثلاثة في علاقته بالجماعة:

المنحى الأول: منحى الحضور والفاعلية والقدرة على إدارة وتوجيه الجماعة، وهي أفضل وضعية لبناء الجماعة الفاعلة، وفي هذا السياق تحدث تعالى عن منجزات المشروع الموسوي في هذه الوضعية بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف ١٣٧].

المنحى الثاني: منحى التغييب وتقليص الفاعلية المفترضة للقائد في إدارة وتوجيه الجماعة، وهو المنحى الذي اختطه بنو إسرائيل في علاقتهم بهارون عليه السلام، وحدثنا تعالى عنه بقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا

تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٢].

المنحى الثالث: منحى الغياب وفقدان الحضور المباشر للقيادة في إدارة الجماعة وانقطاع التواصل الحسي بينهم وبينها، وهو أشد حالات المعاناة بالنسبة إلى الجماعة، وهو ما حصل في ظلّ غياب موسى عليه السلام عن بني إسرائيل للقاء ربه، إذ يقول تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف ١٤٢].

إشكاليات الوضع الجماهيري في ظل غياب وتغييب القيادة الموجهة: (عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كل من دان الله عز وجل بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير والله شانئ لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلت عن راعيها وقطيعها، فهجمت ذاهبة وجائية يومها، فلما جنها الليل بصرت بقطيع غنم مع راعيها، فحنت إليها واغترت بها، فباتت معها في مربضها فلما أن ساق الراعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيرة تطلب راعيها وقطيعها، فبصرت بغنم مع راعيها فحنت إليها واغترت بها فصاح بها الراعي: الحقي براعيك، وقطيعك فأنت تائهة متحيرة عن راعيك وقطيعك، فهجمت ذعرة، متحيرة، تائهة، لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها أو يردها، فبينا هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها، فأكلها، وكذلك والله يا محمد من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عز وجل ظاهر عادل، أصبح ضالا تائها، وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، و اعلم يا محمد أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلوا وأضلوا فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد) [الكليني: الكافي، ج١، ص ١٨٣].

الثقافة المدينية في التجربة العربية الإسلامية

قال الله تعالى في ما حكى من وصايا لقمان الحكيم لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٦-١٩].

تصلح هذه الآيات المباركة من سورة لقمان أن تكون أساساً أولياً يكشف عن طبيعة الثقافة التي أراد الإسلام أن يعمم مفاهيمها ويرسخ ممارساتها في الذات المسلمة، ضمن حركتها الفردية والذاتية، وضمن ارتباطاتها الاجتماعية، وعلى مستوى علاقاتها الأفقية والعمودية في آن واحد، وهو ما عرف بـ «الثقافة المدينية» أو «Civic culture». وقد (أطلق هذا المصطلح غابرييل آلموند [Gabriel Almond] وسيدني فيربا [Sidney Verba] على نوع محدّد من الثقافة السياسية، وهو من أحسن المصطلحات في رأيهم، لأن الأشخاص هم مواطنون ورعايا في الوقت نفسه. ففي الدور الأول تراهم يؤمنون بالمشاركة، وهم على استعداد للانخراط في الحياة السياسية، وهم يشعرون بالكفاءة والثقة وبقدرتهم على إسماع كلمتهم وتحقيق التغيير، وفي الدور الثاني فإنهم يؤمنون بالتزاماتهم نحو المجتمع ويطيعون القوانين الصادرة عن الدولة، وقد درجوا على الثقة والإيمان باستقامة السلطة، وقد اكتشف الكاتبان في دراستهما لخمس أمم أن للثقافة المدينية أعمق الجذور في بريطانيا والولايات المتحدة، في حين أنها كانت أقل عمقاً إلى حدّ ما في ألمانيا، أمّا إيطاليا فلم يكن فيها إلا القليل من الثقافة المدينية التي لا يكاد يكون لها وجود في المكسيك) [فرانك بيلي: معجم بلاكويل، ص١٠٤].

والذي نعتقده أن الثقافة المدينية بوصفها طريقة عيش ومعايشة -وليست مجرّد رؤية مفاهيمية ومعرفية كما قد يتصور البعض ذلك بحسب ما ينصرف إليه المتبادر من كلمة الثقافة- تقوم بأركان أربعة هي:

١- **العقلانية العملية**: وغايتها بناء سلوكيات الإنسان باعتباره الموجود الذي تصدر الأفعال منه لغايات عقلائية يستهدف من خلالها تحقيق المتطلبات الهامة والضرورية للحياة.

٢- **الحرية الشخصية**: وهي مبدأ الفعل العقلاني عند الإنسان، فهو يختار الفعل المعلل الذي له غاية، لأنه موجود عاقل وذو إرادة حرّة، فالحرية الشخصية قيمة مؤسسة للفعل الإنساني الهادف والكريم.

٣- **المسؤولية الذاتية**: وهي نتاج صدور الفعل عن عقل وإرادة وحرية، وهي من جهة أخرى مبدأ ضروري من أجل تحقيق متطلبات الضبط الاجتماعي، الذي يمهد الطريق أمام استمرار ودوام النظم الاجتماعي.

٤- **النظم الاجتماعي**: وهو الحصيلة الأخيرة المترتبة على صدور الفعل الإنساني عن عقل، وحرية، ومسؤولية، وهو الغاية المرادة من وراء وجود وفعل الثقافة المدنية في حياتنا، كما ألمح تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

شاهد عملي لتأصيل الثقافة المدينية: في الخبر (عن علي بن إبراهيم رفعه قال: خرج أبو حنيفة من عند أبي عبد الله عليه السلام وأبو الحسن موسى عليه السلام قائم وهو غلام فقال له أبو حنيفة: يا غلام أين يضع الغريب ببلدكم؟ فقال: اجتنب أفنية المساجد وشطوط الأنهار ومساقط الثمار ومنازل النزال ولا تستقبل القبلة بغائط ولا بول، وارفع ثوبك وضع حيث شئت) [تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي ج ١، ص ٣٠].

صنّاع الإرباك

يمارس الكثير من الناس بقصد أو من دون قصد، وبوعي أو من دون وعي مهمة ودور الإرباك، وهي حالة نمارسها في كثير من الأحيان كطبيعة لا شعورية تتأصل في طريقة تعامل البعض منا مع كثير من قضايا وشؤون الحياة اليومية، ونقوم بها من خلال عدّة أدوار، ولاسيما في أوقات الأزمات والأوضاع غير الاعتيادية التي تمرّ بنا لسبب أو آخر، فنعجز عن استخدام العقل والحكمة والحفاظ على الاتزان في التعامل معها مما يسهم في صناعة وإيجاد حالة مربكة، لا ننتبه إلى تداعياتها عادة إلا بعد انتهاء الدور الذي قمنا به، والمثال الواضح على ذلك يظهر في تعاملنا الخاطئ مع الأخبار التي نتلقاها ونرتب عليها أثراً سريعاً سرعان ما ينكشف لنا أنه لم يكن مدروساً ولا موضوعياً، فنأسف لذلك ونحاول إعادة تقييم موقفنا هذا، ولكن بعد فوات الأوان، وهو المعنى الذي انطوى عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات ٦].

وكما قلنا أن هذه الحالة قد تصبح طبيعة ثابتة في حياة وممارسات بعض الأفراد، مما يستوجب الحذر منهم والدقة في التعامل معهم، وعدم إشراكهم بدور مهم في القضايا المصيرية للأمة والجماعة، وهو ما يلفتنا إليه قوله سبحانه وتعالى في شأن إشراك المنافقين في مهام الجهاد: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ

وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة: ٤٤-٤٨] [التوبة ٤٤-٤٨].

ولأنه في حالات الإرباك يفقد الإنسان قدرته على اتخاذ الموقف الصحيح والقرار المناسب، وتتعطل كل قدرات التفكير والموازنة عنده، مما يمنعه من إحداث تغيير في الاتجاه غير المطلوب بالنسبة إلى الآخرين ممن يحركونه ويدفعونه فإن البعض من الناس يعملون على تحقيق أجواء مربكة من أجل إعاقة فاعلية الأطراف المقابلة، كما هو الشأن بالنسبة إلى الكفار في موقفهم من استماع القرآن الكريم، إذ كانوا يقولون لأتباعهم -كما حكى الذكر الحكيم ذلك-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت ٢٦].

وحينما يشتد حضور الإرباك في شخصية الإنسان يتحول إلى طبيعة لاصقة بذاته تأبي الانفكاك عنه في كل شؤونه وأوضاعه، ولذلك لا تفلح أيّة مهمة توجيه، وتفشل كل عملية تقويم تستهدفان تصحيح مسار مثل هذا الإنسان، ويقع حينئذ بوضعيته هذه في السياق المقابل والمضاد تماماً للإنسان الذي يحسن إدارة شؤونه وترتيب أولوياته وتوجيه تحركاته، ولأجل ذلك ضرب الله تعالى المثل بهذين النمطين من الناس فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل ٧٦].

صنّاع الإرباك في الحياة العامة: ١- الفضوليون والطفيليون. ٢- الخائفون. ٣- المترددون. ٤- المزعجون. ٥- الحمقى والأغبياء. ٦- النفعيون. ٧- البسطاء والسذج. ٨- المثاليون والعاطفيون. ٨- المتذاكون وهم من يظهرون أنفسهم بمظهر الأذكياء فيقدمون اقتراحات وحلول في غير وقتها فيهمشون التوافق الحاصل في لحظات أكثر ما تكون الحاجة إليه.

في اليوم العالمي للأسرة
مقاربة لأدوار عناصر الأسرة الإبراهيمية

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]. في الوقت الذي يحتفي العالم بأسره كل عام بيوم عالمي للأسرة فإنه يسعى بكل جهد لتفتيت هذه الأسرة وتقطيع أوصالها، وهو بذلك يمارس أسوأ وأخطر مهمة في تاريخ البشرية، لأنها تعمد إلى أصل الكينونة الطبيعية والاجتماعية الأولى للإنسان فتدمّرها وتدنسها، عبر العمل على نشر قيم التمرّد على كل الضوابط العقلائية والأعراف الاجتماعية والحدود الدينية، وفي ظل هذا السعي أضحت كل القيم التي ارتبطت طوال وجودها في تاريخ الإنسان بالأسرة والعائلة مغيبة وملغية، بل ومستنكر وغير مشروع الدعوة إليها والتمسك بها من قبل بعض الناس، وهو الحال الذي أنبأ رسول الله ﷺ بوصول الناس إليه في مستقبل أيامها حينما قال لسلمان في حديث الرويبضة المشهور: (يا سلمان فعندها إمارة النساء، ومشاورة الإماء، وقعود الصبيان على المنابر، ويكون الكذب طرفا، والزكاة مغرما، والفيء مغنما، ويجفو الرجل والديه، و يبر صديقه) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٦ ص ٣٠٦].

أدوار مشرقة في حياة الأسرة الإبراهيمية: تتقوم الأسرة البشرية بعناصر ثلاثة أساسية ومحورية هي: الأب، والأم، والأولاد. ومهام التنمية الصحيحة ينبغي أن تتوجه في الأساس لبناء وتكوين وتطوير وتحسين أداء هذه العناصر الثلاثة التي تتشكل منها الأسرة، ولأن الأسرة الإبراهيمية بكل عناصرها الثلاثة صنعت وأنتجت

أدواراً مشرقة ومشرفة فقد طرحها القرآن الكريم كنماذج استهدف من خلال التمثيل بها تحديد نمط العلاقة المطلوب في جو الأسرة، والذي من خلال توفره تخلق الأسرة الصالحة، وهي الأسرة التي ربط إبراهيم عليه السلام بين تأسيسها وتأسيس الأمة الصالحة، فقال كما حكى الذكر الحكيم عنه في ما دعا به ربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤١].

إشارات تفصيلية حملها القرآن الكريم في حديثه عن أسرة إبراهيم عليه السلام:

١- عن الأب إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

٢- عن الأم هاجر عليها السلام: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧١-٧٣].

٣- عن الابن إسماعيل عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠٢].

انهيارات التجربة الإنسانية في العالم الإسلامي

قال النبيﷺ: (لكل شيئ آلة وعدة وآلة المؤمن و عدته العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر فسطاط يلجئون إليه و فسطاط المسلمين العقل) [البحار، المجلسي، ج١، ص٩٥].

التكامل بين العقل والدين: نقطة التلاقي والتواصل والتكامل بين العقل والدين كانت هي الإسلام والتجربة المعيشية والحياتية التي أنتجها الإسلام في عهد المصطفىﷺ، وهو ما عناه الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ ٤٦]، فموعظة الإسلام تتلخص في القيام والتفكر، والقيام يحتاج إلى تحفيز من الدين، والتفكر يحتاج إلى استثارة من العقل، ولذلك هما - أي العقل والدين- يتواصلان ويتعاضدان ويتكاملان في مهمة تحفيز واستثارة القدرات المنطوية في الذات الإنسانية سواء قدراته العقلية المكتسبة، أم قدراته الدينية الفطرية، وهو المعنى الذي عبّر عنه أفضل تعبير الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام بقوله في مقام بيان الغاية من بعث الرسل والأنبياء من قبله تعالى: (ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة) [البحار، المجلسي ج ١١ ص٦٠].

الرجوع إلى الوراء: لم تكتمل التجربة الإنسانية في العالم العربي والإسلامي وغدت تتجه إلى النقص والضمور والتلاشي ومن ثم الانهيار والسقوط المريع منذ

اللحظة التي توفي فيها رسول الله ﷺ مؤذناً بعودة عهد الانفصام بين الدين والدنيا، أو بين ما هو ديني إلهي وما هو عقلي إنساني، وهو الانفصام الذي أثبتت التجربة النبوية قدرتها على تجاوزه ضمن تأطير عملي ممكن يزاوج بين العقل والدين، ولكن هذا التأطير تحطم بعد وفاته ﷺ ليفرز في نهاية المطاف متديناً متزمتاً لا يؤمن بالعقل، أو علمانياً منفلتاً لا يؤمن بالدين، ولم تكن النتيجة أن نظر كل منهما بالعين المتبقية له، ولكن أن كلاً منهما فقأ عين الآخر السليمة، وهكذا ضيع العقل والدين معاً في هذه التجربة المنكوبة، وهو المعنى الذي أجمله رسول الله ﷺ بقوله: (قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له)، وفصله المفكر المغربي عبد الله العروي بقوله: (المجتمعات الإسلامية، العربية والأعجمية، المستقلة بذاتها أو الخاضعة لحكم غيرها، بعيدة في سلوكها (العام والخاص) عن العقل، وبالتالي عن العقل والدين معاً).

التطرف الديني ناتج طبيعي للتطرف العلماني: أكّد الإسلام على أهمية الالتزام بكلمة الدين، لأنها كلمة العقل، ونقض الدين والعهد والأيمان التي أعطاها الإنسان لمنزل الدين يقتضي بالضرورة نقض كلمة العقل والتخلي عن ضروراته التي أثبتها خالق العقل، وهو ما حذرنا تعالى من نقضه في حياتنا إن كنا نريد أن نكون من أهل العقل المتدينين، أو إن كنا نريد أن نبقى من أهل الدين المتعقلين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩٠-٩٢]، وإلا فإن التطرف في رفض الدين وفرض العقل، أو التطرف في فرض الدين ورفض العقل سيولد تطرفاً مقابلاً يعاكسه في الاتجاه ويوازيه في القوة، على مقتضى القاعدة: لكل فعل ردة فعل مساوية له في المقدار ومعاكسة له في الاتجاه.

أبطال كربلاء والمسير وفق خطة عمل

ما يجمع بين الشخصيات الكبرى في واقعة الطف، وبشكل خاص الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب وابنه الإمام علي بن الحسين وأخيه أبي الفضل العباس بن علي هو التحرك وفق خطة عمل مدروسة، لاسيما في ما يرتبط بأدائهم بإنجاز أكبر ثورة سياسية واجتماعية وإصلاحية ضد الحكم الاستبدادي الذي ترسخت جذوره بمجيء بني أمية إلى الحكم، وتجلت أسوأ مظاهره بوصول يزيد بن معاوية إلى سدّة الحكم، وهو الرجل الذي عرف بين القاصي والداني بتهتكه ومجونه، بل وبكفره الصريح حينما قال: (لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل)، وفي ظل هذه الظروف كان من الخطر جداً التحرك بشعارات كبيرة وأهداف جميلة من دون أن تكون هناك خطة عمل، فالأهداف مهما كانت كبيرة وشريفة حينما تفتقد خطة العمل تتحول إلى أحلام وأماني حمقاء لا سبيل لتحقيقها ولا لتجسيدها على الواقع، وهذا ما لم يفعله أبطال كربلاء، ولذلك ومنذ اللحظة الأولى أعلن الإمام الحسين عليه السلام عن خطة عمله بالقول: (وأني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي ابن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين) [البحار، ج٤٤، ص ٣٢٩].

ومن الواضح أن خطة العمل هذه يتبنى وضعها والتنظير لها ورسم حدودها القائد والإمام، لأن القائد الذي لا يتحرك وفق خطة عمل يضيع ويضيّع من يمشون ورائه، ولا تجديه ولا تنفع جماهيره شعاراته الكبيرة وأمنياته العريضة، وهو الأمر الذي علينا أن ندرك أهميته على الدوام في كل عمل نريد تحقيقه والوصول إلى

مبتغانا منه، وإلا فليس إلا الضياع وهدر الطاقات وبعثرة الجهود، وهو ما علينا أن نخشى منه أشدّ الخشية، إذ لا فرق من حيث النتيجة بين أن نسير وراء قيادات تتحرك بلا خطة عمل، أو أن نسير وراء قيادات عمياء ضالة، أو أن نسير بلا قيادة أصلاً، لأن ما هو المطلوب في القيادة أن تكون على بصيرة من أمرها في كل ما تتبنى موقفاً تجاهه أو تعطي رأياً بشأنه، وهو المعنى العميق الذي أراد هذا الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام أن يسلّط الضوء عليه، فـ(عن محمد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يقول: كل من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله تعالى فسعيه غير مقبول وهو ضال متحير، والله شانئ لأعماله ومثله كمثل شاة من الأنعام ضلت عن راعيها أو قطيعها، فتاهت ذاهبة وجائية، وحارت يومها، فلما جنها الليل بصرت بقطيع غنم مع راعيها، فحنت إليها، واغترت بها، فباتت معها في ربضتها، فلما أصبحت وساق الراعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيرة تطلب راعيها وقطيعها فبصرت بسرح غنم [آخر] مع راعيها، فحنت إليها، واغترت بها، فصاح بها راعى القطيع أيتها الشاة الضالة المتحيرة الحقي براعيك وقطيعك فإنك تائهة متحيرة قد ضللت عن راعيك وقطيعك، فهجمت ذعرة، متحيرة، تائهة لا راعى لها يرشدها إلى مرعاها، أو يردها إلى مربضها، فبينما هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها، وهكذا والله يا ابن مسلم من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عز وجل أصبح تائها متحيرا، ضالا، إن مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمد أن أئمة الحق وأتباعهم هم الذين على دين الله، وإن أئمة الجور لمعزولون عن دين الله وعن الحق، فقد ضلوا وأضلوا، فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء وذلك هو الضلال البعيد) [محمد بن إبراهيم النعماني: كتاب الغيبة، ص ١٢٨].

مجتمعات الثقوب السوداء

استثارة استفهامية: ما السبب وراء انعدام مساحة الإبداع وغياب إمكانيات التطوير وانسداد آفاق الإصلاح في المجتمع العربي المعاصر؟

ما هو الإبداع؟ الإبداع هو فعل يعتمد التجديد والابتكار والخلاقية، وهو أيضاً انطلاق ذهني أو شعوري أو عملي في مساحات جديدة، وقدرة على اكتشاف فضاءات غير مرتادة من قبل الآخرين، والإبداع يترادف مع التطور والتغيير إلى الأفضل والأحسن والأكمل، وهو من خلال ذلك يتحول إلى ضرورة حياتية حينما يفتقد المجتمع القدرة على القيام بها فلا مناص من وقوعه في براثن التخلف والجمود والانحطاط، وهكذا يمكن أن تتحول مساحات الإبداع والتجديد في فترات زمنية من حياة بعض الأمم إلى مناطق محظورة لا يجوز ولا يمكن ارتيادها في ظل المقتضيات المفقودة والموانع الموجودة، إذ كلّما زادت الموانع وقلّت المقتضيات كلّما تقلصت مساحة الإبداع والابتكار في واقع الأمة والأفراد، وفي ضوء ذلك يمكننا القول أن حال معيقات الإبداع حال الثقوب السوداء القادرة على ابتلاع أكبر المجرّات، رغم ضآلة حجمها بالنسبة إليها كما يقرر ستيفن هوجن.

أهم معيقات وموانع الإبداع والتطوير والتغيير في مجتمعنا العربي المعاصر:

١- الاستبدادان السياسي والديني: وهما آفتان مافتئتا تنخران في مجتمعنا العربي، وليس أحدهما أقل سوءاً من الآخر، بل هما آفتان متلازمتان، إذ ما دخل الاستبداد السياسي بلدا إلا وقال له الاستبداد الديني: خذني معك. وإذا ما أطبق الاستبداد بظله على أمة فلا إبداع إلا في فنون الظلم والقهر.

٢- غياب حرية البحث العلمي: إذ لا محفزات ذاتية ولا موضوعية تعمل

على تحقيق متطلبات البحث العلمي الحرّ والمبدع.

٣- الجمود المعرفي: الذي يلفّ تعاملنا مع الشأن المعرفي في الوقت الذي نعايش عصر الانفجار المعلوماتي.

٤- المحاكاة والتقليد: وهي آفة تعتادها المجتمعات المغرقة في الجهل والظلام والتي لا تجرؤ على اكتشاف إجابات جديدة لأسئلتها القديمة.

٥- التعصب المعرفي: وهو ما يتمّم المانع السابق فيتآزران في قتل كل إمكانيات الانفتاح على الجديد وإبداع غير المألوف.

٦- ضعف مهارات التفكير: وهي خاصية تترسخ في ذات الفرد والمجتمع حينما تطول فترات الخمول والكسل التي يحظى بها نشاطهما العقلي.

٧- فوضى الأفكار: التي لا يمكن التمييز في ظلها بين السليم والسقيم.

٨- ضعف المناهج التعليمية: وهي أمّ المصائب التي ما فتئنا نتربى في حضنها ونرتضع من ثديها منذ أمد، من دون أن نصل إلى مرحلة الفطام.

٩- غياب حوافز التشجيع: بل يتوفر في مقابلها كل متطلبات التثبيط والتحبيط ووأد القدرات وتضييع الإمكانيات.

١٠- خشية المبادرة: وهي حالة من الطبيعي أن تنمو في أجواء القمع.

١١- رواج ثقافة الاستهلاك: وهي المقابل الطبيعي لغياب مظاهر الإبداع، واستلاب كل قدرات التجديد في مجتمعات مغلوبة على أمرها.

١٢- غياب مراكز رعاية الإبداع وتنمية قدرات الموهوبين: لأن الإبداع هو دائماً العدو الأول للسلطة الغاشمة، ولذلك تدعوه "ابتداعا".

١٣- بلادة الفهم والإحساس: وهو ما يدعو للتساؤل: أين سرعة البديهة التي امتاز واشتهر بها العربي قديما؟

١٤- قيود الضبط الاجتماعي: والمتواجدة في الأسرة والمدرسة والمجتمع والدولة، حتى أنها حولت أهم ممارسة معرفية في حياتنا إلى صناعة للقهر.

الوسطية.. منهج الإسلام في مواجهة مبدئي الإفراط والتفريط

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [البقرة ١٤٣].

يمكن القول بكل بساطة: إن «الوسطية» منهج إسلامي فريد في تحقيق التوازن العملي، وهي وسطية تتمحور حول الاعتدال وتسير وفق مقتضياته، باعتباره المبدأ الأول الذي تتقوم به القيمة الإنسانية والأخلاقية والدينية للفعل في الإسلام، كما يشير إليه قول النبي المصطفى ﷺ: (بالعدل قامت السماوات والأرض) [عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسائي ج ٤ ص ١٠٣]. وفي نهج البلاغة: (وسئل عليه السلام أيما أفضل العدل أو الجود؟ فقال عليه السلام: العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يخرجها من جهتها. والعدل سائس عام، والجود عارض خاص. فالعدل أشرفهما وأفضلهما) [نهج البلاغة، خطب الامام علي عليه السلام].

ومن أجل أن تتحقق سمة الشهادة على الناس في أمة الإسلام أمر الله عزّ وجلّ هذه الأمة أن تقوم بالقسط والعدل في مختلف شؤونها، ومع الصديق والعدو على حد سواء، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء ٥٨]، ومن أجل أن نؤسس للوسطيه كمنهج ممارسة وعمل وطريقة عيش وتعامل نقول:

١- تأتي غالبية ممارساتنا ومواقفنا كردود أفعال تجاه ممارسات ومواقف الآخرين، والذين بدورهم يصيغون ممارساتهم ومواقفهم الجديدة كردود أفعال عكسية على ممارساتنا ومواقفنا، وهكذا تستمر الأمور.

٢- بمقتضى القاعدة القائلة: لكل فعل ردة فعل مساوية له في المقدار

ومعاكسة له في الاتجاه، فإن ردود الأفعال تتناسب شدة وضعفا بحسب الأفعال المؤسسة نفسها.

٣- من أجل الخروج من دوامة الفعل وردة الفعل وتجاوز هذه الحلقة المفرغة أمرنا الإسلام أن نلتزم الوسطية كمبدأ أولي من أجل أن لا نقع في الإفراط أو التفريط.

٤- مبدأ التعامل وفق ردود الأفعال مبدأ نلتزمه نحن غالبا في كل شؤون حياتنا.. في الحرب، وفي السياسة، وفي المجتمع، وفي الفكر، وفي المشاعر، وفي الاعتقادات..

٥- من أجل أن تكون ردود الأفعال جيدة ومقبولة ومعينة على التواصل فقد أمر الإسلام بأن نبادر بالفعل الإيجابي، لأن الفعل الإيجابي يحفز على رد فعل إيجابي أيضا، ولذلك حث الإسلام على أن نبدأ الآخرين بالسلام مثلا، وأن نقابلهم بالابتسامة لأنها من الطبيعي أن تستدعي ما يناسبها، ومع ذلك أكد على ردود الفعل الإيجابية حينما قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا...﴾ [النساء ٨٦].

٦- حذر الإسلام من الفعل السلبي لأنه سيستجر فعلاً سلبياً بطبيعة الحال، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ [الأنعام ١٠٨].

٧- واعتقاداً من الإسلام بإيجابية الوسطية والاعتدال كمنهج فإنه جعل التعامل الإيجابي مع الأفعال السلبية وعدم اتخاذ ردود أفعال سلبية في مواجهتها سمة من سمات عباد الله الصالحين ﴿... الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الفرقان ٦٣]، وفي هذا السياق يقع قول الصادق عليه السلام لعنوان البصري: (فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرا فقل: إن قلت عشرا لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقا فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذبا فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك، ومن وعدك بالخنى فعده بالنصيحة والرعاء) [العلامة المجلسي: بحار الأنوار، ج١ص ٢٢٤].

إشكاليات التأصيل في التجارب الإنسانية العامة

تواجه أيّة تجربة إنسانية اجتماعية إشكاليات تأصيلية نظرية (فهم الأصول في النظر والنظريات) وعملية (التزام الأصول في العمل والعمليات)، وإذا لم تحسن التجربة تحديد خياراتها الصائبة في التعامل مع هذه الإشكاليات فإنها تخسر وتفشل، وفي إشارة إلى أهمية التأصيل في مهمتي النجاح والفشل قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة ١٠٩].

قلّما تتوفر التجارب الأممية الاجتماعية على متطلبات التأصيل النظري والعملي بشكل جيد وناجح، لصعوبة عملية التعميم وتعقيدها، بخلافه حينما يراد إنجاز التجربة في وضع فردي ضيق ومحدود، لأن التأصيل في الجو العام هو أشبه بمحاولة السير بسفينة إلى برّ الأمان، في الوقت الذي يسهم أكثر من فرد في إحداث خروق متعددة فيها، ومن كل جهة، ومن المؤكد أن سفينة تعيش هذا الوضع لا يمكنها النجاة بركابها، حتى لو قادها أمهر ربان، وهو التصوير الذي قدمه الرسول الأكرمﷺ في حديثه عن مهمة القائم على حدود مقارنة بالمداهن فيها، إذ قال: (مثل القائم على حدود الله والمداهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقال الذين في أعلاها لا ندعهم يصعدون فيؤذونا، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) [كنز العمال، المتقي الهندي ج ٣، ص ٦٩-٧٠].

ولأنه عادة وغالباً ما تخفق التجارب الاجتماعية العامة في القيام بمهام

التأصيل النظري والعملي بنحو يشمل الغالبية العظمى من أفراد المجتمع، فقد قال تعالى في قوم يونس بنحو الاستثناء من القاعدة الأصل: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس ٩٨].

وتوجد أسباب متعددة وراء إخفاق مهام التأصيل في التجربة الاجتماعية يمكننا تحديدها بشكل كلي ودقيق في الوقت نفسه ضمن ما يلي:

أولاً: ضعف البناء المعرفي: قال تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ١٣١].

ثانياً: هبوط الدافع النفسي: قال تعالى في شأن طالوت وجنوده: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة ٢٤٩].

ضثالثاً: تخبط الأداء العملي: قال تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

المحنة التي تفسد على أيّة أمة تجربتها الإنسانية هو تحوّل هذه السمات الفردية السلبية إلى سمات اجتماعية غالبة، تنتهي بالمجتمع إلى أن يكون مصداقاً لقوله تعالى في ما ذكره على سبيل المقارنة بين المؤمنين من ذوي التجربة الناجحة والكافرين من ذوي التجربة الفاشلة: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧-٢٩].

توحد الإيقاع الزوجي

نبصر في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرّوم ٢١]، إشارة جميلة إلى مراتب التوحد في الإيقاع التواصلي بين الزوجين، فهناك أولاً: وحدة الإيقاع الحسي أو الجسدي، وهناك ثانياً: وحدة الإيقاع النفسي أو المعنوي، وهناك ثالثاً: وحدة الإيقاع العقلي أو المعرفي، والسعادة الزوجية إنما تكتمل بتحقق هذه المستويات الثلاثة من التوحد الإيقاعي في العلاقة بين طرفي الحياة الزوجية، ولنتحدث بشكل مفصل عن كل نوع من أنواع الإيقاعات الثلاثة المذكورة، وما هي متطلبات تحقيقها في واقع الحياة الزوجية:

أولا: وحدة الإيقاع الحسي أو الجسدي: وهو الذي بدأت الآية المباركة بالإشارة إليه حينما قالت: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، ومن الضروري أن تستكمل ثقافتنا في مجال العلاقات الزوجية شموليتها واتساعها لتستوعب متطلبات التوافق والتناغم بين الزوجين ضمن مستوياتها الثلاثة الجسدية والنفسية والعقلية، ومن الخطأ اعتبار الحديث عن متطلبات التوافق الحسي والتناغم الجسدي خدشاً للحياء، لأنه الأساس الذي يدعم ويسند التوافق والتناغم، وبالتالي وحدة الإيقاع بين شريكي الحياة في المستويين الثاني والثالث. نعم من الخطأ الاهتمام بالمتعة الحسية القائمة على توفير أعلى مستويات الإثارة الجنسية على حساب التناغم والتوافق في المستويين النفسي والعقلي، وهو ما أراد الباري تعالى أن يلفت نظرنا إليه بقوله: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة ٢٢١].

ثانياً: وحدة الإيقاع النفسي أو المعنوي: وإليه أشار تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، وهذا المستوى من التوافق والانسجام في العلاقة بين الزوجين غالباً، بل ربما دائماً ما يتأسس على التوافق والانسجام في تحقيق متطلبات الرغبة الحسية في المرحلة السابقة، ولاسيما في السنوات الأولى للزواج، لأن التوحد في الإيقاع النفسي يبنى بشكل أبطأ من سابقه، ولا يمكن التحقق من وجوده وقدرة الزوجين على بنائه بناء قوياً محكماً إلا بعد مرور سنوات من عمر تجربتهم الزوجية، وفي بعض الأحيان حتى بعد مرور سنوات من العلاقة الزوجية المستمرة والتي تثمر أولاداً فإننا نجد أن مشاكل تبرز بين الزوجين تعصف بالحياة المشتركة بينهما، وذلك لعدم قدرتهما على تأطير توافقهما النفسي بتوافق عقلي ومعرفي، وهو المستوى الأعلى من مستويات التوافق والتوحد.

ثالثاً: وحدة الإيقاع العقلي أو المعرفي: وهو المستوى الأعلى الذي جعله الله تعالى غاية نتوصل إليها من وراء التفكر والتأمل في ما جعله في حياتنا من آيات، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فالحياة الزوجية إذن هي مجال خصب لبناء أعلى مستويات التناغم في حياتنا البشرية، وهو التناغم الذي صارت مجتمعاتنا المعاصرة تفتقده كثيراً، ليس في العلاقات الزوجية فحسب، بل في كل علاقاتها الإنسانية، مما جعل الأسرة والعائلة تواجه مخاطر حقيقية وتهديدات غير مسبوقة تستهدف وجودها والتأثير المعهود لها في صياغة وتكوين الاجتماع البشري، لأنها ظلت منذ أن تكونت أول جماعة بشرية الرابط الأصل الذي تنشأ وفقه العلاقات الإنسانية، وحينما يغيّب أو يضيّع هذا الرباط اليوم فمعنى ذلك أننا بتنا على وشك أن نشهد تغيرات غير مسبوقة تمس الإنسان في شأنه الاجتماعي، الذي ما امتاز الإنسان عن الحيوان إلا من خلال مكوناته الخاصة التي يتوفر عليها في هذا المجال، وأهمها الروابط الأسرية المتجذرة.

ادفع بالتي هي أحسن

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦]، يستشف من هذا النص القرآني المبارك أن هناك ثلاثة أساليب في مواجهة أي موقف نتعرض له ويستدعي منا القيام برد فعل محدد:

الأسلوب الأول: أن نقابل الموقف بموقف أفضل أي أحسن.

الأسلوب الثاني: أن نقابل الموقف بموقف مماثل أي حسن.

الأسلوب الثالث: أن نقابل الموقف بموقف أسوأ أي سيء.

ولكي لا تتواصل سلسلة المواقف السلبية ويستعاد إنتاجها عبر ردود أفعال متتالية لا تتوقف أمرنا الله تعالى بدفع السيئة بالحسنة فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وفي هذا السياق جعل الإسلام السلام خيارا لا ينبغي رفضه حينما يبتغيه الآخر فقال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأعراف ٦١]، وفي هذا السياق نصح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مالكا لما أن ولاه مصر بالقول: (ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنا لبلادك) [نهج البلاغة، الكتاب ٥٣]، ولكنه نبهه في الوقت نفسه على ضرورة أخذ الحيطة والحذر قائلاً له: (ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن) [ن م].

ولكن هذه الدعوة للسلم لم يرد لها الإسلام أن تتحول إلى رغبة مطلقة في

السلامة وإيثار الدعة والراحة والفرار من مواجهة الأزمات والمشاكل فنبهنا إلى ضرورات الحزم والشدة في بعض المواقف التي تفرضها الظروف بعض الأحيان على الإنسان مما يستدعي منه عدم ترك الحزم والشدة بوصفها خيارات لابد منها وإن كانت مكروهة وغير محببة للنفس، فقال تعالى في شأن الحرب التي تشن لإحقاق الحق وإزهاق الباطل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ. .﴾ [البقرة ٢١٦]، وعاتب أولئك الذين يرفضون منطق الحرب والقتال تحت أي مبرر، ولو كان الدفاع عن النفس والحق بالقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء ٧٥].

ومن الواضح أن الدعوة إلى استخدام القوة والحزم والشدة في مثل هذه الموارد لأن ذلك يمثل الأسلوب الأمثل والأفضل لوضع حد للموقف السلبي الذي يشكل عدوانا على الحق وإخلالا بمبدأ التوازن واحترام وتقدير الآخر المعتدى عليه، فالمصلحة النوعية كامنة إذن في اتخاذ هذا الموقف الحازم ولو بدا سلبياً وعنيفا بحسب الظاهر، وهذا شبيه بحال القصاص الذي قال في شأنه سبحانه وتعالى بعد بيان بعض تفاصيله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩]، لأن في إقامة القصاص العادل ردع للمجرم عن إجرامه، وفي ردع المجرم حياة المجتمع وحفظه وسلامته وأمنه، وإحياء المجتمع لا يكون إلا بالاستجابة لله والرسول الذين لا يدعوان المجتمع إلا لما يحييه وينميه، ولأجل ذلك أمر الله تعالى المؤمنين بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ. . .﴾ [الأنفال ٢٤].

صقل المهارات الإنسانية

قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠].

تشكل عملية صقل المهارات الإنسانية المختلفة تعبيراً آخر عن مفهوم التزكية والتنمية الذي يشير إليه هذا النص القرآني المبارك، والذي يحدد بشكل دقيق رغم اختزاله واختصاره المسارين الأساسيين في التعامل مع مهارات الذات الإنسانية وقدراتها الكامنة، وهما:

١- مسار صقل وتنمية مهارات الذات الإنسانية.

٢- مسار دس وقتل مهارات الذات الإنسانية.

والأهمية الأخرى التي ينطوي عليها هذا النص القرآني المبارك أنه حدد بشكل رائع دخالة بعدي العلم والعمل في ما يختاره الإنسان لنفسه من أحد هذين المسارين، فبقوله تعالى أولاً: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ تمّ تحديد البعد العلمي المعرفي، وبقوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ تمّ تحديد البعد العملي السلوكي. وهما الأمران اللذان يشير الإداريون المحدثون أنهما يشكلان دعامتي التغيير والتطوير في الذات الإنسانية، ففي كتابه عن «القيادة المرتكزة على مبادئ» يقول ستيفن آر كوفي في ص ١٢٨: (أما فيما يتعلق ببناء عادات جديدة، فالتدريب الذي أوصي به من أجل تحقيق هذا الهدف، وهو بناء العادات الجديدة، يتحقق بالتدريب اليومي على أمرين: الأول: هو تكوين منظور خاص بك، والثاني: هو بناء القرارات والالتزامات على ضوء هذا المنظور).

ومن أجل أن نزيد الحديث وضوحاً وتفصيلاً، نأخذ تحديداً تنظيرياً كلياً

وشاملاً للمهارات الإنسانية الكلية مع ردفه بتطبيقات عملية من حياة أحد أنبياء الله تعالى العظام، وهو نبيه موسى عليه السلام في ما حكاه تعالى من أحواله وشؤونه، فنقول: إن المهارات الإنسانية الأساسية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: المهارات الفكرية (مهارات الاستنتاج والتحليل والتركيب): وهي المهارات التي أراد الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام أن يبنيها في ذاته وفي نفوس قومه فتحدث عنه قائلاً: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤-١٤٦].

ثانياً: المهارات النفسية (مهارات التحمل والصبر والانتظار): وهي المهارات التي أراد الله تعالى لموسى أن يؤسسها في ذاته عبر مسايرته للخضر عليه السلام، وهو ما حكاه تعالى بقوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٦٥-٧٠].

ثالثاً: المهارات العملية (مهارات الدقة والسرعة والإصابة): وهي ما أراد الله تعالى لموسى أن يصقلها بتعرفه على شعيب وابنتيه، وحكى ذلك بقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٦-٢٨].

العقل المسلم بين ضرورات التحريض ورغبات الترويض
جوهر الصراع بين السلطة والدين في التجربة العربية الإسلامية

قال النبي ﷺ: (لكل شيء آلة وعدة وآلة المؤمن و عدته العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر فسطاط يلجئون إليه و فسطاط المسلمين العقل) [البحار، المجلسي، ج١، ص٩٥].

تجربة بناء العقل في التاريخ الإسلامي: كانت المهمة الأساسية للدين التي يبتغي تحقيقها في وجود وحياة الإنسان المسلم تتمثل في تحريض عقله من أجل أن ينجز ثورة معرفية غير مسبوقة ولا معهودة، ولذلك دعاه بكل قوة وإلحاح للتفكير والتأمل والنظر، بينما قامت السلطة السياسية والسلطة الدينية معاً بمهمة ترويض العقل المسلم بألف حيلة ووسيلة، أهمها الترهيب باسم السياسة والتكفير باسم الدين، وما ظهر من قدرات وإبداعات منه رغم كل مهام الترويض التي مورست بحقه لم تكن إلا ببركة لحظات التحريض الأولى التي استطاع فيها هذا العقل أن ينفك بعض الشيء لفترة يسيرة عن أن يكون عليه سلطة من خارج ذاته، وهي الفترة التي دشنها رسول الله ﷺ وظلت تنمو وتتسع وتكبر في ظلّ رعايته وتربيته للأمة، كما هو شأن كل الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهو الدور الذي سلّط عليه الإمام علي عليه السلام الضوء في قوله في أول خطبة له في النهج عند حديثه عن خلق آدم واختياره للنبوة: (واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد

معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم آيات المقدرة من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم) [نهج البلاغة، الخطبة ١].

دور السلطتين السياسية والدينية في صناعة الجهل والتجهيل: تآزرت تجربة السلطة السياسية مع تجربة السلطة الدينية في العالم الإسلامي على إجهاض وقتل ومصادرة روح البحث المعرفي والإبداع العلمي عند الفرد المسلم، وهكذا أضحت التجربة الإسلامية العربية عمياء تتخبط في ظلمات الجهل والوهم، بعد أن فقأت عيناها، المتمثلتان في الدين والعقل، فصار المسلمون ينطبق عليها قول الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧-١٨].

العقلان الفردي والجماعي بين منهجي التحريض والترويض: ظلت تتجاذب العقل المسلم (الفردي والجماعي) نزعتان متنافرتان أشدّ التنافر، ومتباينتان أشدّ التباين، فالنزعة التحريضية كانت تعمل على الارتقاء به، بينما النزعة الترويضية كانت تبتغي وأده وتقييده وإحكام الطوق عليه، ولا يمكننا هنا إلا الاعتراف بأن النزعة الترويضية نجحت إلى حدّ الآن في ترويض العقل المسلم أكثر ممّا نجحت النزعة التحريضية، وتماثل الدور الذي قام به العقل المستقيل في تاريخ الإسلام مع هذا الدور الذي يحكيه القرآن الكريم عن أحد تجليات محنة بناء العقل في التاريخ اليهودي، إذ يقول سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

مفاهيم القيادة والإدارة في حياة الإمام الخميني

أولاً: رؤية مفاهيمية حول تمايزات الدورين القيادي والإداري: القيادة عملية قوامها بطرفيها القائد والمقود، فأداء كل منهما يؤثر في أداء الآخر، والتناغم بين الطرفين ضروري في تحقيق متطلبات النجاح في القيام بمهام القيادة، ولذلك لابد من التفاعل النفسي والشعوري في الدور القيادي، ومن هنا قيل أن القيادة ترتبط بالنصف الأيمن من الدماغ، بينما الإدارة عملية في جوهرها ذات طرف واحد وهو المدير، ولا يتوقف النجاح فيها على أطراف أخرى كما هو الشأن في عملية القيادة، ولا ترتبط الإدارة بالجانب الشعوري وإنما هي في جوهرها عملية رياضية عقلية تقتضي وضع كل شيء في موضعه المناسب، وفعل كل فعل بحسب شرائط نجاحه، ومن هنا قيل أن الإدارة ترتبط بالنصف الأيسر من الدماغ، وبعبارة مختصرة: القيادة تبني رؤية كلية والإدارة تهتم بالتفاصيل الجزئية. [انظر في هذا الشأن: ستيفن آر. كوفي: القيادة المرتكزة على المبادئ، ص٤٢٤].

ثانياً: السمات القيادية للإمام الخميني في توجيه الدولة والأمة والأفراد:
تصرّف الإمام الخميني كقائد في علاقته بالدولة (الشؤون السياسية)، والأمة (الشؤون الاجتماعية) والأفراد (الشؤون الشخصية)، ووفق ذلك قام بأدوار ثلاثة تتمثل في:

١- **الدور السياسي**: وهنا مارس دور القائد السياسي والشرعي الذي يتحمل مهام توجيه المسار السياسي العام للدولة في ما يرتبط بشؤونها الداخلية والخارجية على حدّ سواء، وهو في ذلك يتناسق ويتناغم مع الدور الذي قام به الرسول الأكرمﷺ في حياته، والذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [الأعراف ٦٥].

٢- **الدور الاجتماعي**: وهنا مارس دور الموجه الاجتماعي الذي يعني

بمشاكل الناس في ما يرتبط بعلاقاتهم الاجتماعية وحاجتهم لموجه يستهدون بتجاربه في بناء علاقاتهم وتوثيقها، وهو في ذلك يتناسق ويتناغم مع الدور الذي قام به رسول الله ﷺ في حياته، والذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨].

٣- **الدور التربوي**: وهنا مارس دور المعلم المربي الذي يعنيه تنمية وتزكية كل فرد يمكن أن يقدّم إليه خدماته ويضع تحت تصرفه إمكانياته الشخصية المستنتجة من معرفة وسيعة وخبرة طويلة وتجربة ممتدة، وهو في ذلك يتناسق ويتناغم مع الدور الذي قام به الرسول الأكرم ﷺ في حياته، والذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة ٢].

ثالثاً: السمات الإدارية للإمام الخميني في علاقاته العمودية والأفقية: يمكننا تحديد جملة من السمات الإدارية التي التصقت بهذه الشخصية الربانية في علاقتها بالذات أو بالآخر، وسواء كان هذا الآخر هو الله تعالى، أم الإنسان، ووفق ذلك سنتحدث عن سماته الإدارية في علاقته بكل واحد من هذه المحاور الثلاثة التالية:

المحور الأول: إدارة علاقاته الشخصية بالله تعالى: وقد أسست وفق المنظور القرآني القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر ١٨].

المحور الثاني: إدارة علاقاته الشخصية بذاته: وقد أسست وفق المنظور القرآني القائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠].

المحور الثالث: إدارة علاقاته الشخصية بالناس: وقد أسست وفق المنظور القرآني القائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٤].

الطغيان في الميزان.. اختلالات موازين الحق عند بني الإنسان

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمٰن: ٧-٩].

الوجود التكويني للميزان الذي يشكل رمز العدل والتزام الحق ومراعاة الإنصاف يسبق الوجود التشريعي له، والذي يشكل الغاية من وراء تقرير مبادئ الالتزام في فعل الإنسان، ولأجل ذلك يبدأ المقطع القرآني المتقدم بالإشارة إلى الوضع التكويني للميزان بقوله: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، ومن ثمّ يشير إلى الوضع التشريعي المترتب على الوضع التكويني، والذي يطالب فيه الإنسان بتحقيق وتفعيل والتزام موازين الحق والعدل والإنصاف في كل شؤونه وأحواله وعلاقاته، وهو ما بيّن لاحقاً بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾، وهو المعنى الذي أفادته آيات أخر من الذكر الحكيم مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

والطغيان في الميزان يعني التعدي وتجاوز الحدّ، وهي سمة لصقت بالإنسان أشد التصاق وأعاقته عن أداء المسؤولية وتحمل الأمانة بمقتضياتهما ومستلزماتهما، وأخبر تعالى عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب ٧٢].

والطغيان في الميزان يعني أن تختل وتضطرب موازين الحق والعدل

والإنصاف عند الإنسان ضمن مستويات ثلاثة:

١- **اختلال موازين الحق في الدائرة الفكرية**: وذلك عبر ثنائية الإيمان والكفر، فيؤمن الإنسان بما ينبغي الكفر به، ويكفر بما ينبغي الإيمان به، وهو أول وأعظم وأخطر اختلال في موازين الحق، ولأنه كذلك فقد حاربه تعالى أشد محاربة ورفضه أشد رفض، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١-٥٢]، وفي مقابل هذا الإخلال بميزان الحق في الدائرة العقلية أشار تعالى إلى تحكيم وضبط موازين الحق في هذه الدائرة بقوله: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٦٥].

٢- **اختلال موازين الحق في الدائرة النفسية**: وذلك عبر ثنائية الحب والبغض، فيحب الإنسان ما ينبغي بغضه، ويبغض ما ينبغي حبه بحسب موازين الحق، وإليه أشار تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

٣- **اختلال موازين الحق في الدائرة العملية**: وذلك عبر ثنائية الطاعة والمعصية، فيطيع الإنسان ما يلزم معصيته، ويعصي ما ينبغي إطاعته بحسب معيار الحق، وإلى هذه الحالة أشار تعالى في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ...﴾ [النور: ٤٧-٥٠].

رصد اختلالات موازين الحق في حديث الرويبضة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]. رصد النبي الأكرمﷺ في حديث الرويبضة المشهور العديد من مظاهر الاختلال والتردي في موازين الحق خلال المرحلة المستقبلية التي أنبأ عنها من حياة الأمة، والتي يميل الكثيرون إلى اعتبار المرحلة الحالية من واقعنا تمثلها أفضل تمثيل وتحكي عنها أحسن حكاية، ونعرض لعملية الرصد النبوية هذه عبر استعراض أهم الاختلالات الإنسانية التي أشار إليها حديث الرويبضة:

١- اختلال موازين القيم التأسيسية الأولى في الفضاء الديني والأخلاقي: وفي ذلك يقول رسول اللهﷺ: (إن من أشراط القيامة إضاعة الصلاة، وإتباع الشهوات، والميل مع الأهواء وتعظيم المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن وجوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره. قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي والذي نفسي بيده).

٢- اختلال موازين التناسب والترابط بين الأشخاص والأدوار في الحياة العامة: وفي ذلك يقول رسول اللهﷺ: (يا سلمان إن عندها أمراء جورة، ووزراء فسقة، وعرفاء ظلمة، وأمناء خونة، فقال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي والذي نفسي بيده).

٣- اختلال موازين تكوين النظرة السليمة للأمور: وفي ذلك يقول رسول اللهﷺ: (يا سلمان إن عندها يكون المنكر معروفا، والمعروف منكرا، وائتمن

الخائن ويخون الأمين، ويصدق الكاذب، ويكذب الصادق، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي والذي نفسي بيده).

٤- اختلال موازين الحكم والإدارة والضوابط العامة في العلاقات الإنسانية: وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: (يا سلمان فعندها إمارة النساء، ومشاورة الإماء، وقعود الصبيان على المنابر، ويكون الكذب طرفا، والزكاة مغرما، والفيء مغنما، ويجفو الرجل والديه، و يبر صديقه، ويطلع الكوكب المذنب، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: أي والذي نفسي بيده).

٥- اختلال موازين العلاقات الجنسية وانحرافها عن مسارها الطبيعي: وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: (يا سلمان، وعندها تكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها، ويشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، ويركبن ذوات الفروج السروج فعليهن من أمتي لعنة الله، قال سلمان: وإن هذا لكائن يارسول الله؟ فقال صلى الله عليه واله: إي والذي نفسي بيده.

٦- اختلال موازين ظواهر الالتزام الديني ومتطلبات الوضع الرجولي: وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: (يا سلمان إن عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع والكنائس، ويحلى المصاحف، وتطول المنارات، وتكثر الصفوف بقلوب متباغضة وألسن مختلفة، قال سلمان: وإن هذا لكائن يارسول الله؟ قال صلى الله عليه واله: إي والذي نفسي بيده. وعندها تحلى ذكور أمتي بالذهب، ويلبسون الحرير والديباج، ويتخذون جلود النمور صفافا، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه واله: إي والذي نفسي بيده).

٧- اختلال موازين الوعي والفهم وتصدي السفهاء لشؤون العامة: وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: (يا سلمان عندها يتكلم الرويبضة، فقال: وما الرويبضة يا رسول الله فداك أبي وأمي؟ قال صلى الله عليه واله: يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٦ ص ٣٠٦].

السعي المقدس

قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤٢].

١- **مصير الإنسان في الآخرة مرتبط بسعيه في الدنيا**: يتحدّد مصير الإنسان في المنظور الديني الإيماني وفق سعيه في هذه الحياة الدنيا، ويرتبط به أشدّ الارتباط، بل يمكن القول إن ما يحدّد هذا المصير ليس إلا سعي الإنسان، بمعنى أنه لا دخل لأيّ أمر آخر في مصير الإنسان، من جاه ومال وأقارب و. . . الخ، إلا سعيه وعمله، فهو ما يلقاه الإنسان وما يحضر عنده يوم الحساب، كما ذكر تعالى في قوله: ﴿. . . وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف ٤٩]، إما كل تلك الأمور الأخرى فإنها لا تغني عن الإنسان شيئاً، ولا تجلب له نفعاً، ولا تدفع عنه ضراً، وهو ما أكّده الجليل جلّ جلاله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران ١٠]، وقال سبحانه على لسان من ساءهم جزاء عملهم وسعيهم في الحياة الدنيا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

٢- **الترابط بين النتائج والأسباب وفق المنطق الإلهي**: التدخل الإلهي في شؤون الإنسان لا يعني إلغاء لمبدأ السببية، وتجاوزاً للمنطق الطبيعي الذي يحكم العلاقة بين الأسباب والمسببات، وهو ما يفصح عنه عزّ وجلّ بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ

هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢٠].

٣- مسار الإنسان ومسعاه خيار يحدّده الإنسان بنفسه ويتحمل مسؤوليته:
فلقد عرّف الإنسان الخير والشر، وفهم الحق من الباطل، وغرس في فطرته وجبلته التمييز بينهما، وأعطي القدرة كاملة على الاختيار بينهما، فلا مناص من أن يتحمل مسؤولية اختياره، وهو ما أفصح عنه تعالى في قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٤-١٠].

٤- ثنائية الحسن والقبح في السعي الإنساني: بعد أن أبان الله تبارك وتعالى في ما تقدم اختلاف سعي الإنسان وتنوعه، بحسب خياراته وتحديداته فقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، علمنا من ذلك أن السعي سعيان:

الأول: السعي المقدس: وهو الذي يتواصل فيه الإنسان مع الغاية من خلقه وإيجاده في الحياة الدنيا، ويحقق من خلاله تكامله ورقيه في كل شؤون حياته، وهو السعي الذي يتقدس الإنسان من خلاله ويطهر ويسمو، لذلك يسجل كلّه مهما صغر في صحيفة خيرات الإنسان، وهو ما أثبته تعالى للرسول ﷺ وأتباعه بقوله: ﴿.. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

الثاني: السعي المدنس: وهو الذي يتحول الإنسان من خلاله إلى عنصر فساد وإفساد في الأرض، وهو ما حكاه تعالى من فعل بعض الناس بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

المرأة.. الحلقة الأضعف في التحولات الاجتماعية

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩٠-٩٢]. تضعف المرأة -وبكل أسف- غالباً عن أداء الدور المطلوب منها أخذه في عمليات التغيير الاجتماعي، والتي تشهدها المجتمعات البشرية بين الفينة والأخرى، ومن هنا يكتسب التشبيه القرآني المتقدم أهميته ودقته من تمثيله ضعف الأداء والالتزام في الدور الإنساني بشكل عام بالعبثية التي تمارسها المرأة في حياكتها وخياطتها ثم نقضها ما حاكته وخاطته من بعد قوة وشدّة، وهو ما نهانا تعالى عن الاتصاف به في ما نقوم به من أعمال، أو في ما نبنيه من علاقات، أو ما نلتزمه من عهود، قائلاً: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾، ولأن المرأة بشكل عام ظلت تتمثل مهام الحلقة الأضعف في التحولات الاجتماعية فقد تم إما استغلال أو حرف أو وأد دورها من قبل الآخرين، وهم هنا:

أولاً: القمعيون الذين يعملون على وأد المرأة وإلغاء دورها في الحياة.

ثانياً: الانتهازيون الذين يعملون على استغلال المرأة لمصالحهم الذاتية.

ثالثاً: المغفلون الذين يتمثلون دور الأحمق الذي يريد أن ينفعك فيضرك.

ولنا في مواقف عائشة زوج النبي ﷺ تمثلات صريحة وواضحة في الموارد الثلاثة: ففي أول حدث تمّ استغلالها من قبل المنافقين من أجل الإساءة إلى شخص

النبيﷺ في حياته في قضية الإفك، والتي تحدث عنها تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١١-١٦].

وفي حدث ثانٍ استغلت ووظفت في الثورة على عثمان وحاشيته وخرجت تحرض عليه قائلة: (اقتلوا نعثلاً)، وفي حدث ثالث استغلت أسوأ استغلال من قبل طلحة والزبير ضد الإمام عليعليه السلام وجرجرت إلى واقعة الجمل، وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد: (قال كل من صنف في السير والأخبار: إن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان، حتى إنها أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله ﷺ، فنصبته في منزلها، وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول اللهﷺ لم يبل، وعثمان قد أبلى سنته. قالوا: أول من سمى عثمان نعثلا عائشة، والنعثل: الكثير شعر اللحية والجسد، وكانت تقول: اقتلوا نعثلا، قتل الله نعثلا! وروى المدائني في كتاب الجمل، قال: لما قتل عثمان، كانت عائشة بمكة، وبلغ قتله إليها وهي بشراف، فلم تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: بعدا لنعثل وسحقا! إيه ذا الإصبع! إيه أبا شبل! إيه يا بن عم! لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له: حثوا الإبل ودعدعوها) [شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٢١٥].

وفي عصرنا الحاضر يتمّ التلاعب بالمرأة ضمن هذه الأدوار الثلاثة، وهي لا تملك قدرة على الاستقلال في دورها الإنساني والاجتماعي.

فن التصرف في اللحظات الحرجة

قال الإمام علي عليه السلام في وصفه للإنسان المتقي في خطبته عن المتقين: (فهو في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور)[نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣].

تمرّ بالإنسان لحظات حرجة تتطلب موقفاً سريعاً وذكياً وحازماً، وإلا أضحى أسير تلك اللحظة التي مرّت به ربما طوال عمره لأنه لم يحسن التصرف فيها، ومن الواضح أن التوفر على فن التصرف واتخاذ القرار المناسب ضمن المواصفات المتقدمة في اللحظات الحرجة أمر يحتاج إلى سرعة بديهة يتعرّف الإنسان من خلالها على ما هو المطلوب منه القيام به، ومن جهة أخرى تحتاج إلى شجاعة الإقدام والمخاطرة، وعدم الانتظار والتلكؤ ريثما تضيع الفرصة من بين يديه، ولعلّنا نجد في موقف حذيفة بن اليمان في غزوة الأحزاب أو الخندق تجسيداً لهذا الفن في كيفية التصرف واتخاذ القرار المنقذ في اللحظة الحرجة، بل القاتلة، وهو ما تحدّثنا عنه الرواية التالية: (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله على التل الذي عليه مسجد الفتح في غزوة الأحزاب في ليلة ظلماء قرة، فقال: «من يذهب فيأتينا بخبرهم وله الجنة؟» فلم يقم أحد ثم أعادها فلم يقم أحد، فقال أبو عبد الله عليه السلام بيده: وما أراد القوم؟ أرادوا أفضل من الجنة؟ ثم قال: «من هذا؟» فقال: حذيفة، فقال: «أما تسمع كلامي منذ الليلة ولا تكلم؟ اقترب» فقام حذيفة وهو يقول: القر والضر جعلني الله فداك منعني أن أجيبك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «انطلق حتى تسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم» فلما ذهب قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده» وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا حذيفة لا تحدث شيئا حتى تأتيني» فأخذ سيفه وقوسه وحجفته، قال حذيفة: فخرجت وما لي من ضر ولا قر، فمررت على باب الخندق وقد اعتراه المؤمنون والكفار، فلما توجه

حذيفة قام رسول الله ﷺ ونادى: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي» فنزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا رسول الله ﷺ إن الله عز ذكره قد سمع مقالتك ودعاءك وقد أجابك وكفاك هول عدوك، فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه وأرسل عينيه، ثم قال: «شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت أصحابي» ثم قال رسول الله ﷺ: قد بعث الله عز وجل عليهم ريحا من سماء الدنيا فيها حصى، وريحا من السماء الرابعة فيها جندل، قال حذيفة: فخرجت فإذا أنا بنيران القوم وأقبل جند الله الأول ريح فيها حصى فما تركت لهم نارا إلا أذرتها، ولا خباء إلا طرحته، ولا رمحا إلا ألقته حتى جعلوا يتترسون من الحصى، فجعلنا نسمع وقع الحصى في الأترسة، فجلس حذيفة بين رجلين من المشركين فقام إبليس في صورة رجل مطاع في المشركين فقال: أيها الناس إنكم قد نزلتم بساحة هذا الساحر الكذاب، ألا وإنه لن يفوتكم من أمره شئ فإنه ليس سنة مقام، قد هلك الخف والحافر، فارجعوا فلينظر كل رجل منكم من جليسه، قال حذيفة: فنظرت عن يميني فضربت بيدي فقلت: من أنت؟ فقال: معاوية، فقلت للذي عن يساري: من أنت؟ فقال: سهيل بن عمرو، قال حذيفة: وأقبل جند الله الأعظم، فقام أبو سفيان إلى راحلته، ثم صاح في قريش: النجاء النجاء، وقال طلحة الازدي: لقد أرادكم محمد بشر، ثم قام إلى راحلته وصاح في بني أشجع: النجاء النجاء، وفعل عيينة بن حصن مثلها، ثم فعل الحارث بن عوف المزني مثلها، ثم فعل الأقرع بن حابس مثلها، وذهب الأحزاب، و رجع حذيفة إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وقال أبو عبد الله عليه السلام: إنه كان ليشبه بيوم القيامة) [بحار الأنوار، المجلسي ج٢٠، ص ٢٦٨-٢٦٩].

النسيج الاجتماعي الزائف
البدائل المتوقعة في ظل غياب السلم الأهلي

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل ٩٢].

وروي البخاري في صحيحه: (باب قول النبيﷺ: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض. حدثنا عمر بن حفص حدثني أبي حدثنا الأعمش حدثنا شقيق قال قال عبد الله قال النبيﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر حدثنا حجاج بن منهال حدثنا شعبة أخبرني واقد عن أبيه عن ابن عمر انه سمع النبيﷺ يقول لا ترجوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض حدثنا مسدد حدثنا يحيى حدثنا قرة بن خالد حدثنا ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبي بكرة وعن رجل آخر هو أفضل في نفسي من عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبي بكرة أن رسول اللهﷺ خطب الناس فقال ألا تدرون أي يوم هذا قالوا الله ورسوله اعلم قال حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه فقال أليس بيوم النحر قلنا بلى يا رسول الله قال أي بلد هذا أليست بالبلدة قلنا بلى يا رسول الله قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب فانه رب مبلغ يبلغه من هو أوعى له) [صحيح البخارى، البخاري، ج ٨، ص ٩٠-٩١].

المجتمع الآمن: وإلى صورته المنشودة أشار تعالى بقوله في ما حكاه من دعاء خليله إبراهيمعليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ

الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة ١٢٧]، وذكّر الله عزّ وجلّ العرب بقيمة الوضع الآمن والمستقر الذي هيأه لهم بقوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القصص ٥٧].

بدائل المجتمع الآمن: ولكن سرعان ما فقد العرب والمسلمون هذا المجتمع الآمن الذي أنشأه وبناه رسول اللهﷺ، وحصل ما حذّرهم منه من بعد موته وارتحاله، فنقضوا ما أمرهم به بقوله: (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)، وفي ظلّ ذلك ترددت أحوال المجتمعات العربية والإسلامية بين هذه الأحوال والأوضاع الثلاثة:

١- **الاستبداد الداخلي**: والذي نهاهم الله تعالى عنه وحذرهم من الوقوع في براثنه، فقال في ما قال: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود ١١٣].

٢- **الاقتتال الأهلي**: وهو الخطر الماحق الذي اعتادت هذه المجتمعات على الوقوع فيه حينما تغيب السلطة المستبدة أو يضعف دورها، وقد حذّرنا القرآن الكريم من ممارسته في ما حكاه من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ...﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥] .

٣- **الاستقواء الخارجي**: وقد حرّم الله تعالى أسبابه ومقدماته بضرس قاطع فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء ١٤٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ...﴾ [المائدة ٥١].

مسارات النجاة الثلاثة

هناك ثلاث مسارات للنجاة والخلاص يمثل أولها التوفر على الحد الأعلى من أسباب الخلاص، ويمثل ثانيها الحد الأوسط، ويمثل ثالثها الحد الأدنى، ويبقى مسار الهلاك وحيداً في مواجهة هذه المسارات الثلاثة، ومع ذلك يقدم عليه الإنسان ويختاره من بينها، ومن هنا العجب كل العجب من هذا الإنسان الذي تضيق عليه سبل الحق والسلوك إلى الله تعالى وهي متعددة، ويتسع له سلوك السبيل إلى الباطل وهو ضيق ومتوحد، ولذلك لما أن (قيل لعلي ابن الحسين عليه السلام قال الحسن البصري ليس العجب ممن هلك كيف هلك وإنما العجب ممن نجى كيف نجى فقال عليه السلام أنا أقول ليس العجب ممن نجى كيف نجى إنما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله) [الأمالي، السيد المرتضى ج ١، ص ١١٣].

فالناس إذن على أقسام أربعة: ١- فاقدو الإيمان. ٢- ضعيفو الإيمان. ٣- متوسطو الإيمان. ٤- أقوياء الإيمان. وكلهم من مستحقي النجاة والخلاص ماعدا الأول لأن الكافرين هم أصحاب النار، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر ٦]، ولعلّنا نستطيع أن نلمح هذا التقسيم الرباعي بشكل واضح وصريح عبر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي

كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٢-٣٧].

فالآيات من سورة غافر هذه تتحدث عن ثلاثة أقسام لمن أورث الكتاب واصطفاه الله تعالى وهم:

١- الظالم لنفسه، أيّ ضعاف الإيمان والالتزام ممن آمنوا بالكتاب.

٢- المقتصد، أي متوسط الإيمان والالتزام، وهو أيضاً من جملة المؤمنين.

٣- السابق بالخيرات، وهو أفضل المؤمنين إيماناً وأكملهم التزاماً.

وقد بينت الآيات التالية أن كل هؤلاء يدخلون الجنة ويستحقون المقام والخلود فيها، وبعد ذلك أخرجت الآيات المباركة بشكل صريح ومحدّد القسم الرابع من دائرة المؤمنين، وهم مستحقو النار والعذاب من الكفار فقالت: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا...﴾.

وانطلاقاً من ذلك نعي أن المسارات التي تصل بالإنسان إلى استحقاق النعيم وجنة الخلد هي أكثر ثلاثة أضعاف من المسار الذي يؤدي به إلى استحقاق النار ونيل سخط الجبار، فمن أصبح من أهلها فإنما ذلك لشقاوته، بحيث لم يستطع النجاة مع تعدّد خيارات الخلاص وتكثرها بالنسبة إلى خيار الهلاك والعذاب. وفي ضوء ذلك نفهم المسموح والشرعي في دائرة التنوع الاجتماعي بين البشر، وكون غير المسموح هو ما يمثل الدائرة الأضيق بطبيعتها من بين الخيارات، إذ لا يختار الكفر على الإيمان إلا شقي فقد كل أسباب القدرة على العيش سعيداً، ومن يكن كذلك فهل يمكن المطالبة بحق له قي العيش والحياة، وهو بنفسه قد أدرج نفسه في عداد الأموات، فكان الأجدر به اللحاق بهم، وفي ضوء ذلك تعامل الإسلام مع الكافرين مغلقاً مشروعية السير في طريق واحد هو الذي يؤدي إلى الهلاك، بينما أفسح المجال للسير في الطرق الثلاثة الأخرى، ومن لم يسعه الحق لم يسعه الباطل كما هو مضمون بعض الأحاديث المعصومية.

ثلاث تجارب سياسية ناجحة

الوضع القائم اليوم في العالم الإسلامي يكشف وبعد طول امتحان وعسر ولادة أن ثمة مساراً جديداً بدأ يبرز للساحة ضمن معادلات ومواصفات غير متوقعة، يبدو فيها الشيعة كعنصر فاعل ومؤثر في صياغة مستقبل هذا العالم، بعد نجاحات متوالية استطاع التشيع أن ينجزها على مستويات متعددة، تحتاج إلى توقف وتأمل مقرونين بمحاولة فحص وتحليل تبتغي النفاذ إلى العمق من أجل تفسير هذه النجاحات المتتالية وعلى أصعدة متنوعة، وهذه النجاحات المعنية هي:

١- **الدولة الإسلامية في إيران (تجربة الدولة)**: الكيان السياسي الأوسع في المجال البشري الاجتماعي هو الدولة، والدولة والسلطة كانتا على الدوام حاضرتين في التفكير الشيعي، بل يمكننا القول أن تفكير الشيعة في مسألة الحكم والسلطة هو ما شكل المعلم الأبرز في تمايزهم، إن على المستوى العقيدي، وإن على المستوى الاجتماعي والسياسي، وإن على المستوى الحركي عن عامة المسلمين الذين لم يبلوروا موقفاً محدّداً وحاسماً من مسألة السلطة في جزئياتها وتفاصيلها بالرغم من ممارستهم مهمة الحكم السياسي في مقابل جنوح الشيعة أكثر إلى تمثل دور المعارضة، ولكن بالرغم من ذلك فإن الشيعة استطاعوا عبر تجربة الدولة الإسلامية في إيران أن يثبتوا أنهم يمتلكون قدرة أكبر على تشكيل دولة تتوافق مع قناعاتهم ورؤاهم، وأن يبقوها تواجه أكبر التحديات من دون أن تسقط أو تنتكس.

٢- **حزب الله في لبنان (تجربة المؤسسة)**: استطاع حزب الله اللبناني أن يبدي كفاءة عالية واقتداراً مهنياً واحترافاً عسكريا وسياسياً في مواجهة أعتى القوى في عالمنا المعاصر، وأثبت نجاحاً متميزاً لأول مرة ربما في تاريخ الصراع العربي

الإسرائيلي من خلال القدرة على إدارة الصراع مع الكيان الصهيوني بشكل احترافي يخضع المواجهة لقوانين الحرب السياسية والعسكرية والإعلامية والنفسية الناجحة، من دون أن يستجرّ إلى ارتكاب أخطاء في تحديد الأولويات، أو تغيير الاستراتيجيات والتكتيكات، أو بناء التحالفات، ولذلك وفّق للنجاح والتميز لكي يحصد نجاحاً آخر للتشيع على مستوى القدرة على إدارة المؤسسة والحزب والجماعة.

٣- **المرجع السيستاني في العراق (تجربة الفرد)**: وأخيراً نأتي للنجاح السياسي الباهر والرائع الذي حققه التشيع من خلال عنوانه الأهم والأبرز والمتمثل في رأس المشروعية الدينية والسياسية عند الشيعة، وهو مقام المرجعية الدينية الذي مثلته شخصية وحركة سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني، في ما تبناه من موقف بشأن إدارة العملية السياسية في العراق بعد سقوط طاغية البعث، والذي تمحور عبر الإصرار على إجراء الانتخابات لاختيار أعضاء الحكومة رغم كل التحديات التي كانت تحيط إجراء هذه المهمة، وهذا الموقف له أهميته حينما نضمه إلى الموقفين المتقدمين، إذ هو يعطي انطباعاً بالقدرة المتميزة للتشيع على إدارة متطلبات السلام والحوار بالمستوى الذي يدير متطلبات الحرب والمواجهة.

إخفاقات السلفية التكفيرية: لا يمكننا أن نستكمل صورة التحليل لهذه النجاحات الشيعية الكبرى في العصر الحديث، إلا من خلال مقارنتها بالإخفاقات المتتالية للإسلام السلفي في العصر الحديث أيضاً، فلقد أخفقت السلفية الدينية عند أهل السنة في إنجاح أيّ مشروع سياسي لها في العصر الحديث، بل أجهضت في المقابل ثلاث فرص كبرى أتيحت أمامها، الأولى تمثلت في تجربة الدولة السعودية الحديثة التي خرج من رحمها تيار الإرهاب والتكفير، والثانية تجربة الحكم الإسلامي في السودان عبر تجربتي الصادق المهدي وحكومة الإنقاذ، والثالثة والأخيرة هي تجربة الحكم الإسلامي في إفغانستان التي قادتها جماعة «طالبان»، وهي التجربة الأسوأ من بين هذه التجارب السلفية الثلاث.

دور النبي المصطفىﷺ
في تحقيق مهام التغيير الاجتماعي الشامل

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران ١٦٤].

قام النبي الأكرمﷺ بوظائف متعددة ومهام كبيرة من أجل تحقيق متطلبات التغيير الاجتماعي الشامل، وهي المهمة التي أخذها على عاتقه عبر مشروع تغييري هادف وشامل، يتوفر على العديد من الملامح التي يمكن أن نستلهمها من حديث القرآن الكريم عن شخصيتهﷺ، وأهمها:

١- **المشروع المعرفي الفكري**: وقد تضمن الإشارة إليه قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ٢-٣].

٢- **المشروع التربوي الروحي**: وقد تضمن الإشارة إليه قوله عزّ وجلّ: ﴿.. فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح ٢٦].

٣- **المشروع الحركي الميداني**: وقد تضمن الإشارة إليه قوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وتكرر الأمر الإلهي بضرورة العمل على تفعيل المشروع التغييري عبر ممارسة حركية ميدانية مدروسة، فقال عزّ شأنه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ١٠٤].

غاية المشروع النبوي: كانت الغاية من وراء هذا المشروع التغييري الذي أسس له النبي الأكرمﷺ هو محو كل مظاهر الشرك والانحراف عن صراط الله القويم، ومحو كل مظاهر التشويه للفطرة الإنسانية التي تمارس بأسماء مختلفة وتحت شعارات متنوعة، لم يكن الدين نفسه مستثنى منها، ولذلك قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح ٢٨].

الصورة المعاشة للتجربة النبوية في التغيير: عبّر الذكر الحكيم عن الصورة الحياتية والاجتماعية التي عاشها رسول اللهﷺ مع أصحابه والمؤمنين بدعوته والمتحمسين لتبليغ رسالته التي حملتها السماء إياها بتمثيلات مختلفة، فقال جلّ جلاله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح ٢٩].

وفي ضوء هذه المعطيات تحدث عليعليه السلام عن تجربة رسول الله التغييرية معه بالقول: (وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة. وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسني جسده ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه. وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالإقتداء به) [الإمام علي: نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢].

الحرب والسلام في حركة نبي الإسلام

من المفاهيم والممارسات التي أعاد رسول الله ﷺ إنتاج طريقة التفكير فيها وفق منهجية جديدة، هي مفاهيم الحرب والسلام، والمواجهة والمسالمة، فقد أدار ﷺ ثنائية الحرب والسلام ضمن مشروع واحد متكامل يهدف إلى تحقيق غاية واحدة من الاثنين، وهي الغاية التي أشار إليها تعالى بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة ٣٣]، وقوله عزّ وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأعراف ٣٩].

وانطلاقاً من ذلك فحينما نقارن بين دور الرسالة الإسلامية -وهو الدور الذي عنى ببيانه وتمثله الرسول الأكرم ﷺ في شخصيته ومواقفه- والدورين اللذين تمثلتهما اليهودية والمسيحية من قبل، فإننا سنجد تكاملاً وشمولاً تجاه مسألتي الحرب والسلام في الدور الإسلامي، وسنلحظ تفكيكاً وتجزئة في الدورين الأخريين اللذين تمثلتهما اليهودية والمسيحية ضمن سياقهما التاريخي والحركي، فاليهودية كانت ذات نزعة حربية بحكم الظروف التي قارنت نشأتها وبروزها، والمسيحية كانت ذات نزعة سلامية أيضاً بحكم الظروف التي قارنت نشأتها وبروزها، بينما تمثل نبي الإسلام ﷺ في ما عاشه من حياة وممارسة الدورين، ونظر بالعينين، ولذلك كانت رسالته خاتمة ومهيمنة ومكتملة ومكملة، وهو المعنى الذي أشار إليه الرسول المصطفى نفسه ﷺ حينما قال كما في الحديث (عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إنما مثلي ومثل الأنبياء قبل كمثل رجل بنى بنيانا أحسنه وأجمله وأكمله فجعل الناس يطيفون به فيقولون ما رأينا أحسن من هذا إلا موضع ذي اللبنة قال فكنت أنا تلك اللبنة) [صحيح ابن حبان، ابن حبان ج ٤١، ص ٣١٨].

ففي الإسلام يتركز خطاب الحرب مقترنا بخطاب السلام، وتتلاقى ضرورات السلام مع مقتضيات الحرب ضمن ثنائية تكاملية، فيقول تعالى مخاطباً نبيه الكريمﷺ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٥٧-٦١].

ومن أجل ذلك ظلّ رسول اللهﷺ يعمل حتى آخر لحظة من حياته على تحريك المجتمع المسلم باتجاه القيام بمستلزمات الحرب، لأنها تجلب السلام وتحققه، وظل مصراً على تنفيذ جيش أسامة، وهو يغالب سكرات الموت، وهو الأمر الذي يظهره الشهرستاني حينما يقول -كما ينقل عنه الداماد-: (وأول تنازع وقع في مرضه فيما رواه محمد بن إسماعيل البخاري بإسناده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال لما اشتد بالنبي مرضه الذي توفى فيه قال: أيتونى بدواة وقرطاس أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله وكثر اللغط فقال النبي صلى الله عليه واله: قوموا عنى لا ينبغي عندي التنازع. قال ابن عباس: الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله. والخلاف الثاني انه صلى الله عليه واله قال: جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنها، فقال قوم: يجب علينا امتثال أمره، وأسامة قد برز عن المدينة، وقال قوم: اشتد مرض رسول الله صلى الله عليه واله فلا تسع قلوبنا لمفارقته نصبر حتى نبصر أين يكون آخره) [الرواشح السماوية، المحقق الداماد، ص ١٣٩-١٤٠].

بناء وتطوير أنظمة العلاقات الإنسانية

هناك ثلاثة أنظمة أساسية للعلاقات الإنسانية، وهي:

١- **نظام العلاقات الأخلاقية والمعنوية**: وهو المجال الذي يعني بتنظيم العلاقات الإنسانية ضمن بعدها الأخلاقي والمعنوي والروحي، على أساس أن هذا البعد يشكل تأسيسه ضرورة أولية لقيام واستمرار وضبط مسار العلاقات الإنسانية، والمحور الذي يدور حوله نظام العلاقات الأخلاقية والمعنوية هو الفضيلة.

٢- **نظام العلاقات السياسية والاجتماعية**: وهو المجال الذي يعني بتنظيم العلاقات الإنسانية ضمن بعدها السياسي والاجتماعي والإداري، على أساس أن هذا البعد يشكل تأسيسه ضرورة أولية أيضاً لقيام واستمرار وضبط مسار العلاقات الإنسانية، والمحور الذي يدور حوله نظام العلاقات السياسية والاجتماعية هو العدل.

٣- **نظام العلاقات الاقتصادية والمادية**: وهو المجال الذي يعني بتنظيم العلاقات الإنسانية ضمن بعدها الاقتصادي والمادي والمعيشي، على أساس أن هذا البعد يشكل تأسيسه ضرورة أولية أيضاً لقيام واستمرار وضبط مسار العلاقات الإنسانية، والمحور الذي يدور حوله نظام العلاقات الاقتصادية والمادية هو الرفاهية.

وإلى هذه الأبعاد أو الأنظمة الثلاثة التي يتأسس عليها المجال العام للعلاقات الإنسانية أشار تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج ٤١]، فإقامة الصلاة هي إشارة إلى الأساس في نظام العلاقات الأخلاقية والمعنوية، وإعطاء الزكاة إشارة إلى الأساس في نظام العلاقات الاقتصادية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إشارة إلى الأساس في نظام العلاقات السياسية والاجتماعية.

وهذه الثلاثة تمّت الإشارة إليها أيضاً في خطاب السيدة الزهراء عليها السلام ضمن معطياتها الخاصة في مجال بناء العلاقات الإنسانية فقالت عليها السلام في بيان علل الأحكام الربانية والشرائع الإلهية التي جعلها الله تعالى فرضاً على البرية: (ففرض الإيمان تطهيرا من الشرك، والصلاة تنزيها عن الكبر والزكاة زيادة في الرزق والصيام تثبيتا للإخلاص، والحج تسنية للدين، والعدل تسكينا للقلوب والطاعة نظاما للملة، والإمامة لما من الفرقة، والجهاد عزا للإسلام والصبر معونة على الاستيجاب، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية عن السخط وصلة الأرحام منماة للعدد والقصاص حقنا للدماء والوفاء للنذر تعرضا للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازين تغييرا للبخسة، واجتناب قذف المحصنات حجبا عن اللعنة، ومجانبة السرقة إيجابا للعفة واكل أموال اليتامى إجارة من الظلم، والعدل في الأحكام إيناسا للرعية. وحرم الله عز وجل الشرك إخلاصا للربوبية. . .) [علل الشرائع، الشيخ الصدوق ج ١، ص ٢٤٨].

قياس وتيرة التطور الإنساني: بعد أن عرفنا أن تلك الأنظمة الثلاثة تشكل العناصر الأساسية للمجال الإنساني العام، وعبر تواجدها مجتمعة يتحدّد الحكم الموضوعي والدقيق على أيّة تجربة بشرية، فإننا نقول: إن مسار التطور والتغيّر إلى الأفضل والأحسن لا يمكن أن يتحقق إلا ضمن ترابط محكم واتصال وثيق بين هذه الأنظمة الثلاثة في دائرة الفعل والتأثير، فالتجربة البشرية الناجحة هي التي تتمكن من تحقيق التغيير ضمن مستويات ثلاثة، هي:

١- مسار التطوير السياسي والاجتماعي.

٢- مسار التطوير الأخلاقي والمعنوي.

٣- مسار التطوير الاقتصادي والمادي.

وإلى ضرورة إنجاز الثلاثة مجتمعة أشار تعالى بقوله المتقدم: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج ٤١].

رؤية نقدية لعلم البرمجة اللغوية العصبية
وتأسيسية لعلم البرمجة الذاتية

يذكرنا الحديث والاهتمام المتزايدان بعلم البرمجة اللغوية العصبية NLP في أوساطنا اليوم بالدخول في متاهة أخرى من جديد تحمل إلينا وهم الإنقاذ والخلاص، وهو الوهم الذي أراد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام أن يخرج منه قومه عبر إثارة التفكير لديهم في ما يعبدونه من كواكب ونجوم وأصنام وأنها لا تستحق أن تكون مؤهلة لما يقدمونه لها من طاعة وخضوع، وهو الأمر الذي فعله إبراهيم عليه السلام في قضيتين:

الأولى: التظاهر بعبادة الكواكب: وقد حكى الله عزّ وجلّ ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

والثانية: تحطيم الأصنام وتكسيرها: وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم

بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٦٧].

في مقابل علم NLP نطرح علم البرمجة الذاتية وهو يستهدف برمجة الذات الإنسانية في كل جوانبها وفي علاقتها بمختلف العناصر الوجودية التي تتأثر بها وتؤثر فيها، وهي تحديداً: ١- الله. ٢- الإنسان. ٣- العالم. وعلم البرمجة الذاتية يؤسس له الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: (الفضائل أربعة: أولها الحكمة وقوامها في الفكر، وثانيها العفة وقوامها في الشهوة، وثالثها القوة وقوامها في الغضب، ورابعها العدل وقوامه في الاعتدال) [الكراجكي، معدن الجواهر، ص٤٠].

وهذه النظرة الشمولية في عملية البرمجة التي عنى ببيانها وتأسيسها الإمام علي عليه السلام لم يتبنّ NLP أي واحد من خياراتها المتقدمة، مما يفقده القدرة على أن يتحول إلى علم للبرمجة، لأن برمجة العلاقات بين أجزاء المركب إنما تكون بعد استكمال أجزائه ومعرفة العلائق الرابطة بينها وعوامل التأثير والتأثر فيها، وعلم NLP لم يكوّن أولاً نظرة وافية لمكونات الذات الإنسانية، ولم يستوعب مختلف العناصر المتداخلة في صياغتها ثانياً، ولذلك يبدو عاجزاً عن التحكم في ذات الإنسان ثالثاً. وهذا بخلاف علم البرمجة الذاتية الذي نجده في إسلامنا العزيز، والذي اهتم بتحديد العناصر الأساسية للبرمجة والمتمثلة في: ١- المبدأ. ٢- الطريق. ٣- الغاية.

وفي ضوء علم البرمجة الذاتية تتحدّد ماهية النفس البشرية وقواها ودورها وطريقها وغايتها، وهو ما جمعه الباري تعالى في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠].

الرسول الداعية البشير النذير

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨] [الأحزاب ٤٥-٤٨].

الرسول الأكرمﷺ هو الشخصية التي تحدّد معالم السير والطريق وقواعد الممارسة في الإسلام، وقد تمّ تحديد الأدوار التي يمارسها عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل تحديد في هذه الآيات المباركات من سورة الأحزاب، فهو المحور الفاعل في عملية التغيير الاجتماعي، والذي يمارس ثنائية الجذب والطرد، والمسألة المهمة التي يريد هذا النص القرآني أن يشير إليها هي صفة التحدث باسم الدين، فهذه الخصيصة ترتبط ممارستها بالعصمة التي يعطيها الله سبحانه وتعالى لأنبيائه وأوليائه، وهو ما ألمح إليه تعالى في حديثه عن رسوله الأكرم بالقول: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٢-٤].

ونجد اهتماماً صريحاً بهذا التحديد من قبل أئمة أهل البيتعليهم السلام في ما يرتبط بأصحابهم الذين ربوهم ودرّسوهم وأرادوا منهم أن يكونوا نموذجاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب ٣٩]، فحدّدوا قدراتهم وإمكانياتهم في القيام بمهام التبليغ ومقتضيات حمل الرسالة، وهي الرسالة التي يضرّها أن يقصر أو يقصّر الإنسان في استيعابها وتبليغها لأنها الدين القيم الذي أكمله الله عزّ وجلّ وأتمّ به النعمة على خلقه، وهو ما افتخر به الرسولﷺ حينما تحدّث عن هذا الدين بالقول: ﴿قُلْ إِنَّنِي

هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ١٦١].

وهذا ما يستدعي أن يتماثل أي فرد يريد تبليغ هذا الدين وإيصال رسالته إلى الناس مع هذه المتطلبات، ومن هنا اهتم الإمام الصادق عليه السلام بإبراز تقييمه الدقيق لكل واحد من أصحابه الذين دخلوا في حوار مع رجل شامي حول مسائل دينية وعقيدية، إذ تقول الرواية: (ثم التفت أبو عبد الله عليه السلام إلى حمران، فقال: تجري الكلام على الأثر فتصيب والتفت إلى هشام بن سالم، فقال: تريد الأثر ولا تعرفه، ثم التفت إلى الأحول، فقال: قياس رواغ، تكسر باطلا بباطل إلا إن باطلك أظهر، ثم التفت إلى قيس بن الماصر، فقال: تتكلم واقرب ما تكون من الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبعد ما تكون منه، تمزج الحق مع الباطل وقليل الحق يكفي عن كثير الباطل، أنت والأحول قفازان حاذقان، قال يونس: فظننت والله أنه يقول لهشام قريبا مما قال لهما، ثم قال: يا هشام لا تكاد تقع، تلوي رجليك إذا هممت بالأرض طرت مثلك فليكلم الناس، فاتق الزلة، والشفاعة من ورائها إن شاء الله) [الكافي، الكليني ج١، ص ١٧٣].

ولعلّنا نجد إثارة مركزة من قبل الأئمة عليهم السلام لإشكالية التحوير والتحريف والزيادة والنقصان وسوء الفهم الذي تحصل عند الناس في محاولتهم لاستيعاب الدين والتعامل معه، إدراكاً منهم بأنها إشكالية عويصة لا يمكن تجاوزها وغض الطرف عنها، ولذا جاء في الخبر كما (عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: رحم الله عبدا حببنا إلى الناس ولم يبغضنا إليهم، أما والله لو يرون محاسن كلامنا لكانوا به أعز وما استطاع أحد أن يتعلق عليهم بشيء ولكن أحدهم يسمع الكلمة فيحط إليها عشرا) [الكافي، الكليني ج ٨، ص ٢٢٩].

و(عن أبى جعفر عليه السلام قال: إن الله لم يدع الأرض إلا وفيها عالم يعلم الزيادة والنقصان من دين الله فإذا زاد المؤمنون شيئا ردهم وإذا نقصوا شيئا أكمله لهم ولولا ذلك لالتبست على المؤمنين أمورهم) [بصائر الدرجات، الصفار، ص ٣٥٢].

الرسول القائد والمشروع الرائد

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨].

الحد الفاصل بين الشعار والمشروع في التجربة النبوية: الرسول الأكرمﷺ جمع الناس على مشروع عملي لا على شعارات فضفاضة كما تفعل أنظمتنا العربية، في الوقت الذي يتوفر ما يمكن أن يكون أرضية صالحة لتحريك الشعوب العربية باتجاه مشروع عملي تجتمع عليه الأمة، وهكذا نريد أن يكون الاحتفاء بذكرى ولادة الرسول الأكرمﷺ، وهي الولادة التي كانت بداية لتشكيل مشروع الأمة، فلقد كان المشروع الرسالي الذي حمل مهمة تنفيذه وبلورته وتطبيقه الرسول الأعظمﷺ هو المشروع الذي أخرج الأمة إلى الوجود وعمل على تشكيلها ضمن خصوصياتها المتميزة التي صيرتها وحدة واحدة، ومن أجل ذلك كان الخلاص والإنقاذ منحصرين في المشروع النبوي عبر كل تفاصيله وجزئياته، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء ٦٥]، وقال على لسان نبيه الكريم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران ٣١].

ضرورات الحياة الكريمة في المشروع النبوي: من الخطأ اختزال مشاريع الأنبياء والأولياءعليهم السلام في الضرورات الدينية البحتة، واعتبار أن توفير الضرورات المعيشية هي شأن خارج اهتماماتهم الدينية، وخطأ هذه الفكرة يمكن أن يتبين لنا بكل وضوح من خلال هذا الحديث المروي عن رسول اللهﷺ ف(عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: قال رسول الله -ﷺ-: من أصبح وأمسى وعنده ثلاث فقد تمت

عليه النعمة في الدنيا: من أصبح وأمسى معافا في بدنه آمنا في سربه عنده قوت يومه فإن كانت عنده الرابعة فقد تمت عليه النعمة في الدنيا والآخرة وهو الإسلام) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٨، ص ١٤٨].

وهذه الكلمة الرائعة الجامعة يحدّد فيها رسول الله ﷺ ما هو المطلوب في استكمال مقتضيات المشروعية السياسية والدينية، والمتمثلة في:

١- توفر متطلبات السلامة الجسمية والصحة البدنية.

٢- توفر متطلبات الأمن والسلام الاجتماعي.

٣- توفر متطلبات العيش الكريم من مطعم ومشرب ومسكن وملبس.

٤- توفر متطلبات الحفاظ على الهوية الشخصية والكرامة الإنسانية.

ولأن التجربة النبوية تجاوزت حدود الشعارات وتحولت إلى مشروع يستكمل متطلباته وعناصره يوماً بعد يوم، ويبدع في تأسيس بناء سياسي واجتماعي واقتصادي وقيمي جديد تتفاعل فيه القيادة مع الأمة ضمن حركة متناغمة ومتناسقة في المبادئ والوسائل والغايات، فقد مدح الله تعالى المنتمين لهذا المشروع التغييري عن وعي وقناعة، ولو استلزم ذلك منهم تغيير قناعاتهم السابقة، والتي تستدعي بطبيعة الحال أن تتغير مواقعهم الاجتماعية، وهي مواقع لا يقبل كثير من الناس التضحية بها من أجل الحق والحقيقة، ومثل هؤلاء عناهم تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨].

حروب في ديار المسلمين
في سبيل إعادة صياغة وإنتاج مفاهيم المشروعية السياسية الدينية

روى النعماني في كتابه الغيبة عن الشدة التي تكون قبل ظهور صاحب الأمر عليه السلام ما نصه: (عن بشير بن أبى أراكة النبال -ولفظ الحديث على رواية ابن عقده- قال: لما قدمت المدينة انتهيت إلى منزل أبى جعفر الباقر عليه السلام فإذا أنا ببغلته مسرجة بالباب، فجلست حيال الدار، فخرج فسلمت عليه فنزل عن البغلة وأقبل نحوي فقال: ممن الرجل؟ فقلت: من أهل العراق، قال: من أيها؟ قلت: من أهل الكوفة، فقال: من صحبك في هذا الطريق؟ قلت: قوم من المحدثه، فقال: وما المحدثة؟ قلت: المرجئة، فقال: ويح هذه المرجئة إلى من يلجئون غدا إذا قام قائمنا؟ قلت: إنهم يقولون: لو قد كان ذلك كنا وأنتم في العدل سواء، فقال: من تاب تاب الله عليه، ومن أسرّ نفاقا فلا يبعد الله غيره، ومن أظهر شيئا أهرق الله دمه، ثم قال: يذبحهم -والذي نفسي بيده- كما يذبح القصاب شاته -وأومأ بيده إلى حلقه- قلت: إنهم يقولون: إنه إذا كان ذلك استقامت له الأمور فلا يهريق محجمة دم، فقال: كلا والذي نفسي بيده حتى نمسح وأنتم العرق والعلق -وأومأ بيده إلى جبهته-) [كتاب الغيبة- محمد بن ابراهيم النعماني، ص ٢٨٣-٢٨٤].

و(عن بشير النبال قال: لما قدمت المدينة قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنهم يقولون إن المهدي لو قام لاستقامت له الأمور عفوا، ولا يهريق محجمة دم، فقال: كلا والذي نفسي بيده لو استقامت لأحد عفوا لاستقامت لرسول الله صلى الله عليه وآله حين أدميت رباعيته، وشج في وجهه، كلا والذي نفسي بيده حتى نمسح نحن وأنتم العرق والعلق، ثم مسح جبهته) [ن م].

١- منذ مطلع القرن الخامس عشر الهجري وبلاد المسلمين تشهد حروبا من أجل إعادة صياغة مفاهيم المشروعية السياسية/ الدينية ومتطلباتها.

٢- هذه الحروب في سبيل إعادة صياغة وإنتاج مفاهيم المشروعية السياسية/ الدينية ستكون حروبا مفاهيمية وثقافية، دينية وعقائدية، طائفية ومذهبية، سياسية واجتماعية، عسكرية وميدانية، وفي الحقيقة هي حروب تصفيات أخيرة تبرز فائزاً واحداً فحسب. ولكن من سيكون هذا الفائز؟

٣- تتجاذب أطراف الحرب من أجل إعادة صياغة وتحديد مفاهيم المشروعية السياسية الدينية في العالم الإسلامي عدّة قوى تتمثل في: ١- القوى الخارجية المتمثلة أساساً في الولايات المتحدة الأمريكية. ٢- السلطات الحاكمة في العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه. ٣- القوى السلفية التكفيرية ومرجعياتها الخلفية المتمثلة في بيئتها السنية.

٤- هناك قوة رابعة تعمل منذ أمد طويل على هذا المشروع، بل هي التي ربطت وجودها وحياتها ونشاطها كله بالدفاع عن رؤية متميزة ومصادرة حول مفاهيم المشروعية السياسية الدينية، وأعني بهم الشيعة، الذين يمثلون القوة الصاعدة بكل اقتدار إلى الصدارة في مستقبل العالم الإسلامي.

٥- التحدي الكبير الذي يواجهه العالم الإسلامي انه يبتغي صياغة مفاهيم لمشروعية الحكم تمزج بين الديني والسياسي، وهو ما يستدعي التوفر على متطلبات أكثر تعقيداً، لأننا سنكون في مواجهة نظام ثنائي الحركة، ومثل هذه الأنظمة التي تعتمد مشروعية مزدوجة من الصعب حفظ التوازن الاجتماعي فيها ومن خلالها، إلا أن تتوفر على قدرات وإمكانيات استثنائية من حيث الأشخاص والظروف والمنهجيات، والرغبة في تحقيق مثل هذا النظام المزدوج المشروعية هو ما نلمح إشارة إليه في قول الرسول الأكرمﷺ: (من أصبح وأمسى وعنده ثلاث فقد تمت عليه النعمة في الدنيا: من أصبح وأمسى معافا في بدنه آمنا في سربه عنده قوت يومه فإن كانت عنده الرابعة فقد تمت عليه النعمة في الدنيا والآخرة وهو الإسلام) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٨، ص ١٤٨].

كشف المستور عن حديث الرويبضة المشهور

حينما تنحدر الأمة إلى أدنى مستوى ممكن من الالتزام والتدين والإنسانية، وحينما تلغي كل مقومات كرامتها وعزتها، وحينما تشوه كل معالم طهارتها ونقائها، لابد من قول كلمة وتبني موقف، حتى لو انزعج الآخرون ممن يريدون للأمة أن تبقى تميل كل الميل مع أوسخ شهواتها وأحط نزواتها، وكأنها الأنعام السائمة التي لا همّ لها سوى علفها، وليس هناك مستوى خلقي أدنى من أن تنشغل الأمة المحتلة أرضها المنتهك عرضها بتافهات الأمور ومحقرات القضايا، فقد جاء في مجلة «المرأة اليوم» العدد ٢١٦ الصادر في يوم السبت ٢٣ أبريل ٢٠٠٥ ما نصه: (استنساخ لسوبر ستار فلسطيني! قرّرت «بيالارا» مؤسسة أهلية فلسطينية، التجهيز لبرنامج جديد يشبه برنامج «سوبر ستار» بعنوان: «بال ستار»).

وفي الوقت الذي تنشر المجلة هذا الخبر فإنها تنعى المصير الذي آل إليه الفن العربي في هذا الزمن حينما تنقل عن بعض الفنانات قولها: (إن هناك أيادي خفية تلعب من وراء الستار بمحطات الفضائيات الغنائية وتدفع بها إلى هذا المنحدر الذي تسير نحوه بأقصى سرعة... إن هذه المحطات خير دليل على حالة الانحدار التي تعيشها الأمة العربية على مستويات كثيرة وليس الغناء فقط).

ولأن كل ما يحصل اليوم في وسط هذه الأمة هو تصديق لما أخبر به النبي الأكرمﷺ فإننا نستذكر هذا الحديث عنهﷺ، فقد روى السيوطي في الدرّ المنثور: (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال حج النبيﷺ حجة الوداع ثم أخذ بحلقة باب الكعبة فقال أيها الناس ألا أخبركم بأشراط الساعة فقام إليه سلمان رضي الله عنه فقال أخبرنا فداك أبى وأمي يا رسول الله قال: إن من أشراط الساعة إضاعة الصلاة

والميل مع الهوى وتعظيم رب المال فقال سلمان ويكون هذا يا رسول الله قال نعم والذي نفس محمد بيده فعند ذلك يا سلمان تكون الزكاة مغرما والفيء مغنما ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ويؤتمن الخائن ويخون الأمين ويتكلم الرويبضة قال وما الرويبضة قال يتكلم في الناس من لم يتكلم وينكر الحق تسعة أعشارهم ويذهب الإسلام فلا يبقى إلا اسمه ويذهب القرآن فلا يبقى إلا رسمه وتحلى المصاحف بالذهب وتتسمن ذكور أمتي وتكون المشورة للإماء ويخطب على المنابر الصبيان وتكون المخاطبة للنساء فعند ذلك تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس والبيع وتطول المنائر وتكثر الصفوف مع قلوب متباغضة وألسن مختلفة وأهواء جمة قال سلمان ويكون ذلك يا رسول الله قال نعم والذي نفس محمد بيده عند ذلك يا سلمان يكون المؤمن فيهم أذل من الأمة يذوب قلبه في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره ويكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية البكر فعند ذلك يا سلمان يكون أمراء فسقة ووزراء فجرة وأمناء خونة يضيعون الصلوات ويتبعون الشهوات فإن أدركتموهم فصلوا صلاتكم لوقتها. عند ذلك يا سلمان يجئ سبى من المشرق وسبى من المغرب جثاؤهم جثاء الناس وقلوبهم قلوب الشياطين لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا عند ذلك يا سلمان يحج الناس إلى هذا البيت الحرام تحج ملوكهم لهوا وتنزها وأغنياؤهم للتجارة ومساكينهم للمسألة وقراؤهم رياء وسمعة قال ويكون ذلك يا رسول الله قال نعم والذي نفسي بيده عند ذلك يا سلمان يفشو الكذب ويظهر الكوكب له الذنب وتشارك المرأة زوجها في التجارة وتتقارب الأسواق قال وما تقاربها قال كسادها وقلة أرباحها عند ذلك يا سلمان يبعث الله ريحا فيها حيات صفر فتلقط رؤساء العلماء لما رأوا المنكر فلم يغيروه قال ويكون ذلك يا رسول الله قال نعم والذي بعث محمدا بالحق) [الدر المنثور، جلال الدين السيوطي ج ٦، ص ٥٣].

كيف تصبح مثقفاً إسلامياً؟.. أصول بناء الثقافة الإسلامية

السؤال المهم والأساسي: هل الثقافة جمع معلومات أم بناء مهارات؟

ينظر الإسلام إلى المعرفة أو الثقافة بوصفها آلية تغيير وتطوير، وهذا ما نعيه على سبيل المثال من قول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: (لا تجعلوا علمكم جهلا ويقينكم شكا إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا) [نهج البلاغة، قصار الحكم ٢٧٤]، ومن قول الإمام الصادق عليه السلام: (العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، و العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه) [الكافي، الكليني ج١، ص٤٤].

ولعل الأصرح والأوضح في ذلك نهيه تعالى عن تحويل المناجاة بين الأشخاص، والتي هي في جوهرها عملية مثاقفة ومفاعلة، إلى ثرثرة لا تقدم ولا تؤخر شيئاً في واقع الإنسان، فقال سبحانه: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء ١١٤]. وتتميماً لهذا النهي الإلهي فقد جاء الأمر الإلهي بضرورة تصحيح مهام المناجاة والمثاقفة بين الأفراد فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة ٩].

في ضوء هذه النظرة لا يمكن أن تختزل الثقافة في اكتساب المعرفة وجمع المعلومات، وإنما هذه العملية تشكل إحدى أبعاد الثقافة، أو هي خطوة على طريق بناء ثقافة متحركة وفاعلة ومنتجة، وهو الأمر الذي يستدعي منا أن ننظر ونُنَظِر إلى الثقافة بوصفها قدرة على بناء واكتساب مهارات متعددة من أجل استكمال صياغة الهدف الأساسي والأول، وهو بناء مهارة التفكير المستقيم، وهي المهارة التي

تتوقف في وجودها وتحققها على بناء مهارات أربع أساسية عند الإنسان، وهي:

المهارة الأولى: مهارة الاستماع: وشعارنا القرآني فيها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر ١٨].

المهارة الثانية: مهارة المحادثة: وشعارنا القرآني فيها قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

المهارة الثالثة: مهارة القراءة: وشعارنا القرآني فيها قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥].

المهارة الرابعة: مهارة الكتابة: وشعارنا القرآني فيها قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم ١].

النتيجة: الذي نخلص إليه مما تقدم في محاولة الإجابة على سؤالنا الأساسي وهو: كيف تصبح مثقفاً إسلامياً؟ إن الثقافة هي مهمة تستهدف بناء وتحفيز وتوجيه قدرات التفكير المستقيم عند الإنسان المسلم، ضمن صياغة جديدة لكل قدرات ومصادر التواصل المعرفي بينه وبين الآخرين، والمتمثلة في مهارات الاستماع والمحادثة والقراءة والكتابة، وحينما تبنى كل هذه المهارات ضمن شرائطها اللازمة فإن ذلك يكون كفيلاً بتحقيق متطلبات الثقافة العلمية، وهي الثقافة المسئولة التي تستنفر كل مهارات التواصل المعرفي عند الإنسان، والتي يؤسس لها الله تعالى بقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء ٣٦]، ويؤسس لها الرسول الأكرم ﷺ في هذا الحديث: (عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الإنصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع، قال: ثم مه؟ قال: الحفظ، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: نشره) [الكافي، ج١، ص ٤٨].

الممارسة المؤسسة معرفياً

قال الإمام علي لكميل بن زياد: (يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ١٧١].

حينما ننطلق في ممارسة أي عمل صغيراً كان أم كبيراً، وسواء كان عملاً دنيوياً أم أخروياً، فإن نجاح العمل ووصوله إلى غايته المطلوبة منه لا يمكن أن يتحققا إلا إذا كان العامل للعمل والقائم به قد بنى عمله على معرفة وإحاطة تامة بمتطلبات نجاحه، وإلا فإن النتيجة لن تكون أكثر وأفضل من مقدمات العمل، وهو ما أراد الباري عزّ وجلّ أن يلفت نظرنا إليه بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٩-١١٠]، وهذه القاعدة التأسيسية التي يثير الباري تعالى الحديث عنها أجراها في مورد هو من أقدس الموارد، وهو المسجد، إذ قال مخاطباً رسوله الكريمﷺ قبل ما تقدم من آيات: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

والممارسة التي تخلو من تأسيس معرفي يقوم على أساس العلم وبناء الرؤية الناضجة والمكتملة لا يمكن أن تفرز إلا تخبطاً في الأداء على مستوى الواقع، كما قال تعالى في شأن المرابين مقارناً بينهم وبين من ينفق ماله في سبيل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ . . .﴾ [البقرة: ٢٧٤-٢٧٥].

كما أن هذه الممارسة لا يمكن أن تنتج إلا فشلاً في ما تحققه من نتائج، وهذا الفشل يواجه من قبل الإنسان بموقفين إيجابي وسلبي:

الموقف الإيجابي: وهو يقوم على الاعتراف بالفشل والبحث عن أسبابه ومحاولة التعرف عليها، من أجل عدم تكرارها والوقوع فيها مرة أخرى، ومهما كانت الأخطاء التي يرتكبها الإنسان وتفضي به إلى الفشل فإن الاعتراف بالخطأ ومحاولة تصحيحه تعد في حدّ ذاتها حسنة ومنقبة وفضيلة لهذا الإنسان، لأن الإنسان إنما خلق غير معصوم من الخطأ، وقد جعلت إمكانية الخطأ في حياته من أجل أن يخطأ ويتعلم من خطئه ويتراجع عنه، ولذلك قال تعالى في شأن التائبين من الخطأ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧-١٨].

الموقف السلبي: وهو الموقف الذي يقوم على أساس التنكر للخطأ ورفض الاعتراف بالفشل وعدم الإقرار بضرورة التصحيح، وهذا الموقف الذي ينطلق من حالة المكابرة النفسية والغرور الذاتي لا يمكن أبداً أن يساعد على تصحيح المواقف وتدارك الأخطاء، ومثل هذا الموقف بينه الإمام علي عليه السلام في حديثه عن بعض الناس واصفاً إياهم بالقول: (فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشوا رثا من رأيه ثم قطع به. فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ فإن أصاب خاف أن يكون أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب، جاهل خباط جهالات، عاش ركاب عشوات لم يعض على العلم بضرس قاطع، يذري الروايات إذراء الريح الهشيم، لا ملئ والله بإصدار ما ورد عليه، ولا هو أهل لما فوض إليه، لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهبا لغيره، وإن أظلم أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه) [نهج البلاغة، الخطبة ١٧].

أساسيات العمليات الأربع في التواصل المعرفي

يقوم التواصل المعرفي بين البشر في حالته الأولية والأساسية على مهارات أربع تندرج كلها تحت وظيفتي الإرسال والاستقبال، وهذه المهارات الأربع تتقابل بشكل ثنائي متكامل فمهارة التحدث يقابلها ويكمل مهامها ودورها مهارة الاستماع عند الطرف الآخر، ومهارة الكتابة يقابلها ويكمل مهامها ودورها مهارة القراءة، وتكامل المهارتين المتقابلتين هو ما يعطي لعمليتي الإرسال والاستقبال، اللتين لا يمكن أن تكتمل إحداهما من دون الأخرى، حيويتهما ويجعل منهما مهمة تفاعل وتكامل ثنائي تدمج الطرفين المتغايرين في نقطة توحد واشتراك، وبذلك يخلق ويوجد «المجال المشترك» بين الطرفين (المرسل والمستقبل).

وبالرغم من كون «المجال المشترك» يمكن أن يوجد عبر وسائل أخرى بين البشر، وهي وسائل لها دورها وأهميتها، إلا أن الوسائل الأساسية في التواصل المعرفي بين الناس، إنما هي: الاستماع والمحادثة، والقراءة والكتابة. والآن لنر ما هي الخطوات اللازمة لصقل وبناء وتطوير وتفعيل كل مهارة من المهارات الأربع المذكورة:

أولاً: مهارة الاستماع: وما تحتاجه هذه المهارة من أجل أن تصقل هو: ١- حسن الاستماع (مهارة حسية). ٢- حسن التفاعل (مهارة شعورية). ٣- حسن التقييم (مهارة عقلية).

ثانياً: مهارة المحادثة: وما تحتاجه هذه المهارة من أجل أن تصقل هو: ١- حسن المحادثة (مهارة حسية). ٢- حسن التفاعل (مهارة شعورية). ٣- حسن التقييم (مهارة عقلية).

ثالثاً: مهارة القراءة: وما تحتاجه هذه المهارة من أجل أن تصقل هو:

١- حسن القراءة (مهارة حسية). ٢- حسن التفاعل (مهارة شعورية). ٣- حسن التقييم (مهارة عقلية).

رابعاً: مهارة الكتابة: وما تحتاجه هذه المهارة من أجل أن تصقل هو:

١- حسن الكتابة (مهارة حسية). ٢- حسن التفاعل (مهارة شعورية). ٣- حسن التقييم (مهارة عقلية).

من خلال هذه الاشتراطات اللازمة في بناء المهارات الأربع المذكورة يتضح لنا أن التواصل المعرفي الجيد والراقي هو الذي يتوفر على مهارات ثلاث مترابطة ومتكاملة، كل واحدة منها تغطي بعداً من أبعاد الوجود الإنساني في علاقته بالطرف الآخر الذي يماثله ويشاكله في هذه الأبعاد، وتلك الأبعاد هي: الحس، والمشاعر، والتفكير.

اشتراطات بناء دائرة التفاعل في المجال التواصلي: قلنا أن هذه المهارات الأربع تشكل أهم المهارات المعرفية التي يحتاجها الإنسان في بناء وتأسيس دائرة التفاعل والعلاقات بينه وبين الإنسان الآخر، ومما ينبغي الإشارة إليه في بناء دائرة التفاعل أو ما أسميناه بـ «المجال المشترك» أن هذه الدائرة تشكل الأساس لجميع أنماط العلاقات السوية والمتوازنة بين بني البشر، لأن نمط العلاقة المفترضة بين الإنسان وأخيه الإنسان يمكن تصورها ضمن ثلاث صور هي:

الصورة الأولى: نمط التطابق: وفي هذا النمط من العلاقات يتوافق الطرفان توافقاً تاماً إلى حدّ إلغاء الخصوصية والتمايز بينهما، ومن الواضح أن هذا النمط من العلاقة ليس هو الصورة السوية للعلاقات البشرية.

الصورة الثانية: نمط التباين: وفي هذا النمط من العلاقات تتباين المواقف والأفكار والمشاعر إلى الحد الذي ينعدم الحدّ المشترك بين طرفي العلاقة، وهو أيضاً نمط غير سوي ولا مطلوب في أصل العلاقات الإنسانية.

الصورة الثالثة: نمط التواصل: وفي هذا النمط تقوم العلاقة بين أطرافها على أساس حفظ التمايز من جهة، وخلق المجال المشترك من جهة أخرى، وهو النمط السوي والمطلوب في العلاقات الثنائية بين بني الإنسان.

إشكالية الإلزام والالتزام في الحقوق المدنية

قال الرسول الأكرمﷺ: (من أصبح وأمسى وعنده ثلاث فقد تمت عليه النعمة في الدنيا: من أصبح وأمسى معافا في بدنه آمنا في سربه عنده قوت يومه فإن كانت عنده الرابعة فقد تمت عليه النعمة في الدنيا والآخرة وهو الإسلام) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٨، ص ١٤٨].

هذا التحديد الدقيق الذي ينطلق منه الرسول الأكرمﷺ لبيان ما تتمّ به النعمة على الإنسان يستبطن إشارة إلى هذه الأمور الأربعة المذكورة بوصفها حقوقاً مدنية إنسانية في الوقت نفسه، بمعنى أن السلامة، والأمن، والرفاهية تمثل أساس الحقوق الطبيعية والأولية لكافة البشر، وتكتمل منظمة الحقوق هذه حينما يضاف إليها متطلبات الحفاظ على الهوية، والمتمثلة في الإسلام بوصفه الدين الحق الذي لا يستكمل الإنسان -أي إنسان- هويته الإنسانية إلا من خلال إيمانه النظري به، والتزامه العملي به، وهو المعنى الذي لفت إليه القول المأثور: (العبودية جوهرة كنهها الربوبية).

ولكن من الواضح أن هذا التأسيس النظري لمثبتات الحقوق الإنسانية والمدنية، لا يكفي لتثبيت الالتزام بمقتضيات الحقوق على مستوى العمل والممارسة والتطبيق، لأن ما نحتاجه في هذا المجال هو توافر وسائل إجرائية إلزامية لها سلطة الفعل والتنفيذ، وفي ظل الوضع التنفيذي للحقوق في التجربة العربية الإسلامية المعاصرة كما القديمة يمكننا القول: أن هناك إشكاليتين تواجهان قضية الالتزام الحقوقي: الأولى إشكالية مفاهيمية، والثانية إشكالية تطبيقية. ولا تبدو المسألة الحقوقية مشكلة كبيرة على المستوى المفاهيمي، ولكنها مشكلة بل إشكالية معقدة للغاية على المستوى التطبيقي، ولاسيما في التجربة العربية الإسلامية، ومن

هنا نحتاج إلى التفكير أكثر في الآليات الإجرائية لتثبيت الالتزام بالحقوق المدنية، وما هي السبل العملية اللازمة لبناء توافقات اجتماعية مشتركة لتلافي مشكلة «غياب التوافق على المرجعية الإجرائية التي تشير أو ترشد لطريقة اتخاذ القرار الملزم».

ولعلّنا نلمح إشارة واضحة إلى تغلغل هذه الإشكالية في الذات العربية المسلمة حتى في الوقت الذي تنتصب عالية شعارات الإصلاح وضرورة تحقيق متطلبات الحكم الصالح عبر ما لا حظه تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٤ من مفارقة كبيرة أبرزها تحت عنوان: (دساتير تمنح الحقوق وقوانين تصادرها) [انظر التقرير المذكور، ص١٢-١٣].

بناء الآليات الإجرائية الملزمة: وتتمثل في التالي:

١- إنشاء المحاكم الدستورية المستقلة.
٢- استقلال السلطة القضائية.
٣- توطيد وبناء دور مؤسسات المجتمع المدني واستقلالها عن الدولة.
٤- تأسيس المؤسسات الرقابية واستقلالها عن السلطة التنفيذية.
٥- رفض حصر صلاحيات الحكم في رأس الدولة أو السلطة التنفيذية.
٦- تقنين وضبط ومراقبة وتوجيه عمل الأجهزة الأمنية.
٧- إلغاء قيم التفاوت بين المواطنين وتجريم ممارسة التمييز بأي شكل من أشكاله.

قال الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: (واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذي خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع» ثم احتمل الخرق منهم والعي ونح عنك الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته وأعط ما أعطيت هنيئا وامنع في إجمال وإعذار) [نهج البلاغة، الكتاب٥٣].

كيف تتحول مفاهيم حقوق الإنسان إلى ثقافة؟

مفاهيم حقوق الإنسان عجزت عن أن تتحول إلى ثقافة في عالمنا العربي والإسلامي، وما نحتاجه من أجل تفعيل العمل بمقررات الحقوق المدنية للإنسان هو العمل على تحويلها إلى ثقافة، ولذلك فإن السؤال المهم الذي يواجهنا في هذا المجال هو: كيف نحول مفاهيم حقوق الإنسان إلى ثقافة؟

وهنا توجد ملاحظات عديدة:

١- لابد من القول إن طريق التحول يعني أولاً أن نشتغل على المفاهيم، ونهتم بتحويلها إلى ثقافة ثانياً، لنصل إلى المقصود النهائي وهو التفعيل والتطبيق ثالثاً، وحينما عجزنا كجماعات عن تحويل المفاهيم إلى ثقافة اجتماعية في الواقع كشفنا عن عجزنا عن إيجاد وإبداع الواسطة بين الفكر والعمل، ولذا أضحت ثقافتنا في هذا المجال ثقافة تنظير لا ثقافة تفعيل.

٢- منظومة التراث العربي الإسلامي كما تكونت واستقرت واستمرت لا يمكن أن تسمح بتكوين الثقافة الاجتماعية المطلوبة عن حقوق الإنسان.

بناء الثقافة الحقوقية لا يمكن أن يكون في ظل نظرة طوباوية تقديسية للتاريخ تحول كل إخفاقاته إلى نجاحات.

٣- بناء الثقافة الحقوقية لا يمكن أن يكون إلا عبر تكوين نظرة نقدية، والنظرة التبريرية المستحكمة في الذات العربية هي معيق أساسي لبناء ثقافة حقوقية إنسانية.

٤- تشكل المجال السلطوي السياسي في تاريخ العرب والمسلمين ضمن امتداده العمودي أنتج ثقافة تهتم بالحقوق العمودية (حقوق الله/ الحاكم) على

حساب الحقوق الأفقية (حقوق الناس/ المحكومين).

ولعلّنا نجد في هذه الرسالة التي صدرت من أحد الولاة في العصر الإسلامي الأول ما يدلّل بشكل واضح على وجود هذه الإشكاليات جميعها في الممارسة العملية للحق، فقد خاطب سلمان الفارسي الخليفة الثاني في جواب رسالة أرسلها له بالقول: (أما بعد، فانه أتاني منك كتاب يا عمر تؤنبني وتعيرني، وتذكر فيه أنك بعثتني أميرا على أهل المدائن، وأمرتني أن أقص أثر حذيفة وأستقصي أيام أعماله وسيره ثم أعلمك قبيحها، وقد نهاني الله عن ذلك يا عمر في محكم كتابه حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ وما كنت لأعصى الله في أثر حذيفة وأطيعك. وأما ما ذكرت: أني أقبلت على سف الخوص وأكل الشعير، فما هما مما يعير به مؤمن ويؤنب عليه، وأيم الله يا عمر! لأكل الشعير وسف الخوص والاستغناء به عن رفيع المطعم والمشرب وعن غصب مؤمن حقه وادعاء ما ليس له بحق أفضل وأحب إلى الله عز وجل وأقرب للتقوى، ولقد رأيت رسول الله ﷺ إذا أصاب الشعير أكل وفرح به ولم يسخطه. وأما ما ذكرت: من إعطائي، فاني قدمته ليوم فاقتي وحاجتي، ورب العزة يا عمر! ما أبالي إذا جاز طعامي لهواتي وانساغ في حلقي ألباب البر ومخ المعز كان أو خشارة الشعير. وأما قولك: إني ضعفت سلطان الله وهنته وأذللت نفسي وامتهنتها حتى جهل أهل المدائن إمارتي واتخذوني جسرا يمشون فوقي ويحملون علي ثقل حمولتهم، وزعمت أن ذلك مما يوهن سلطان الله ويذله. فاعلم: أن التذلل في طاعة الله أحب إلي من التعزز في معصيته وقد علمت أن رسول الله ﷺ يتألف الناس ويتقرب منهم ويتقربون منه في نبوته وسلطانه حتى كأنه بعضهم في الدنو منهم، وقد كان يأكل الجشب ويلبس الخشن وكان الناس عنده قرشيهم وعربيهم وأبيضهم وأسودهم سواء في الدين. وأشهد أني سمعته يقول: «من ولى سبعة من المسلمين بعدي ثم لم يعدل فيهم لقي الله وهو عليه غضبان..») [مواقف الشيعة، الأحمدي الميانجي، ج٢، ص١١٢-١١٤].

صناعة مجتمع المعرفة
رؤية إسلامية في تحقيق متطلبات الثورة المعرفية

تتجاوز صناعة مجتمع المعرفة حدود الشعار وتنضح بعمق كبير لتكشف عن مهمة معرفية اجتماعية في غاية التعقيد والالتباس، لأننا لا نتحدث عن إنجاز مهمة تتعلق باستثناءات محدودة تتواجد داخل كل مجتمع بشري، مهما كان غارقاً في الجهل والظلامية، وإنما نتحدث عن رؤية تقوم على اعتبار المعرفة حقاً اجتماعياً وإنسانياً يجب أن ينعم به كل فرد من أفراد المجتمع كالحق في الصحة والمسكن والعمل، إلى غير ذلك من الحقوق الثابتة للكائن الإنساني بغض النظر عن دينه ومذهبه وجنسه ولونه وموطنه، وفي ضوء ذلك يعاقب كل من يعمل على مصادرة هذا الحق أو تغييبه أو المساس به، وهو المعنى الذي أراد الإسلام أن يفصح عنه حينما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة ١٥٩]، وحينما قال رسوله الكريمﷺ: (من كتم علما نافعا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٢، ص ٧٨]، وبمعناه حديثه الآخر عن (عن عبد الله ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله: أيما رجل آتاه الله علما فكتمه وهو يعلمه لقي الله عز وجل يوم القيامة ملجما بلجام من نار) [ن م، ج٢، ص٦٨].

ولأن صناعة مجتمع المعرفة أمر لا يمكن أن يتحقق إلا في ظلّ التزام أهل المعرفة بمسؤولياتهم وقيامهم بواجباتهم في تثقيف وتعليم الآخرين، فقد قسّم رسول اللهﷺ العلماء إلى قسمين فقال: (علماء هذه الأمة رجلان: رجل آتاه الله علما فطلب به وجه الله والدار الآخرة وبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به

ثمنا قليلا، فذلك يستغفر له من في البحور، ودواب البحر والبر، والطير في جو السماء، ويقدم على الله سيدا شريفا، ورجل آتاه الله علما فبخل به على عباد الله، وأخذ عليه طمعا، واشترى به ثمنا قليلا، فذلك يلجم يوم القيامة بلجام من نار، وينادي ملك من الملائكة على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان آتاه الله علما في دار الدنيا فبخل به على عباده، حتى يفرغ من الحساب) [ن م، ج٢، ص٥٤].

ويفصح الإمام علي عليه السلام عن مبدأ هذه المسؤولية التي يتحملها أهل العلم والمعرفة بقوله: (ما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا) [ن م، ج٢، ص٧٨].

وفي خطاب آخر له عليه السلام وهو باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله يربط بين أصل بعثة الأنبياء والغاية من إرسالهم عليهم السلام وبين استثارة وتحفيز القدرات المعرفية الكامنة في النفوس البشرية، فيقول: (فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة) [البحار، المجلسي ج ١١ ص٦٠].

ونلمح دلالة متميزة في عملية التأكيد على ضرورة المعرفة وأصالتها في التأسيس للمجال الاجتماعي في قول منسوب لابن عباس يقول فيه: (خيّر سليمان النبي بين العلم والملك والمال، فاختار العلم، فأعطى الملك والمال معه) [روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، ص ١١]، وأهمية هذا القول أنه يؤصل بشكل ملفت للنظر لأهمية المعرفة وتقدمها على السلطة والثروة في تأسيس الفضاء الاجتماعي والسياسي، وهي نظرة يرى الكثيرون أنها من منجزات الوعي المعرفي في عصرنا الحديث الذي أعاد ترتيب العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة عبر إعطاء الأولوية لحيازة المعرفة، ولكن هذا القول يفصح عن أن هذه النظرة تنتمي بكل عمق إلى المجال الديني الإسلامي، الذي حرص على تفجير القدرات المعرفية لدى الإنسان تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٥-٦].

استشراف مستقبل الأسرة في عالم مضطرب

قال الإمام علي عليه السلام: (إذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة أشياء تعرضوا لدخول الوهن عليهم وشماتة الأعداء بهم وهي: ترك الحسد فيما بينهم، لئلا يتحزبوا فيتشتت أمرهم، والتواصل ليكون ذلك حاديا لهم على الألفة، والتعاون لتشملهم العزة) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٣٢٣].

لا شك أن الأسرة التي تتشكل في ضوء علاقة النسب والمصاهرة والزواج كانت ومازالت هي المصنع الأساس لتكوين علاقات القرابة والنسب، وهي العلاقات الأساسية التي تقوم بمهمة الربط بين أفراد المجتمع الواحد، في مقابل الأسباب الأخرى التي تقوم بمهمة الربط في دائرة العلاقات الأخرى خارج دائرة القرابة، وقد تمّ التآمر على الدوام على العائلة أو الأسرة ومحاولة تدميرها بوصفها تحقق ترابطات تصطدم مع مصالح أصحاب السلطة والراغبين في الهيمنة، وهو ترابط لأهميته وحضوره تعرّض له القرآن الكريم محذراً من المساس به فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد ٢٢].

واليوم تتعرض الأسرة (الوحدة الأولى للترابط البشري) إلى تهميش وتفتيت -ولا يهمنا أن يكون مقصوداً أو غير مقصود- ربما سيذهب بكل ما تبقى لها من فاعلية وحضور طوال عشرات الآلاف من السنين في تاريخ البشرية، ويتم هذا العمل عبر ثلاث مسارات متوازية:

المسار الأول: تحريف معنى الأمومة: وهو المعنى الذي طاله الكثير من التشويه، وما يخبأه له المستقبل أكثر، إذ يقول جاك أتالي في «معجم القرن ٢١» ص٢٦: (من موضوع عمل، ستصبح الأمومة أداة استهلاك. سترغب كل امرأة

بإمكانية الحصول على ولد على هواها، ومع من تشاء، لا بل وحدها، مثلما نشتري شيئاً: عند ذاك نودّ أن ننجب، ليس كما ننتج، بل كما نستهلك، وتغدو الأمومة عملاً فردياً، أنانياً، وحتى في حدّه الأقصى، استمنائياً)، وفي ظل ما ستفرزه التقنيات الحديثة من علاقة مصنّعة بين الأم وأولادها عبر عمليات التخزين والاستنساخ ستتعرض للتشويه أقدس علاقة إنسانية على الإطلاق، وهو ما يفصح عنه «جاك أتالي» بقوله: (وقد يسود الاعتقاد بأن الأولاد الذين يولدون بهذه الطريقة، ستكون أمومتهم أكثر حناناً ورعاية. لكن لا شيء من ذلك سيتحقق، لأنه إذا بات الحصول على الأولاد سهلاً وتجريدياً، فسيعاملون مثل أدوات استهلاكية أو حيوانات منزلية لا نلبث أن نملّ منهم ونتخلى عنهم للمآوي المختصة أو نرميهم على جوانب الطرقات قبل الذهاب إلى العطلة) [ن م].

المسار الثاني: إلغاء الدور الأبوي: في خضم التحولات المعرفية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الكبرى التي ما فتأت المجتمعات الأوروبية تشهدها منذ القرن الخامس عشر الميلادي تمّ طمس معالم الدور الأبوي، واعتبرت الهيمنة الأبوية (الذكورية) عائقاً أمام تطوير المجتمع، وبموازاة الإعلان عن «موت الله» تم الإعلان عن موت الأب في هذه المجتمعات، (وإذا كانت الطبيعة تصنع الأمهات، فإن المجتمع هو الذي يصنع الآباء، وشيئاً فشيئاً يدمّرهم) [ن م، ص١٧].

المسار الثالث: تغيير طبيعة ووظيفة العلاقات الجنسية: وهو الأمر الذي يلقي عليه ضوءاً جاك أتالي بقوله: (سينفصل الجنس تدريجياً عن عملية الإنجاب حالما تصبح الحبة الذكرية متوافرة) و(سيتيح الاستنساخ الحصول على أولاد من دون شريك جنسي؛ وسيكون المستنسخ عندئذ شقيق والده أو والدته) [ن م، ص٧٤].

النتيجة: تفكك الأسرة بل دمارها وضياعها: إذ كما يقول جاك أتالي: (هي المؤسسة الأشد تقلباً في العمق) كما أنه (لم تعد العائلة تؤدي، بحالتها الراهنة، الدور الاجتماعي الذي كان يبرر وجودها، ويقوم على توريث الأولاد ثقافة واسماً) [ن م، ص١٣٩].

مهام الترويج والدعاية والإعلان في الخطاب الديني

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٧].

مثل الدين مثل بضاعة يريد صاحبها أن يبيعها للناس مما يستدعي منه القيام بمهام الترويج الإعلامي، وهي مهارة تحتاج إلى الكثير من الذكاء والبراعة وحسن الأداء، والمهمة الأولى التي تقع على عاتق من يريد التبشير بالدين والدعوة إليه تتمثل في تنمية قدرات الاستيعاب والفهم والهضم لتعاليم وأبعاد الدين، وهو الأمر الذي يفتح المجال لإنجاز المهمة الثانية والمتمثلة في القيام بمهام الدعوة والتبليغ على وجهها الأكمل والأفضل، وبذلك تكتمل مهام الاستقبال والإرسال عند الداعي نفسه، وهما الوظيفتان اللتان حدّد الرسول الأكرمﷺ متطلبات القيام بهما على الوجه الأكمل حينما قال: (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى) [الكافي، الكليني ج ٢ ص ٨٦].

وفي هذا السياق أيضاً تحدث الإمام الصادقعليه السلام مفصحاً عن متطلبات مهام الدعاية والإعلان والترويج للدين ضمن إجادة مهمتي الاستقبال والإرسال فقال: (رحم الله عبدا حببنا إلى الناس ولم يبغضنا إليهم، أما والله لو يرون محاسن كلامنا لكانوا به أعز وما استطاع أحد أن يتعلق عليهم بشيء ولكن أحدهم يسمع الكلمة فيحط إليها عشرا) [ن م ج ٨، ص ٢٢٩]، وعن عبد السلام بن صالح الهروي قال: سمعت أبا الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام يقول: رحم الله عبداً أحيا أمرنا

فقلت له: وكيف يحيى امركم؟ قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا) [عيون أخبار الرضا، الصدوق ج ٢ ص ٢٧٥].

ونجد في بيان قرآني هام إشارة صريحة إلى ما تتطلبه مهمة الترويج الديني والإعلام الرسالي من قدرات متميزة قد تتوفر لدى الآخرين أكثر مما تتوفر لدى حامل الرسالة، وذلك البيان القرآني يتمثل في قول موسى في شأن أخيه هارون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٣-٣٥].

وفي الإشارة إلى ضرورات الدعم والتعزيز في مجال التبليغ والدعوة إلى الله تعالى قال سبحانه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يس: ١٣-١٤].

وفي تقييم دقيق نستحضره من حديث أحمد بن حنبل يقدّم رسول الله ﷺ توضيحاً لمهارات الاستقبال والتمثل والإرسال عند كل شخص ممن وصله خبر رسالته التي بعث بها ﷺ، إذ يقول ابن حنبل: (وكان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا. وقال رسول الله ﷺ: إن مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب الأرض فكانت منه طائفة قبلت فأنبتت الكلاء والعشب الكثير وكانت منها أجاذب أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها ناسا فشربوا فرعوا وسقوا وزرعوا وأسقوا وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء فذلك مثل من فقه في دين الله عز وجل ونفعه الله عز وجل بما بعثني به ونفع به فعلم وعلم مثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله عز وجل الذي أرسلت به) [مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل ج ٤، ص ٣٩٩].

السياق الموحد للسقوط الحضاري

حينما نتحدث عن سقوط أمة أو انهيار حضارة، فلا يمكن أن نجزأ ذاك السقوط وهذا الانهيار، بالقول أنه سقوط أو انهيار في الجانب الأخلاقي دون الاجتماعي، أو في الاقتصادي دون السياسي، أو في السياسي دون الاجتماعي، أو في العسكري دون المدني. . . الخ، لأن التحضر والتمدن هو قدرة تنظيمية يبديها مجتمع ما في علاقته بمختلف الأنشطة الإنسانية، سواء ما تعلّق منها بتطوير أنظمة الحكم والإدارة، أم ما ارتبط منها بمنظومة العلاقات الاجتماعية، أم ما اختص بالشؤون المعيشية والاقتصادية، أم ما استهدف تفعيل متطلبات الالتزام الأخلاقي، ووفق هذه النظرة علينا دائماً أن نعيد النظر في اعتبار مظهر من المظاهر علامة تقدم وتحضر في أمة من الأمم إذا كانت هذه الأمة نفسها تشهد سقوطاً وانحلالا وتدهوراً في بقية جوانب وأبعاد حياتها.

وهذا ما نعنيه بـ «السياق الموحد للسقوط الحضاري»، ويقابله بطبيعة الحال ما يمكن أن نسميه بـ «السياق الموحد للرقي الحضاري»، ويلفت القرآن الكريم نظرنا إلى هذه النقطة عبر العديد من نصوصه التي تتحدث عن الترابط بين مكونات الفعل الحضاري، سواء تمثّل رقياً أو سقوطاً، وهذه بعض أهم النصوص القرآنية التي عنت ببيان وحدة السياق الحضاري وترابطه في المستويين السلبي والإيجابي:

أولاً: السياق الموحد للسقوط الحضاري: ونلمحه في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢١-٢٧]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٩].

ثانياً: السياق الموحد للرقي الحضاري: ونلمحه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم...﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وفي سياق التحذير من الفصل بين المسارات واعتبار ظاهرة ما دلالة على رقي حضاري منجز في الوقت الذي ليس الأمر كذلك في الواقع يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

السياق الموحد للسقوط الحضاري في حديث الرويبضة

قال الإمام علي عليه السلام: (فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة، فإنه منها قدم وإليها ينقلب. فالناظر بالقلب العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم أعمله عليه أم له. فإن كان له مضى فيه، وإن كان عليه وقف عنه. فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق. فلا يزيده بعده عن الطريق إلا بعدا من حاجته. والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح، فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع) [نهج البلاغة، الخطبة ١٥٤].

اهتم رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الرويبضة المشهور -وهو من أهم الأحاديث التي عنت بقراءة مستقبل أمة الإسلام ورصد التحولات الكبرى التي ستمرّ بها- بتحديد العديد من التداعيات والانهيارات التي ستكون أمراً واقعاً في حياة الأمة في يوم من الأيام، والملفت للنظر أن الشمولية التي يفصح عنها الحديث في تشخيصه لظواهر السقوط الحضاري تربط بين السياسي والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي، وبعبارة شاملة بين كل مظاهر الفعل والنشاط في الحياة الإنسانية، ممّا يوحي بمحاولة للكشف عن وحدة السياق الذي ينتظم الظواهر الإنسانية في ما تتخذه من مسار رقي وتقدم وتطور أو مسار سقوط وانهيار وتخلف.

ولا شك أن هذا الحديث النبوي -والذي سنعرض لنزر يسير من ترابطاته التي يفرضها بين مختلف ظواهر الاجتماع البشري- من المفترض أن يعطينا -نحن العرب والمسلمين- وعياً بحقيقة العملية التغييرية وكيف تتصاعد وترتفع بالإنسان إلى أعلى عليين، أو تنحدر وتتهاوى به إلى أسفل سافلين، ومن الخطأ محاولة تمرير تلك الفكرة التي تقول أننا كأمة يمكن أن نساير الآخرين ضمن حدود لا نتجاوزها،

لأنه لا مكان مفروض بين الجنة والنار، وهو الأمر الذي تصدقه هذه الشواهد التي يعني بسردها الصادق الأمين المصطفي الأمجد والرسول المسدّدﷺ، إذ يقول:

١- **في مجال غياب الالتزام الديني**: (إن من أشراط القيامة إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات، والميل مع الأهواء وتعظيم المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن وجوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره. قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي والذي نفسي بيده) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٦ ص ٣٠٦].

٢- **في مجال الاستبداد السياسي**: (يا سلمان إن عندها أمراء جورة، ووزراء فسقة، وعرفاء ظلمة، وأمناء خونة، فقال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي والذي نفسي بيده) [ن م].

٣- **في مجال الكساد التجاري والركود الاقتصادي**: (يا سلمان وعندها تشارك المرأة زوجها في التجارة، ويكون المطر قيظا، و يغيظ الكرام غيظا، ويحتقر الرجل المعسر، فعندها يقارب الأسواق إذا قال هذا: لم أبع شيئا وقال هذا: لم أربح شيئا فلا ترى إلا ذاما لله، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي والذي نفسي بيده) [ن م].

٤- **في مجال التجنيس السياسي الداعم للاستبداد الداخلي**: (يا سلمان: إن عندها يؤتى بشيء من المشرق وشيء من المغرب يلون أمتي فالويل لضعفاء أمتي منهم، والويل لهم من الله، لا يرحمون صغيرا، ولا يوقرون كبيرا ولا يتجاوزون عن مسيء، أخبارهم خناء، جثتهم جثة الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ قال: إي والذي نفسي بيده) [ن م].

٥- **في مجال الانهيار الأخلاقي**: (يا سلمان، وعندها تكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها، ويشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، ويركبن ذوات الفروج السروج فعليهن من أمتي لعنة الله، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه واله: إي والذي نفسي بيده) [ن م].

الإصلاح السياسي والديني
المطلب الدائم القائم في كل الأحوال والظروف

(عن بكر بن محمد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: أيها الناس مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يقربا أجلا ولم يباعدا رزقا) [وسائل الشيعة (آل البيت) الحر العاملي ج ٦١، ص ١٢٥].

تظل الدعوة إلى الإصلاح مطلباً قائماً في كل الأحوال والظروف، وبغض النظر عن طبيعة الأشخاص الذين يتعلق بهم، أو المواقف التي يستهدف تغييرها، ولذا أمرنا بممارسته كمهمة ضرورية، حتى لو لم نتمكن من الالتزام بكل مقتضياتها ومتطلباتها، فقد روى الحسن بن محمد الديلمى في (الإرشاد) عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: قيل له: لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى ننتهي عنه كله؟ فقال: لا بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وان لم تنتهوا عنه كله) [ن م، ص١٥١].

وفي هذا السياق جاء التشديد في العقوبة على أولئك الذين لا يلتزمون بمتطلبات الإصلاح، والقائمة أساساً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي الحديث (قال صلى الله عليه وآله: رأيت ليلة أسري بي إلى السماء قوما تقرض شفاههم بمقاريض من نار، ثم ترمى، فقلت: يا جبرئيل من هؤلاء؟ فقال: خطباء أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون) [ن م، ص١٥١-١٥٢]، وفي الخبر الآخر (عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله -في وصيته له- قال: يا أبا ذر يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار فيقولون: ما أدخلكم النار وإنما دخلنا الجنة بفضل تعليمكم وتأديبكم؟ فيقولون: إنا كنا نأمركم بالخير ولا نفعله) [ن م].

ولا يحق للإنسان المسلم أن يبرأ ذمته من القيام بهذه الفريضة إلا بعد أن يبدل جهده، ففي (مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: روي أن ثعلبة الحبشي سأل من رسول الله صلى الله عليه وآله، عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، ودع أمر العامة) [مستدرك الوسائل، النوري ج ٢١، ص ١٨٩].

ولأن الإصلاح عبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي ممارسة شرعية واجتماعية هادفة وواعية، فقد استلزمت شروطاً في القائم بها والداعي إليها، وهو ما حدّده الإمام علي عليه السلام في بعض كلامه، فعن (دعائم الإسلام: عن أمير المؤمنين عليه السلام، انه قال: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، وليس يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، إلا من كان فيه ثلاث [خصال]: رفيق بما يأمر به، رفيق بما ينهى عنه، عدل فيما يأمر به، عدل فيما ينهى عنه، عالم بما يأمر به، عالم بما ينهى عنه) [ن م].

ولأن العمل بهذه الفريضة أساس أيّ إصلاح مطلوب في المجتمع، فقد أمرنا بممارستها في ما بين بعضنا البعض، قبل أن نمارسها تجاه الآخرين، ففي الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (وأعينوا أنفسكم بلزوم الطريقة المستقيمة، وهجر الأمور المكروهة، وتعاطوا الحق بينكم، وتعاونوا عليه، وخذوا على يدي الظالم السفيه، مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، واعرفوا لذوي الفضل فضلهم) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٤، ص ٢٦٧].

قال الإمام الحسين عليه السلام: (وأني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي ابن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين) [البحار، ج٤٤، ص ٣٢٩].

إشكالية النهضة والتغيير في البيئة العربية

كانت كل محاولات الإصلاح والتغيير التي أنتجها العقل العربي (فردياً أو جماعياً) تنتهي في نهاية الأمر إما إلى استبداد فردي، أو إلى فوضى جماهيرية، وهذه الحالة صاحبت محاولات الإصلاح والتغيير في البيئة العربية منذ ارتحال الرسول الأكرمﷺ حتى عصرنا الراهن، وهو الإنطباع الذي قدمته فاطمة الزهراءعليها السلام عن طبيعة التغيرات الدراماتيكية التي حدثت في المجتمع العربي بعد ارتحال أبيها، فقالت بعد الذي جرى عليها وصار: (وابشروا بسيف صارم وهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا) [الأمالي، الطوسي، ص ٣٧٤].

ولم تمثل مرحلة الخلافة استثناء من هذه القاعدة فقد كانت تراوح بين الاستبداد الفردي وفوضى الجماهير، فتجربة السقيفة وما جرى فيها وصار إلى مرحلة محاصرة دار الخليفة الثالث عثمان من قبل الثوار شكلت تجسيداً واضحاً لنزعة الاستبداد الفردي وما يستتبعها من نهج في الإدارة السياسية، وشكلت مرحلة الثورة على عثمان وبطانته وما تلاها من أحداث إلى حين مقتل الإمام عليعليه السلام تجسيداً واضحاً لانفلات الجماهير وهو الأمر الذي رصده الإمام عليعليه السلام رصداً دقيقاً للغاية في خطبته المعروفة بالشقشقية، إذ يقول فيها: (فصغى رجل منهم لضغنه ومال الآخر لصهره مع هن وهن إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته، فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون) [نهج البلاغة، قسم الخطب، رقم ٣].

ومما يقدم دلالة واضحة على أن العقل العربي ظل عاجزاً عن تحقيق متطلبات النهضة والتغيير هو هذا النص البليغ الذي يكشف فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن تجليات الفوضى في الحراك السياسي للجماهير مما أعاقه عن أن يحقق متطلبات العدل الاجتماعي، التي لا يمكن أن تتحقق لا في ظل الاستبداد الفردي، ولا في ظل الانفلات الجماهيري، فقال في ما خاطب به رعيته: (أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي. استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا. أشهود كغياب وعبيد كأرباب؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيادي سبأ ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم، أقومكم غدوة وترجعون إلي عشية كظهر الحية، عجز المقوم وأعضل المقوم، أيها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم، يا أهل الكوفة منيت بكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمى ذوو أبصار. لا أحرار صدق عند اللقاء ولا إخوان ثقة عند البلاء. تربت أيديكم. يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر) [ن م، قسم الخطب، رقم ٩٧].

والتجربة الوحيدة التي مثّلت خروجاً عن هذه القاعدة الحاكمة في الاجتماع السياسي العربي هي تجربة الرسول، وفيها يقول تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح ٢٩].

إعادة إنتاج الفساد

كيف يتحول الفساد إلى مؤسسة بديلة عن الإصلاح؟

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

الإصلاح هو الأصل: حينما يحدثنا القرآن الحكيم عن بدء خلق الإنسان والوظيفة التي تحملها الإنسان في هذه الأرض من خالقها الذي استخلفه فيها فإنه يقول: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف ٥٦]، ويقول: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف ٨٥]، وتحدث تعالى عن نبيه صالح عليه السلام بالقول: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود ٦١].

مأسسة الفساد: ولكن في قبال هذه الوظيفة والمسؤولية التي تحملها الإنسان، فإنه سرعان ما عمل باتجاه معاكس ليتخلى عن مسؤوليته تلك، ويبدأ في ممارسة الفساد والإفساد في الأرض، ليتحول من ثم الفساد إلى ظاهرة تستعصي على الحل، وتتعقد من خلالها كل مظاهر الحياة الإنسانية، وهو الأمر الذي نبّه عليه الباري سبحانه بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم ٤١].

خطورة التأسيس للفساد: ممارسة الفساد مسألة غير مشروعة أبداً وبأي حال من الأحوال لأنها تلغي كل جدوى للمشروع الإصلاحي، وهذا ما أرادت أن تقوله

الأحاديث الدينية التي حذرت من التأسيس للفساد عبر أيّة فكرة أو ممارسة، فـ(عن أبي جعفر عليه السلام قال: أيما عبد من عباد الله سن سنة هدى كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وأيما عبد من عباد الله سن سنة ضلال كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) [ثواب الأعمال، الصدوق، ص ١٣٢].

مواقع الناس في التأسيس للفساد: يقول الإمام علي عليه السلام في خطبة له: (أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود، يعد فيه المحسن مسيئا، ويزداد الظالم فيه عتوا، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسال عما جهلنا، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا. فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد إلا مهانة نفسه وكلالة حده ونضيض وفره، ومنهم المصلت لسيفه، والمعلن بشره، والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه وأوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرعه، ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا ومما لك عند الله عوضا. ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف من نفسه للأمانة واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية. ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه، فقصرته الحال عن حاله فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة وليس من ذلك في مراح ولا مغدى. وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد ناد، وخائف مقموع، وساكت مكعوم، وداع مخلص، وثكلان موجع، قد أخملتهم التقية وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج، أفواههم ضامرة، وقلوبهم قرحة، وقد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا. فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ وقراضة الجلم واتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم) [نهج البلاغة، الخطبة ٣٢].

تأثير غياب الجماعات المنظمة
في تشكيل الاجتماع السياسي الإسلامي

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات ١٣].

تنقسم الجماعات الإنسانية إلى قسمين رئيسيين:

١- الجماعات الأولية الطبيعية (الأسرة).

٢- الجماعات الثانوية المنظمة (المؤسسة).

وهذا التقسيم الذي يعتمده الاجتماعيون يمكننا أن نضعه ضمن تأطير آخر يعتمد طبيعة الدوافع التي تدفع الإنسان الفرد لتشكيل الجماعات الإنسانية وتثبيت انتماءه إليها ومحافظته على استمرارها وبقائها، ويعتمد هذا التأطير التقسيم التالي:

١- جماعات تنشأ بدوافع بيولوجية طبيعية (بمعنى أنها تلبي حاجات غريزية فطرية للإنسان) كالأسرة التي تنشأ تكوينياً وتلبي طموحات أولية.

٢- جماعات تنشأ بدوافع سيكولوجية شعورية (بمعنى أنها تلبي حاجات نفسية وجدانية للإنسان) كجماعات المرح والمسامرة التي تنشأ لتلبية طموحات الأنس ورغبات التفريغ والاستراحة.

٣- جماعات تنشأ بدوافع أيديولوجية تنظيرية (بمعنى أنها تلبي حاجات عقلية وفكرية للإنسان) وذلك كما هو الشأن في المجموعة الدينية والمذهبية التي تشكل الإطار الأوسع لانتماء الإنسان وتداخلاته.

وبعد اعتماد هذا التقسيم يأتي الدور للفحص عن التنظير الذي حاول الإسلام أن

يقدمه لكل دور من الأدوار التي يمكن لكل واحدة من هذه الجماعات ممارسته في الحياة العامة، وعلاقة الدور المنوط بكل واحدة منها بالأخرى من حيث خدمة وتحقيق الهدف الكلي والشامل لتشكيل الاجتماع السياسي الإنساني ضمن مواصفاته وتحديداته الوجودية الخاصة، والمتمثل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

في مقابل الجماعات المنظمة كانت الجماعات الفوضوية ذات الأطر الغائمة والمنافع المؤقتة تتكاثر وتتحرك بسرعة في الوسط الإسلامي الاجتماعي العام مما أدى في نهاية المطاف إلى غلبة هذه الجماعات وتقلص أو انعدام دور وتأثير الجماعة المنظمة التي أرادها الإسلام تجسيدا حيا لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٥]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف ٤].

ومع الأيام تحولت الجماعة المسلمة المنظمة ذات الدور الواضح والأهداف المحددة إلى تشكيلات فوضوية مشتتة، تتضخم وتكبر من حيث الحجم والعدد، ولكنها تصغر من حيث قوة الدور وسلامة الأداء، وهو غثاء السيل الذي وصلت الأمة أن تكون صورة مطابقة له في الحديث المشهور عنه ﷺ، إذ يقول ﷺ: (يوشك أن تداعى الأمم عليكم تداعي الأكلة على قصعتها، قال قائل منهم: من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من عدوكم المهابة منهم، وليقذفن في قلوبكم الوهن!! قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت) [ميزان الحكمة، الريشهري، ج١، ص ١١٠].

والخلاصة أن الاجتماع الإسلامي انتهى في نهاية المطاف إلى أن يتشكل بوصفه اجتماعاً بشرياً يعتمد الأطر الفوضوية أكثر مما يعتمد نقيضها من أطر تنظيمية واعية وفاعلة وممنهجة.

الوضع الحقوقي وإشكالية التعسف في استخدام الحق

الوضع الحقوقي للأطراف ينشأ بحكم علاقة تكونت بين طرفي الوضع الحقوقي، ومن نشأة العلاقة ينشأ ما نسميه بـ «الوضع الحقوقي» أو «وضعية حقوقية»، تتحدد من خلالها طبيعة الواجبات والحقوق المتبادلة بين طرفي أو أطراف العلاقة، ونفس الوضعية الحقوقية تهيأ المجال لنشوء ما يسمى بـ «التعسف في استخدام الحق»، ومن التعسف في استخدام الحق تنشأ آليات الضبط والتقييد التي تستهدف إيقاف هذا التعسف والتحقق منه، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الثلاثية (العلاقة المنشأة/ الوضعية الحقوقية/ التعسف في استخدام الحق/ آليات الضبط والتقييد) في جملة من الخطابات القرآنية، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء ٣٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: ١٢٨-١٢٩].

٣- قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ

فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء ٣٤].

٤- ومن الشواهد التاريخية في السيرة النبوية قضية سمرة بن جندب الذي تعسف كثيراً في استخدام حقه حتى رأى الرسولﷺ ضرورة مواجهته وإيقافه عند حدّه، كما توضح ذلك الرواية التالية: (عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن سمرة بن جندب كان له عذق [النخل بحملها] في حائط لرجل من الأنصار وكان منزل الأنصاري بباب البستان وكان يمر به إلى نخلته ولا يستأذن فكلّمه الأنصاري أن يستأذن إذا جاء فأبى سمرة فلما تأبى جاء الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه وخبره الخبر فأرسل إليه رسول الله ﷺ وخبره بقول الأنصاري وما شكا، وقال: إن أردت الدخول فاستأذن فأبى فلما أبى ساومه حتى بلغ به من الثمن ما شاء الله فأبى أن يبيع فقال: لك بها عذق يمد لك في الجنة فأبى أن يقبل فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: اذهب فاقلعها وارم بها إليه فإنه لا ضرر ولا ضرار) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٥، ص ٢٩٢-٢٩٣].

ومن الطبيعي والضروري أن توجد آلية قانونية لإيقاف عملية التعسف في استخدام الحق، لكي تكتمل الصورة ويتحقق العدل المطلوب بوصفه المبدأ الحاكم على كل الممارسات المشروعة في دنيا البشر، إذ كل ممارسة اتصفت بنقيضه -أي الظلم- فهي محرمة عقلا وشرعاً بلا أي إشكال، وتحديد وتفعيل الآلية القانونية والشرعية التي من خلالها يمنع أيّ طرف من الأطراف من التعسف في استخدام الحق الذي له هو ما يمكن أن يعطي ضمانات عملية للأطراف الضعيفة في العلاقة بأن هناك من يرعى حقوقها، ويمنع من إهدارها، أو تضييعها، أو التلاعب بها، وبهذا ينضم الرادع القانوني العملي الذي يعمل من الخارج إلى الرادع الديني الشرعي الذي يعمل من الداخل ليستكملا دورهما معاً في تعزيز الحق وتفعيل مقتضياته، وردع الباطل وإزاحة مستلزماته.

يوم الغدير.. قراءة في متطلبات تحديد خريطة المسار

قال رسول الله ﷺ في آخر كلام له في جماعة المسلمين: (أيها الناس إني قد جاءني من أمر ربي ما الناس إليه صائرون، وإني قد تركتكم على الحجة الواضحة ليلها كنهارها، فلا تختلفوا من بعدي كما اختلف من كان قبلكم من بني إسرائيل أيها الناس إنه لا أحل لكم إلا ما أحله القرآن، ولا أحرم عليكم إلا ما حرمه القرآن، وإني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا ولن تزلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي هما الخليفتان فيكم، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فأسائلكم بما ذا خلفتموني فيهما؟ وليذادن يومئذ رجال عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل، فتقول رجال أنا فلان وأنا فلان، فأقول أما الأسماء فقد عرفت ولكنكم ارتددتم من بعدي، فسحقا لكم سحقا) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٨٢، ص ١١١].

إن أيّ مسار يستهدف الوصول إلى غاية ما لا مناص له من اتخاذ خريطة يسير وفقها، وفي هذا الشأن تتحدد مواقف الناس ضمن مسارات أربعة لا خامس لها، وهي:

١- من يسير بلا أيّة خريطة، ومن الطبيعي أن لا يصل مثل هذا الإنسان إلى أيّ هدف أو مقصد، لأنه لا مقصد ولا هدف له أساساً.

٢- من يسير وفق خريطة خاطئة ومضللة، ومن الطبيعي أيضاً أن يضيّع هذا الإنسان مقصده ويخطأ هدفه، لأن الخريطة المضللة لا يمكن أن توصل من يتبعها إلى المقصود وإلا لم تكن مضللة وخاطئة.

٣- من يضع لنفسه أكثر من خريطة يسير وفقها، وهذا الإنسان يتيه ويضل،

ولا يمكن أن يصل إلى مقصوده، ومن هنا حذرنا تعالى من نهج هذا السلوك فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ١٥٣].

٤- من يسير وفق خريطة واحدة مصيبة، وهو الوحيد من الناس من يمكنه الوصول إلى المقصود ونيل المرغوب، وهذه الخريطة هي التي حدّدها تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٣].

وحادثة التنصيب في يوم الغدير أرادت أن تفصح عن هذه المسارات لتحدد من بينها المسار المطلوب والصحيح، فأمر النبيﷺ المسلمين بالنزول في غدير خم وانتظر المتأخرين وأمر المتقدمين بالرجوع، ثم أمرهم جميعاً بمبايعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام بالولاية والمتابعة، وأن يكونوا له كما كانوا لرسول اللهﷺ في الطاعة والإنقياد والمتابعة، إذ هو الأقدر على تحديد متطلبات المسير الصحيح، وهو الشخصية التي تحدثت ربيبة النبوة البضعة الطاهرة الزهراء المعصومةعليها السلام عنها بالقول: (ويحهم، أنى زحزحوها عن أبي الحسن! ما نقموا والله منه إلا نكير سيفه، ونكال وقعه، وتنمره في ذات الله، وتالله لو تكافوا عليه عن زمام نبذه إليه رسول الله ﷺ لا عتلقه، ثم لسار بهم سيرا سجحا، فإنه قواعد الرسالة، ورواسي النبوة، ومهبط الروح الأمين والطبين بأمر الدين في الدنيا والآخرة ﴿أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، والله لا يكلم خشاشة، ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلا رويا فضفاضا، تطفح ضفته، ولأصدرهم بطانا قد خثر بهم الري غير متحل بطائل إلا بغمر الناهل وردع سورة الساغب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض) [الأمالي- الشيخ الطوسي ص ٣٧٤].

معركة الإنسان والشيطان
تجاذبات العقل والهوى في إدارة النفس البشرية

يقول الإمام علي عليه السلام: (العقل صاحب جيش الرحمن و الهوى قائد جيش الشيطان والنفس متجاذبة بينهما فأيهما غلب كانت في حيزه) [عيون الحكم والمواعظ- علي بن محمد الليثي الواسطي ص ٦٤].

منذ اللحظة الأولى التي شاء ربّ العزة والجلال أن يوجد الإنسان على وجه الأرض استثار إبليس اللعين كل حقده وتكبره وغروره وعداوته في مواجهة هذا المخلوق المكرم، وقالها صريحة مدوية متحدياً ربّ العزّة والجلال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء ٦٢]، وأكّد هذا التحدّي بقوله في محلّ آخر: ﴿.. وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ..﴾ [النساء: ١١٨-١١٩]. وفي مقابل قول الشيطان اللعين هذا أجابه ربّ العزّة والجلال في ما حكاه الذكر الحكيم بالقول: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

تتمظهر وتتموضع ساحة هذه المعركة بين النفس والشيطان، والتي لا مناص ولا مفر من أن يخوضها كل إنسان عاقل قادر ضمن مستويات ثلاث، هي:

١- المعركة في ساحة الممارسات والأعمال (الطور الحسي).

٢- المعركة في ساحة المشاعر والنوايا (الطور المثالي).

٣- المعركة في ساحة الأفكار والتصورات (الطور العقلي).

بنجاح الإنسان في خوض المعركة في كل أطوارها ومستوياتها وتجلياتها فإنه يستحق مرتبة الشرف الرفيع ويحظى بخطاب: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

ومما قاله علي عليه السلام في شأن هذه المعركة: (فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله. فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق لكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب. وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قذفا بغيب بعيد، ورجما بظن مصيب. صدقه به أبناء الحمية وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية. حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي. استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم. فأقحموكم ولجات الذل، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطأوكم إثخان الجراحة طعنا في عيونكم، وحزا في حلوقكم، ودقا لمناخركم، وقصدا لمقاتلكم، وسوقا بخزائم القهر إلى النار المعدة) [نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢].

ويتساوق كل طور من الأطوار المتقدمة المذكورة مع مرتبة من مراتب النفس الثلاثة، فالطور الأول هو طور النفس الأمارة بالسوء، والطور الثاني هو طور النفس اللوامة، والطور الثالث هو طور النفس المطمئنة.

والكثرة الكاثرة من الناس لا تتجاوز الطور الأول ولا تنفك عنه، وقلة قليلة منهم تبقى في الطور الثاني، أما الطور الثالث فلا يصل إليه إلا الشاذ النادر من البشر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ٧-١٤].

الثورة الحسينية.. منهجية راقية في الوعي والممارسة

روى (المفيد في الإرشاد: عن علي بن الحسين عليه السلام: إن الحسين عليه السلام قال لأخته زينب: «يا أختاه إني أقسمت عليك فأبري قسمي، لا تشقي علي جيبا، ولا تخمشي علي وجها، ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت») [مستدرك الوسائل، النوري ج٢، ص ٤٥١-٤٥٢]

أفرزت الثورة الحسينية عدّة تداعيات شكلت منهجيات تنبيه وإثارة للوعي الديني وتحفيز للممارسة الهادفة، وتمثلت هذه التداعيات في مظاهر عديدة تستهدف إحياء المناسبة والتواصل مع الحدث، وأهمها: الخطابة الحسينية، والشعائر الحسينية، والممارسات المحتفة بإحياء الموسم الحسيني، وكل هذه المظاهر ملزمة بأن تكون تجسيداً حقيقياً للحدث الذي انطلقت منه ورفعت شعاراته، وهو الثورة الحسينية. . تلك الثورة المكتملة في أدائها، والراقية في أساليبها، والمتعالية في أهدافها وغاياتها.

فالخطابة الحسينية لابد أن تشكل رسالة وعي ودعوة إصلاح ومنهج نقد بناء، تستهدف ملاحقة كل الأخطاء التي تمثل مظاهر فساد تنتشر في المجتمع من أجل إصلاحها والتناهي عنها، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ١٠٤].

والشعائر الحسينية لا مناص من أن تكون تعبيراً دقيقاً عن مضمون الثورة الحسينية وانعكاساً موازياً للغايات التي انطلقت من أجل تحقيقها، من دون أن تدخل فيها أيّة ممارسات تبتدعها أهواؤنا القاصرة وتفرض ممارستها في أجوائنا ثم تنسبها

إلى الدين وإلى الحسين عليه السلام من دون أيّ دليل أو مسوّغ شرعي، وربما صارت بعض الممارسات في هذا المجال تسيء إلى القضية الحسينية أكثر مما تحسن إليها.

وأما الممارسات المحتفة بإحياء الموسم الحسيني، فهي أمور لا يجوز لنا أن نتغافل عنها معتقدين أنها لا تشكل جزءاً من شعائرنا، لأن الموقع الكبير الذي تحتله جماهير المتفرجين من الناس قد يشكل في الكثير من الأحيان مظهراً سلبياً يعيش العديد من حالات التراخي والتساهل في الالتزام بمتطلبات الموقف الشرعي، مما يفسح المجال لأن تبرز ظواهر سلبية لا شرعية على هامش القضية التي لم تستهدف ولم ترد إلا إحياء الشريعة وأمر الدين في النفوس، كما عبّر صاحب الثورة نفسه حينما قال: (وأني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي ابن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين) [البحار، ج٤٤، ص ٣٢٩].

ولأن الثورة الحسينية لم تستهدف إلا الإصلاح فقد كان البكاء عليها يمثل قيمة كبرى، فـ(عن أبي هارون المكفوف قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا هارون أنشدني في الحسين عليه السلام، قال: فأنشدته، فبكى، فقال: أنشدني كما تنشدون – يعني بالرقة– قال: فأنشدته: امرر على جدث الحسين * فقل لأعظمه الزكية قال: فبكى، ثم قال: زدني، قال: فأنشدته القصيدة الأخرى، قال: فبكى، وسمعت البكاء من خلف الستر، قال: فلما فرغت قال لي: يا أبا هارون من أنشد في الحسين عليه السلام شعرا فبكى وأبكى عشرا كتبت له الجنة، ومن أنشد في الحسين شعرا فبكى وأبكى خمسة كتبت له الجنة، ومن انشد في الحسين شعرا فبكى وأبكى واحدا كتبت لهما الجنة، ومن ذكر الحسين عليه السلام عنده فخرج من عينه من الدموع مقدار جناح ذباب كان ثوابه على الله ولم يرض له بدون الجنة) [كامل الزيارات، بن قولويه ص ٢٠٨].

الواقعية السياسية عند الشيعة بين الثورة والتقية

ثمة سؤال ملح يبرز أمام الباحث في تاريخ الشيعة السياسي، وهو كيف استطاع الشيعة الجمع والتوفيق بين ممارستين تنبعث كل منهما عن رؤية تبدو ظاهرياً مناقضة ومنافية للأخرى، وهاتان الرؤيتان هما الثورة والتقية؟

وقد تبدو محاولة الإجابة على هذا السؤال عبر دراسة الخلفيات العقيدية والتاريخية للشيعة هي الطريق الأسلم لتقديم إجابة مقنعة عن هذا السؤال، فالنظام العقيدي عند الشيعة تمثل الإمامة (القيادة المعرفية والاجتماعية والسياسية والدينية) محوره الأساسي، وفي مراحلها التأسيسية والأولى تتبلور الإمامة كممارسة عبر شخصيتين مهمتين مثلا حالة فريدة في تاريخ الإمامة، وهما الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام، وهما اللذان صرّح جدهما المصطفى صلى الله عليه وآله بإمامتهما على كل حال، سالما أو حاربا، حتى أن ابن شهر آشوب كان يقول: (واجتمع أهل القبلة على أن النبي قال: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا. واجتمعوا أيضا انه صلى الله عليه وآله قال: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة) [مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب ج ٣، ص ١٦٣].

والجميل في الأمر أن يتمثل كل من الحسن والحسين عليهما السلام منهجاً يبدو مغايراً لمنهج الآخر، بحسب ما اقتضته الظروف والمصالح والأوضاع، وأهمية هذا التباين الظاهري في المواقف هو صدوره من شخصين شهد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بإمامتهما قاما أو قعدا، وكأنما كان في هذه الكلمة إشعار منه بكون الإمامة قيادة قوامها ممارسة الثنائيات بحسب ما تستدعيه الظروف، من دون أن يحكمها منهج واحد في العلاقات، ومن الممكن أن تصدر هذه الثنائيات من القيادة الواحدة، فضلاً

عن القيادتين المتخالفتين في ما تحيط بهما من ظروف وأوضاع، تقتضي منهما اتخاذ مواقف متغايرة، ولو كانا من مدرسة واحدة، بل حتى لو كانا أخوين من أب وأم.

وهذا التباين في المواقف السياسية الذي أصل للواقعية كمنهج في الممارسة السياسية عند الشيعة عبر تاريخهم النضالي والجهادي الطويل، كان من الصعب على الكثيرين فهم التناقض الظاهري بين أطرافه، والتي تأرجحت بين الثورة والمواجهة كما كان الشأن بالنسبة لموقف الإمام الحسين عليه السلام من السلطة الأموية ممثلة في يزيد، وبين التقية والمصالحة كما كان الشأن بالنسبة إلى موقف أخيه الأكبر الإمام الحسن عليه السلام من نفس السلطة متمثلة في معاوية، وعدم التفهم هذا برز حتى عند بعض الشيعة من أتباع منهج مدرسة أهل البيت عليهم السلام، كما يبدو لنا جلياً في هذه الرواية التي تفصح عن حوار جرى بين الإمام الحسن عليه السلام وأحد مواليه بهذا الشأن، ف(عن أبي سعيد عقيصا قال قلت للحسن بن علي بن أبي طالب يا بن رسول الله لم داهنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وان معاوية ضال باغ؟ فقال: يا أبا سعيد ألست حجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماما عليهم بعد أبي عليه السلام؟ قلت بلى قال: ألست الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟ قلت بلى قال فانا إذن إمام لو قمت وأنا إمام لو قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كنت إماما من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفه رأيي فيما أتيته من مهادنة أو محاربة وان كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبسا ألا ترى الخضر عليه السلام لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضى هكذا أنا، سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل) [علل الشرائع، الشيخ الصدوق ج ١، ص ٢١١].

إشكاليات القيادة والإتباع في دائرتي الفهم والالتزام

قال الله تعالى في ما حكاه من قول رسوله الأكرمﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف ١٠٨].

تتخلل العلاقة بين القادة والأتباع إشكاليات عديدة تتولد حيناً من سوء الفهم، وحيناً آخر من سوء الالتزام، هذا كله إذا ما افترضنا أن القيادة قادرة بحسب ما يتوفر لها من إمكانيات ذاتية وقدرات خاصة على تجاوز الإشكاليات والخلل في مجال أدائها الشخصي في ما يربطها بالأتباع من علاقة، أما إذا كانت القيادة هي الأخرى تتمثل قليلاً أو كثيراً من القصور أو التقصير في أدائها وإدارتها فإن ذلك سيسهم بلا إشكال في مضاعفة الأخطاء وزيادة احتمالات الفشل في أداء الطرفين، وفي هذا المحل نلقي الضوء على بعض أهم النصوص التي تثير هذه الإشكالية ضمن حالتها الأولى:

١- **حديث الرسول في مستويات التلقي منه**: (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، وكان منها طائفة طيبة فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس وشربوا منها، وسقوا وزرعوا، و أصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءا ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله، وتفقه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ١ ص ١٨٤].

٢- **حديث الصادق في أسباب اختلاف الفهم**: (عن إسحاق، قال قلت لأبي

عبد الله عليه السلام: الرجل آتيه أكلمه ببعض كلامي فيعرف كله ومنهم من آتيه فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كله ثم يرده علي كما كلمته، و منهم من آتيه فأكلمه فيقول: أعد علي. فقال: يا إسحاق أو ما تدري لم هذا؟ قلت لا. قال الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرف كله فذاك من عجنت نطفته بعقله، وأما الذي تكلمه فيستوفي كلامك ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركب عقله في بطن أمه وأما الذي تكلمه بالكلام فيقول أعد علي فذاك الذي ركب عقله فيه بعدما كبر، فهو يقول أعد علي) [البحار، ج١، ص٩٧].

٣- **حديث الأمير في أنواع الأتباع**: (هاه إن ههنا -وأشار بيده إلى صدره- لعلما جما لو أصبت له حملة، بلى أصبت لقنا غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، ومستظهرا بحجج الله عز وجل على خلقه، وبنعمه على أوليائه ليتخذه الضعفاء وليجة دون ولي الحق. أو منقادا لحملة العلم لا بصيرة له في أحنائه ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، ألا لاذا ولا ذاك) [كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص ٢٩١].

٤- **حديث الصادق في أصناف طلبة العلم**: (علي بن إبراهيم رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: طلبة العلم ثلاثة فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل والمراء، وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف يطلبه للفقه والعقل، فصاحب الجهل والمراء موذ ممار متعرض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم، قد تسربل بالخشوع وتخلى من الورع فدق الله من هذا خيشومه، وقطع منه حيزومه وصاحب الاستطالة والختل، ذو خب وملق، ويستطيل على مثله من أشباهه، ويتواضع للأغنياء، من دونه، فهو لحلوائهم هاضم، ولدينه حاطم، فأعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره، وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر، قد تحنك في برنسه، وقام الليل في حندسه، يعمل ويخشى وجلا داعيا مشفقا، مقبلا على شأنه، عارفا بأهل زمانه، مستوحشا من أوثق إخوانه، فشد الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه) [الكافي، الشيخ الكليني ج ١، ص ٤٩].

مرتكزات الإصلاح الشامل في الثورة الحسينية

ما هي مرتكزات الإصلاح الشامل في الثورة الحسينية؟

قال الإمام الحسين عليه السلام: (وأني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي ابن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين) [البحار، ج٤٤، ص ٣٢٩].

حينما نتحدث عن الثورة الحسينية فإننا نقف أمام مشروع إصلاحي شامل استهدف -وبلا مواربة- زعزعة أركان الحكم الأموي، وهو الحكم الذي وصل إلى درجة من الفساد والطغيان والاستهتار بالقيم والمبادئ الإنسانية والدينية إلى الحد الذي ما عاد يجوز السكوت عليه أو التغاضي عنه، وهو الأمر الذي استوجب أن يتحرك الإمام الحسين عليه السلام ضد مشروع الحكم الأموي القائم عبر مشروع مضاد يتمثل في الثورة العسكرية بشكل محدّد، إذ لم يكن أيّ من الخيارات الأخرى كفيلاً بوقف مستوى التدهور والانحطاط الذي وصل إليه المجتمع المسلم في عهد طاغية الشام يزيد، وهو المستوى الذي أفصح الإمام الحسين عليه السلام عنه بقوله حينما خرج متوجها إلى كربلاء: (إن هذه الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقا، فإني لا أرى الموت إلا سعادة ولا الحياة مع الظالمين إلا برما. إن الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون) [تحف

العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٢٤٥].

وانطلاقاً من هذا الوضع فقد تحرّك الإمام الحسين عليه السلام عبر منهجية تغييرية وآلية إصلاحية تنفذ إلى عمق المجتمع المسلم لتكشف عن طبيعة الخلل الذي اعتراه في دينه وقيمه وممارساته ونظام حكمه، ولم تكن تلك المنهجية أو الآلية شيئاً آخر سوى الثورة العسكرية، ومن خلال تلك الثورة فجّر الإمام الحسين عليه السلام لأول مرة في تاريخ التجربة الإسلامية روافد الوعي السياسي والاجتماعي بضرورة الثورة بوصفها آلية تغيير حاسمة، لا مناص من الرجوع إليها كمنهجية مفاهيمية حينما تلتبس علينا الرؤى وتغيم الأفكار، وكمنهجية عملية حينما تسدّ علينا الأبواب وتستنفد كل الخيارات في الإصلاح والتغيير. ومن الطبيعي حينئذ أن تكون أيّة محاولة للبحث عن خيار آخر سوى خيار الثورة، في ظروف مثل تلك الظروف التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام تهرباً من الالتزام بمتطلبات المسؤولية الدينية، ومحاولة للفكاك من مقتضيات الضمير الأخلاقي والواجب الإنساني، ولذا رأى الإمام الحسين عليه السلام أن كل من يسمع نداء ثورته ثم لا يجيبه فهو مستحق للنار، فقد حدّث هرثمة أنه رأى الحسين حينما نزل كربلاء فسأله الحسين عليه السلام : (معنا أنت أم علينا؟ فقلت: لا معك ولا عليك، خلفت صبية أخاف عليهم عبيد الله بن زياد. قال: فامض حيث لا ترى لنا مقتلا، ولا تسمع لنا صوتا، فوالذي نفس الحسين بيده، لا يسمع اليوم واعيتنا أحد فلا يعيننا إلا كبه الله لوجهه في جهنم) [الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ١٩٩-٢٠٠].

ولأجل ذلك كانت العاقبة وخيمة على الأمة في حاضرها ومستقبلها بعد أن تركت نصرة الإمام الحسين عليه السلام ، قال ابن الأثير في الكامل: (وقيل: وكان الحسين يقول: والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العَلَقَة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذل من فرام المرأة. قال: و«الفرام» خرقة تجعلها المرأة في قُبُلِها إذا حاضت) [ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص٤٠١].

اختلال نظام العلاقات الإنسانية

يقوم التوافق البشري على عناصر ثلاثة أساسية هي: التواصل والتفاعل والتكامل، وهو ما تضمنه حديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في قوله لجابر: (يا جابر قوام الدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام لله فيها بما يجب عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء) [نهج البلاغة، قصار الحكم، ٣٧٢].

وقال الإمام علي عليه السلام في حديث يبين من خلاله العوامل المطلوبة لنفي الخلل في العلاقات الإنسانية: (تحتاج الإخوة فيما بينهم إلى ثلاثة أشياء، فإن استعملوها وإلا تباينوا وتباغضوا وهي: التناصف، والتراحم، ونفي الحسد) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٣٢٢-٣٢٣].

وفي حديث آخر قصير نرى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ينبأ عن التحولات التي ستشهدها الأمة في مستقبل أيامها، ويرسم مسارات الانحراف وطبيعة التحولات التي ستصيغ التوجهات العامة للأمة، وهي التحولات التي ستحول قوة الأمة إلى ضعف، وعزها إلى ذل، وكثرتها إلى قلّة، واستقامتها إلى تخبط وضلال وضياع، فقد روي (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر، فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ فقال نعم وشر من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر

ونهيتم عن المعروف، فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٥، ص ٥٩-٦٠].

وفي الصحيفة السجادية عن (يحيى إن أبي حدثني، عن أبيه عن جده علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذته نعسة، وهو على منبره، فرأى في منامه رجالا ينزون على منبره نزو القردة، يردون الناس على أعقابهم القهقري، فاستوى رسول الله صلى الله عليه وآله جالسا والحزن يعرف في وجهه، فأتاه جبرئيل عليه السلام بهذه الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ يعني بني أمية. فقال: يا جبرئيل أعلى عهدي يكونون وفي زمني؟ قال: لا، ولكن تدور رحى الإسلام من مهاجرك، فتلبث بذلك عشرا، ثم تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك، فتلبث بذلك خمسا، ثم لابد من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها، ثم ملك الفراعنة. قال: وأنزل الله تعالى في ذلــك ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ تملكها بنو أمية ليس فيها ليلة القدر. قال: فأطلع الله عز وجل نبيه عليه السلام أن بني أمية تملك سلطان هذه الأمة، وملكها طول هذه المدة، فلو طاولتهم الجبال لطالوا عليها حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم، وهم في ذلك يستشعرون عداوتنا أهل البيت وبغضنا، أخبر الله نبيه بما يلقى أهل بيت محمد وأهل مودتهم وشيعتهم منهم في أيامهم وملكهم. قال: وأنزل الله تعالى فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ ونعمة الله «محمد وأهل بيته» حبهم إيمان يدخل الجنة، وبغضهم كفر ونفاق يدخل النار. فأسر رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك إلى علي وأهل بيته. قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد، ليدفع ظلما أو ينعش حقا، إلا اصطلمته البلية، وكان قيامه زيادة في مكروهنا وشيعتنا) [الصحيفة السجادية (ابطحي)، الإمام زين العابدين عليه السلام ص ٦٢٢-٦٢٣].

العزم والإرادة سبيل تحقيق المطلوب

قال تعالى في شأن آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه ١١٥].

لا يمكن للإنسان أن يحقق ما يرجوه وما يطلبه إلا بالإصرار والمواصلة، وإذا كسل الإنسان وتوانى فإنه لا يوفق لذلك، وهي الملاحظة التي أراد هذا النص القرآني أن يبديها كإشكالية مهمة وخطيرة في حياة الإنسان، وقد تمثلها الإنسان منذ لحظات المواجهة الأولى مع عدو الله اللعين إبليس، فضعف عن مواجهته لأنه استكان ولم يخض المعركة من خلال التوفر على كل متطلبات النجاح في هذه المعركة، وأهمها تحديد الهدف والإصرار عليه وعدم التنازل عنه حتى الوصول إليه وتحقيقه، أو الموت دونه، ومن هنا جاءت النصوص الدينية الكثيرة التي أرادت أن تلقي الضوء على هذه الظاهرة الخطيرة في حياة الإنسان، وهذه هي بعض المرويات التي رويت عن أهل بيت العصمة والطهارة في هذا الشأن:

قال الإمام علي عليه السلام: (قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول منه) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٨٦، ص ٢١٨]

وقال عليه السلام: (قليل مدوم عليه خير من كثير مملول منه) [ن م].

(قال الصادق عليه السلام للثوري: يا سفيان لا مروة لكذوب، ولا أخ لملول، ولا راحة لحسود، ولا سؤدد لسيئ الخلق) [ن م، ج٧٠، ص٢٩٧].

وقال الإمام علي عليه السلام: (المداومة المداومة! فإن الله لم يجعل لعمل المؤمنين غاية إلا الموت) [ميزان الحكمة، الريشهري ج ٣، ص ٢١٢٤].

وقال رسول الله ﷺ: المداومة على العمل في إتباع الآثار والسنن وإن قل، أرضى لله وأنفع عنده في العاقبة من الاجتهاد في البدع وإتباع الأهواء) [ن م].

(الإمام الباقر عليه السلام -كان يقول-: إني أحب أن أدوم على العمل إذا عودتني نفسي، وإن فاتني من الليل قضيته من النهار، وإن فاتني من النهار قضيته بالليل، وإن أحب الأعمال إلى الله ما ديم عليها) [ن م، ص٢١٢٥].

(الإمام الصادق عليه السلام: إياك أن تفرض على نفسك فريضة فتفارقها اثنا عشر هلالا) [ن م].

وعنه عليه السلام: من عمل عملا من أعمال الخير فليدم عليه سنة، ولا يقطعه دونها) [ن م].

وعنه عليه السلام: إذا كان الرجل على عمل فليدم عليه سنة، ثم يتحول عنه إن شاء إلى غيره، وذلك أن ليلة القدر يكون فيها في عامه ذلك ما شاء الله أن يكون) [ن م].

وبيّن رسول الله ﷺ ما يتشعب من المواظبة على مداومة الخير بقوله: (أما المداومة على الخير فيتشعب منه: ترك الفواحش، والبعد من الطيش، والتحرج، واليقين، وحب النجاة، وطاعة الرحمن، وتعظيم البرهان، واجتناب الشيطان، والإجابة للعدل، وقول الحق، فهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير) [ن م].

وقال رسول الله ﷺ: اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، فإن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل) [ن م، ص٢١٢٦].

وهذا هو الأسلوب الذي تتطلبه حتى المطالبة بالحقوق كما يرشد إلى ذلك قول الإمام علي عليه السلام: (لنا حق إن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى) [عيون الحكم والمواعظ، الليثي الواسطي، ص ٤٢٠]، فالحق لا يمكن أن ينال حينما يضيعه نفس صاحبة عبر عملية المماطلة والتسويف والتساهل في الإصرار عليه والمطالبة به.

برمجيات التوافق البشري

في حديث عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام قال: (أهل المعروف إلى اصطناعه أحوج من أهل الحاجة إليه، لأن لهم أجره وفخره وذكره، فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبدأ فيه بنفسه، فلا يطلبن شكر ما صنع إلى نفسه من غيره) [ميزان الحكمة، محمدي الريشهري ج٣ ص ١٩٣١].

يقوم التوافق البشري على عناصر ثلاثة أساسية هي: التواصل والتفاعل والتكامل، وهو ما تضمنه حديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في قوله لجابر: (يا جابر قوام الدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام لله فيها بما يجب عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء) [نهج البلاغة، قصار الحكم، ٣٧٢].

فالمبدأ الأساس في تحقيق التوافق البشري إذن هو:

١- القوي يتكامل مع الضعيف.

٢- الغني يتكامل مع الفقير.

٣- العالم يتكامل مع الجاهل.

وقال الإمام علي عليه السلام: (تحتاج الإخوة فيما بينهم إلى ثلاثة أشياء، فإن استعملوها وإلا تباينوا وتباغضوا وهي: التناصف، والتراحم، ونفي الحسد) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٣٢٢-٣٢٣].

وهكذا يتكامل ويتواصل كل طرف بشري مع الطرف البشري الآخر الذي يكمله، ويستكمل به في الوقت نفسه، فالقوي يتكامل مع الضعيف كما بين الإمام وقال الإمام السجاد عليه السلام: (وأما حق الخصم المدعي عليك فإن كان ما يدعي عليك حقا لم تنفسخ في حجته ولم تعمل في إبطال دعوته وكنت خصم نفسك له والحاكم عليها والشاهد له بحقه دون شهادة الشهود، فإن ذلك حق الله عليك وإن كان ما يدعيه باطلا رفقت به وروعته و ناشدته بدينه وكسرت حدته عنك بذكر الله وألقيت حشو الكلام ولغطه الذي لا يرد عنك عادية عدوك بل تبوء بإثمه وبه يشحذ عليك سيف عداوته، لان لفظة السوء تبعث الشر. والخير مقمعة للشر ولا قوة إلا بالله. وأما حق الخصم المدعى عليه فإن كان ما تدعيه حقا أجملت في مقاولته بمخرج الدعوى، فإن للدعوى غلظة في سمع المدعى عليه، وقصدت قصد حجتك بالرفق وأمهل المهلة وأبين البيان وألطف اللطف ولم تتشاغل عن حجتك بمنازعته بالقيل والقال فتذهب عنك حجتك ولا يكون لك في ذلك درك ولا قوة إلا بالله) [تحف العقول- ابن شعبة، ص ٢٦٨].

ونرى ذلك يتمثل حتى في دعاء أئمة أهل البيت عليهم السلام إذ يقول السجاد عليه السلام: (اللهم وأيما عبد نال مني ما حظرت عليه، وانتهك مني ما حجرت عليه، فمضى بظلامتي ميتا، أو حصلت لي قبله حيا فاغفر له ما ألم به مني، واعف له عما أدبر به عني، ولا تقفه على ما ارتكب في ولا تكشفه عما اكتسب بي، واجعل ما سمحت به من العفو عنهم، وتبرعت به من الصدقة عليهم أزكى صدقات المتصدقين، وأعلى صلات المتقربين، وعوضني من عفوي عنهم عفوك، ومن دعائي لهم رحمتك حتى يسعد كل واحد منا بفضلك، وينجو كل منا بمنك اللهم وأيما عبد من عبيدك أدركه مني درك، أو مسه من ناحيتي أذى، أو لحقه بي أو بسببي ظلم ففته بحقه أو سبقته بمظلمته، فصل على محمد وآله، وأرضه عني من وجدك، وأوفه حقه من عندك، ثم قني ما يوجب له حكمك، وخلصني مما يحكم به عدلك، فإن قوتي لا تستقل بنقمتك، وإن طاقتي لا تنهض بسخطك) [الصحيفة السجادية، دعاؤه في طلب العفو والرحمة].

ولادة الأمير عليه السلام

لحظة إعادة النظر في متطلبات المرجعية الدينية

ارتبط الحديث عن شخصية الإمام علي عليه السلام بالحديث عن مفهوم القيادة ومتطلباتها في الفكر الإسلامي، والذي في ضوئه انشق المسلمون صفين: صف نظر إلى القيادة ضمن مفهومها الدنيوي والتاريخي، والذي لا ينفصل عن كثير من السلبيات التي تحط من قيمة هذه المسؤولية الأساس في بناء كل المجتمعات البشرية، وصف آخر تحدث عنها بما هي مسألة في غاية الخطورة، بل هي أم المسائل التي ينبغي التنظير إليها من خلال تحديد مواصفات دقيقة، وربما استثنائية في شخصية القيادة التي تمثل المرجعية الأولى في إدارة وقيادة وتوجيه المجتمع المسلم، وأهم سمة كان يتبلور من خلاله مبدأ القيادة والمرجعية في التصور الإسلامي أنها السبب الرابط والمتصل بين الأرض والسماء، وهو السبب الذي تعترف النظرية غير الإمامية بأنه قد انقطع بموت رسول الله صلى الله عليه وآله مما يمثل إشكالية كبيرة في حركة المجتمع المسلم، فها هو البروفيسور خالد أبو الفضل يقول في كتابه «الاستبداد والمرجعية في الخطاب الإسلامي» ص٩: (بوفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وجدت جماعة المسلمين أنفسهم في مواجهة التحدّي الأول لهويّتها الذاتية، فقد استطاع هذا الرجل بمفرده أن يصوغ -على مدار عدّة سنوات- شكل الجماعة الإسلامية الناشئة، من خلال منزلته الرفيعة بعدّه رسول الله. كانت صلته بالمشيئة الإلهية هي كل ما تحتاجه الجماعة لكي تفهم ذاتها، ودورها في المجتمع، والغرض من وجودها، ذلك أن المرجع والتكوين واستمداد المعرفة -أي المرجعية في كلمة واحدة- كانت كلها أمراً في غاية البساطة، لأن النبي كان يمثل الصلة المباشرة بالقصد الإلهي، لكن؛ حين انتقل النبي إلى جوار ربّه لم تتحطم الولاءات السياسية فحسب، وإنما تحطمت -أيضاً- تلك الرابطة الفريدة والضرورية بالمشيئة الإلهية. وبالنسبة لمجتمع

اعتمدت هويته الذاتية -ولا تزال تعتمد- على تحقيق المشيئة الإلهية، فقد أصبحت المعضلة هي أن صلته المباشرة بالسماء قد انقطعت. كيف يتسنى للمسلمين فهم القصد الإلهي والمشيئة الربّانية بدون رسولهم؟).

وكان في مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام الجواب الحقيقي والوافي لهذه الإشكالية الخطيرة للغاية، فقد تحدثت الروايات عن الإمام علي عليه السلام بوصفه المقدم لأجل علمه وخصوصياته التي ورثها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فـ(عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت جعلت فداك: لم سمي أمير المؤمنين أمير المؤمنين؟ قال: لأنه يميرهم العلم، أما سمعت كتاب الله عز وجل «ونمير أهلنا»). [البحار، ج٣٧، ص ٢٩٢]. وفي حديث آخر (عن الثمالي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: يا ابن رسول الله لم سمي علي أمير المؤمنين وهو اسم ما سمي به أحد قبله ولا يحل لأحد بعده؟ قال: لأنه ميرة العلم يمتار منه ولا يمتار من أحد غيره...) [ن م، ص٢٩٤].

وحينما تتكلم سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام عن منهج الإمام أمير المؤمنين في الحكم والإدارة والذي كان يقوم على مبدأ فرض الاحترام والتقدير من دون ترهيب أو ترغيب تقول: (ويحهم أنى زغرعوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين. وما الذي نقموا من أبي الحسن، نقموا منه والله نكير سيفه، وقلة مبالاته بحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله. وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردهم إليها، وحملهم عليها، ولسار بهم سيرا سجحا لا يكلم خشاشه، ولا يكل سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلا نميرا صافيا رويا تطفح ضفتاه، ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطانا، ونصح لهم سرا وإعلانا، ولم يكن يحلي من الغنى بطائل، ولا يحظى من الدنيا بنائل، غير ري الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ﴿كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾) [ن م، ج ٤٣، ص ١٥٩].

معاوية بن أبي سفيان
مؤسس قواعد إدارة السلطة في تجربة الدولة العربية

تأسيس: لم تخرج الدولة العربية بكل تجلياتها عن أن تكون نموذجا مستنسخا عن تجربة الدولة الأموية كما أرسى قواعدها وأشاد دعائمها زعيم آل أبي سفيان معاوية بن حرب، لذلك لم تكن دولة الخلافة رغم كل نواقصها سوى فلتة في تجربة الأمة التاريخية وكانت الدولة الأموية هي الأصل الذي تقاس عليه وتنطلق منه وتتأسس عليه مختلف التجارب العربية السياسية. ويعتبر معاوية بن أبي سفيان أول خليفة أموي ابتز الحكم واستبد بالسلطة على النهج الملوكي، وقد بدت بوادر هذا النهج في الظهور على عهد الخليفة الثالث، فقد أورد المؤرخون نص كتاب المهاجرين إلى مصر، وفيه يقول المهاجرون: (بسم الله الرحمن الرحيم من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين. أما بعد: أن تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها، فإن كتاب الله قد بدل، وسنة رسول الله قد غيرت، وأحكام الخليفتين قد بدلت، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلا أقبل إلينا وأخذ الحق لنا وأعطاناه، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء، غلبنا على حقنا، واستولى على فيئنا، حيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة وهي اليوم ملك عضوض من غلب على شيء أكله) [الغدير، الشيخ الأميني ج ٩، ص ١٦٢].

ومن سيئات معاوية إلحاقه زياد بن أبيه به في النسب، ومما يفصح عن كون القضية في غاية الاشتهار ما كتبه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من كتاب إلى زياد

بن أبيه نفسه حينما سمع بذلك وبلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه فخاطبه بالقول: (وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك ويستفل غربك، فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرته وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر فلتة من حديث النفس ونزغة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ولا يستحق بها إرث، والمتعلق بها كالواغل المدفع والنوط المذبذب). ويضيف شارح النهج ابن أبي الحديد قائلاً: (فلما قرأ زياد الكتاب قال شهد بها ورب الكعبة، ولم يزل في نفسه حتى ادعاه معاوية). وربما اعتبر البعض من شخصيات المسلمين في ذاك الوقت ما جرى من استلحاق معاوية لزياد بن أبيه مظهراً صارخاً من مظاهر الذل والهوان التي لحقت بالمسلمين، فقد روى الشيخ الصدوق في كتابهخالخصالخص ١٨١ عن أبي مالك الجنبي عن عمر بن بشر الهمداني قال: (قلت لأبي إسحاق: متى ذل الناس قال: حين قتل الحسين بن علي عليهما السلام، وادعي زياد، وقتل حجر بن عدي).

ولقد مثّل معاوية الدهاء السياسي بأعلى تجلياته وصوره، وهو ما تفصح عنه هذه الواقعة، إذ يقول ضمام بن إسماعيل: (سمعت أبا معي يأثر عن معاوية بن أبي سفيان أنه صعد المنبر يوم الجمعة فقال عند خطبته إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن شاء أعطيناه ومن شئنا منعناه فلم يجبه أحد فلما كان الجمعة الثانية قال مثل ذلك فلم يجبه أحد فلما كان الجمعة الثالثة قال مثل مقالته فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال كلا إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا فنزل معاوية فأرسل إلى الرجل فأدخله فقال القوم هلك الرجل ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير فقال معاوية للناس إن هذا الرجل أحياني أحياه الله سمعت رسول الله ﷺ يقول سيكون كثرة من بعدي يقولون ولا يرد عليهم يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة وإني تكلمت أول جمعة فلم يرد علي أحد فخشيت أن أكون منهم ثم تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد علي أحد فقلت في نفسي إني من القوم ثم تكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد علي فأحياني أحياه الله) [المعجم الكبير، الطبراني ج ٩١، ص ٣٩٤].

مواجهة الأساليب الدعائية المضادة
شواهد ومواقف من حياة الرسول الأكرمﷺ

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران ١٦٨].

تعددت الأساليب الدعائية التي استهدفت إحباط وتثبيط المؤمنين بالرسالة، والتي كان يثيرها ويروجها الأعداء والمتربصون والمنافقون والجهلة من الناس في مواجهة حركة الرسول الأكرمﷺ، وكان لكل واحد من أولئك أسلوبه في الدعاية المضادة، وقد بيّن الله تعالى ذلك بقوله:

١- **في شأن الجهال والمترددين من الناس من ضعاف الوعي والإيمان:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران ١٥٦].

٢- **في شأن مطلقي الإشاعات من المنافقين والمروجين لها من الناقلين المغفلين:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١١-١٩].

٣- في شأن المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين وقوى التسقيط الداخلية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧-٦٢].

الأساليب الدعائية تستهدف غالباً التسقيط والتهميش، ولكنها قد تكون أحياناً بهدف الترويج والبهرجة لشخص أو موقف أو فكرة، وللإسلام موقفه من كلا الأسلوبين، وقد استخدم رسول الله ﷺ أسلوب الدعاية في يوم فتح مكة لإضعاف المشركين وكسر شوكتهم في ما اتخذه من موقف تجاه أبي سفيان رأس الشرك، (فقال صلى الله عليه واله للعباس: انصرف يا عباس فاحبسه عند مضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله، قال: فحبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادي، ومر عليه القبائل قبيلة قبيلة وهو يقول: من هؤلاء؟ ومن هؤلاء؟ وأقول: أسلم وجهينة وفلان حتى مر رسول الله صلى الله عليه واله في الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد، لا يرى منهم إلا الحذق، فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار: فقال: يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقلت: ويحك إنها النبوة، فقال: نعم إذن) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ١٢، ص ١٠٤].

القرية الكونية

اختلالات البنى التكوينية في عصر العولمة

قال الله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣١].

وقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

قد تكون من المفارقات الملفتة للنظر أن يتمّ استخدام مصطلح «القرية» في القرآن الكريم بالمستوى الذي يشهد حضوراً له اليوم في عصر العولمة في التعبير عن الحضور البشري الذي باتت العولمة بكل قيمها وتجلياتها تلعب دوراً مؤثراً وبالغاً في صياغته، ولاسيما أن وسائل الاتصالات والمعلوماتية قد أتاحت قدرة غير مسبوقة على تخطى الحدود والحواجز، ليست الجغرافية فحسب بل كل حدود الهوية والثقافة والتمايز، ومن خلال ذلك أضحى العالم كله «قرية كونية» يواجه نفس إشكاليات ومصير «القرية» يوم أن كانت تمتلك حيزاً صغيراً من المساحة، وحضوراً ضيقاً من الأفراد، ومستوى محدوداً من الإمكانيات، ولكنها في نهاية المطاف كانت تشكل النمط الأكثر بساطة لأصغر مؤسسة اجتماعية بشرية عفوية، تختزل من خلال حركة أفرادها في علاقتهم بالأرض وثرواتها نفس الإشكاليات التي تستعيدها «القرية الكونية» اليوم في عصر العولمة، مع تفاوت في الحجم والمظهر، ولكن من دون

اختلاف جوهري في نظم العلاقات المتداخلة بين بني الإنسان، وهي العلاقات التي تشكل طرائق تنظيمها وإدارتها على الدوام أسّ وأساس المشكلة الإنسانية في كل زمان ومكان.

وفي هذا السياق يستعيد حديث القرآن الكريم عن «القرية» و «القرى» أهميته من حيث قدرته على تسليط الضوء على جوهر الإشكاليات التي تواجهها العلاقات الإنسانية في عصر العولمة بالمستوى الذي كانت تواجه المجتمعات البشرية يوم أن كانت مجموعة قرى صغيرة، فعلى سبيل المثال حينما يتحدث القرآن الكريم عن طبيعة الدور المفسد الذي يقوم به المترفون رابطاً إياه بمصير القرية وهلاكها في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء ١٦]، فإننا نجد أن هذا الدور يتناسق من حيث طبيعته ومحصلته النهائية مع الدور الذي يقوم به أصحاب رؤوس الأموال الكبرى في «القرية الكونية» المنتجة في عصر العولمة.

وفي هذا السياق نفسه، تأتي الإشارة إلى عوامل التطور الحضاري، والاستقرار السياسي والاجتماعي، والرفاهية المعيشية التي تجدها القرية الصغيرة في واقعها، حينما تستقيم على الشريعة الإلهية، بوصفها مبادئ تحكم اليوم أيضاً مصير القرية الكونية، التي ترغب في التخلص من مظاهر الدمار والفقر وتبعات الحروب والنزاعات المسلحة والأخطار البيئية، التي ما برحت تهدد عالمنا المعاصر الذي تحول إلى قرية كونية واحدة، تشترك في مصيرها ومستقبلها، وتبحث عن حلول عالمية وكونية لأزماتها، التي غدت مشتركة ومعولمة، بمستوى ما هي آمالها وأحلامها معولمة، وهو ما يهدي إليه حديثه تعالى في ما خص به أهل القرى من خطاب بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٦-٩٩].

اختيار أسلوب الحياة ونظام المعيشة

(عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه جعل الله تعالى الفقر بين عينيه وشتت أمره ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم الله له ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه جعل الله الغنى في قلبه وجمع له أمره) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣١٩].

ليست القضية في الحياة كم يعيش الإنسان أو أن يعيش فحسب، لأن كل حي لا بد أن يعيش مدة ما، تطول أو تقصر، ثم يفارق هذه الحياة الدنيا، إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران ١٨٥]، ولكن المهم في الأمر هو اختيار الإنسان لأسلوب حياته وطريقة عيشه، وبعبارة أخرى: كيف يعيش الإنسان؟ ولماذا يعيش؟

وما يعني الدين بتعليمه للبشر هو كيف ينبغي للإنسان أن يعيش، وأن يحدد غاياته وأهدافه من البقاء والاستمرار في هذه الحياة الدنيا، لأن تحديد طريقة العيش والهدف من وراء الحياة هو ما يعطي للحياة معنى، وهو ما يظل سبباً في توفر الإنسان على الدوام على قدرة التطور والتكامل والتجدد، وهو ما يجعل لكل يوم في حياة الإنسان طعماً جديداً، لأنه يشعر من خلال ذلك أن الحياة أصبحت زيادة له في كل خير، وهو ما أرادت أن تقوله النصوص الدينية التالية: فـ(عن أبي عبد الله عليه السلام قال مر عيسى ابن مريم عليه السلام على قرية قد مات أهلها وطيرها ودوابها فقال: أما إنهم لم يموتوا إلا بسخطه، ولو ماتوا متفرقين لتدافنوا، فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته! ادع الله أن يحييهم لنا فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنجتنبها، فدعا

عيسى عليه السلام ربه فنودي من الجو: أن نادهم، فقام عيسى عليه السلام بالليل على شرف من الأرض فقال: يا أهل هذه القرية فأجابه منهم مجيب: لبيك يا روح الله وكلمته، فقال: ويحكم ما كانت أعمالكم؟ قال: عبادة الطاغوت وحب الدنيا مع خوف قليل وأمل بعيد وغفلة في لهو ولعب فقال: كيف كان حبكم للدنيا؟ قال: كحب الصبي لامه، إذا أقبلت علينا فرحنا وسررنا وإذا أدبرت عنا بكينا وحزنا، قال: كيف كانت عبادتكم للطاغوت قال: الطاعة لأهل المعاصي قال: كيف كان عاقبة أمركم؟ قال: بتنا ليلة في عافية و أصبحنا في الهاوية، فقال: وما الهاوية؟ فقال: سجين قال: وما سجين؟ قال: جبال من جمر توقد علينا إلى يوم القيامة، قال: فما قلتم وما قيل لكم؟ قال: قلنا ردنا إلى الدنيا فنزهد فيها، قيل لنا: كذبتم، قال: ويحك كيف لم يكلمني غيرك من بينهم؟ قال: يا روح الله إنهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد وإني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل العذاب عمني معهم فأنا معلق بشعرة على شفير جهنم لا أدري أكبكب فيها أم أنجو منها، فالتفت عيسى عليه السلام إلى الحواريين فقال: يا أولياء الله أكل الخبز اليابس بالملح الجريش والنوم على المزابل خير كثير مع عافية الدنيا والآخرة) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٢، ص ٣١٨-٣١٩].

و(عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما فتح الله على عبد بابا من أمر الدنيا إلا فتح الله عليه من الحرص مثله) [ن م].

و(عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال عيسى بن مريم (صلوات الله عليه): تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وانتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل ويلكم، علماء سوء، الاجر تأخذون، والعمل تضيعون، يوشك رب العمل أن يقبل عمله ويوشك أن يخرجوا من ضيق الدنيا إلى ظلمة القبر، كيف يكون من أهل العلم من هو في مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه وما يضره أحب إليه مما ينفعه) [ن م].

و(عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أبعد ما يكون العبد من الله عز وجل إذا لم يهمه إلا بطنه وفرجه) [ن م].

تكوين الشخصية الثائرة والناقدة في الإسلام
الإمام الحسين نموذجاً

لعل أهم ما اتسمت به شخصية الإمام الحسين عليه السلام أنها مثلت دوراً لا مناص من وجوده في حركة أيّ مجتمع بشري يستهدف تحقيق متطلبات الإصلاح على الدوام في تجربته البشرية، ورفدها بعناصر الديمومة والاستمرار والتقدم، فالإصلاح كممارسة دائمة وحاجة مستمرة لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال عملية تقويم متواصلة، تستقصي كل الأخطاء، وتعمل على معالجتها والتخلص منها، قبل أن تستفحل وتتضخم ويصعب إزالتها، لتتحول من ثم إلى حالات طبيعية يتوافق المجتمع على ممارستها من دون نكير أو رفض، والنقد بما يتحمله من دلالات ومراتب وآليات هو ما يحقق غايات العملية الإصلاحية، وهو المعنى الذي انطوى عليه هذا الخطاب الصادر عن الإمام الحسين عليه السلام، إذ يقول في ما نقل عنه:

(ثم أنتم أيتها العصابة عصابة بالعلم مشهورة وبالخير مذكورة وبالنصيحة معروفة وبالله في أنفس الناس مهابة، يهابكم الشريف ويكرمكم الضعيف ويؤثركم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده، تشفعون في الحوائج إذا امتنعت من طلابها وتمشون في الطريق بهيبة الملوك وكرامة الأكابر، أليس كل ذلك إنما نلتموه بما يرجى عندكم من القيام بحق الله وإن كنتم عن أكثر حقه تقصرون فاستخففتم بحق الأئمة، فأما حق الضعفاء فضيعتم وأما حقكم بزعمكم فطلبتم. فلا مالا بذلتموه ولا نفسا خاطرتم بها للذي خلقها ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله. أنتم تتمنون على الله جنته ومجاورة رسله وأمانا من عذابه، لقد خشيت عليكم أيها المتمنون على الله أن تحل بكم نقمة من نقماته لأنكم بلغتم من كرامة الله منزلة فضلتم بها ومن يعرف

بالله لا تكرمون وأنتم بالله في عباده تكرمون وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون وذمة رسول الله ﷺ محقورة والعمى والبكم والزمنى في المدائن مهملة لا ترحمون ولا في منزلتكم تعملون ولا من عمل فيها تعينون وبالادهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون، كل ذلك مما أمركم الله به من النهي والتناهي وأنتم عنه غافلون.

وأنتم أعظم الناس مصيبة لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تشعرون، ذلك بأن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه فأنتم المسلوبون تلك المنزلة وما سلبتم ذلك إلا بتفرقكم عن الحق واختلافكم في السنة بعد البينة الواضحة. ولو صبرتم على الأذى وتحملتم المؤونة في ذات الله كانت أمور الله عليكم ترد وعنكم تصدر وإليكم ترجع ولكنكم مكنتم الظلمة من منزلتكم واستسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات، سلطهم على ذلك فراركم من الموت وإعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيديهم فمن بين مستبعد مقهور وبين مستضعف على معيشته مغلوب، يتقلبون في الملك بآرائهم ويستشعرون الخزي بأهوائهم إقتداء بالأشرار وجرأة على الجبار، في كل بلد منهم على منبره خطيب يصقع، فالأرض لهم شاغرة وأيديهم فيها مبسوطة والناس لهم خول لا يدفعون يد لامس، فمن بين جبار عنيد وذي سطوة على الضعفة شديد، مطاع لا يعرف المبدأ المعيد فيا عجبا ومالي [لا] أعجب والأرض من غاش غشوم ومتصدق ظلوم وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم، فالله الحاكم فيما فيه تنازعنا والقاضي بحكمه فيما شجر بيننا.

اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافسا في سلطان ولا التماسا من فضول الحطام ولكن لنري المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك، فإن لم تنصرونا وتنصفونا قوي الظلمة عليكم وعملوا في إطفاء نور نبيكم، وحسبنا الله وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير) [تحف العقول- ابن شعبة الحراني، ص ٢٣٧-٢٣٩].

محددات الرخاء الاقتصادي في الدولة المهدوية

(عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ما يكون هذا الأمر حتى لا يبقى صنف من الناس إلا وقد ولوا على الناس حتى لا يقول قائل «إنا لو ولينا لعدلنا» ثم يقوم القائم بالحق والعدل) [كتاب الغيبة، النعماني، ص ٢٧٤].

تكون الدولة المهدوية آخر دولة يلتقي بها البشر في تجربتهم الطويلة للبحث عن النظام السياسي الذي يحقق لهم متطلبات العيش الكريم والسعادة المفعمة بالأمل والإيمان والاستقرار النفسي والاجتماعي، ولأنها الدولة الخاتمة فستكون في نهاية عنقود التجارب البشرية الممتدة خلال ردح طويل من الزمن، وهذا ما يقتضي أن تترك الفرصة لكل الدعاوى من أجل أن تثبت جدارتها في إدارة الحكم والسلطة، حتى إذا فشلت كلها جاءت التجربة المهدوية المحملة بكل خير للبشرية، وهذا ما تفصح عنه هذه الأخبار:

(عن محمد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام يقول: القائم منا منصور بالرعب، مؤيد بالنصر تطوي له الأرض وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عز وجل به دينه على الدين كله ولو كره المشركون، فلا يبقى في الأرض خراب إلا قد عمر، و ينزل روح الله عيسى بن مريم عليه السلام فيصلي خلفه، قال: قلت: يا ابن رسول الله متى يخرج قائمكم؟ قال: إذا تشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وركب ذوات الفروج السروج، وقبلت شهادات الزور، وردت شهادات العدول، واستخف الناس بالدماء وارتكاب الزنا وأكل الربا، واتقي الأشرار مخافة ألسنتهم، وخروج السفياني من الشام، واليماني من اليمن، وخسف

بالبيداء، وقتل غلام من آل محمد ﷺ بين الركن والمقام، اسمه محمد بن الحسن النفس الزكية، وجاءت صيحة من السماء بأن الحق فيه وفي شيعته، فعند ذلك خروج قائمنا، فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة، واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا. وأول ما ينطق به هذه الاية ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم يقول: أنا بقية الله في أرضه وخليفته وحجته عليكم فلا يسلم عليه مسلم إلا قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه، فإذا اجتمع إليه العقد وهو عشرة آلاف رجل خرج، فلا يبقى في الأرض معبود دون الله عز وجل من صنم (ووثن) وغيره إلا وقعت فيه نار فاحترق. وذلك بعد غيبة طويلة ليعلم الله من يطيعه بالغيب ويؤمن به) [كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص٣٣١].

و(عن أبى سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ أبشركم بالمهدي يبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلازل فيملا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض يقسم المال صحاحا فقال له رجل ما صحاحا قال بالسوية بين الناس قال ويملا الله قلوب أمة محمد ﷺ غنى ويسعهم عدله حتى يأمر مناديا فينادى فيقول من له في مال حاجة فما يقوم من الناس إلا رجل فيقول ائت السدان يعنى الخازن فقل له إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالا فيقول له أحث حتى إذا جعله في حجره وأبرزه ندم فيقول كنت أجشع أمة محمد نفسا أو عجز عنى ما وسعهم قال فيرده فلا يقبل منه فيقال له إنا لا نأخذ شيا أعطيناه فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ثم لا خير في العيش بعده أو قال ثم لا خير في الحياة بعده) [مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل ج ٣، ص ٣٧].

وفي حديث ابن عباس عن المهدي قال: (وأما المهدي الذي يملا الأرض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم والسباع وتلقى الأرض أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة) [المستدرك، الحاكم النيسابوري ج ٤، ص ٥١٤].

محنة الفقر.. تشخيصات وحلول

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧-٢٦٨].

تبرز أزمة الفقر كمحنة تهدد الوضع المعيشي والاقتصادي، وحتى السياسي والاجتماعي في عالمنا المعاصر، وممن عنى بدراسة هذه الظاهرة وقدم تشخيصات دقيقة وحلول عملية لحلها وتخفيض معدلات انتشارها هو الخبير «جاك أتالي» ومما قاله حول هذا الموضوع في كتابه «معجم القرن ٢١»: (يشكل الفقر **التحدي السياسي الرئيسي** في القرن الواحد والعشرين. ففي الوقت الذي بلغ فيه النمو العالمي ذروته في تاريخ البشرية، يمكن أن نتوقع من الآن حتى العام ٢٠٣٠، مضاعفة عدد أولئك الذين ينبغي لهم أن يعيشوا بأقل من دولار واحد في اليوم. وسيصيب الفقر ثلث سكان الجنوب، لاسيما في أفريقيا الصحراوية وآسيا. كما سيعود الفقر إلى الشمال من خلال لعبة الهجرة. من جهة أخرى، سيبقى الأشد فقراً الضحايا الرئيسيين للجوانب المتعددة غير المالية للبؤس: فالحرمان من التربية والعناية الصحية، والمسكن والعمل ومياه الشرب، سيصيبهم دائماً قبل الآخرين وأكثر منهم. وسيبقون الضحايا الأولى للسيدا والتلوث والعمل الشاق والعنف الجنسي) [جاك أتالي: معجم القرن ٢١، ص ١٥٥].

ولن يستطيع اقتصاد السوق أن يحل مشاكل الفقراء، ويوقف معدلات الفقر الآخذة في التصاعد يوما بعد يوم، وهو ما يؤكده «أتالي» بقوله: (لن يقلص السوق

من حدة الفقر؛ بل على العكس، سوف يزيد من حجم التفاوت وعدم المساواة، ولن يؤمّن وحده لا العدالة ولا الإنصاف).

ومن أجل الوصول إلى حلول عملية لكارثة الفقر العالمي فإنه يقول: (لا بدّ للوصول إلى حلّ ما، من إحداث تحولات ضخمة ومعقدة وعلى مستوى العالم، في خمسة اتجاهات:

تنظيم ثورة خضراء جديدة تتيح تنمية تربية دود الحرير وقطعان الماشية.

إقامة نظام ديمقراطي محلي مسؤول يتيح للفقراء تحمل أعباء ذاتهم.

دفع كل فرد إلى وضع يتيح له خلق الثروات من خلال إقراضه المبالغ المالية الصغيرة اللازمة.

تنظيم الحصول على الخدمات الاجتماعية الأساسية (التعليم الابتدائي للجميع، الغذاء والصحة)، بغية تقليص وفات الأطفال والأمهات.

إيجاد الوسائل العالمية لنقل الموارد، كما هو قائم على صعيد الدول: ينبغي لعولمة السوق أن تقترن بعولمة وسائل تصحيح أخطاء السوق. وهذا يعني إنشاء دخل أدنى عالمي واضح، وليس كما هو اليوم، حصيلة أو حثالة فعل السوق).

وفي مقام التحذير من تداعيات استمرار أزمة الفقر من دون حلول عملية سريعة وناجحة فإنه يقول: (لن يكون باستطاعة الفقراء أنفسهم اتخاذ مثل هذه الإجراءات، أقله في المدى المنظور. فالبؤس يؤدي إلى الاستسلام الجماعي وبروز الطموحات الشخصية، والتشكيك السياسي والتهكم الفردي. فيما بعد، قد يقود البؤس إلى ظهور خطر تهديد ثوري على درجة كافية من الصدقية لإثارة نخب الشمال ودفعهم لإعادة النظر في أولوياتهم).

وهذا الكلام جد خطير، وينبغي أن يحمل على محمل الجد من قبل كل الحكومات التي تفكر في مستقبل علاقة آمنة ومستقرة مع شعوبها ومواطنيها، (وفي الأثر: عجبت لمن له عيال وليس له مال كيف لا يخرج على الناس بالسيف؟) [مستدرك سفينة البحار، النمازي، ج ٧، ص ٤٨٦].

مهارات حل المشاكل الاجتماعية

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء ٨٣].

تحتاج المشاكل الاجتماعية، والتي تشهد تزايداً ملحوظاً في مجتمعاتنا الحديثة، إلى مهارات خاصة لحلها والتقليل من معدلاتها، وربما كان من أسباب ازدياد وتفاقم معدلات هذه المشاكل هو افتقاد الكثيرين من المعنيين بحل هذه المشاكل للقدرات اللازمة للتعامل معها وتفهمها، ومن ثم ابتكار الوسائل الكفيلة بحلها، إذ مازال العديد من الأفراد في مجتمعاتنا العربية والمسلمة ينظر إلى هذه المشاكل بوصفها قضايا عامة يمكن أن يتصدى لحلها ومعالجتها كل شخص، حتى لو لم يتوفر على أيّ مؤهلات وقدرات كافية، كونها لنفسه في مستويين علمي وعملي.

مسارات خاطئة في التصدي لحل المشاكل الاجتماعية:

١- **مسار الإهمال والهروب من أجواء المشكلة**: وهو مسار يتبناه الكثير من الناس ممن يحمّلهم المجتمع مسؤولية ثقيلة في حل مشاكله والتصدي لشؤونه، فيواجهون هذه الرغبة بالهروب من أجواء المشاكل والفرار من الأزمات، وهو نموذج أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة: ٨٦-٨٨].

٢- **مسار الدعوة للتصبر وتعليق الأزمة**: وهو مسار أشار الباري جلّ وعلا إلى خطئه في قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٢٨-١٣٠].

وقد حمّل الله تعالى المسؤولية لأولئك الذين يقفون في مواجهة الأخطاء والتجاوزات متفرجين من دون أن يحركوا ساكنا، ومن دون أن يفكروا في مواجهة الأزمة وحل المشكلة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

٣- **مسار التخبط في حل المشاكل والتصدي للأزمات**: وهو مسار يمارسه الكثير من الناس، ممن يعتقدون أنهم يتمتعون بصلاحيات خاصة تعطيهم الحق في التدخل في مشاكل الآخرين، وطرح الحلول التي يرتؤنها، من دون أن يتحدثوا عن المؤهلات التي تمكنهم من القيام بهذا الدور، وهو النموذج الذي أشار إليه الباري تعالى مقارنا بمن يتوفر على هذه المؤهلات فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٥-٧٦].

برمجيات الضبط الاجتماعي

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

لعل هذا النص القرآني المبارك من أهم النصوص التأسيسية التي عنت بالإشارة إلى ما يعرف اليوم بمفهوم الضبط الاجتماعي، فهي تتحدث عن غاية كلية شاملة من وراء بعث الرسل والأنبياء وإنزال الكتب وتحديد المعايير، وتلك الغاية هي: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وهي غاية تختزل كل ما يمكن أن يقال في هذا الشأن.

ما هو مفهوم الضبط الاجتماعي: الخلاصة التي يخلص إليها بعض الباحثين من وراء مفهوم الضبط الاجتماعي، هو أن (فكرة الضبط تتضمن التحكم والسيطرة، كما تتضمن أيضاً الجوانب التعليمية، والإرشاد، والإقناع، والتوجيه، بل تشمل كل الأساليب التي تساعد على امتثال الناس وتلاؤمهم مع قواعد وأنماط السلوك والمعايير والقيم السائدة في المجتمع، كما أن مصطلح الضبط الاجتماعي يشير إلى مجموعة القيم والمعايير التي من خلالها وبواسطتها يمكن تصفية التوترات والصراعات التي تنشأ بين الأفراد، وتحقيق التماسك بين الجماعات وتسهيل التواصل بينها) [د. طلعت عبد الحميد: التعليم وصناعة القهر، ص٤٧-٤٨].

ويمكن تحقيق الضبط الاجتماعي عبر ثلاثة أساليب أساسية هي:

١- **تفعيل آليات القهر الاجتماعي والاستبداد السلطوي**: وهو الأسلوب الذي غالباً ما يلجأ إليه من يفتقدون القدرة على إقناع الآخرين بأفكارهم ومشاريعهم، فيعملون على فرضها بقوة السلاح، وهو المنطق الذي تبناه فرعون في مواجهة

موسى ومن آمن به من بني إسرائيل، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف ١٢٦].

٢- **تفعيل آليات الدجل الإعلاني والتضليل الإعلامي**: وهو أسلوب رخيص يقترن بالأسلوب الأول ويعاضده في غايته التضليلية، ولذا استخدمه فرعون بأكثر من طريقة وصورة، وفي ذلك يقول عزّ من قائل:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥)﴾ [الزخرف: ٥١-٥٥].

٣- **تفعيل آليات التقدير الذاتي والاحترام المعنوي**: وهو الأسلوب النزيه والراقي والإنساني الذي يطمح لتحقيق الضبط الاجتماعي كضرورة، من دون إرهاب أو خداع، وهو ما نلمح في خطبة الزهراء عليها السلام إشارة بينة إليه، وذلك حينما تقول: (فجعل الله الإيمان تطهيرا لكم من الشرك، والصلاة تنزيها لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق، والصيام تثبيتا للإخلاص، والحج تشييدا للدين، والعدل تنسيقا للقلوب، وطاعتنا نظاما للملة، وإمامتنا أمانا للفرقة، والجهاد عزا للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منساة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص حقنا للدماء، والوفاء بالنذر تعريضا للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازين تغييرا للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيها عن الرجس، واجتناب القذف حجابا عن اللعنة، ترك السرقة إيجابا للعفة، وحرم الله الشرك إخلاصا له بالربوبية ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾) [مواقف الشيعة، الأحمدي الميانجي، ج ١، ص٤٦٠].

مهام الرقابة الإدارية

قدّم الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر عدّة توصيات تتعلق بمهام الرقابة الإدارية وضرورة تحقيقها، ويمكن إدراج ما قاله ضمن البنود التالية:

(١- ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارا، ولا تولهم محاباة وأثرة، فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة.

٢- وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقا، وأصح أعراضا، وأقل في المطامع إشرافا، وأبلغ في عواقب الأمور نظرا.

٣- ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك.

٤- ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية.

٥- وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا، فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة) [نهج البلاغة، قسم الرسائل، الكتاب ٥٣].

لقد شكلت هذه الفقرة من العهد العلوي وثيقة إدارية في غاية الأهمية في تحقيق متطلبات الرقابة الإدارية، فهي أسست لمبادئ خمسة في الرقابة الإدارية، تتمثل في:

المبدأ الأول: التنصيب الاختباري القائم على فحص واختبار كفاءة الشخص

للمنصب الذي يتولاه.

المبدأ الثاني: تفضيل أهل التجربة والكفاءة العملية ممن يتمتعون بمقتضيات الأمانة والعفة في التعامل مع الآخرين.

المبدأ الثالث: ضرورة مراعاة المتطلبات المادية للموظفين والعمال بما يمنع من إيجاد الرغبة لديهم في أموال وهبات الآخرين

المبدأ الرابع: تكوين هيئات رقابية تراقب العمال وتشعرهم بجدية المحاسبة على التقصيرات في الخدمة والأداء.

المبدأ الخامس: تفعيل مقتضيات وتقييمات الهيئات الرقابية واستخدام العقوبات كوسيلة للحد من دوافع الفساد الإداري.

ومما قاله أيضاً في ذلك العهد: (ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة. ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة) [ن م].

ويقدم الإمام عليه السلام درساً عملياً في الرقابة الإدارية، حينما يحاسب أحد ولاته على وليمة دعي إليها، وذلك في قوله إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وهو عامله على البصرة وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها: (أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو. وغنيهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه، ألا وإن لكل مأموم إماما يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا) [نهج البلاغة، الكتاب ٤٥].

مهارات بناء التوافقات الاجتماعية

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩].

وقال سبحانه: ﴿. . . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣] .

وقال عز شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨].

نقطة البداية في حياة الرسول الأكرمﷺ والتي أبرزت قدرته الاستثنائية على تحقيق درجة عالية من التوافق بين المختلفين هو موقفه التوفيقي الرائع في قصة وضع الحجر الأسود في محله، بعد أن هدمت الكعبة المشرفة بسبب سيل أصابها وخرّب جدرانها، فأراد العرب إعادة بنائها، ويحدثنا المؤرخ اليعقوبي عن هذه القضية بالقول: (ونقلت الحجارة التي بني بها البيت من جبل يقال له السيادة من أعلى الوادي وصيروها ثماني عشرة ذراعا، وكانت كل قبيلة تلي طائفة منها فكانت بنو عبد مناف تلي الربع وسائر ولد قصي بن كلاب وبنو تيم الربع ومخزوم الربع وبنو سهم وجمح وعدي وعامر بن فهر الربع. فلما أرادوا أن يضعوا الحجر اختصموا فيه، وقالت كل قبيلة: نحن نتولى وضعه. فأقبل رسول الله، وكانت قريش تسميه الأمين، فلما رأوه مقبلا قالوا: قد رضينا بحكم محمد بن عبد الله، فبسط رسول الله رداءه ثم وضع الحجر في وسطه وقال: لتحمل كل قبيلة بجانب من

جوانب الرداء ثم ارفعوا جميعا. ففعلوا ذلك، فحمل عتبة بن ربيعة أحد جوانب الرداء وأبو زمعة بن الأسود وأبو حذيفة بن المغيرة وقيس بن عدي السهمي، وقيل العاص بن وائل. فلما بلغ الموضع أخذه رسول الله ووضعه بموضعه الذي هو به وسقفوها، ولم يكن لها قبل ذلك سقف) [تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي ج ٢ ص ١٩].

وإلى اللحظة الأخيرة من حياته وفي أعظم إنجاز حققه الله تعالى إليه قبل ارتحاله عن الدنيا، وذاك في يوم فتح مكة أثبت الرسول الأكرمﷺ مهارته الفائقة في تحقيق متطلبات التوافق الاجتماعي، عبر موقفه من أهل مكة ومن أبي سفيان بشكل محدد، فقد (جاء العباس بن عبد المطلب إلى رسول اللهﷺ بأبي سفيان بن حرب فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان يشهد أن لا إله إلا الله فقال رسول اللهﷺ: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، قال: نعم، فقال رسول اللهﷺ: يا أبا الفضل انصرف بضيفك الليلة إلى أهلك واغد به فلما غدا به عليه فقال العباس: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إن أبا سفيان رجل يحب الشرف والذكر فأعطه شيئا يتشرف به، فقال رسول اللهﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن فقال أبو سفيان: وما تسع داري؟ فقال: من دخل الكعبة فهو آمن. فقال: وما تسع الكعبة؟ فقال: من دخل المسجد فهو آمن. فقال: وما يسع المسجد؟ فقال: من أغلق بابه فهو آمن. فقال: هذه واسعة) [تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر ج ٣٢، ص ٤٤٧].

وفي إشارة أخرى ذات دلالة مهمة (ذكر الأموى في المغازي أن سعد بن عبادة لما قال اليوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشا فحاذى رسول اللهﷺ أبا سفيان لما مر به فناداه يا رسول الله أمرت بقتل قومك وذكر له قول سعد بن عبادة ثم قال له أنشدك الله في قومك فأنت أبر الناس وأوصلهم فقال يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله فيه قريشا فأرسل إلى سعد فأخذ اللواء من يده فجعله في يد ابنه قيس) [فتح الباري، ابن حجر، ج ٨، ص ٧].

غثاء السيل
تداعيات الفوضى القاتلة في سلوكيات الأمة

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة ٢٥]. وقال سبحانه: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١-٢].

يتحدث بعضهم عن سبب اختياره لتدريس دورات في قواعد الإتيكيت بأنه كان في إحدى البلاد الأوروبية فأراد الذهاب مع صديقه إلى مطعم راق لتناول العشاء، فدلهم الناس على مطعم راق جداً، وحينما وصلا إلى بوابته رأيا صورة كلب معلقة وعليها علامة (×) بمعنى غير مسموح دخول الكلاب، ثم نظرا فوجدا صورة إنسان عربي وعليها العلامة نفسها، فأثارت الصورة الأخيرة اشمئزاز هذا الشخص وأشعرته بالإهانة، فطلب مقابلة صاحب المطعم مستفسرا منه عن سبب تعليق صورة العربي إلى جنب صورة الكلب، فأخبره صاحب المطعم إنه اضطر إلى ذلك بعد أن وردته الكثير من الشكاوى من رواد المطعم -وهم جميعاً من الشخصيات الراقية وعلية القوم- من التصرفات غير اللائقة التي يقوم بها العرب أثناء وجودهم في المطعم، مثل التحدث بصوت مرتفع أثناء تناول الطعام، وإصدار صوت خلال استعمال أدوات المائدة، وإصرار بعضهم على تغيير نظام الطاولات لتتسع الجلسة إلى عدد أكبر من الأشخاص.

وقد تعرض الذكر الحكيم للكثير من آداب العلاقات العامة، ولعل عدداً كبيراً منها جاءت الإشارة إليه في سورة الحجرات، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: ٢-٥].

وفي قبال هذه التنظيمات الشرعية التي يبرزها الدين تتمظهر الفوضى في حياة الأمة ضمن تداعياتها السلبية عبر مسارات ثلاثة متوازية ومترابطة:

١- **فوضى التفسير (الأفكار)**: وضرب الله لها مثلاً بقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام ٧١].

٢- **فوضى التقدير (المشاعر)**: وضرب الله لها مثلاً بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة ٢٤].

٣- **فوضى التدبير (الممارسات)**: وضرب الله لها مثلاً بقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة ٢٧٥].

قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن تداعى الأمم عليكم تداعي الأكلة على قصعتها، قال قائل منهم: من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من عدوكم المهابة منهم، وليقذفن في قلوبكم الوهن!! قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت) [ميزان الحكمة، الريشهري ج ١ ص ١١٠].

تنمية مهارات التدبير المعيشي في الشخصيات القيادية

(عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما بعث الله نبيا قط حتى يسترعيه الغنم، يعلمه بذلك رعية الناس) [علل الشرائع، الصدوق ج ١، ص ٣٢].

بالإضافة إلى هذا الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام يمكننا إبراز أهمية تكوين مهارات التدبير المعيشي عبر عدة نصوص قرآنية كريمة، هي:

قصة يوسف مع العزيز في مجال إدارة الشؤون المالية: وهو ما حكاه تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧].

قصة ذي القرنين في مجال إدارة المعادن والثروات: وهو ما حكاه تعالى في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٣-٩٨].

قصة موسى وشعيب في مجال إدارة العمل والتوظيف: وهو ما حكاه تعالى في قوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ

مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٢-٢٦].

قصة طالوت في مجال إدارة الجيش وقوى الأمن: وهو ما حكاه تعالى في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٤٧].

فهذه القصص القرآنية من سيرة أنبياء الله العظام عليهم السلام تفصح لنا عن ضرورة العمل على تكوين وتطوير وتوجيه مهارات التدبير المعيشي في حياة وشخصية الإنسان المؤمن، وأن تكوين تلك المهارات عبر ممارسات توجيهية وعملية هي ضرورة لا تنفك عن حسن الأداء وجودة العمل التي أراد الله تعالى لنا أن نلتزمها في كل عمل نقوم به، دينياً كان أم دنيويا، كما يفيده قوله سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ١-٤].

العلاقة الحرجة بين القادة والأتباع

تتشكل العلاقة بين القادة والأتباع عبر مسارات دقيقة وحرجة في الوقت نفسه، فهي تخضع لعدة عوامل تساهم في توجيهها وتكييفها، والكثير من تلك العوامل لا تخضع في تكوينها لمحددات علمية وموضوعية، ولا تستجيب بالضرورة لمعايير دقيقة، وهو ما نلقي الضوء عليه من خلال النصوص التالية:

١- (عن كميل بن زياد قال: خرج إليّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأخذ بيدي وأخرجني إلى الجبّان، وجلس وجلست، ثم رفع رأسه إليّ فقال: يا كميل احفظ عنّي ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم ربّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيؤا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، يا كميل محبة العالم دين يدان به، يكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، فمنفعة المال تزول بزواله، يا كميل مات خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه إن هاهنا أوأشار بيده إلى صدره- لعلماً لو أصبت له حملة، بلى أصبت له لقناً غير مأمون، يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا، ويستظهر بحجج الله على خلقه، وبنعمه على عباده ليتّخذ الضعفاء وليجة من دون وليّ الحق، أو منقاداً لحملة العلم، لا بصيرة له في أحنائه ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، ألا لا ذا ولا ذاك، أو منهوم باللذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرى بالجمع والإدّخار ليس من رعاة الدين، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة! كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة ظاهرة، أو خافي مغمور، لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته، وكم ذا وأين؟ أولئك

الأقلّون عدداً، الأعظمون خطراً؟ بهم يحفظ الله حججه حتى يودعوها نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقائق الأمور، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى؛ يا كميل أولئك خلفاء الله، والدعاة إلى دينه، هاي هاي شوقاً إلى رؤيتهم، واستغفر الله لي ولكم) [البحار، ج١، ص١٨٨].

٢- قوله أيضا لأهل بيته: (يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضا تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي انظروا إذا أنامت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور») [نهج البلاغة، الكتاب ٤٧].

٣- قول الله تعالى في ما خاطب به نبيه الأكرمﷺ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٥-٤٧].

٤- قوله تعال في شأن المتخلفين من الأتباع: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨١-٨٣].

قيام دولة وسقوط أمة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

وقال عزّ شأنه: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد ٣٨].

لقد عمل اليهود على إنشاء وتأسيس كيانهم القومي الغاصب على أرض فلسطين وجدّوا واجتهدوا في تحقيق ذلك، إلى أن تمكنوا من اقتطاع جزء غال من العالم الإسلامي وفصله عنه، وهي أرض فلسطين، و(كان تيودور هرتزل أول من خطط لإنشاء دولة يهودية، حيث شرح الفكرة في كتابه «الدولة اليهودية» الذي كتبه عام ١٨٩٥م. وفي عام ١٨٩٧م عقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بال في سويسرا. كان مؤتمر بال نقطة هامة في تاريخ الحركة الصهيونية، لأن الأعضاء الذين شاركوا في المؤتمر درسوا الوسائل الكفيلة لنجاح خطتهم في تأسيس وطن أو كيان ليهود العالم. كما وضع في هذا المؤتمر برنامج الحركة الصهيونية، وأوصى المؤتمر ببعض التدابير لتحقيق الأهداف الصهيونية. أعلنت بريطانيا في ١٣/ ١١/ ١٩٤٧م بواسطة ممثلها في مجلس الأمن في الأمم المتحدة، أنها قررت الانسحاب من فلسطين في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨م. وقد أصدرت الأمم المتحدة بتاريخ ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧م قرار التقسيم الذي يتضمن تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى

يهودية على أن تبقى القدس تحت وضع دولي خاص. وخاضت الدول العربية معركة مع اليهود في ١٩٤٨م، إلا أن الجيوش العربية منيت بالهزيمة) [انظر: تاريخ فلسطين: د. تيسير جبارة].

وفي المقابل فقد تراجع أداء الأمة في مواجهة هذا العدو وانخارت عزيمتها في التصدي له بعد أن تلكأ قادتها في الدفاع عن أرض الأمة المغصوبة وعرضها المستباح من قبل أرذل خلق الله، والذين قال تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة ٦٠].

ومن المؤسف جداً والمخزي أن تقهر إرادة حفنة من شذاذ الآفاق الذين ظلوا يمارسون الفساد والاعتداء على الآخرين طوال تاريخهم هذه الأمة التي قال تعالى عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٠-١١٢].

وهذه الآيات المباركات حددت وجه تفضيل الأمة وكونها خير أمة مادامت آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، كما أنها أشارت إلى سبب الذلة التي تلتصق بأعدائها والمتربصين بها، وهو ما صرّح به الذكر الحكيم في عدّة مواقع، كما في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة ٦٤].

والسؤال: متى تسقط هذه الدولة؟ الجواب: حينما تستيقظ الأمة!!!

بناء مهارات البعد الرابع

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل ٧٨].

ما هو البعد الرابع؟ حينما نتحدث عن الأجسام -كل الأجسام- نقول أنها تتكون من أبعاد ثلاثة هي: الطول والعرض والعمق، ولكن من الواضح أن هذه الأبعاد تشكل أجزاء الجسم المجزأ والمتفرق، وما تحتاجه هذه الأبعاد من أجل أن يتشكل منها جسم واحد هو اجتماعها وتركبها وانضمام بعضها إلى البعض الآخر، وهذه هي القدرة التركيبية التي لابد من تواجدها وانضمامها إلى بقية الأبعاد الثلاثة كي يتشكل منها الجسم، وهذه القدرة على التركيب هي ما نسميها بـ «البعد الرابع».

ولعل في التصوير الذي تقدمه الآية المباركة التي افتتحنا بها حديثنا ما يعيننا على تفهم دور هذا البعد الرابع وأهميته في صياغة بقية مجالات الوجود، لأن ضرورة وأهمية البعد الرابع لا تقتصر فقط على تحقيق التركيب في عالم الأجسام فحسب، بل كل مركب يتكون من عناصر أو أجزاء يتوقف تحققه على أمرين: الأول: وجود جميع أجزاء المركب، والثاني: التركيب الصحيح لأجزاء المركب.

ولتطبيق هذا المبدأ على موضوع الآية المباركة فإننا نقول: أن الله تعالى بين أنه أخرج الإنسان من بطن أمه صفحة بيضاء لا أثر فيها لأي علم ومعرفة، ثم زوده بوسائل العلم والمعرفة، وهي: السمع والبصر والفؤاد، ولكن مجرّد وجود هذه الوسائل لا يحقق المراد منها، إلا إذا ما جمع الإنسان بينها وركبها تركيباً صحيحاً بإعطاء كل وسيلة متطلباتها وضبط علاقتها مع الوسيلة الأخرى، وبذلك تتحقق الغاية المطلوبة من وجود أجزاء ووسائل المعرفة، وهي بناء القدرة التركيبية، وهي

ما عبر عنها الذكر الحكيم بقوله تعالى: ﴿. . . لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ونذكّر بجملة من النصوص التي تشير إلى أهمية بناء البعد الرابع:

١- قوله تعالى في أصل النشأة والخلقة الإنسانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦-٨].

٢- قوله تعالى في بيان سرّ التطور والنمو في الإنسان: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر ٦٧].

٣- قوله تعالى في تناسق الأدوار في بناء القوة العسكرية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف٤].

٤- قول علي عليه السلام في بيان أجزاء الفضائل وانتظام تركيبها بالعدل: (الفضائل أربعة أجناس: أحدها الحكمة وقوامها في الفكرة، والثاني العفة وقوامها في الشهوة، والثالث القوة وقوامها في الغضب، والرابع العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٥٧، ص ٨١].

٥- قول الرسول صلى الله عليه وآله في من يعجز عن امتلاك القدرات التركيبية في علاقته مع الآخرين: (مثل مؤمن لا يرعى حقوق إخوانه المؤمنين كمثل من حواسه كلها صحيحة وهو لا يتأمل بعقله، ولا يبصر بعينه، ولا يسمع بأذنه، ولا يعبر لسانه عن حاجته، ولا يدفع المكاره بالإدلاء بحججه، فلا يبطش بشيء بيديه، ولا ينهض إلى شئ برجليه فذلك قطعة لحم قد فاتته المنافع، وصار غرضا للمكاره، فكذلك المؤمن إذا جهل حقوق إخوانه فات ثواب حقوقهم، فكان كالعطشان بحضرة الماء البارد فلم يشرب حتى طفى، فإذا هو سليب ذي الحواس، لم يستعمل شيئا منها لدفاع مكروه، ولا انتفاع بمحبوب، فإذا هو سليب كل نعمة، مبتلى بكل آفة) [ن م، ج ٧٢، ص ٤١٤].

مفارقات دور المؤسسة التعليمية في التجربتين العربية والأمريكية

كيف تتشكل النظرة لدور أول وأهم مؤسسة تعليمية في المجتمع، ألا وهي المدرسة؟

في هذا المجال نحاول أن نقدم نظرتين متباينتين لدور المؤسسة التعليمية، النظرة الأولى تفصح عن كيفية تشكل الدور الأساسي والمهمة الرئيسية للمؤسسة التعليمية في تجربتنا العربية، والثانية تفصح في المقابل عن هذا الدور وتلك المهمة ولكن كما تتشكل في تجربة أخرى، هي التجربة الأمريكية، وهذا ما سنقوم بإيضاحه عبر هاتين الدراستين:

الدراسة الأولى: التعليم وصناعة القهر، هذا هو عنوان كتاب مهم جداً، هو في الأصل جزء من رسالة دكتوراه للدكتور طلعت عبد الحميد، ولقد جاء عنوان الكتاب معبراً جداً عن طبيعة الناتج الذي يتم تصنيعه في مدارسنا العربية، وهو القهر، والباحث يدرس إشكالية التعليم في مدارسنا من حيث ارتباطها بمفهوم «الضبط الاجتماعي»، وهو المفهوم الذي استخدم استخداماً سيئاً إلى الحد الذي تحول إلى أن يكون مفهوماً للضغط وليس للضبط، وذلك لأن أساليب الضبط الاجتماعي أضحت في مدارسنا -وكما يقول الباحث نفسه-: (تعبر عن مجمل الطرق والأدوات والوسائط التي تشمل العملية التربوية التي تستخدمها النخبة الحاكمة بهدف استمالة أو إجبار الطلاب على الانقياد أو الامتثال للمعايير والتوجهات التي تراها هذه النخبة تخدم النظام الاجتماعي الحالي) [ص ٢٤]. وفي قبال صناعة القهر التي ينتجها التعسف في استخدام مبادئ الضبط الاجتماعي، يدعو الباحث في نهاية الكتاب إلى ترسيخ جذور التعليم الحواري الذي يقوم على حرية

الرأي (وإذا كانت حاجات أي شعب بعد الخبز هي التعليم، فإن ممارسة حرية التعبير والحوار وتكوين رأي خاص والتعبير عنه ونشره تعد من الحاجات الأساسية في عصرنا الحاضر) [ص ١٧٨].

الدراسة الثانية: التربية والتنمية والنهضة، وهو عنوان دراسة موثقة ومحكمة كتبها الدكتور عبد العزيز محمد الحرّ، ونال عليها جائزة مكتبة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني العالمية، وحينما يقارن الباحث بين التجربة العربية والتجربة الأمريكية في مجال إصلاح النظام التعليمي يتحدث عن وثيقة (أمريكا عام ٢٠٠٠: استراتيجية للتربية)، وللعلم فإن (وثيقة أمريكا عام ٢٠٠٠ تقرير رئاسي أعدّ بعد مؤتمر شارك فيه محافظو الولايات الأمريكية بحضور الرئيس الأمريكي «جورج بوش، سبتمبر ١٩٨٩»)، وممّا جاء في هذه الوثيقة كمقدمات وثوابت أساسية:

١- لابد أن تغرس التربية والأخلاق الحميدة والقيم السليمة.
٢- التعليم أداة لصناعة القوة والتقدم.
٣- تطوير التعليم يجب أن يراعي التحولات والتغيرات العالمية المتسارعة.
٤- تطوير التعليم يجب أن لا يقف عند تطوير الكتب الدراسية أو أساليب التدريس، وإنما يجب أن يكون التطوير نوعياً بالدرجة الأولى.
٥- استحداث مدارس جديدة لا يعني بناء فصول جديدة فقط، ولكن ابتكار أنظمة جديدة للتعلم تستند على أسس من البحث والتطوير.
٦- التربية مسئولة عن تنمية الإبداع والقدرة على التفاعل مع المستقبل.
٧- ضرورة التخطيط الاستراتيجي المعتمد على الرؤية البعيدة والنظرة المستقبلية.

ولكن أهم ما حملته هذه الوثيقة من أهداف تحول بين التعليم وبين تحوله إلى صناعة للقهر والتسلط، عكسه الهدف الخامس، والذي يقول: (جميع الكبار في أمريكا سيتخلصون من الأمية الوظيفية، ويكتسبون المعرفة والمهارات الأساسية والضرورية للمنافسة في عالم الاقتصاد الكلي الحر، كما سيكون في مقدورهم ممارسة حقوق المواطنة وواجباتها) [المصدر المذكور، ص ١٣٨-١٣٩].

صناعة القدرة على حل المشاكل واتخاذ القرارات

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء ٨٣].

حينما يواجه الإنسان مشكلة ما، ويستدعي ذلك منه اتخاذ قرار بشأنها، فإن الكثير من الناس يستعجلون ويتسرعون في اتخاذ قراراتهم، وربما يكون هذا التسرع والاستعجال سبباً في تضخيم وتفاقم المشكلة، ومثال الوقوع في هذا الأمر هذه القصة التي تحكى عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، إذ يقول الأبشيهي صاحب كتاب المستطرف في كل فن مستظرف، ج٢، ص ٢٠٧: (وكان رضي الله عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعسّ بنفسه، ويباشر أمور الرعية سراً في كثير من الليالي، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثا، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبداً أسود قدامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة، فهمّ بالدخول من الباب، فلم يقدر من تحصين البيت، فتسور على السطح و نزل إليهم من الدرجة، ومعه الدرة، فلما رأوه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الأسود، فقال له: يا أمير المؤمنين: قد أخطأت وإني تائب، فاقبل توبتي فقال: أريد أن أضربك على خطيئتك. فقال: يا أمير المؤمنين: إن كنت قد أخطأت في واحدة، فأنت قد أخطأت في ثلاث: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ وأنت تجسست، وقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وأنت أتيت من السطح، وقال تعالى: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾، وأنت دخلت وما سلمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود،

فاستتوبه، فاستحسن كلامه).

وتعقيباً على الموقف الذي اتخذه الخليفة الثاني يقول الأميني في الغدير: (وقد عد ابن الجوزي هذه الفضيحة المخزية من مناقب عمر وتبعه شاعر النيل حافظ إبراهيم ونظمها في قصيدته العمرية فقال تحت عنوان: مثال رجوعه إلى الحق:

وفتية ولعوا بالراح فانتبذوا لهم مكانا وجدوا في تعاطيها.
ظهرت حائطهم لما علمت بهم والليل معتكر الأرجاء ساجيها.
حتى تبينتهم والخمر قد أخذت تعلو ذؤابة ساقيها وحاسيها.
سفهت آرائهم فيها فما لبثوا أن أوسعوك على ما جئت تسفيها.
ورمت تفقيههم في دينهم فإذا بالشرب قد برعوا الفاروق تفقيها.
قالوا: مكانك قد جئنا بواحدة وجئتنا بثلاث لا تباليها.
فائت البيوت من الأبواب يا عمر فقد يزن من الحيطان آتيها.
واستأذن الناس لا تغشى بيوتهم ولا تلم بدار أو تمحيها.
ولا تجسس فهذي الآي قد نزلت بالنهي عنه فلم تذكر نواهيها.
فعدت عنهم وقد أكبرت حجتهم لما رأيت كتاب الله يمليها.
وما أنفت وإن كانوا على حرج من أن يحجك بالآيات عاصيها.

قال الأميني: هكذا يعمي الحب ويصم، ويجعل الموبقات مكرمات، ويبدل السيئات حسنات) [الغدير، الأميني ج ٦ ص ١٢١].

ملاحظة أساسية: ما هو سبب العجز عن صناعة القدرة على حل المشاكل واتخاذ القرارات الصائبة؟ من الواضح من خلال هذا النموذج الذي تحدثنا عنه أن السبب في افتقاد الخليفة الثاني القدرة على حل المشكلة ومعالجة الموقف واتخاذ القرار المناسب يتمثل في تغلب نزعة الفعل على نزعة التفكير، فمن يتسرع في اتخاذ الحلول وتبني القرارات من دون أن يمارس عملية تفكير مستوعبة وشاملة يقع على الدوام في أخطاء، ولا يستطيع -مهما أراد- التخلص من تكرار أخطائه وحماقاته.

بناء منظومة الحقوق الإنسانية
بين التأسيس النظري والتأصيل العملي

في هذا الصدد نتعرض للدور المهم والأساسي الذي أراد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من خلاله الإسهام في بناء وتأصيل منظومة الحقوق الإنسانية، وأهمية هذا الدور تكمن بشكل خاص في اشتغاله ضمن محورين:

المحور الأول: التأسيس النظري لمفاهيم الحق: وفي هذا الشأن أهم ما يستوقفنا في التجربة العلوية هو كلمته الرائعة تلك حول مبادئ ومفاهيم الحق، والتي تمثلت في الخطاب التأصيلي والتأسيسي الذي ارتجله الإمام عليه السلام في صفين، وفي بداية خطبته تلك نلمح تأسيساً عقلياً فلسفياً رائعاً لمفهوم الحق لا نجده في أيّة محاولة تأسيسية أخرى في هذا الشأن، إذ يبدأ كلامه بالقول: (أما بعد فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم؛ فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلاّ جرى عليه، ولا يجري عليه إلاّ جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله) [نهج البلاغة، ٢١٦]. فنحن هنا أمام تأسيس دقيق ومحدّد لمفهوم الحق وآلية عمله في دنيا، وينطوي هذا التأسيس على عدّة تحديدات نعرض إليها بشكل سريع:

التحديد الأول: التصريح بمجعولية منظومة الحقوق من قبل الله سبحانه وتعالى، على أساس أنها المنظومة التي تحكم مختلف العلاقات الثنائية.

التحديد الثاني: الإقرار والاعتراف بأن «الحق» أمر يتبادل الالتزام به كل الأطراف في مجال العلاقات الثنائية.

التحديد الثالث: يتمثل التحديد الثالث في تجاوز الإمام علي عليه السلام التأسيس النظري المجرّد لمعنى ومفهوم الحق، وولوجه بشكل مباشر في تحديد أهم عناصر منظومة الحقوق المتبادلة، وهي ما يمكن أن نسميها بمنظومة الحقوق المدنية، وهو ما نعرض له في المحور الثاني من الحديث.

المحور الثاني: التأصيل العملي لمقتضيات الحق: تجسد الكثير من مواقف حياة الإمام علي عليه السلام إضافات عملية مهمة على طريق بناء الحس الحقوقي عند الإنسان، فقد استشعر الإمام علي عليه السلام مسئوليته في القيام بهذا الواجب في عدّة مواقف، لا نستذكرها كمجرد إضافات نصوصية جامدة، وإنما نستذكرها من أجل بيان عمق الخلل الذي نعانيه -نحن العرب والمسلمين- في ما بنيناه من وعي بحقوق الإنسان والمواطن، وهو المجال الذي ظلّ نسياً منسياً في الوعي السياسي والاجتماعي للحاكم والمحكوم على السواء، حتى لم تعد تستثيرنا اليوم كل مظاهر الإهمال والتجاوز للحقوق، بعد أن فقدنا الإحساس المرهف بأهمية هذه الحقوق، بينما تستثير الإمام عليه السلام صورة شيخ مسيحي عجوز أعيته السنون وأثقلت كاهله أعباء العمر الطويل، فظلّ وحيداً يكابد الشقاء والحرمان، فقد (مر شيخ مكفوف كبير يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين! نصراني، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه؟ أنفقوا عليه من بيت المال) [الهمداني: الإمام علي، ص ٦٨٦]، ويتأصل بناء الحس الحقوقي ويتجذر عند علي عليه السلام إلى الحدّ الذي يجعله قلقاً على المساس بحقوق الآخرين، حتى في اللحظات التي يسلبه الآخرون أبسط حقوقه في العيش والحياة، فيوصي قومه في اللحظات الأخيرة من حياته بعد أن أصابه الخارجي بسيفه: (يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضا تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور») [نهج البلاغة، الكتاب ٤٧].

المأزق الفلسفي في التأسيس الحديث لحقوق الإنسان

أهم مأزق فلسفي يواجه قضية تثبيت حقوق الإنسان والاعتراف بها كما تمّ بلورتها في المنظومات الحديثة لحقوق الإنسان، هو أن الطرف الأساسي في تثبيت هذه الحقوق هو الإنسان نفسه، ولا شك أن هذه تمثل إشكالية كبيرة على المستوى الفلسفي، وسنرى أن هذه الإشكالية لن تقتصر على هذا المستوى، بل ستتعداه إلى مستويات عملية وواقعية، لأن الإنسان الذي أعطى نفسه الحق في تثبيت هذه الحقوق، واعتبار حقوق أخرى ليست ذات أهمية، أو لا ترقى لأن تكون في مستوى الحقوق التي يقرّها هو ويعترف بها، أفسح المجال لنفسه ليصادر مبدأ أساسي وأولي في الاعتراف بالحق والتعامل معه، وهو أن لا تمييز بين حق وآخر، ولا يجوز أن تحظى حقوق البعض باهتمام ومبالغة على حساب حقوق البعض الآخر، وإلا وقعنا في إشكالية مصادرة الحق المعترف به وبالحق في ممارسته والتمتع به، وهو ما حصل بالضبط في مواجهة المسار الحديث الذي تأسست وانبنت وفقه منظومة حقوق الإنسان في التجربة الغربية، فلقد أضحت مفاهيم حقوق الإنسان تعدل وتصاغ وتحدد وتقيد من قبل السلطات السياسية التي تتمتع بها الدولة، فحينما يتحدث «قاموس بنغوين للعلاقات الدولية» عن حقوق الإنسان في ص ٣١٣ يثير هذه الإشكالية بالقول: (وهكذا فإن النظام الدولي قد وضع مدوّنة لحقوق الإنسان الثابتة وحاول إيجاد آلية قضائية بإمكانها التحقيق في التعديات، لكن مشكلة التنفيذ تظلّ شائكة. فالدول تستطيع تجاهلها، بل تتجاهلها بالفعل).

الحلّ التأسيسي للمشكلة: لا مناص من أجل الخروج من هذه الإشكالية من جعل مرجعية إثبات الحقوق الإنسانية مرجعية ليست إنسانية، بل هي مرجعية الحق نفسه، وهي المرجعية التي التمس الإمام علي عليه السلام تأسيس كل الحقوق بلا استثناء

انطلاقاً منها، لأن لا أحد يمكن أن يجعل من نفسه مرجعية مطلقة للحق إلا الحق نفسه، ولذلك قال عليه السلام: (أما بعد فقد جعل الله لي عليكم حقا بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه وتوسعا بما هو من المزيد أهله؛ ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضا، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض. . .) [نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦].

وفي ضوء هذا التأسيس لمثبتات الحق، والتي تسبق وجود الإنسان وكينونته نفهم مضامين النصوص الدينية، من قبيل ما روي (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال قوم من الصحابة لسعد بن عبادة ما كنت صانعا برجل لو وجدته على بطن امرأتك؟ قال: كنت والله ضاربا رقبته بالسيف قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: من هذا الذي كنت ضاربه بالسيف يا سعد؟ فاخبر النبي صلى الله عليه وآله بخبرهم، وما قال سعد. فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا سعد! فأين الأربعة الشهداء الذين قال الله تعالى؟ فقال: يا رسول الله مع رأي عيني وعلم الله فيه أنه قد فعل؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: والله يا سعد بعد رأي عينك وعلم الله، إن الله قد جعل لكل شيء حدا، وجعل على من تعدى حدا من حدود الله حدا، وجعل ما دون الأربعة الشهداء مستورا على المسلمين) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٦٧ ص ٤٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن الله عزّ وجلّ قدّر المقادير ودبّر التدابير قبل أن يخلق آدم بألفي عام) [نور البراهين، الجزائري ج ٢، ص ٣٣٣].

المنهجية الشاملة لتحليل مسار النظم السياسية

قال تعالى: ﴿. . وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ. .﴾ [آل عمران١٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)﴾ [القصص: ٥٨-٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [يونس: ١٣-١٤].

هناك سؤال مهم يتكرر طرحه حينما نجد نظاما سياسياً يشهد انهياراً تاماً، أو حينما نسمع أو نقرأ عن ذلك، ويقول السؤال: ما السبب في تشكل واستمرار وانهيار النظم السياسية؟ وحينما نريد الإجابة عن هذا السؤال فسنجد أنفسنا مضطرين للإطلاع على ما يعرف اليوم في الفكر السياسي بـ «تحليل الأنظمة» أو «Systems analysis»، وقد (انبثق هذا التحليل عن مفهوم النظام الاجتماعي وهو مقتبس عن النظام الأيكولوجي الذي طوره تالكوت بارسونز)[Talcott Parsons] (١٩٠٢-٧٩) اعتباراً من ثلاثينيات القرن العشرين فصاعداً، فقد رأى أن الأنظمة الاجتماعية قابلة للتكيف والتكامل وتتوجه نحو الأهداف وذات موارد كامنة. لذا فقد كانت المحافظة والاستقرار الغرضين الأساسيين لتلك الأنظمة، وقد اقتبس ديفيد ايستون [David Easton] مخطط بارسون من أجل نموذجه الخاص بالنظام السياسي، وحدّد اهتمامه بأنه محاولة الإجابة عن السؤال التالي: «كيف يحدث أن تخرج الأنظمة السياسية إلى حيز الوجود وتستمر في البقاء وتتخذ بعض الأشكال وتتغير ثم تختفي؟». .) [معجم بلاكويل للعلوم السياسية، ص٦٤٣].

وممن عنى في تاريخ الفكر الإسلامي بالإجابة عن هذا السؤال الإمام عليعليه السلام، وله كلمات كثيرة في شأن الدولة وأسباب زوالها واندثار قوتها، إذ يقولعليه السلام: (زوال الدول باصطناع السفل)، ويقول: (يستدل على إدبار الدول بأربع: تضييع الاصول، والتمسك بالفروع، وتقديم الأراذل، وتأخير الأفاضل)، ويقول: (من علامات الإدبار مقارنة الأرذال)، وقال لبعض ولاته لما أن استعمله: (استعمل العدل، واحذر العسف والحيف، فإن العسف يعود بالجلاء، والحيف يدعو إلى السيف)، وقال: (ما حصن الدول بمثل العدل)، وقال: (ثبات الدول بإقامة سنن العدل)، وقال: (من لم يحسن في دولته خذل في نكبته)، وقال: (من عمل بالعدل حصن الله ملكه)، وقال: (صير الدين حصن دولتك، والشكر حرز نعمتك، فكل دولة يحوطها الدين لا تغلب، وكل نعمة يحرزها الشكر لا تسلب)، وقال: (حسن السيرة جمال القدرة وحصن الإمرة)، وقال: (من أمارات الدولة اليقظة لحراسة الأمور) [ميزان الحكمة، الريشهري ج ٢، ص ٩٣٦-٩٣٧].

ومن أهم مقولاته قوله في عهده لمالك الأشتر: (فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية. فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عزّ الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليها، وأجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال في الدين وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار، وتعظم تبعات الله عند العباد) [نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦].

التنمية المستدامة وعلاقتها بالتفكير المنظوماتي

في محاولتنا لتفهم العلاقة بين التنمية المستدامة كمطلب اجتماعي وسياسي، والتفكير المنظوماتي كآلية لا مناص من التزامها من أجل بناء نظرة شمولية تستدعيها الرغبة في تحقيق متطلبات التنمية المستدامة، لابد من طرح السؤالين التاليين:

السؤال الأول: ما هو مفهوم التنمية المستدامة؟

تحدثت مقالة مستلة من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الأردن بعنوان «مقدمة في مفهوم التنمية البشرية المستدامة» عن التنمية المستدامة بالقول: (التنمية البشرية المستدامة هي نظرية في التنمية الاقتصادية-الاجتماعية، لا الاقتصادية فحسب، تجعل الإنسان منطلقها وغايتها، وتتعامل مع الإبعاد البشرية أو الاجتماعية للتنمية باعتبارها العنصر المهيمن، وتنظر للطاقات المادية باعتبارها شرطاً من شروط تحقيق هذه التنمية، دون أن تهمل أهميتها التي لا تنكر. إذن التنمية البشرية المستدامة لا تنكر أهمية النمو الاقتصادي ودوره في تحسين مستوى المعيشة، بيد أنها تريد له أن يكون نمواً يوسع من خيارات الناس، أي نمو يمكن أن يستمتعوا بثماره على شكل غذاء وخدمات صحية أفضل، وحياة أكثر أماناً، ووقاية من الجريمة والعنف الجسدي، ووصول أفضل للمعرفة، وساعات راحة أكثر كفايةً، وحريات سياسية وثقافية، وشعور بالمشاركة في نشاطات المحيط الذي يعيش الإنسان ضمنه. فهدف التنمية الحقيقي هو خلق بيئة تمكن الإنسان من التمتع بحياة طويلة وصحية وخلاقة).

ويمكنني أن أقدم تصوراً شمولياً وأكثر اختصاراً لمفهوم التنمية البشرية المستدامة بالقول: (إن التنمية المستدامة هي بناء لمجموعة من العلاقات المترابطة

داخل منظومة واحدة من أجل تحقيق أقصى استفادة ممكنة).

السؤال الثاني: ما هو مفهوم التفكير المنظوماتي؟

التفكير المنظوماتي هو التفكير القائم على اكتشاف الروابط والعلائق داخل المنظومة الواحدة، وقد (عُرِف المنظور الكلاني في علم القرن العشرين بأنه "منظوماتيsystemic " وطريقة التفكير التي يتضمنها بأنها "التفكير المنظوماتيsystems thinking") و (انبثقت الخصائص الرئيسية للتفكير المنظوماتي في وقت واحد في فروع علمية متعددة خلال النصف الأول من القرن العشرين، خصوصاً في عقد العشرينيات. وقد مهّد الطريقَ لهذا التفكير علماءُ البيولوجيا الذين أكدوا على النظر إلى المتعضيات من حيث هي كلّيات متكاملة. وقد أغنى هذه النظرة لاحقاً علمُ نفس الغشتالت Gestalt وعلم الإيكولوجيا الجديد وكان لها أقوى الأثر في الفيزياء الكوانتية).

ومن أجل تحقيق تنمية مستدامة لابد أن يكون لدينا تفكير منظوماتي يراعي ويدخل مختلف الأبعاد التي يمكن أن تؤثر في تحقيق التنمية المنشودة، لأن التنمية البشرية ليست عملية بسيطة ذات أبعاد محدودة، بل هي عملية معقدة ومركبة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال صياغة وتنظيم مجموعة من الروابط والعلاقات بين الأشياء من أجل أن تسير الأمور كلها في سياق واحد متناسق الأبعاد والأهداف، وهذا ما يتحقق من خلال إعمال مهام التفكير المنظوماتي، لأن (هدف التنمية ليس مجرّد زيادة الإنتاج، بل تمكين الناس من توسيع نطاق خياراتهم ليفعلوا المزيد من الأشياء وليعيشوا حياة أطول وأفضل وليتجنبوا الأمراض القابلة للعلاج، وليملكوا المفاتيح لمخزون العالم من المعرفة).

وربما من خلال فهم ضرورات الربط بين متطلبات التنمية المستدامة وضرورات التفكير المنظوماتي نفهم المغزى العميق الذي ينطوي عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم. . .﴾ [المائدة ٦٦].

إدارة الحلقات النقاشية

السبيل الأفضل لتطوير مهارات التواصل الاجتماعي

قال الله تعالى: ﴿. . . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة ٢].

(عن إسماعيل البصري قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: تقعدون في المكان فتحدثون وتقولون ما شئتم وتتبرؤون ممن شئتم وتتولون من شئتم؟ قلت: نعم، قال: وهل العيش إلا هكذا) [الكافي، الكليني ج ٨، ص ٢٢٩].

الحديث عن إدارة الحلقات النقاشية يدور في محاور أربعة:

١- **مفهوم الحلقات النقاشية**: هي جلسات تستهدف تداول الحوار والنقاش في موضوع محدد بين مجموعة من الأفراد من أجل تفهم أبعاده وبلورة فكرة واضحة حوله من أجل التعاطي معه بأسلوب حكيم.

٢- **ضرورات الحلقات النقاشية**: تنبع أهمية الحلقات النقاشية من كونها أفضل وسيلة لتشكيل وتعميم نمط التفكير الإزدواجي القائم على الجمع بين الخصوصيات الإيجابية في التفكير الفردي، والخصوصيات الإيجابية في التفكير الجماعي، وهو امتثال مدروس لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ ٤٦].

٣- **متطلبات إدارة الحلقات النقاشية**: يتطلب أمر إدارة الحلقات النقاشية عناصر عدة تتكامل في أداء أدوارها، وتنسيق مهامها، وهذه العناصر هي:

المدير: وهو الشخص الذي يقوم بمهمة إدارة طريق الحوار وعملية التفاعل بين أفراد الحلقة النقاشية، وتسهم القدرات الذاتية للمدير في تحقيق جو الانسجام

وتقوية رغبات التواصل والتفاعل بين أفراد المجموعة.

العناصر النشطة: وهي مجموعة قليلة تأخذ دوراً متميزاً في التحفيز.

المجموعة: وهي الأفراد التي تشكل الحلقة النقاشية وتعتبر المقصودة من وراء عقد هذه الحلقات من أجل اكتشاف وبناء وتطوير وتوجيه مهاراتها الذاتية في مجالات التفكير، والتواصل، والحديث، والعمل.

المواضيع: وتحديدها بما يتناسب والضرورات التي تفرضها الحاجات الحقيقية للمجموعة أمر في غاية الأهمية، لأن ذلك ما يمنع أن يتحول النقاش إلى ترف فكري لا تخرج منه المجموعة بمحصل جديد في كل مرة.

قياس وتقويم الأداء: تحتاج المجموعة في الحلقة النقاشية لتقويم أدائها وقياس طبيعة ومستوى النتائج التي تحققت على أرض الواقع، خلال مدد زمنية محددة، مما يسهم في التعرف على نتائج الحلقات النقاشية وتحديد موارد النجاح والفشل في مجموع ما تمّ التوافق عليه داخل هذه الحلقات.

٤- غايات الحلقات النقاشية:

أولاً: تطوير مهارات التكيف الاجتماعي عبر تحقيق التواصل المعلوماتي والفكري والانسجام النفسي والتوافق العملي بين المجاميع البشرية داخل المجتمع الواحد.

ثانياً: اكتساب الخبرات ومحصلات التجارب من قبل الآخرين المشاركين في هذه الحلقات.

ثالثاً: اكتساب مهارات التفكير مع المجموعة ومن داخلها.

رابعاً: التعود على مشاركة الآخرين في اتخاذ القرارات وتبني المواقف.

خامساً: تنمية قدرات الحوار والتحدث والنقد.

سادساً: امتلاك القدرة على صياغة آراء توافقية في ظل أجواء هادئة.

سابعاً: تنمية المهارات التركيبية عند الإنسان، وضبط نوازع التباين عن الآخرين.

ثامناً: يمكن للحلقات النقاشية أن تسهم في تعميم الأنماط والمهارات المبنية داخل المجوعة إلى خارجها عبر مفهوم العدوى الاجتماعية.

زاوية الإدراك والحكم
إشكالية الموضوعية في تكوين المعرفة الإنسانية

تتباين الناس على الدوام وتختلف في ما تبنيه من رؤى وما تتبناه من مواقف تجاه مختلف الأمور، حتى عدّ الاختلاف وتباين وجهات النظر طبعاً إنسانياً لا يمكن للإنسان مهما بلغ من علم ووعي واستقامة التخلي عنه والخروج على مقتضاه، ولعله إلى ذلك أشار الباري تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ . . .﴾ [هود: ١١٨-١١٩] [هود ١١٨-١١٩].

ولو أردنا مقايسة أسباب تباين الناس في قراءة الأحداث سواء كانت في الماضي أم الحاضر أم المستقبل، فسنلحظ أن الناس تختلف في ما بينها في مواقفها من الأحداث وتقييمها لها، وليس بالضرورة أن ينشأ هذا الاختلاف من تدخل النزعات النفسية وتحكمها في صياغة مواقف الأفراد والجماعات، تجاه هذا الحدث أو ذاك، بل تتحكم عوامل أخرى هي ناتج قصور في الطبيعة الإنسانية عن إدراك كل مقتضيات وحيثيات الموضوع التي تبتغي إدراكه والحكم بشأنه، ومن هنا تختلف مواقف الناس وتتباين في أحداث الماضي الذي انقضى وانتهى، بالمستوى الذي تختلف في مواقفها من أحداث الحاضر القائم والمشهود، وتتباين وجهات نظرها أيضاً في رسم صورة المستقبل غير المرئية بالمستوى الذي تتباين مواقفها تجاه أحداث الحاضر المعاشة والمرئية، مما يدلل على أن للاختلاف بين البشر عوامل تكبر على قدراتنا الذاتية، ولا يمكن لنا أن نتجاوزها بأي حال من الأحوال.

وسبب هذا الاختلاف يرجع إلى ما نسميه بزاوية النظر التي تتحكم في

صياغة الرؤى واتخاذ المواقف، فالإنسان لا يتجرّد بطبيعته من زاوية نظر يحكم من خلالها على الأمور، وكلّما ضاقت هذه الزاوية ضاقت نظرة الإنسان وتحدّد مستوى إدراكه، وبالتالي تباينت الآراء والأفكار بحسب تباين وتعدّد زوايا النظر بين البشر.

ومن الواضح أنه ليس بإمكان الإنسان النظر من جميع الزوايا لأنه يفتقد القدرة الذاتية على ذلك بحسب إمكانياته الطبيعية، وهذا ما يجعل إمكانية التجرّد من كل المؤثرات أمراً غير ميسور أو غير مقدور، وفي هذا السياق نفهم قول الله تعالى لنبيه نوح في شأن علاقته بابنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

فنوح عليه السلام رغم أنه عبد مسدد من الله تعالى إلا أن هناك عوامل طبيعية تتدخل في صياغة قراراته من دون التفات منه إلى ما يمكن أن تنطوي عليه هذه العوامل من قصورات تستجرّه إلى أخطاء غير مقصودة في تكوين الرؤية النظرية، وإلى التباسات غير واعية في اتخاذ الموقف العملي، وفي هذا السياق يكون من الطبيعي جداً أن يرغب نبي الله نوح عليه السلام في تقديم مبررات النجاة لابنه الذي يرتبط به ارتباطا عضوياً ونفسياً، ولكن حينما يتبين له أن رغبته هذه تأتي غير متناسقة ولا متناغمة مع مقتضيات العلم الإلهي فإنه سرعان ما يعود إلى إرادة الله المحيطة بكل شيء والمنطلقة من علم شامل بكل صغيرة وكبيرة.

ومن خلال هذا التحديد الذي تستدعيه «زاوية الإدراك والحكم» تنشأ إشكالية المعرفة البشرية المتمثلة أساساً في افتقاد القدرة التامة والشاملة على تحقيق الموضوعية في كثير من قضايا المعرفة ومجالاتها، رغم أن الإنسان قد يسعى لها بكل جدّ واجتهاد، وهي القضية المهمة التي أراد الذكر الحكيم تذكير الإنسان بها حينما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء ٨٥].

تعزيز المشروعية السياسية
من إدارة الحرب إلى إدارة المعرفة

ثمة تلميح يحتاج إلى مزيد توضيح في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١].

نحن هنا أمام نص قرآني أهم ما فيه أنه يؤسس لمفاهيم دقيقة ومترتبة على

بعضها في مجال إدارة شؤون السلطة السياسية، والأهم من ذلك أنه يحدد مفهوماً مستجداً للمشروعية السياسية يأتي في سياق الربط بين القدرة على إدارة الحرب والنجاح في إدارة المعرفة، وهو تحديد في غاية الأهمية والجدة.

وبالرغم من احتواء هذا النص القرآني على أكثر من نقطة تستحق التوقف والتأمل، إلا أننا سنتوقف عند نقطتي البداية والنهاية فحسب:

نقطة البداية: إدارة الحرب: وهي التي حدّد الخطاب القرآني معالمها من خلال التركيز على متطلبات النجاح والنصر فيها، وتمثل ذلك في استعراضه لطبيعة الحوار الدائر بين الملأ من بني إسرائيل ونبيهم بشأن طالوت الذي اختير ملكاً عليهم في الحرب لتوفره على متطلبات النجاح في خوض الحرب وإدارتها، وهو ما ألمح إليه الباري تعالى بقوله: ﴿... إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

نقطة النهاية: إدارة المعرفة: وهي التي حدّد الذكر الحكيم التفوق في مراتبها والعلو في درجاتها وكأنه أثر مترتب على النجاح في معركة الدفاع عن القيم والمبادئ التي خاضها طالوت، فلقد ختمت حكاية طالوت القائد العسكري الناجح في إدارة الحرب، والقادر على القيام بمتطلبات المعركة بنجاح مواز وتفوق مقارن في إدارة المعرفة، وقد أشار إليهما الكريم جلّ جلاله بقوله: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ...﴾.

والنتيجة: مشروعية معززة: إن القدرة على النجاح في نقطتي البداية والنهاية يجسد أعلى مستويات المشروعية التي يمكن للسلطة السياسية أن تتمتع بها، وتحكم من خلالها، لأن السلطة السياسية التي تتمكن من تسخير عناصر القوة المادية في بناء المجتمع والدفاع عن كيانه، تكون أشد حرصاً على تسخير عناصر القوة المعرفية في سبيل تطوير قدرات المجتمع وإمكانياته، ومن خلال ذلك تتواصل الجسور بين صناع القرار العسكري المتعلق بالحفاظ على أمن المجتمع، وصناع الوعي المعرفي المتعلق بتكثيف متطلبات التنمية الشاملة التي لا سبيل لتحقيقها إلا من خلال القوة والعلم.

عصر الجسد الأنثوي

بحق يقال أن عصرنا هذا هو عصر المرأة، لأنه العصر الذي استحكم فيه النسق الأنثوي وهيمن على العنصر الذكوري، ليبعد كل سماته من التأثير في صياغة المجتمع والحياة، محققا النسق الأنثوي أكبر انتصار له في تاريخ البشرية بعد أن ارتفعت المرأة فوق الجميع، وفوق كل شيء، لتنتصب كصنم شامخ في علوه وارتفاعه، يعبد كآلهة رغم كل سمات الضعف الظاهرة التي تتمتع بها، ولتبرز كجسد يمتلئ شهوة واستثارة، ويخلو من كل روح وحياة وجمال، وهو ما يتناسق مع تلك التجربة التي أدارها السامري في عهد موسى عليه السلام يوم أن أخرج لبني إسرائيل جسداً له خوار كي ما يعبد من دون الله تعالى، وفي ذلك نقرأ قول الجليل جلّ جلاله: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٨٣-٩١].

حينما يتمّ الحديث عن عصر ما بأنه عصر المرأة فهذا يعني أن خصال النسق الأنثوي تكون هي المستحكمة والطاغية في الشأن العام، وهذه الخصال تلتصق بالمرأة بوصفها الأنساق التي جرت العادة أن يكون لها حضور أكبر في شخصية

المرأة، لأنها تتناسب وطبيعتها الأنثوية، وإن كانت تمتلك حضوراً في شخصية الرجل، ولكنه حضور ثانوي، ولعل في الحكاية القرآنية لنقض العهود والمواثيق عبر التمثيل بمهمة اعتادت المرأة على القيام بها ما يوحي بهذه الملاحظة المهمة، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩١-٩٢].

يقول جاك أتالي في معجم القرن الـ ٢١، حينما يتحدث عن المرأة ما نصه: (سيكون القرن الحادي والعشرون، أنثويا، على غرار القرن الثامن عشر، ففي الشمال ستطغى القيم النسائية على ما عداها. وفي الجنوب، سيغدو وضع النساء لا يطاق، ودورهن الاجتماعي والاقتصادي حاسماً بحيث يؤدي هذا التناقض إلى انفجار الثورات المتلاحقة).

وفي نهاية حديثه عن دور المرأة في مستقبل العلاقات بين الشمال والجنوب يقول: (سوف يؤدي هذا التناقض بين تنامي نفوذ النساء في الشمال، وتفاقم الظلم اللاحق بهن في الجنوب، إلى الإسراع في الاعتراف بواجب التدخل، بناء لطلب نساء الشمال، من أجل مدّ يد المساعدة لنساء الجنوب، حيث سنشهد حالات من ترحال التآخي، مما سيفضي في النهاية إلى نوع من الثورة حيث تنضم نساء الشمال إلى نساء الجنوب بغية مساعدتهن لتولي السلطة، أو أقلّه لقلب الحكم الذي يبقيهن في تبعيتهن للرجال ووضعهن البائس).

ومن الواضح أن الهيمنة التي يفرضها النسق الأنثوي اليوم، وفي المستقبل تنحصر أساساً في الاستعلاء الجسدي الغريزي الذي يفرغ المرأة من أيّ محتوى سوى كونها جسداً خلق للإثارة والمتعة فحسب.

علاقة الجماعات المعرفية بالسلطة السياسية

قال الإمام علي عليه السلام في عهده السياسي والإداري لمالك الأشتر: (وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك) [نهج البلاغة، الكتاب ٥٣].

تصلح هذه الوصية القصيرة لأن تكون منطلقاً لنا في الحديث عن أهمية الدور الذي تقوم به الجماعات المعرفية في توجيه السلطة السياسية وتقديم الآراء والملاحظات والتوصيات التي ترى ضرورة الأخذ بها في إدارة الشأن العام للجهات المسئولة في الدولة، وقد أبرز الفكر السياسي الحديث اهتمامه بتكوين ودور الجماعات المعرفية، وأهمية علاقتها بالمجال السياسي في الدولة، ففي قاموس بنغوين للعلاقات الدولية يتمّ الحديث عن «الجماعات المعرفية» أو "Epistemic communities" بالقول: (تشير إلى مجموعات أو شبكات من الاختصاصيين من ذوي الخبرة المعترف بها في مجالات المعرفة التي تمت للسياسة بصلة. وبما أن المعرفة بعد هام في للسلطة، فإن الجماعات المعرفية تستطيع وتقوم بالفعل بدور هام في صنع القرارات ووضع الأجندات. ومع أن هذه ليست ظاهرة جديدة في السياسة العامة، فقد شهد القرن العشرون اعتماداً متزايداً على جماعات الضغط هذه في مجال متزايد الاتساع لمجالات القضايا، لاسيما تلك التي تتضمن مكوّناً تقنياً قوياً مثل البيئة، أو الاقتصاد أو المسائل المتصلة بالأمن القومي) [غراهام ايفانز/ جيفري نوينهام: قاموس بنغوين، ص٢٠٥].

ولعلنا نلمح تقديراً واحتراماً وتثبيتاً للدور الذي تلعبه هذه الجماعات المعرفية في المجال السياسي العام، في موقف ملكة سبأ بلقيس حينما أرسل إليها سليمان النبي الملك كتاباً يأمرها فيه بأن تأتي إليه وقومها مسلمين، فاستشارت جماعتها في

ذلك مبينة أنها لا تبرم أمراً من دون أخذ رأيهم واستشارتهم، وهو ما حكاه تعالى في قوله: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٢٩-٣٣].

وما يلفت النظر في هذا النص القرآني هو ذلك التواصل العملي العميق الذي كشف عنه النص في علاقة الرأس الآمر في السلطة السياسية بالجماعة المعرفية المستشارة، فصاحبة السلطة بادرتهم بالقول: ﴿.. أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، وهم أبدوا رأيهم مرجعين الأمر في نهاية المطاف إليها فـ: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

وينبغي أن تحظى الجماعات المعرفية بالاهتمام على أصعدة ثلاثة من أجل أن يتحدد دورها وفاعليتها في تأسيس الممارسة السياسية العامة وفق منظور علمي يقوم على الخبرة الكافية، والإطلاع الواسع، واستبصار النتائج، وتلك الأصعدة الثلاثة تتمثل في:

١- **التكوين**: إحدى أهم المؤشرات التي تفصح عن رغبة السلطة السياسية في تفعيل دور المشاركة الشعبية والنخبوية في إدارة الشأن العام هو اهتمامها بتشكيل وتكوين الجماعات المعرفية والاعتراف الرسمي بها.

٢- **المسؤوليات**: لا مناص من تحديد مسؤوليات الجماعات المعرفية كي يتعرف أفرادها بشكل واضح على المهام المراد منهم انجازها، وأهمها صناعة الرؤى العلمية والمعرفية القادرة على تقديم قراءة موضوعية للأوضاع والمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وما هو المطلوب تجاهها.

٣- **الصلاحيات**: من أجل أن لا تتحول الجماعات المعرفية إلى جماعات دعائية تستند إليها السلطة السياسية في تبرير كل أخطائها، لا مناص من إعطاء هذه الجماعات صلاحيات محدودة تتناسب والدور المطلوب منها.

متطلبات تحسين الأداء في العمل التطوعي

قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ﴾ [البقرة ٢٨٦].

ما يحتاجه العمل التطوعي أو الخيري من أجل أن ينمو ويتطور هو:

١- **القدرة**: وهو مبدأ أساسي في أي فعل يريد الإنسان القيام به، يقول تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إلاَّ وُسْعَهَا...﴾ [البقرة ٢٨٦]، ويقول سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إلاَّ مَا آتَاهَا...﴾ [الطلاق ٧].

٢- **الحرية**: وهي قيمة أخلاقية حينما تنفك عن الفعل الإنساني يغدو إما فعلاً حيوانياً غريزياً، أو فعلاً آلياً جامداً، والحرية صفة لا يرضى الأحرار بدلاً عنها أبداً، قال الإمام الصادق عليه السلام: (إن الحر حر على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكت عليه المصائب لم تكسره وإن أسر وقهر واستبدل باليسر عسرا، كما كان يوسف الصديق الأمين صلوات الله عليه لم يضرر حريته أن استعبد وقهر وأسر) [ميزان الحكمة، الريشهري ج ١، ص٥٨٢].

٣- **العقلانية**: وهي سمة يلتزمها الفعل الإنساني الحر والمسؤول، مقابل العبثية التي تنطلق بلا غايات محدّدة أو أهداف معقولة، يقول الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لهشام بن الحكم: (يا هشام نصب الحق لطاعة الله، ولا نجاة إلا بالطاعة، والطاعة بالعلم والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقل يعتقد، ولا علم إلا من عالم رباني، ومعرفة العلم بالعقل. يا هشام قليل العمل من العالم مقبول مضاعف، وكثير العمل من

أهل الهوى والجهل مردود) [الكافي، الشيخ الكليني ج ١، ص ١٧].

٤- **الإتقان**: وهو إجادة العمل بالتوفر على كل مستلزماته وشرائطه، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل ٨٨]، وقال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) [ميزان الحكمة، الريشهري ج ٣، ص٢١٣١].

٥- **المسؤولية**: وهي المبدأ الذي يكمل مع الحرية القيمة الأخلاقية للفعل الإنساني، بل أن المسؤولية لا يمكن أن تثبت حين انعدام الحرية، كما أن الحرية لا يمكن أن تتحول إلى قيمة أخلاقية حينما تنفك عن المسؤولية، قال الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات ٢٤]، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

٦- التقدير: وهو آلية من خلالها يثبت الحسن والأحسن، ويزاح السيئ والأسوأ، فيزداد العامل شوقاً إلى فعل الحسن، ويرتدع الراغب في السيئ عن فعله خوفاً أو خجلاً، وقد قال الله تعالى في حق المؤمنين: ﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة ٢٢]، وقال سبحانه عمن أسخطوه من الكفرة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

٧- **المكافأة**: وهي مبدأ لا ينبغي تناسيه أو التغافل عن أهميته اعتماداً على التقدير المعنوي، أو إخلاص النية، فإن للمكافأة دورها في التحفيز والتثبيت، قال تعالى: ﴿... مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

صناعة الإنسان الفاسد

الدور اليهودي العالمي في تجربة الفساد البشري

يتركز حديث القرآن المجيد عن الفساد والإفساد في دنيا البشر إلى الحد الذي تشعر من خلاله أن الذكر الحكيم يريد أن يعطيك تأريخاً مفصلاً لمراحل هذه الظاهرة التي اقترنت بالإنسان حتى قبل أن يوجد ويخلق، وهذه هي أهم الوقفات النى نجد أن القرآن العزيز توقف عندها كمحطات ومراحل أساسية في التأريخ لهذه الظاهرة الملازمة للدور الإنساني:

المرحلة الأولى: الفساد كنبوءة ملائكية: وإليها أشار تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٣٠].

المرحلة الثانية: الفساد ظاهرة تتشكل: وإليها أشار القرآن الكريم عبر التذكير بأول جريمة قتل وإفساد في التاريخ البشري، إذ يقول: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٢٧-٣٤].

المرحلة الثالثة: الفساد ممارسة تتأصل: وإلى هذه المرحلة أشار تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦-١٤].

المرحلة الرابعة: الفساد ظاهرة تنتشر: وإليها أشار الذكر الحكيم بقوله عزّ من قائل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة ٦٤].

المرحلة الخامسة: الفساد حالة تهيمن: وإليها ألمح تعالى بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم ٤١].

المرحلة السادسة: التهويد العالمي للفساد: وإليها نبه القرآن المجيد بقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ [الإسراء ٤].

المرحلة السابعة: انحسار دور الفساد والمفسدين: وإليها أشار تعالى بقوله: ﴿... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ [الإسراء ٧].

الثورات غير الناضجة

(عن أبي جعفر عليه السلام قال: لا ترون الذي تنتظرون حتى تكونوا كالمعزي المواة التي لا يبالي الخابس أين يضع يده فيها، ليس لكم شرف ترقونه ولا سناد تسندون إليه أمركم) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٨، ص ٢٦٣].

تتحرك الكثير من نزعات التحرر والثورة على الظلم والاستبداد راغبة في تحقيق تغيير ملموس على أرض الواقع، ولكنها سرعان ما تفشل لتكون مجرد إضافة فاشلة لمجموع التجارب المتقدمة التي أيضاً أصيبت بإخفاق مماثل نتيجة عدم قدرتها على قراءة الواقع القائم بشكل موضوعي متوازن، اضف إلى ذلك أن محاولات التغيير هذه تتحرك ضمن أفق غائب وغائم، ولا تتوفر على أيّ من متطلبات النصر والتغيير، مما يحولها إلى حركات عشوائية غير مدروسة تعود على الأمة بالضرر والخسارة، وتستهلك طاقاتها وقدراتها في تعميق إحساسها بالانكسار والخذلان والضعف، وهو الأمر الذي يفسر لنا الموقف المتشدد والحازم الذي تبناه أئمتنا (عليهم السلام) تجاه مثل هذه النزعات الثورية غير الواعية وغير الناضجة.

ففي الحديث (عن عيص بن القاسم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له وانظروا لانفسكم فوالله إن الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي فإذا وجد رجلا هو اعلم بغنمه من الذي هو فيها يخرجه ويجيئ، بذلك الرجل الذي هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها والله لو كانت لاحدكم نفسان يقاتل بواحدة يجرب بها ثم كانت الاخرى باقية فعمل على ما قد استبان لها ولكن له نفس واحدة إذا ذهبت، فقد والله ذهبت التوبة فأنتم أحق أن تختاروا لانفسكم، إن أتاكم آت منا فانظروا على أي شئ تخرجون ولا تقولوا خرج زيد فإن زيدا كان عالما

وكان صدوقا ولم يدعكم إلى نفسه إنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد (عليهم السلام) ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه إنما خرج إلى سلطان مجتمع لينقضه فالخارج منا اليوم إلى أي شئ يدعوكم إلى الرضا من آل محمد (عليهم السلام) فنحن نشهدكم إنا لسنا نرضى به وهو يعصينا اليوم وليس معه أحد وهو إذا كانت الرايات والالوية أجدر أن لا يسمع منا إلا مع من اجتمعت بنو فاطمة معه فوالله ما صاحبكم إلا من اجتمعوا عليه، إذا كان رجب فأقبلوا على اسم الله عز وجل وإن أحببتم أن تتأخروا إلى شعبان فلا ضير وإن أحببتم أن تصوموا في أهاليكم فلعل ذلك أن يكون أقوى لكم وكفاكم بالسفياني علامة) [ن م، ص ٢٦٤].

(عن سدير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا سدير ألزم بيتك وكن حلسا من أحلاسه واسكن ما سكن الليل والنهار فإذا بلغك أن السفياني قد خرج فارحل إلينا ولو على رجلك) [ن م، ص٢٦٥].

النتيجة المرة في الخروج قبل إعداد العدة: من الإشكاليات الرئيسية التي تلتصق بالتفكير الثوري أنه تفكير مثالي يجنح للمغامرة والتهور من دون أن يلتزم رؤية واقعية وموضوعية في ما يتبناه من رؤى وما يتخذه من مواقف، والمشكلة الكبيرة أن الجماهير المسحوقة والمظلومة والراغبة في الخلاص من أزماتها ومحنها تندفع للتفاعل معه بكل قوة لأنها ترى فيه على الدوام «المخلص» الذي سينقذها من مختلف أزماتها، وهو الأمر الذي يعود فيغري القيادات المزعومة مخلصة للتفاعل مع مشروعها الفاشل والتفاني في الدفاع عنه وتبنيه، بل والتأكيد على نجاحه رغم كل مظاهر الفشل التي تعتريه، لأنه لا يبقى مجال للتراجع بعد الدخول والانخراط في المشروع، وهو ما أراد الحديث التالي أن ينبهنا عليه، إذ يقول: (عن علي بن الحسين عليه السلام قال: والله لا يخرج واحد منا قبل خروج القائم عليه السلام إلا كان مثله مثل فرخ طار من وكره قبل أن يستوي جناحاه فأخذه الصبيان فعبثوا به) [ن م، ص٢٦٤].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... المبادئ والإشكاليات
ترددات الفريضة بين الضبط الاجتماعي والقهر الديني

تتداخل في صياغة الموقف الإسلامي المتزن من مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبادئ عدة ينبغي مراعاتها في القيام بهذه الفريضة، وهي:

المبدأ الأول: السبق المعرفي للدعوة على الممارسة: قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل ١٢٥].

المبدأ الثاني: دخالة الحيثيات والظروف: قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

المبدأ الثالث: حسن اختيار الأسلوب والوسيلة: (قال ﷺ: ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان الخرق في شيء إلا شانه) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٤٧]، و(عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله عز وجل رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف) [شرح أصول الكافي، المازندراني ج ٨ ص ٣٣٤].

المبدأ الرابع: الشروع في العمل بعد تمامية التأسيس النظري: (قال رسول الله ﷺ: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح) [المحاسن، البرقي ج ١، ص ١٩٨] و(عن طلحة بن زيد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق، لا يزيده سرعة السير إلا بعدا) [ن م].

وتوافر هذه المبادئ في ممارسة الفريضة هو ما يجعل منها وسيلة متزنة وضرورية لتحقيق متطلبات الضبط الاجتماعي، من دون أن تتحول إلى وسيلة للقهر الديني، وفي ظل تحقيق هذه المبادئ الأربعة نستطيع أن نتجاوز الإشكاليات التي

تثار في مواجهة ضرورة القيام بهذه الفريضة العظيمة التي تقام كل الفرائض بها، وتتمثل تلك الإشكاليات في التالي:

الإشكالية الأولى: يستبطن الكثير ممن يقومون بهذه المهمة دوافع غير سوية في تصديهم لهذه المهمة، ورغم أنهم يتسترون بدوافع دينية وأخلاقية إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية توجيه هذه الدوافع ضمن سياق معرفي واضح قادر على تحديد الأولويات، والنظر إلى القضايا من زوايا متعددة.

الإشكالية الثانية: يكون الكثير ممن يقوم بهذه الفريضة فظاً في تعامله مع الآخرين مما يسبب أولاً إرباكاً في تعاطيه مع متطلبات هذه الفريضة، ويسبب ثانياً نفوراً من قبل الآخرين، وقد خاطب الله تعالى نبيه الأكرمﷺ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩].

الإشكالية الثالثة: نتيجة تصدي الكثير من الجهال على مستوى الحكم الشرعي وعلى مستوى الأداء والأساليب لهذه الفريضة فقد تتحول في كثير من الأحيان إلى ممارسة فوضوية لا يمكن التنبأ بنتائجها، مما يستدعي العمل على تنظيم الأداء في هذه الفريضة بما يسمح بتحويلها إلى إطار تنظيمي وإصلاحي لظواهر الفساد والانحراف التي تبرز للسطح، وهو ما يمكن أن نفهمه من الأمر الإلهي: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ...﴾ [آل عمران ١٠٤].

الإشكالية الرابعة: تقييد الحريات الفردية والتعدي على الخصوصيات هي من أهم الإشكاليات المثارة في مواجهة القيام بهذه الفريضة، وهي إشكالية تنطلق من مرجعية فكرية وثقافية فرضتها هيمنة القيم الغربية الحديثة في المجال الاجتماعي، وهي مسألة تجاذب طبيعي بين مرجعية الإسلام كنمط للحياة الشخصية والاجتماعية ومرجعية الحداثة الغربية التي تعتبر أن الحرية والفردية قيمتان لا يجوز المساس بهما من قبل أي سلطة أو مؤسسة في الكيان الاجتماعي، إلا حينما تتجاوز الحرية الفردية حدود حريات وأمن الآخرين.

ممارسة السلطة السياسية
بين مبدأ الولاية العامة ومفهوم الرعاية الاجتماعية

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨].

من أجل أن تتحدد وظيفة السلطة التي يتجاذبها مبدأ الولاية العامة من جهة، ومفهوم الرعاية الاجتماعية من جهة أخرى، يلزمنا استيضاح مفاهيم ثلاثة هي:

تعريف السلطة: يقول ناصيف نصار في كتابه «منطق السلطة» ص٧: (السلطة بمعناها العام هي الحق في الأمر. فهي تستلزم آمراً ومأموراً وأمراً، آمراً له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأموراً عليه واجب الطاعة للآمر وتنفيذ الأمر الموجّه إليه. إنها إذن، علاقة بين طرفين متراضيين، يعترف الأول منهما بأن ما يصدره من أمر إلى الطرف الثاني ليس واجباً عليه إلا لأنه صادر عن حق له فيه، ويعترف الثاني منهما بأن تنفيذه للأمر مبني على وجوب الطاعة عليه وحق الطرف الأول في إصدار الأمر إليه. فالمشكلة الأساسية الأولى في علاقة السلطة هي مشكلة الاعتراف بما تتقوم به من حق وواجب عند طرفيها. فإذا كان الاعتراف تاماً ومتبادلاً، استقامت السلطة كعلاقة أمرية مشروعة. ولكن إذا تطرّق الخلل إليه، من جهة الأمر أو من جهة المأمور أو من جهة الآمر نفسه، فإنها تتعرض للارتباك والتصدع والوهن، وقد تنتهي إلى انهيار).

تعريف الولاية العامة: وهي الرئاسة والسلطنة التي تكون للحاكم أو الرئيس في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، ورادف بعضهم بينها وبين (ولاية الفقيه التي يكون للفقيه فيها كل ما للإمام المعصوم عدا البدء بالجهاد، فهي تشمل القضاء وإقامة الحدود، والولاية على القاصرين وغيرهم، كما تشمل كل ما تتقوم به حياة

المجتمع كالأمور الحسبية وغيرها) [معجم ألفاظ الفقه الجعفري، أحمد فتح الله، ص ٤٥٣].

تعريف الرعاية الاجتماعية: تعرف الرعاية الاجتماعية SOCIAL WELFARE على أنها: (نظام مجتمعي يتضمن مجموعة من الأنشطة والخدمات التي تهدف إلى مساعدة الناس ومقابلة حاجاتهم الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والتعليمية والصحية التي تعبر عن حاجات أساسية للحفاظ على المجتمع) [عبد المجيد بن طاش: مصطلحات ومفاهيم إنجليزية في الخدمة الاجتماعية، ص٢٤٥].

ويرتبط مفهوم الرعاية الاجتماعية ويلتصق بمفهوم آخر أكثر حيوية وتعبيراً، وهو مفهوم الخدمة الاجتماعية، والتعريف الذي تبنته مجموعة من الخبراء من حوالي عشر دول أعضاء في هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٦٠ للخدمة الاجتماعية يقول: (تعرّف الخدمة الاجتماعية بأنها النشاط المنظم الذي يهدف إلى العمل على إيجاد التكيف المتبادل بين الأفراد وبيئاتهم الاجتماعية)، وقد يكون هذا التعريف غير مستوعب ولكن (تنحصر أهمية هذا التعريف في أنه صادر من أكبر هيئة عالمية في العالم) [د. سيد أبو بكر حسانين: مقدمة في الخدمة الاجتماعية، ص٢٠٦].

مسار السلطة في المفهوم الإسلامي: وقد وضحه رسول الله ﷺ في آخر كلام قاله قبل وفاته، فـ(عن حنان بن سدير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: نعيت إلى النبي ﷺ نفسه، وهو صحيح ليس به وجع. قال: نزل به الروح الأمين فنادى: الصلاة جامعة، ونادى المهاجرين والأنصار بالسلاح. قال: فاجتمع الناس، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، فنعى إليهم نفسه ثم قال: أذكر الله الوالي من بعدي على أمتي، ألا ترحم على جماعة المسلمين، فأجل كبيرهم، ورحم صغيرهم، ووقر عالمهم، ولم يضر بهم فيذلهم، ولم يفقرهم فيكفرهم، ولم يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولم يجمرهم «أي يحبسهم» في ثغورهم فيقطع نسل أمتي) [قرب الإسناد، الحميري القمي، ص ١٠٠].

تمحورات الحداثة الغربية
من الفردية الضيقة إلى الكونية المطلقة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات ١٣]، وقال الإمام علي عليه السلام في ما عهد به إلى مالك الأشتر: (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق) [نهج البلاغة، الكتاب ٥٣].

بدأت حركة الإنسان الحديث والمعاصر في التمحور حول الذات ضمن مفهوم الفردية، ومع تشكل التجمعات المهنية والوظيفية والحزبية بدأت تبرز النزعة الجماعية التي تؤكد على ضرورة إنجاز العمل بروح الفريق الواحد، وأخيراً بدأ الإنسان الحديث يتمحور في ظل هيمنة قيم العولمة حول مفهوم الكونية أو الكوكبية، وفي هذا المقام نقدم توضيحاً نقدياً لهذه التمحورات الثلاثة التي شهدها الإنسان الحديث والمعاصر، ولكن بما هي نزعات مرحلية، وليست بما هي مسارات متوازية:

١- **الفردية**: ليست المشكلة في الفردية بما هي حالة طبيعية توجد مع شعور الفرد بذاته وإحساسه بالتميز، ولكنها تكون مشكلة حينما تتحول إلى نزعة، والنزعة الفردية هي (اتجاه سائد لدى أحد الناس يعمل من خلال آرائه وسلوكه على تأكيد ذاته، إما عن أنانية، أو عن طموح، أو عن كبرياء، وهو دأب الأفراد الذين يحسّون بذواتهم طحساساً قوياً. والنزعة الفردية مذهب فلسفي اجتماعي وسياسي يرى في الفرد أنه أساس كل حقيقة، والمقصود بالقيم جميعها..) [د. عبد المنعم الحفني:

المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص٨٧٣-٨٧٤].

٢- **الجماعية**: والجماعية أيضاً ليست مشكلة حينما تعني انصهار الأفراد في بوتقة واحدة تحركها روح جماعية مشتركة تعمل على تحقيق تطلعات المجموع، ولكنها تكون مشكلة حينما تتحول إلى نزعة تتعصب الجماعة من خلالها لقيمها وكيانها على حساب أيّ قيم أخرى، والنزعة الجماعية هي التي تصاغ عبر منطق جمعي، ألمح إليه غوستاف لوبون في كتابه «الآراء والمعتقدات» وهو أهم من عنى بدراسة أنواع المنطق وتأثيراتها في توجيه آراء الناس وصياغة معتقداتهم، مفصحاً عنه بالقول: (أن المرء وهو جزء من الجماعة يكون في سيره غيره وهو منفرد، وهذا ما يجعلنا نقول أنه مسيّر وهو في الجماعة بمنطق خاص يتضمن ما يشاهد في الجموع وحدها من أصول ومبادئ) [غوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، ص٥٠].

٣- **الكونية**: وهي تطلع وارتقاء نحو الاندماج في الكون كله وتكوين شعور بأن كل إنسان هو جزء من الكيان البشري الكبير، وقد تحولت إلى مشكلة حينما صارت تستبطن شعوراً بالرغبة في الهيمنة وسيادة قيم خاص وإلغاء خصوصية الثقافات وحدود الهويات، وقد عرفت بالعولمة أو الكوكبة، و(هي مذهب القائلين أن الرأسمالية هي ديانة الإنسانية، وأن النسبية الفكرية ستكون لها الغلبة على المطلقات الأيديولوجية، وأن مبدأ النسبية الثقافية هو المعول عليه وليس مبدأ مركزية الثقافات، وأن العالم ينتقل حالياً ونهائياً من الشمولية والسلطوية إلى الديموقراطية والتعددية، وتشمله ثورة معلوماتية تنتشر في كل مكان، من شأنها إلغاء الحدود بين الدول بحيث يصبح من السهل انتقال الناس والمعلومات والسلع على نطاق العالم كله، ويتمّ ذلك من خلال التفاعل بالحوار والمنافسة والمحاكاة. .) [المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص٥٦٩].

تمركز الدلالات الثلاث في النص القرآني: يحمل النص القرآني الذي بدأنا الحديث به الإشارة إلى هذه الأبعاد الثلاثة كأبعاد متناسقة ومتناغمة في وجود الإنسان، وليست كأبعاد متنافرة، يطرح كل واحد منها إشكالية معقدة في الوضع الإنساني كما تبلورت في المفهوم الغربي الحديث لها.

دور التجربة النبوية في بناء منظومة الحقوق السياسية

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨].

لفت رسول الله ﷺ إلى أهمية اعتماد المسئولية كأصل أولى في العلاقة بين مختلف الأطراف في المجتمع البشري، فقال ﷺ: (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم) وعنه ﷺ: إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته) [ميزان الحكمة، محمدي الريشهري ج٢، ص ١٢١٢-١٢١٣].

عمل الرسول الأكرم ﷺ عبر مواقفه وممارساته وخطاباته على تأصيل الحقوق السياسية للإنسان في مجال العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويستند هذا التأصيل إلى اعتبار تثبيت الحقوق الإنسانية العامة حالة لا يمكن أن تنفصل عن قرار الأمة التي تريد لنفسها العزة والكرامة، وهذا ما يفصح عنه الإمام علي عليه السلام حين ما ينطلق من مبادئ المرجعية الحقوقية التي عمل رسول الله ﷺ على بنائها فيقول: (واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك

وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن: "لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع". ثم احتمل الخرق منهم والعي، ونح عنك الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته) [نهج البلاغة، الكتاب ٥٣].

ولم يقتصر هذا الأمر على مجرد تبني الخطابات وتحويلها إلى شعارات فارغة غير ذات دلالة وتفتقد المغزى، بل تمثل رسول الله ﷺ هذه القناعات المبدئية على مستوى الفعل والممارسة، وهو الأمر الأكثر أهمية من أجل تأصيل فاعلية الحقوق في الواقع المعيشي، فقد ذكر المجلسي في بحار الأنوار: (وفي الصحاح المتفق عليها أن رسول الله ﷺ بينا هو يقسم قسما إذ جاءه رجل من بني تميم يدعى ذا الخويصرة فقال: اعدل يا محمد فقال ﷺ قد عدلت فقال له ثانية: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل. فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ائذن لي أضرب عنقه فقال: دعه فسيخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئا فينظر إلى نضيه فلا يجد شيئا ثم ينظر إلى القذذ فكذلك سبق الفرث والدم يخرجون على خير فرقة من الناس يحقر صلاتكم في جنب صلاتهم وصومكم عند صومهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم آيتهم رجل أسود، أو قال: أدعج مخدج اليد إحدى ثدييه كأنها ثدي إمرأة أو بضعة تدردر) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٣٣، ص ٣٣٩].

ومن أقواله ﷺ: (ما من أمتي أحد ولي من أمور المسلمين شيئا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه وأهله إلا لم يجد رائحة الجنة) [مكاتيب الرسول، الأحمدي الميانجي ج ٢، ص ٦٢٥]، وقال ﷺ: (أيما وال ولى شيئا من أمر المسلمين فلم ينصح لهم ولم يجهد لهم لنصحه وجهده لنفسه كبه الله على وجهه يوم القيامة في النار) [ن م].

المناهج الكلية لبناء الممارسة الإدارية

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح ٢٩].

هناك ثلاثة مناهج أساسية في بناء الممارسة الإدارية العامة في المجتمع والدولة والحياة، وهي:

المنهج الأول: بناء المركزية الفردية: وقد ضرب الله تعالى لها مثلاً بما حكاه عن فرعون حينما قال على لسانه في ما خاطب به قومه: ﴿... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر ٢٩].

وهذا المنهج غالباً ما يؤدي إلى الوقوع في الاستبداد، ويضعف الحافزية والاندفاع لدى الجماعة التي تشعر أنها مجرد خدم لتحقيق رغبات وآمال الذات الفردية المهيمنة، ولذلك قال تعالى في شأن فرعون صاحب هذا المنهج في الحكم والإدارة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٤].

المنهج الثاني: بناء الروح الجماعية: وقد حث الله تعالى عليه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٥].

وهذا المنهج الذي يقوم على مبدأ دمج كل أفراد المجموعة في مشروع واحد، وإلغاء خصوصياتهم الفردية والتمايزية رغم أنه يؤسس لفكر المؤسسة الفاعلة، إلا أنه يتشتت وينفرط عقده في حال عدم وجود محور محدد يدور من حوله ويتماهي معه، ولأجل ذلك قال تعالى في خطابه الكريم: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء ٦٥].

المنهج الثالث: بناء القدرة التمازجية: وقد بينه الله تعالى ضمن تأسيسه لمبدأ التشاور وحثه القيادة على استخدامه كمنهج في العلاقة مع القاعدة فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩].

و(قال رسول الله صلى الله عليه واله: مثل مؤمن لا يرعى حقوق إخوانه المؤمنين كمثل من حواسه كلها صحيحة وهو لا يتأمل بعقله، ولا يبصر بعينه، ولا يسمع بأذنه، ولا يعبر لسانه عن حاجته، ولا يدفع المكاره بالإدلاء بحججه، فلا يبطش بشيء بيديه، ولا ينهض إلى شئ برجليه فذلك قطعة لحم قد فاتته المنافع، وصار غرضا للمكاره، فكذلك المؤمن إذا جهل حقوق إخوانه فات ثواب حقوقهم، فكان كالعطشان بحضرة الماء البارد فلم يشرب حتى طفى، فإذا هو سليب ذي الحواس، لم يستعمل شيئا منها لدفاع مكروه، ولا انتفاع بمحبوب، فإذا هو سليب كل نعمة، مبتلى بكل آفة) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٧٢ ص ٤١٤].

وهو أسلم وأسلس وأفضل المناهج في كل مستويات الإدارة ومجالاتها.

إدارة الجودة الشاملة

الخيط الواصل بين الدين والدنيا في مجال الإدارة الناجحة

تمهيد: مفهوم الجودة الشاملة: (في أقصى غرب الأرض، وتحديداً في الولايات المتحد الأمريكية، إبّان الحرب العالمية الثانية، كان أستاذ الإدارة الأمريكي "إدوارد ديمنج W ". Edward Deming ١٩٠٠-١٩٩٤ ينادي بنظريته التي سماها في ذلك الحين «الرقابة الإحصائية على الجودة». وبحسب تلك النظرية في ذلك الوقت فإنه: «بالجودة وحدها وبالتركيز عليها، قبل أي شيء آخر، تتحقق الإنتاجية، وتكون المنافسة، ويوجد الابتكار، وبالتالي تتحقق الربحية كهدف أساسي لأيّة منظمة».

والجودة -حسب نظرية ديمنج- تعني في أشمل معانيها: إتقان السلعة أو الخدمة عند تقديمها للمستفيد أو المستهلك، بصفة دائمة وبسعر مناسب. ومن منظور إداري خالص، فالجودة الشاملة تتلخص في انتهاج أسلوب إداري معين، يهدف إلى تحقيق النجاح طويل الأمد، من خلال إرضاء الزبائن أو المستفيدين بصفة دائمة ومستمرة ومطردة) [محمد فالح الجهني: الجودة الشاملة، مجلة «المعرفة» العدد ١٠٨، ص٤٩].

لا مناص من القول إن مفهوم الجودة الشاملة بحسب التوضيح المتقدم يتجلى في عدة توجيهات إسلامية، نستذكر منها النصوص التالية:

النص الأول: (عن أبي عبد الله عليه السلام - في حديث - قال: لما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى النبي صلى الله عليه وآله في قبره خللا فسواه بيده، ثم قال: إذا عمل أحدكم عملا فليتقن، ثم قال: ألحق بسلفك الصالح عثمان بن مظعون) [وسائل الشيعة، الحر العاملي ج ٣، ص ٢٢٩].

النص الثاني: قول الإمام علي عليه السلام: (أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن

بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما صلى الله عليه واله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٢٤ ص ٢٥٦- ٢٥٧].

النص الثالث: قوله تعالى في ما حكاه من قول إحدى ابنتي شعيب لأبيها شعيب في شأن موسى بعد أن استسقى لهما: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص ٢٦].

النص الرابع: طلب نبي الله يوسف عليه السلام من عزيز مصر أن يجعله وكيلاً على خزائن مملكته لما يتمتع به من متطلبات الحفظ والأمانة، إذ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٤-٥٦].

النص الخامس: ما ذكره الله في شأن طالوت الذي بعثه ملكاً على بني إسرائيل، إذ يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٤٧].

النص السادس: نهيه عزّ وجلّ عن إبطال الصدقات وأعمال الخير بالمن والأذى في قوله للمؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٤].

إشكاليات المسألة الجنسية
في بناء العلاقات الثنائية بين الرجل والمرأة

حديث تأصيلي للمشكلة والحل: (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عز وجل لم يترك شيئا مما يحتاج إليه إلا علمه نبيه صلى الله عليه وآله فكان من تعليمه إياه أنه صعد المنبر ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن جبرئيل أتاني عن اللطيف الخبير فقال: إن الأبكار بمنزلة الثمر على الشجر إذا أدرك ثمره فلم يجتنى أفسدته الشمس ونثرته الرياح وكذلك الأبكار إذا أدركن ما يدرك النساء فليس لهن دواء إلا البعولة وإلا لم يؤمن عليهن الفساد لأنهن بشر، قال: فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله فمن نزوج؟ فقال: الأكفاء، فقال: يا رسول الله ومن الأكفاء؟ فقال: المؤمنون بعضهم أكفاء بعض، المؤمنون بعضهم أكفاء بعض) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٥، ص ٣٣٧].

الثورة الجنسية: تستثار المسألة الجنسية اليوم في مجتمعاتنا المعاصرة بشكل جنوني لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، ويوماً بعد يوم نجد الضحايا تتداعى من وراء الإفراط في تأصيل دور الشهوة، حتى أضحت كل الوسائل التي طورها الإنسان من أجل راحته وسرعة تواصله مع الآخرين تسخر بكل إمكانياتها المتقدمة في إثارة الشهوات الحيوانية لدى إنسان العصر، مما حوّل هذا الإنسان إلى مجرّد موجود غريزي يفتقد العقل والرغبة في التسامي على اهتماماته الحيوانية الضيقة، وتتمثل تداعيات الاستثارة الجنسية المحمومة في مظاهر عدة، يمكننا رصد التالي منها:

المظهر الأول: انهيار منظومة القيم الأخلاقية والفطرية التي جبل عليها الإنسان، فأضحينا نرى محاولات مكثفة ليس لممارسة مظاهر الشذوذ الجنسي

كالزنا واللواط والسحاق فحسب، بل ولشرعنتها، والعمل على الاعتراف بالحق في ممارستها أسوة بالزواج بين الجنسين، كما أضحت علاقات المثليين مستساغة عند الكثير من شواذ العصر.

المظهر الثاني: تحولت المرأة إلى سلعة تجارية، بل إلى أدون من أن تكون سلعة، فقد صارت تستخدم عبر إبراز مفاتنها للترويج للسلع والبضائع، وهكذا تحولت المرأة بكل جمالها ونقائها وعاطفتها وأنوثتها إلى جسد مفرغ من كل هذه المعاني، يستخدم لأغراض الزينة والدعاية.

المظهر الثالث: رغم كل الانفتاح وافتقاد الضوابط الأخلاقية في أغلب العلاقات الجنسية السائدة في المجتمعات الحديثة والمعاصرة، إلا أن الملفت للنظر بروز وتنامي ظواهر الشذوذ الجنسي من اغتصاب، وزنا، وانتهاك حرمة المحارم والأطفال، حتى أن مجلة Newsweek العربية ذكرت في عددها الصادر في ١٨ مايو ٢٠٠٤ أن (نحو نصف الفتيات البالغة أعمارهن بين ١٠ سنوات و٢٥ سنة يصرحن بأن لقاءهن الجنسي الأول كان بالإكراه).

المظهر الرابع: تعاني العلاقات الثنائية بين الجنسين من انتشار واستفحال استخدام العنف في داخل الأسرة، وحتى في علاقات الصداقة بين الرجل والمرأة، (وتقدر الأمم المتحدة أن نسبة واحدة من كل ثلاث فتيات ستقع ضحية العنف خلال حياتها) كما يقول المصدر السابق.

المظهر الخامس: أسوأ ما أفرزه غياب الانضباط في العلاقات الجنسية في العصر الحديث هو تلك الحزمة من الأمراض الجنسية المعدية، والتي صارت تنتشر في مجتمعات العصر انتشار النار في الهشيم، حتى أنها صارت تمثل كارثة وطنية في بعض بلدان العالم، كما هو الشأن في بعض بلدان أفريقيا، ولقد كان للمرأة النصيب الأوفى من هذه الأمراض (ففي منطقة أفريقيا، ما وراء الصحراء الكبرى، تشكل النساء نسبة ٦٠ بالمائة من المصابين بالإيدز) كما تذكر الصحيفة نفسها.

النتيجة: أننا نعيش في عالمنا المعاصر كارثة بشرية كبرى بسبب هذه الثورة الجنسية الحمقاء التي عمم ونشر الغرب نمطها وروج لها.

مرجعية الحسم العملي

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٤-٦٥].

تختلف الآراء وتتباين وجهات النظر بين أفراد المجتمع في أغلب المسائل العملية، ولكي لا يتحول الاختلاف إلى شقاق يذهب بعزة المجتمع وقوته، ويشتت آراءه وتوجهاته، كما ألمح الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال ٤٦]، لا مناص من تحديد مرجعية عملية مشخصة ومحددة، هي بمثابة آلية يتم التوافق عليها لحسم الخلافات وتباين المواقف في الاجتماع البشري، وهذا ما حدده رسول الله ﷺ لجنوده في معركة مؤتة، ففي الخبر إن رسول الله ﷺ قال يوم أن وجّه الجيش للحرب: (زيد بن حارثة أمير الناس فان قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون من بينهم رجلا فليجعلوه عليهم) [شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٥١، ص ٦١].

إشكالية التوافق على مرجعية الحسم العملي: من البين أن رفع الاختلافات بين الناس قضية غير مقدورة، ولا يمكن حصولها في هذه الحياة الدنيا، التي بنيت على التخالف والتباين في وجهات النظر بين أهلها، بل ما هو أشد من ذلك وهو التدافع والعداء، وهو ما استحكم في علاقات البشر مع بعضهم البعض منذ أول

لحظة تحرك فيها الإنسان على هذه الأرض، إذ يقول سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦]، وانطلاقاً من هذا المبدأ قال الحكيم جلّ جلاله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ...﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

ولكن الاختلاف النظري لا بد أن يؤطر بإطار عملي يحسم الخلاف ويمنع من تحوله إلى شقاق، وهذا لا يمكن تحققه إلا عبر تحديد مرجعية تحسم الخلاف، وليس بالضروري أن تكون هذه المرجعية تصيب الواقع أو تكون أقرب إلى الواقع في ما تحكم به، بل ما هو أهم في نظر الشارع حسم مادة الخلاف وإيقافه عند حدّ لا يتجاوزه، وهي مصلحة تعلو بنظر الشارع المقدس على كل المصالح، وإلى هذا المبدأ استند الإمام علي عليه السلام في السكوت عن حقه بالخلافة، موضحاً ذلك بقوله في خطبته المعروفة بالشقشقية: (أما والله لقد تقمصها ابن أبى قحافة أخو تيم وانه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير. فسدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحها، وطفقت ارتأى بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء، يشيب فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت إن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى، أرى تراثي نهبا) [علل الشرائع، الشيخ الصدوق ج ١، ص ١٥٠-١٥١].

ولأن استمرار الخلاف في ظل افتقاد المرجعية العملية التي تحسم أصل الخلاف أمر لا يصح ممارسته والسكوت عنه فقد أطلق الإسلام تحذيره للمؤمنين بالقول: ﴿... وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

النفاق السياسي
الممارسة الممهدة للاستبداد السياسي

قال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ١-٢].

رغم أن ما يشهد به المنافقون حق لا مرية فيه، ولكن الله يرفض هذا النفاق السياسي لأنه يتخذ من التظاهر بالإيمان وسيلة للصد عن سبيل الله وخداع الناس، وأسوأ مظاهر النفاق السياسي ذاك الذي يقوم به البعض من أجل إيجاد أصول الاستبداد السياسي في النفس القابلة لممارسته، فالحاكم السيئ والغبي يفرح حينما يجد من يكيل له المدح والثناء، ويسبغ على كل تصرفاته سمات المشروعية والحكمة والتعقل.

الموقف من حاكم يريد الاستبداد عبر الاستفادة من النفاق السياسي: اقترب الإسكندر المقدوني من الوقوع في آفة الاستبداد (عندما أزمع على اقتباس عادة فارسية هي السجود التي كان يتعين بمقتضاها على جميع من يقتربون من الملك أن يؤدوها! غير أن هذا الأمر كان يعني في نظر اليونانيين والمقدونيين عبادة حقة للإمبراطور وهو أمر لم يألفوه من قبل. ولقد كان الإسكندر على بينة من الموقف، وذلك لا يعني سوى شيء واحد وهو أنه أراد تأليه نفسه، أراد أن يصبح إلها بالفعل. وعندما ابتدع الإسكندر عادة السجود هذه، تطورت الأمور على نحو غير منتظر، فقد عارضها المقدونيون بشدة. وأظهر البعض استياءه وغضبه، بل إن أحد قواده فعل ما هو أسوأ من المعارضة، فعندما سمع بمطلب الإسكندر استولت عليه

نوبة من الضحك! وأخيرا اتفقوا معه على أن يقصر هذه العادة الآسيوية على الآسيويين فقط!. وكان الإسكندر قد أوتي قدرة فائقة على الإحساس بما هو ممكن من الأمور فأسقط السجود من حسابه نهائيا) [إمام عبد الفتاح إمام: الطاغية.. دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، ص ٤٠].

ولكي لا يقع صاحب السلطة نفسه في إشكالية الاستبداد ويبقي نفسه بعيداً عنها، فقد حث الله تعالى نبيه الكريم على ضرورة قول كلمة الحق وتقديم النصح الصريح من قبله للآخرين، فقال تعالى في ما خاطب به رسول الله ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦١-٦٣].

وللتحذير من النفاق السياسي قال علي عليه السلام: (فلا تثنوا علي بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التقية في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لابد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة. ولا تخالطوني بالمصانعة. ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي. فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه. فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني. فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره. يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى) [نهج البلاغة، الخطبة٢١٦].

إدارة الثنائيات في العمل الإداري

لا نبالغ إذا ما قلنا أن إدارة الثنائيات بتوازن وإتقان يجسد جوهر النجاح في الإدارة والعمل الإداري، فالمدير المدبر والقيادي الناجح يثبت أنه كذلك من خلال توفره على قدرات الجمع بين الثنائيات والمتقابلات، وذلك لأن حسن الإدارة يعني استخدام الأسلوب الذي يقتضيه الحدث أو الموقف الذي يواجهه الإداري، والذي يستلزم منه أداء متحركاً ومتغيراً في كل مرة، وفي مواجهة كل موقف، ومن هنا نجد أن الكثير من حالات الثناء والمدح التي يمتدح من خلالها الشخص الإداري المقتدر تأتي في سياق الإشارة إلى توفره على هذا البعد المهم في إنجاح العملية الإدارية، فالله تعالى حينما يمتدح رسولهﷺ وأتباعه من المؤمنين يقول: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾ [الفتح ٢٩].

وقد تحدث الإمام عليعليه السلام عن أساس هذه المواصفات التي تمزج بين القوة واللين فقال في خطبته في وصف المتقين: (ومن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزما في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا على العلم، وفهما في فقه، وعلما في حلم، وكسبا في رفق، وشفقة في نفقة، وقصدا في غني، وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٤٦ ص ٣٤٣-٣٤٥].

ولكن إدارة الثنائيات ليست بالمهمة السهلة بل هي تستدعي متطلبات في الشخصية الإدارية القادرة على إحداث توازن في إدارة الثنائيات، وهو ما يوجه إليه القرآن الكريم في ما خاطب به الرسول الأكرمﷺ في مجال إدارة علاقته كقائد ومربي ومعلم وموجه مع المحيطين به، وهو ما يتضح من خلال هاتين الصورتين

اللتين يعرض لهما الذكر الحكيم:

الصورة الأولى: وهي تدعو للرفق بالأتباع والمريدين والتواضع لهم، فيقول تعالى في ما خاطب به نبيه الأكرمﷺ: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٧-٢٨].

الصورة الثانية: وهي تدعو للحزم وصدق البيان في مواجهة أخطاء الأتباع وتساهلاتهم، وترك المجاملات التي تفسد التجربة، وهو ما يقدمه تعالى عبر قوله للرسول الكريمﷺ في شأن التعامل مع المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦١-٦٣].

إدارة الثنائيات في العلاقة بين الأصدقاء والأعداء: يتحدث الإسلام عن العدل بوصفه المبدأ الأساس في ما يتبناه الإنسان من مواقف تجاه العدو والصديق على السواء، وهذا ما تفيده التوجيهات القرآنية التالية:

١- **في مجال العلاقة بالأصدقاء**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

٢- في مجال العلاقة بالأعداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة ٨].

سلطة المعرفة في دائرة الولاية والإمامة

(عن على بن محمد النوفلي عن أبى الحسن العسكري ع قال سمعته يقول اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفا وإنما كان عند اصف منه حرف واحد فتكلم فانخرقت له الأرض فيما بينه وبين سبا فتناول عرش بلقيس حتى صيره إلى سليمان ثم انبسطت الأرض في اقل من طرفة عين وعندنا منه اثنتان وسبعون حرفا، وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب) [بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار ص ٢٣١].

منطلقات مشروعة وتساؤلات ملحة: أريد أن انطلق من هذا الحديث الشريف عن الإمام العسكري عليه السلام لأبتدع مقارنة مشروعة بين مستوى التطور المعرفي في سيرة وحياة أئمتنا الطاهرين (عليهم السلام) وبين واقعنا المعرفي الذي نحن عليه اليوم، والذي يأتي الاهتمام بالمعرفة وإدارتها وتطويرها في آخر أولوياته، ولنتساءل من خلال ذلك ما الذي أبقى للأئمة عليهم السلام سلطتهم المعنوية المستمرة على الناس رغم محاولات إقصائهم وإزوائهم الدءوبة والمستمرة؟

قد يكون من المهم جداً من أجل نقدم إجابات مقنعة على هذه الإثارات والتساؤلات أن نسلط الضوء على الدور الذي احتله التقدم العلمي والتطور المعرفي في صياغة متطلبات الدور القيادي والريادي لأئمة أهل البيت عليه السلام، وهو الدور الذي فرض وشرّع لهم ممارسته والاختصاص به لامتلاكهم أسباب ووسائل التقدم والسبق على الآخرين في هذا المجال، مما يعني أن أول وأهم أسباب ممارسة مقتضيات السلطة المشروعة على الآخرين وقيادتهم هو التقدم عليهم في كل فضائل القيادة، وعلى رأسها العلم والمعرفة، ومن هذا الفهم لدور العلم والمعرفة في إضفاء وتأسيس المشروعية القيادية للإمام والولي يتضح لنا المعنى العميق والمغزى

الرائع التي تنطوي عليه تلك الرواية التي تقول: (عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت جعلت فداك: لم سمي أمير المؤمنين أمير المؤمنين؟ قال: لأنه يميرهم العلم، أما سمعت كتاب الله عز وجل «ونمير أهلنا»). [البحار، ج٣٧، ص ٢٩٢]. وفي حديث آخر (عن الثمالي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: يا ابن رسول الله لم سمي علي أمير المؤمنين وهو اسم ما سمي به أحد قبله ولا يحل لاحد بعده؟ قال: لأنه ميرة العلم يمتار منه ولا يمتار من أحد غيره...) [ن م، ص٢٩٤].

وهو ما يفصح عنه هذا الحديث القائل عن (بريد بن معاوية عن الصادق عليه السلام في قوله: «ومن عنده علم الكتاب» قال: إيانا عنى، وعلى أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله) [ن م، ج٣٢، ص١٩١].

ولأن مشروع الإمامة والولاية انبنى أساساً على السلطة المعرفية التي تفرض نفسها على الآخرين فرضاً، لا من موقع القهر والعنف والتعسف في استخدام القوة، وإنما من موقع الانقياد والتسليم بالجدارة والسبق والتقدم، فإن مشروع الولاية الخاتمة والوارثة الذي ينجز على يد خاتم الأولياء المهدي بن الحسن عليه السلام يستند أيضاً على سلطة المعرفة كما تفيدنا هذه المرويات: (عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال إذا قام قايمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم وأكمل به أحلامهم) [مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلي، ص ١١٧].

و(عن أبى الربيع الشامي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول إن قائمنا إذا قام مد الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى يكون بينهم وبين القايم عليه السلام بريد يكلمهم ويسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه) [ن م].

و(عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: العلم سبعة وعشرون حرفا فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين فإذا قام القائم عليه السلام أخرج الخمسة والعشرين حرفا فبثها في الناس وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفا) [ن م].

دور التزيين والمعاتبة في بناء الذات السوية

قال الله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ١٠٨].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (ثلاث خلال يقول كل إنسان إنه على صواب منها: دينه الذي يعتقده، وهواه الذي يستعلي عليه، وتدبيره في أموره) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٣٢١]

من الأمور الطبيعية التي تختلف فيها الناس هي مذاهبها الدينية ورؤاها الفكرية والاعتقادية، ومن الطبيعي أن ينافح الإنسان عن توجهاته وما تهواه نفسه، كما أنه من الطبيعي جداً أن يجهد كل إنسان نفسه في تبرير وتوجيه أعماله وإظهارها بمظهر حسن ومعقول، وهي النتيجة التي أشار إليها الباري تعالى في قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، فكل الناس زينت إليهم أعمالهم فرأوها حسنة، ومن أجل ذلك تنافسوا وتدافعوا، وسعى كل واحد للتقدم على الآخر في ما يعتقد أنه يعلو من شأن عقيدته وما يتبناه ويقدسه، وهذا وجه حسن للتزيين والتجميل، لأنه لولاهما لم يحصل التدافع والغيرة على الدين والعقيدة والرأي، وهو ما يؤدي إلى فساد كبير في الأرض، ولذلك قال الجليل جلّ جلاله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

وفي هذا السياق يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ

مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات ٧].

ولكن من جهة أخرى لا مناص للمربي والموجه أن يمارس مهمة المعاتبة لمن يستهدف تربيته وتوجيه وإكماله، ولا شك أن الله تعالى هو أول مرب ومؤدب ومعلم للإنسان، فـ(عن النبي ﷺ، أنه قال: «تجافوا عن عقوبة ذوي المروة ما لم يقع في حد، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»، فقيل: يا رسول الله، من أدبك؟ قال: «أدبني ربي») [مستدرك الوسائل، الميرزا النوري ج ٨، ص ٣٩٧].

وعنه ﷺ: أنا أديب الله وعلي أديبي) [ميزان الحكمة، الريشهري ج ١، ص ٥٨].

وعن (الإمام علي عليه السلام: إن رسول الله ﷺ أدبه الله عز وجل، وهو أدبني، وأنا أؤدب المؤمنين، وأورث الأدب المكرمين) [ن م].

وفي (فقه الرضا عليه السلام: لما نزلت «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم» أمر النبي ﷺ مناديا ينادي من لم يتأدب بأدب الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات) [ن م].

ولأجل ذلك لم يترك الباري عزّ وجلّ استخدام المعاتبة لرسوله الكريم ﷺ كمنهج في البناء التربوي والتكاملي، وقد عاتبه عزّ وجلّ في عدة موارد، كما في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف ٢٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب ٣٧].

الواقعية... منهج الإسلام في إدارة وضبط الشهوة

تتواجد الشهوة كعنصر غريزي مهم وحساس في حياة كل البشر، وهذا العنصر تلوح مسالك ثلاثة في الموقف منه وطريقة التعامل معه:

الأول: مسلك الكبت: وهو مسلك يعمل على إقصاء الغريزة وعدم الاستجابة لمتطلباتها، ولا شك أنه مسلك خطير ويفضي إلى أمراض نفسية وجسدية، ولا يمكن أن ينطلق إلا من رؤية فكرية تفتقد الواقعية والعملية، ولذا نقدها الجليل جلّ جلاله بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣١-٣٣].

الثاني: مسلك التحلل: وهو مسلك يعمد إلى إطلاق حرية ممارسة الشهوة بلا حدود وقيود من عقل أو دين أو عرف، معتبراً أن إفراغ الشهوة حق شخصي لا ينبغي التطاول عليه، ولا يجوز تحديده، إلا من خلال التوافق الذي يجري بين طرفي الممارسة، حتى لو كانت الممارسة منافية للأخلاق والذوق الإنساني السليم، وهو المسلك الذي عناه تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء ٢٧].

الثالث: مسلك الواقعية: وهو المسلك الذي مثل منهج الإسلام في إدارة وضبط الشهوات، فالإسلام يعترف بوجود الشهوة ويتحدث عن تجذرها في نفس الإنسان بكل صراحة فيقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ

ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤-١٥]. وفي الوقت الذي يعترف الإسلام بضراوة الشهوة وقدرتها البالغة في تحريك وتوجيه الإنسان فإنه يتعامل معها بواقعية فيشرع لها الممارسات التي تبيح إفراغها بما يتناسب ومتطلبات الذات البشرية واحتياجاتها الطبيعية، من دون إفراط أو تفريط، بل من خلال التأكيد على ضرورة تحكيم الاعتدال في التعامل مع رغبات النفس وشهواتها، فيخاطب الإنسان بالقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٧٧].

إدارة نزوات القوة المندفعة: ومن هذا المنطلق نفهم أهمية التشريع لممارسة الجنس عبر زواج المتعة الذي شرعه الله تعالى للمسلمين بداية في ظروف الحرب والقتال، من أجل أن يضبط نزوات القوة المندفعة فلا تجمح وتشط، لتتحول إلى قوة إفساد بدل أن تكون قوة إصلاح وإعمار، وهذا الموقف يجسد منتهى الواقعية في التعامل مع إلحاحات الشهوة وضغوطاتها، من دون محاولة قمعها أو إطلاقها بلا ضوابط وحدود، فتفرز كثيراً من الظواهر الخاطئة والتجاوزات المنحرفة عن القيم والذوق السليم، وهذا ما نعيه من هذا الخبر المروي عن عبد الله بن مسعود، إذ يقول: (كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة إلى أجل بالثوب، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ الله لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾ [مستدرك الوسائل، الميرزا النوري ج ٤١، ص ٤٨١].

وربما لأجل هذا التشريع لم نعهد تجاوزات أخلاقية في فتوحات الإسلام.

الإمام الخميني رجل المشاريع المكتملة

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح ٢٩].

الآية المتقدمة هي آخر أية من سورة الفتح، أما الآيات الأول من السورة نفسها فتقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ١-٣] [الفتح ١-٣].

تدفعنا هذه الآيات البينات من سورة الفتح للتأمل في متطلبات إنجاز الأعمال المكتملة، والتي تصل إلى غاياتها النهائية في ما يقوم به الإنسان من عمل، والتوفر على هذه المتطلبات هي صفة الفئة القليلة من الناس، التي تصرّ على أن تستكمل أسباب النجاح والتكامل والتمام في كل عمل تقوم به، ولا ترضى أن تقوم بالأعمال ناقصة أو مبتسرة.

الإمام الخميني (قدس سرّه) ونهجه العملي: من المهم جداً أن نطيل التوقف عند المنهج الحركي والعملي لهذا الرجل العظيم، وهو الرجل الذي نندفع للحكم عليه من خلال عمله، لا من خلال ذاته التي نبالغ في الاستغراق فيها وسبغ الصفات الخيالية عليها، لنحولها إلى أسطورة يمتنع فهمها، وبالتالي الإقتداء بها، وهو أسوأ ما نجازي به مثل هذه الشخصيات.

الإمام الخميني (رحمه الله) ومتطلبات التمام والكمال في الأعمال: كل عمل يريد الإنسان انجازه وتحقيقه، وإخراجه من حيز الفكرة إلى حيز الواقع والممارسة، لا مناص من أن يتوفر على أسباب معينة ويسلك مسلكاً خاصاً، وما يحتاجه العمل المكتمل هو أمور ثلاثة هي: الفكرة الواضحة، والإرادة الثابتة، والممارسة الدءوبة، ومن أجل أن نوضح كيف توفرت حركة الإمام الراحل (قده) على هذه المتطلبات الثلاثة فإننا نقول:

١- **الفكرة الواضحة**: كان الإمام الراحل صاحب مشروع فكري ناضج، بمعنى أنه امتلك رؤية في المشروع السياسي تمثلت في أطروحته حول «ولاية الفقيه»، وهي الرؤية التي عمل على تعزيز وخلق القناعة بها لدى أتباعه ومريديه، أضف إلى ذلك أن الرجل انطلق من منطلقات معرفية عمل بنفسه على صياغتها وبلورتها ضمن مجالات معرفية متعددة تتمثل أساساً في الفلسفة، والعرفان، والفقه.

٢- **الإرادة الثابتة**: وفي هذا الشأن لا يمكننا إلا القول إن الرجل امتلك إرادة فولاذية يصعب مواجهتها وتحديها، وكان مثالاً تجسيدياً لامتثال قول الإمام علي عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل: (تزول الجبال ولا تزل، عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، أرم ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه) [نهج البلاغة، الخطبة ١١].

٣- **الممارسة الدءوبة**: ولا شك أن ممارسته المتواصلة وعمله الدءوب على تحقيق الفكرة التي آمن بها وأرادها هو أهم وآخر الأسباب التي مكنت هذا الرجل العظيم من تحقيق حلمه في إقامة مشروعه وتحقيق أول أنموذج للدولة الإسلامية في العصر الحديث، وهو بذلك خرج من إطار الشعارات إلى إطار الممارسات وتجسيد المشاريع، فكان بذلك نموذجاً رائعاً لمقولة الإمام علي عليه السلام في ما نسبه لأهل الجمل نافياً له عن نفسه ومشروعه، إذ قال: (وقد أرعدوا وأبرقوا، ومع هذين الأمرين الفشل، ولسنا نرعد حتى نوقع، ولا نسيل حتى نمطر) [نهج البلاغة، الخطبة ٩].

فسلام عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حياً.

مبدأ مشروعية البقاء في الحياة الإنسانية

في الحديث (قال رسول الله ﷺ: لا خير في العيش إلا لرجلين عالم مطاع، أو مستمع واع) [الكافي، الكليني ج ١، ص ٣٣].

تتمظهر الحياة في الرؤية الإسلامية بوصفها فاعلية تقوم على مبدأ الأخذ والعطاء، بمعنى أن الإنسان خلق في هذه الحياة الدنيا ليأخذ أولاً لأنه فقير ومحتاج وضعيف، وليعطي ثانياً لأنه مسئول عن ما أخذه من غيره أن يعطيه لمن سيبقى بعده، وهكذا تستمر الحياة وتتواصل، وحينما يريد إنسان ما أن يتجاوز هذا المبدأ في الأخذ والعطاء، وبتعبير آخر: في التكامل بين أعضاء المجموعة البشرية، فإن الحياة بالنسبة إليه تغدو غير ذات معنى، وتخلو من كل هدف، وذاك هو الموت الذي يصاب به كثير من الناس قبل أن تفارق أرواحهم أبدانهم، ولذلك قال الرسول ﷺ أن لا خير في العيش إلا للعالم المطاع الذي يحقق وظيفة ما ضرورية في حياة البشر، وإلا للمستمع الواعي الذي تتكامل وظيفته مع وظيفة العالم وتسندها وتعطي لوجود العالم معنى في حياة الإنسان.

وفي حديث آخر يتمّ تسليط الضوء على الأدوار الثلاثة التي تتواجد في المجتمع البشري من خلال نفس المبدأ المتقدم فـ (عن أبي إسحاق السبيعي، عمن حدثه ممن يوثق به قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إن الناس آلوا بعد رسول الله ﷺ إلى ثلاثة: آلوا إلى عالم على هدى من الله قد أغناه الله بما علم عن علم غيره، وجاهل مدع للعلم لا علم له معجب بما عنده، قد فتنته الدنيا وفتن غيره ومتعلم من عالم على سبيل هدى من الله ونجاة ثم هلك من ادعى وخاب من افترى) [ن م، ص٣٣-٣٤].

وفي ظل هذا التقسيم تتحدّد طبيعة المهام التي تعطي لكل فرد من أفراد المجموعة البشرية قيمته من خلال ما يعطي هو بنفسه لدوره من معنى في الوجود، وحينما يتخلف الإنسان عن إضفاء معنى على وجوده في هذه الحياة فإنه يكتب على نفسه أن يكون لا شيء، وهو ما عناه الإمام الصادق عليه السلام الذي يفصح في حديث له عن هذا المعنى من خلال تعبير في غاية الدقة، يطلق من خلاله تسمية «غثاء» على من فقد قدرة القيام بدور تكاملي في سعيه وعمله ووجوده في هذه الدنيا، فـ (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الناس ثلاثة: عالم ومتعلم وغثاء) [ن م].

وهكذا يتحدّد لنا الأساس الذي يقوم عليه مبدأ مشروعية البقاء والاستمرار في الحياة الإنسانية، وهو قدرة الإنسان على التواصل مع هذه الحياة من خلال استفادته من الآخرين، أو إفادته لهم، وهو الأمر الذي يبقي الإنسان على الدوام في دائرة الفعل والتفاعل، ويخرجه من دائرة السكون والجمود، والتي هي الدائرة التي كلما اتسع مداها وحضورها في حياة الإنسان كلما اقتربت به من الموت والفناء، ولا شك أن مستوى فعل وتفاعل الإنسان في دائرة الحياة يستدعي منه تجدداً ونموا وازدياداً في الوعي والمعرفة والتكامل، وبذلك يبقى مندرجاً في عداد الأحياء من الناس، ولكنه حينما يتوقف أو يتراجع فإن الاستمرار في حياته البيولوجية القائمة على استمرار دقات قلبه وتدفق دمه وبقاء الحرارة في جسده لا تعطي لوجوده أيّ معنى، مادام الوعي والشعور قد توقفا، وهو بالضبط ما عناه الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في حديثه الذي يقول فيه: (من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة) [معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ٣٤٢]، فلكل منّا الخيار في أن يكون مغبوطاً، أو مغبوناً، أو ملعوناً، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر ١٨].

أوهام التميز

من سيئات التفكير الإنساني الشعور بالتمايز عن الغير، لأن هذا الشعور يجسد هوة وفجوة كبيرة تعيق التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان، ومن هنا كان دأب الإسلام -الذي إنما جاء كدين يستهدف توحيد وجمع الناس كلهم على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة- على إزاحة وإلغاء هذا الشعور، منطلقاً في ذلك من مبدأ أساسي وأولي في غاية البساطة، وهو كون الناس كلهم خلق الله وعباده، وأن الله تعالى ربهم جميعاً مهما اختلفت أديانهم وأجناسهم وألوانهم وأعراقهم، وهو ما أراد الرسول الأكرمﷺ أن يشير إليه بقوله: (أيها الناس، ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ ولا يحل لمؤمن مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ٣٤].

وفي السياق نفسه عمل الرسول الأكرمﷺ على تهميش نوازع الجاهلية التي كانت تحتدم في النفوس لحظة مجيئه إلى ذلك المجتمع الذي كان يوغل في التفاخر بالأنساب والأحساب، وهو الأمر الذي تشير إليه الكثير من مواقفهﷺ، فـ(عن جعفر بن محمد، عن آبائه في وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام قال: يا علي آفة الحسب الافتخار، ثم قال: يا علي إن الله قد اذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إن الناس من آدم، وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم) [وسائل الشيعة (آل البيت)، العاملي ج ٦١، ص ٤٣].

وقد حدّد الإسلام دائرة الشراكة بين البشر ضمن مستويين هما:

أولاً: دائرة الشراكة العامة: وهي التي في ضوئها وتحتها يندرج كافة البشر، ولا يجوز بمقتضاها أن يستحقر إنسان إنساناً، أو أن يمايز بين ذاته وبين الآخرين، فكل الناس عبيد مخلوقون ومملوكون لرب واحد، لا إله لهم سواه، وإلى هذه الشراكة المبدئية أشار تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء ٧٠].

ثانياً: دائرة الشراكة الخاصة: وهي التي تكون بين أهل الدين الواحد، فللإيمان حقوقه ومقتضياته، وللشراكة في العقيدة مستلزماتها، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ [الحجرات ١٠].

وهاتان الدائرتان من الشراكة لا فرق بينهما على مستوى استحقاق العدل، وهو ما عناه الإمام علي عليه السلام في قوله لمالك الأشتر: (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق).

ولأن الإسلام أراد أن يؤصل الإحساس بوحدة الإنسان فقد نهى عن إبداء التمايز في ما يريد الإنسان أن ينشأه من علاقة ورابطة بينه وبين الآخر، حتى لو كان هذا الآخر على ضلال أو خطأ في نظره، وهو ما نفهمه من قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ ٢٤].

وفي وصية السجاد عليه السلام للزهري: (وإن عرض لك إبليس لعنه الله أن لك فضلا على أحد من أهل القبلة فانظر إن كان أكبر منك فقل قد سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإن كان أصغر منك فقل قد سبقته بالمعاصي والذنوب فهو خير مني، وإن كان تربك فقل أنا على يقين من ذنبي وفي شك من أمره، فمالي أدع يقيني لشكي) [المجلسي، بحار الأنوارج٧١، ص١٥٧].

مقدمات توضيحية حول التفكير

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة ٢].

ما هو التفكير؟ هو ذلك النشاط الحيوي الذي يحرك الإنسان باتجاه حل مشكلة أو تحليل موقف أو اتخاذ قرار، وهو سلسلة عمليات ذهنية تستهدف إدراك مجهول ما والتعامل معه.

التفكير خاصية الإنسان: يمكن للحيوانات الأخرى أن تتمتع بمستويات دنيا من التفكير، والمرتبط بغرائزها ودوافعها واحتياجاتها الحسية والبيولوجية، ولكن الإنسان هو الوحيد الذي يتمتع بالقدرة على التفكير المجرّد، وهو ما أسماه الفلاسفة القدماء بالقدرة على إدراك الكليات واستنباط القواعد، وهو حقيقة التعقل التي أشار إليها الذكر الحكيم بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر ٦٧].

ضرورات التفكير: لا يجادل عاقل من الناس في أهمية ممارسة التفكير، لأنه الطريق الذي لا مناص من سلوكه في مواجهة أيّ حدث أو موضوع أو مشكلة، ولذا فالإنسان يمارس التفكير طواعية واضطراراً، حتى لو لم يدفعه إليه أحد، ولكنه بحاجة على الدوام لتنمية مهاراته التفكيرية من أجل أن يتوفر على قدرة أكبر لحل المشاكل وتطوير نفسه ووضعه، ومن أجل ذلك اعتبر التفكير في الرؤية الإسلامية عبادة، بل ربما تعدل في فضلها فضل سائر العبادات، ففي مصباح الشريعة

المنسوب للإمام الصادق عليه السلام قال: (والفكرة مرآة الحسنات، وكفارة السيئات، وضياء القلب، وفسحة للخلق، وإصابة في إصلاح المعاد، واطلاع على العواقب، واستزادة في العلم، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فكر ساعة خير من عبادة سنة، ولا ينال منزلة التفكر إلا من خصه الله بنور المعرفة والتوحيد) [مستدرك الوسائل، النوري، ج١١، ص ١٨٥]. و(عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: (التفكر في ملكوت السماوات والأرض عبادة المخلصين). وقال عليه السلام: (التفكر في آلاء الله نعم العبادة) [ن م]. و(عن حماد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام، عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل، فقال: أما والله، ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنه كان رجلا قويا في أمر الله، متورعا في الله، ساكتا سكيتا، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستغن بالعبر) [ن م].

تعليم التفكير: من أهم وأول الوظائف التي حمّل الرسل والأنبياء عليهم السلام مسئولية أدائها والقيام بها هي مهمة تعليم الناس كيفية التفكير الصحيح، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة ١٢٩]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران ١٦٤].

أبعاد التفكير: للتفكير أبعاد ومستويات ثلاثة هي:

١- البعد العقلي للتفكير: وهو أعلى مستويات التفكير الإنساني القائم على التجرّد التام من الصور والمواد الحسية والمثالية، والمعتمد على البرهان.

٢- البعد النفسي للتفكير: وهو القائم على الارتباط بالعاطفة وتأثيراتها.

٣- البعد الحسي للتفكير: وهو التفكير المستند إلى الإدراك الحسي المباشر للأشياء. والتفكير بكل أنواعه هو ممارسة ذهنية مجرّدة، لكن تختلف محفزاته ومثيراته ومتعلقاته فتكون تارة عقلية، وتارة نفسية، وتارة حسية.

السيدة زينب عليها السلام.. منهج في الدفاع عن الموقف

حينما أراد الحسين عليه السلام أن يخوض معركته ضد الطغيان الأموي والاستبداد اليزيدي، وفي اللحظة التي كانت المعركة تقترب من ساعة الصفر، طاف الحسين عليه السلام بخيمة أخته المقرّبة إلى قلبه، فحادثها وحادثته، وأطال الجلوس معها يودعها، وتتزود منه هي ما يعينيها من وصايا وعزيمة تواجه بهما مستقبل الأيام القادمة، (ثم قالت: أخي هل استعلمت من أصحابك نياتهم فإني أخشى أن يسلموك عند الوثبة واصطكاك الأسنة. فبكى عليه السلام وقال: أما والله لقد نهرتهم وبلوتهم وليس فيهم إلا الأشوس الأقعس يستأنسون بالمنية دوني استئناس الطفل بلبن أمه) [كلمات الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ الشريفي، ص ٤٠٧].

إن هذا التساؤل من زينب عليها السلام وهي التي تعلم أن كل معطيات الحدث وتوازنات المعركة لا يمكن أن تحسم المعركة لصالح أخيها، ينبأ عن أمر آخر كان مورد ملاحظة عقيلة الطالبيين واهتمامها، وهو أن لا يتمثل طرف من أطراف الصف الحسيني ضعفاً في الأداء وفشلاً في القيام بمتطلبات الدور، وهو الأمر الذي أرادت الاطمئنان عليه والتثبت منه، ولذلك سألت أخاها الحسين عليه السلام إن كان قد استوثق من نوايا أصحابه.

وحينما انتهت المعركة وحسمت خياراتها بالشكل الذي كانت تفهمه وتعتقده زينب عليها السلام لم يضعف ذلك عزيمتها، ولم يغير قناعاتها التي ما بنيت في لحظة من اللحظات على أن تميّز الموقف الحق من الموقف الباطل في ضوء ما سيعود على هذا الطرف أو ذاك من مردودات جزئية وقتية سرعان ما تتبدد وتنتهي، وهو ما دعاها لأن تتمثل كل تلك الصلابة في الموقف، والقوة في المنطق حينما خاطبت يزيد

طاغية الشام بالقول: (الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله كذلك يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة؟ وأن ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسرورا، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، مهلا مهلا أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حمي؟) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٥٤، ص ١٣٢].

رغم أن السيدة زينب عليها السلام دخلت على يزيد أسيرة مضطهدة مقيّدة، قد قتل ولاتها وحماتها، وعدم الناصر والمعين لها، إلا أنها أثبتت أنها مازالت تمتلك من الوسائل والقدرات ما تتحدى به يزيد الفاجر الفاسق، بل وكل مشروعه الساقط الذي أراد أن يقول للمغفلين من الناس من خلاله أنه قد حقق إنجازا متميزاً عبر قضائه على من خرجوا عن طاعته وأقلقوا الأمن في مملكته، في الوقت الذي يعلم يزيد قبل غيره إنه لم يستبعد ولم يقص ولم يقتل إلا الصفوة من نخبة الأمة وسادتها وقادتها، وهو ما استدعى من زينب عليها السلام أن تقف له بالمرصاد لتكشف الستار عن هذه المحاولة الفاشلة، وهو الأمر الذي قامت به السيدة الجليلة على أفضل وجه عبر صراحة التحدي، وصرخة الرفض التي أطلقتها في مجلس الطاغية نفسه.

لقد أعطتنا زينب عليها السلام عبر هذين الموقفين درسين مهمين: الأول: أن نتأكد من نوايانا من قبل، والثاني: أن ندافع عن خياراتنا بكل قوة من بعد.

العمل الإسلامي والتفكير من خارج الأطر المعيقة

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧٢].

كثيرة هي الأطر التي تعيق انطلاق وتطور العمل الإسلامي الدعوي والتوجيهي والتربوي والتأسيسي، وقد اعتدنا على البحث عن هذه الأطر المعيقة ونقدها حينما تتواجد خارج دائرة الذات الفاعلة، ولا تكون جزءاً من القوى الفاعلة في ساحة العمل الإسلامي، وهو أمر حسن لأننا نتمكن من خلال هذا الموقف النقدي لهذه الأطر من تجاوزها والتحرر من عقالها، ولكن هذا الدور كله، ورغم أهميته، إنما يمثل نصف المهمة الملقاة على عاتقنا، وهو حكاية عن رغبتنا في التزام العدل ونفي الظلم عن أنفسنا، من أجل أن لا نكون ظالمين أو ظلومين، ومن هنا مثل عمل الظالمين سقفاً هابطاً لا يجوز لنا الركون إليه، وهو إطار معيق لتفكير وإبداع الإنسان أمرنا الله بالانعتاق منه فقال: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ [هود ١١٣].

ولكن هناك من الأطر ما تشكل سقوفاً هابطة وأطر معيقة نعجز عن إدراكها وفهما والتوقف عندها لأننا نجهلها، وهو بعد آخر في المشكلة الإنسانية، فأحد وجوه المشكلة الإنسانية هو الظلم، والوجه الآخر هو الجهل، كما بيّن المقطع القرآني الذي افتتحنا به حديثنا، وهناك الكثير من السقوف الهابطة والأطر المعيقة التي يلزمنا التحرر منها وتجاوزها، إذا ما أردنا للعمل الإسلامي أن يبقى فاعلاً وحياً، وأهم ما يمكننا الإشارة إليه من أطر معيقة في هذا الشأن هو التالي:

هيمنة الذات والهوى الشخصي: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ٢٣].

هيمنة الأكابر وأصحاب النفوذ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٧].

هيمنة المألوف والسائد من الآراء والعادات: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٤-٧].

هيمنة روابط القرابة والنسب: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].

هيمنة محتكري المعرفة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

هيمنة المصالح وسطوة المنافع: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص ٥٧].

سقوف الحراك الإنساني

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن ٧].

حينما نتحدث عن طبيعة السقوف التي يستظل بها الإنسان في حراكه سنجد أن الإنسان يحدد خياراته في هذا الشأن ضمن مسارات ثلاثة هي:

أولاً: أن يتحرك بلا سقف، والعاقل من الناس لا يمكن أن يتحرك حركة هادفة وقاصدة من دون أن يكون له سقف يستظل بظله، لأن السقف يعني في ما يعنيه تقديم الحماية أولاً لحركة الإنسان، والهدفية ثانياً، وتحديد المتطلبات ثالثاً.

ثانياً: أن يتحرك ضمن سقف هابط، والسقف الهابط يعيق الحركة ويجمدها، ولا يدفع الإنسان للاستمرار والمواصلة في العمل والسعي.

ثالثاً: أن يتحرك ضمن سقف عال وسام، يجده رحباً ومتسعاً على الدوام، كلّما أدرك أفقاً فيه انفتح له أفق آخر، فيظل ينشد الأفق الجديد، والذي ينفتح بدوره على أفق جديد آخر، وهكذا تستمر به الحياة والحركة، من كمال إلى كمال آخر، إلى أن يلقى ربه الذي يكدح إليه كدحاً، تحقيقاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق ٦].

ولقد وضع الله تعالى رسوله الكريمﷺ قدوة للمؤمنين ممن يريدون مواصلة الحركة في الطريق إلى الله تعالى من دون أن يتوقفوا عند حدّ معين، أو يكتفوا بقدر

مقدّر من الكمال، فقال في ما خاطبهم به: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب ٢١]، وليس ذلك إلا لأن رسول الله ﷺ يمثل أعلى سقف بشري في الكمال وخصال الخير والجمال، فكان الأجدر بأن يكون سقفاً عالياً للأمة، تتمثل أخلاقه وقيمه في كل شؤونها.

وكان الإمام علي عليه السلام سقفاً عالياً متعالياً كاسمه، فهو القائل: (أما والله لقد تقمصها ابن أبى قحافة أخو تيم وانه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير) [نهج البلاغة، الخطبة٣].

وقال الإمام الكاظم في وصيته لهشام في وصفه المؤمن: (يا هشام! كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما عبد الله بشئ أفضل من العقل، وما تم عقل امرئ حتى يكون فيه خصال شتى: الكفر والشر منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفوف، ونصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، الذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره، والتواضع أحب إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلهم خيرا منه، وأنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر) [ميزان الحكمة، محمدي الريشهري ج ٤، ص ٣٥٩٦].

وقال الشهيد الثاني في منية المريد في بيان متطلبات النجاح في طالب العلم: (السابع: أن يكون عالي الهمة، فلا يرضى باليسيز مع إمكان الكثير، ولا يسوف في اشتغاله، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلت تمكن منها، وإن أمن فوات حصولها بعد ساعة، لان للتأخير آفات، ولأنه في الزمن التالي يحصل غيرها، حتى لو عرض له مانع عن الدرس، فليشتغل بالمطالعة والحفظ بجهده، ولا يربط شيئا بشيء. وليعلم أنه إن أراد التأخير إلى زمن يكمل فيه الفراغ، فهذا زمن لم يخلقه الله تعالى بعد بل لابد في كل وقت من موانع وعوائق وقواطع، فقاطع ما أمكنت منها قبل أن يقطعك كلها، كما ورد في الخبر: الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك) [منية المريد، الشهيد الثاني، ص ٢٣٠].

دور أنماط التفكير الأساسية في صياغة النظم السياسية

تتحدد الأنماط الأساسية للتفكير في ما يرتبط بدور الفرد والجماعة في ثلاثة أنماط أساسية، هي:

أولاً: التفكير الفردي: يستند التفكير الفردي إلى الفاعلية المستقلة التي يقوم بها العقل الإنساني في التفكير بشأن قضية أو مشكلة أو موقف أو قرار، من دون أن يشرك معه غيره في التوصل إلى النتيجة المتخذة، وهو نمط من التفكير إذا تأصل في حركة الأفراد منفصلاً عن مشاركة الآخرين آراءهم فإنه يكون مرتعاً خصباً لتولد حالات الاستبداد والاستفراد، والتي تبدأ في منهجية التفكير وتنتهي في الممارسة والعمل، وهي المنهجية التي تقف وراء نشوء وبروز الأنظمة الاستبدادية القائمة على الحكم الفردي المطلق.

ثانياً: التفكير الجماعي: يعتمد التفكير الجماعي على إشراك عناصر متعددة في صياغة الفكرة، أو اتخاذ القرار، أو حل المشكلة، ولكن المشكلة الكبيرة التي يولدها التفكير الجماعي بعض الأحيان أن الأفراد تتماهي مع بعضها البعض إلى الحد الذي تفقد استقلاليتها وتميزها لتنصهر انصهاراً تاماً في ما يشكله المجموع من آراء وما يتخذونه من مواقف، وهذا ما يفسح المجال لبروز الأنظمة الشمولية التي تتسم بهيمنة الجماعة وإخضاعها الأفراد لقراراتها ملغية إمكانيات الإبداع الفردي والتميز الذاتي.

ثالثاً: التفكير الإزدواجي: الذي نعتقده وتؤيده ملاحظة الشواهد التاريخية في التجارب الاجتماعية الكبرى أن أفضل منهج في التفكير هو الذي يعتمد مبدأ التوازن بين الدوافع الفردية والرغبات الجماعية، بمعنى أن الطرفين (الفرد والجماعة)

يملكان حضورا منفصلاً ومتصلاً في الوقت نفسه في صياغة الأطر الفكرية التي تحرك التجربة البشرية وتوجهها، وهو ما نسميه بمنهج أو نمط التفكير الإزدواجي.

وهذا النمط أو النسق التفكيري هو الأقدر على صياغة الروح الجماعية من جهة، وبناء الروح الفردية من جهة ثانية، وتحريكهما باتجاه العمل وفق مبدأ المحور والحلقة المستديرة، والصورة الجميلة والرائعة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في هذا المجال، والتي يتناسق ويتناغم فيها تفكير ودور الفرد مع تفكير ودور الجماعة، وتتماهي فيها حركة المركز مع حركة الأطراف، هي قوله تعالى في شأن النبي الأكرمﷺ والذين معه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح ٢٩].

ومن الواضح أن التفكير الإزدواجي هو الذي يمتلك حظاً أوفر في إقامة النظم الديمقراطية الثابتة والمستقرة، لأن الجميع يشعر أن بناء التجربة هو حق له، وأن تطويرها واجب عليه، مما يسهم في الاندفاع في تغذيتها بمقتضيات البقاء والاستمرار والتطور.

ويساهم كل نمط من أنماط التفكير الثلاثة هذه في تحديد وتوجيه طبيعة النظام المعيشي الحاكم والمهيمن في الاجتماع البشري ضمن مستويات ثلاثة، هي:

١- إدارة القيم والمفاهيم.

٢- إدارة الاجتماع السياسي.

٣- إدارة النظام الاقتصادي.

فلكل نوع من التفكير إفرازاته وانعكاساته على طبيعة تشكيل النظام السياسي في المجتمع، ولكل نظام تحديداته الخاصة بكل محور من هذه المحاور الثلاثة.

إسهام في نقد وتحليل المنطق الجمعي

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام ١٥١].

حينما نحلل أكثر أنواع المنطق فاعلية في حياة الناس، فسنعثر على ثلاثة أنواع أساسية من المنطق تتحكم في صياغة أفكار وقيم وتوجهات وممارسات البشر في كل زمان ومكان، وتلك الأنواع الثلاثة هي:

١- **المنطق الجمعي**: وقد ألمح إليه غوستاف لوبون في كتابه «الآراء والمعتقدات» وهو أهم من عنى بدراسة أنواع المنطق وتأثيراتها في توجيه آراء الناس وصياغة معتقداتهم بـ(أن المرء وهو جزء من الجماعة يكون في سيره غيره وهو منفرد، وهذا ما يجعلنا نقول أنه مسيّر وهو في الجماعة بمنطق خاص يتضمن ما يشاهد في الجموع وحدها من أصول ومبادئ) [غوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، ص٥٠].

٢- **المنطق الديني**: رغم الأهمية الكبرى والقدرة المتميزة التي يحظى بها المنطق الديني في صياغة توجهات الأفراد والجماعات، إلا أن محاولة تحديد مفهوم دقيق للمنطق الديني ظلّت محل أخذ ورد بين الفلاسفة والمفكرين والباحثين، وحتى علماء الاجتماع والنفس والتربية والانثربولوجيا، من دون أن يتفقوا على معايير واضحة تفصح بشكل لا يقبل الجدل عمّا هو دخيل في منطق الدين، عمّا هو خارج منه، ولكنهم جميعاً يتفقون على أن للمنطق الديني حضوره المتميز والاستثنائي في

بناء وتأسيس وتوجيه الآراء والمواقف البشرية. وهذا التباين في فهم وتحديد معنى المنطق الديني يستوجب التمحيص الدقيق والفحص الصارم لمعايير المنطق الديني، لأنه من خلالها سنحدد طبيعة الموقف اللازم اتخاذه من هذا المنطق.

والذي نعتقده أن المنطق الديني إذا ما قصدنا به ما يمكن نسبته إلى المعرفة المنزلة من قبل الله تعالى على أحد رسله فلا يمكن النظر إليه إلا بوصفه محفزاً ومحركاً للالتزام والإلزام بكلمة ومنطق العقل، وذلك أن الله تعالى يقول عن ما أنزله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر ٢٣]، وفي هذا السياق نفهم أن ليس لمنطق الدين من وظيفة في حياة الإنسان غير تحريكه باتجاه الالتزام بمبادئ ومعايير منطق العقل، وهو المعنى الذي أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما تكلم عن أن مهمة الأنبياء في عالم البشر تتحدد أساساً في أن (يثيروا لهم دفائن العقول).

٣- **المنطق العقلي**: وهو المنطق الذي يشكل ذروة العلمية والموضوعية التي يطلب الفكر الإنساني الوصول والارتقاء إليها، وهو المنطق الذي يحدد إلينا المعايير الصارمة للتفكير المستقيم ملغياً كل التأثيرات التي يمكن أن تحرف تفكيرنا بهذا الاتجاه أو ذاك، ولذلك جعل غوستاف لوبون أهم العناصر التي يستند إليها المنطق العقلي هي: (الإرادة والدقة والتأمل).

المنطق الجمعي بين منطقي العقل والدين: معايير المنطق الجمعي تتشكل غالبا في قبال المنطق العقلي وبحسب الفرض هناك توافق تام بين المنطق العقلي والمنطق الأصلي للدين فمن الطبيعي أن يتنافى غالبا المنطق الديني والمنطق الجمعي أيضاً، وقد عمل القرآن الكريم على تحويل المنطق الجمعي إلى المنطق العقلي، عبر استخدام الدين وتوظيف منطقه في هذا السبيل، ولأجل ذلك نرى الذكر الحكيم يكثر من اعتبار التعقل غاية لتشريعاته وآياته، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر ٦٧].

دراسة قرار السقيفة
في ضوء معطيات علم الاجتماع السياسي وقواعد الإدارة الحديثة

ما هو قرار السقيفة؟

قرار السقيفة قرار اتخذ من قبل مجموعة بشرية على أثر وفاة نبي الإسلامﷺ وزعمهم أنه قد ترك منصب الخلافة عنه فارغاً من دون تحديد الزعامة والقيادة العامة في من تكون بعده، وفي ضوء ذلك اجتمع نفر من المسلمين في سقيفة بني ساعدة لاتخاذ قرار في هذه المسألة المصيرية والمحورية، ويختزل عمر بن الخطاب الشخصية المحورية في اتخاذ قرار السقيفة ظروف اتخاذ القرار والملابسات المحيطة به بالقول: (كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها، فمن عاد لمثلها فاقتلوه) [تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي ج ٢، ص ١٥٨].

ولذلك مما قاله الإمام الرضاعليه السلام في مجلس المأمون يوم أن جادله البعض في مسألة الخلافة: (ومن كانت بيعته فلته يجب القتل على من فعل مثلها كيف يقبل عهده إلى غيره وهذه صورته ؟!) [عيون أخبار الرضاعليه السلام، الشيخ الصدوق ج ١، ص٢٥٥- ٢٥٦].

وتحدث الإمام عليعليه السلام عن القرار المتخذ في السقيفة مبيناً حيثيات الخطأ والضعف فيه، وقد نقل الشريف الرضي ذلك في نهج البلاغة قائلاً: (قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله ﷺ قال عليه السلام: ما قالت الأنصار؟ قالوا قالت منا أمير ومنكم أمير قال عليه السلام فهلا احتجتم عليهم بأن رسول اللهﷺ وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ فقال عليه السلام: لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم. ثم

قال عليه السلام: فما ذا قالت قريش؟ قالوا احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ. فقال عليه السلام: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة) [نهج البلاغة، الخطبة ٦٧].

وتحدث عليه السلام أيضاً في خطبته الشقشقية عن الخطأ القاتل في هذا القرار الذي اتخذته قريش فقال: (فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشطرا ضرعيها، فصيرها في حوزة خشناء، يغلظ كلامها، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس -لعمر الله- بخبط وشماس وتلون واعتراض) [نهج البلاغة، الخطبة ٣].

وأخيراً تحدثت السيدة الزهراء عليها السلام عن التداعيات السيئة والقاتلة لهذا القرار الخطير على حاضر الأمة ومستقبلها فقالت: (استبدلوا الذنابى بالقوادم، والحرون بالقاحم، والعجز بالكاهل، فتعسا لقوم ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾، ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾، ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ لقحت فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا طلاع القعب دما عبيطا وذعافا ممضا، هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غب ما أسس الأولون، ثم طيبوا بعد ذلك عن أنفسكم لفتنتها، ثم اطمئنوا للفتنة جأشا، وأبشروا بسيف صارم وهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لهم وقد عميت عليهم الأنباء ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾) [الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٣٧٤].

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه الشواهد وغيرها أن القرار الذي اتخذ في السقيفة، وتمّ على أثره تنصيب أبي بكر كخليفة لرسول الله ﷺ إضافة إلى أنه لا يستند إلى سند شرعي وديني، فهو يفتقد كل متطلبات القرار الناجح والمدروس، وهو ما جعل منه أكبر قرار خاطئ يتخذه العقل الجمعي في تاريخ الإسلام، وهي النقطة المهمة والحساسة التي ينبغي تسليط الضوء عليها ودراستها ليس من منطلق عقيدي فحسب، ولكن من منطلق اجتماعي وإداري.

سن التكليف الشرعي
مرحلة النضج الجسدي والإثارة العاطفية والتحفز العقلي

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور ١١].

يبدأ سن المراهقة في رؤيتنا الإسلامية من خلال زمن محدد يرتبط بتغيرات جسمية ونفسية وعقلية تطرأ على الإنسان، وهي ما أسماها الشرع بمرحلة البلوغ أو التكليف، أي هي المرحلة التي يصبح فيها الفرد في موضع تكليف وتشريف من الله سبحانه وتعالى في تحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه، ويمكننا أن ننظر إلى أهمية وخطورة هذه المرحلة بوصفها المرحلة التي يراد فيها إعادة تشكيل وتركيب الأنظمة الفاعلة في حياة ووجود الإنسان، وهي الأنظمة الثلاثة التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه الذي يقول فيه: (الفضائل أربعة أجناس: أحدها الحكمة وقوامها في الفكرة، والثاني العفة وقوامها في الشهوة، والثالث القوة وقوامها في الغضب، والرابع العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٥٧، ص ٨١]. وفي ضوء هذا الحديث يتبين لنا أن الإنسان ينشأ مع ثلاثة أنظمة فاعلة ومؤثرة فيه، ومحركة لكل أبعاد وجوده وحياته، وهذه الأنظمة الثلاثة هي:

١- **النظام الفكري**: وهو النظام المعني بإدارة فاعلية العقل في الوجود الإنساني، ونظام الإدارة لهذه الفاعلية هو تحكيم الحكمة في إدارة الفكر.

٢- **النظام النفسي**: وهو النظام المعني بإدارة فاعلية النفس في الوجود الإنساني، ونظام الإدارة لهذه الفاعلية هو تحكيم العفة في إدارة الشهوة.

٣- **النظام الجسدي**: وهو النظام المعني بإدارة فاعلية الجسد في الوجود

الإنساني، ونظام الإدارة لهذه الفاعلية هو تحكيم القوة في إدارة الغضب.

العدل النظام الشامل للإدارة: وهذه الأنظمة الثلاثة الفاعلة في الإنسان لا يمكن أن تنضبط حركتها في ما بينها، وعلاقة كل نظام بالآخر إلاّ من خلال نظام كلي يعمل على إدارتها وتوجيهها، وهو العدل والاعتدال. وفي ضوء هذا الفهم الذي يثيره هذا الحديث العلوي نؤسس لأهمية الحديث عن أن تكون برامجنا ونشاطاتنا الموجهة لجيل المراهقين والمراهقات، أو بالأحرى لشريحة البالغين والبالغات تتحرك ضمن مسارات أربعة، بالشكل التالي:

أولاً: النشاطات والبرامج العقلية: التي تستهدف بناء ورفع كفاءاتهم وقدراتهم الفكرية، وتفعيل عطاءهم في مختلف مجالات الإبداع والابتكار.

ثانياً: النشاطات والبرامج النفسية: التي تعمل على صناعة وصياغة الذات الملتزمة بقيم الحق ومبادئ العدل وأخلاق الدين.

ثالثاً: النشاطات والبرامج الجسدية: التي تهتم بإبراز وبناء قدراتهم الجسدية والحركية التي تمنحهم سلامة الجسد وقوة الحركة.

رابعاً: النشاطات والبرامج التركيبية: وهي التي يتمّ من خلالها التركيب والتناسق بين الأنواع الثلاثة المتقدمة من النشاطات، مع إعطاء كل بعد من الأبعاد ما يتناسب وأهميته في بناء الذات السوية، وهو جوهر العدل الذي يستهدف تحقيق التوازن في حياة الإنسان المسلم في كل شأن من شؤونه، لأن العدل هو الميزان الذي قامت عليه السموات والأرضون، ومن خلاله يحقق الإنسان طموحاته في بناء حياة تتسم بحكمة الفكر، وعفة الشهوة، وقوة العمل، وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام: (لا يكون المسلم مسلما حتى يكون ورعا، ولن يكون ورعا حتى يكون زاهدا، ولن يكون زاهدا حتى يكون حازما، ولن يكون حازما حتى يكون عاقلا، وما العاقل إلا من عقل عن الله وعمل للدار الآخرة) [تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص ١٠٠].

إدارة الثنائيات الأساسية
في مجال تنمية وتطوير المهارات الذاتية

العمل على تطوير المهارات الذاتية للإنسان يعدّ من أهم وأفضل الأعمال وأكثرها أهمية في ما يتعلق بضرورات تطوير المجتمع البشري وإدارته، ولا يمكن أن تدار مهام تطوير مهارات الذات إلا من خلال التحكم في إدارة وتوجيه الثنائيات الفاعلة والمؤثرة في صياغة مسارات الذات الإنسانية، وهذا ما يقتضي استحداث عملية توازن في إدارة هذه الثنائيات، من دون إخلال بحركتها باتجاه أحد حدّي الإفراط أو التفريط، وكذا من دون محاولة إلغائها أو التقليل من شأنها ودورها في إنجاز هذه المهمة؛ وضرورة تأصل ووجود هذه الثنائيات في القيام بمهام تنمية وتطوير المهارات الذاتية نلمح الإشارة إليه والتصريح به في الكثير من نصوصنا الدينية، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠]، و(قال أبو عبد الله عليه السلام: كان أبي يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا) [الكافي، الشيخ الكليني ج ٢، ص ٦٧]. و(عن الصادق عليه السلام أنه قال: لا يكون العبد مؤمنا حتى يكون خائفا راجيا) [مستدرك الوسائل، الميرزا النوري ج ١١، ص ٢٢٤].

وانطلاقاً من ذلك يصبح تحديد الثنائيات التي تدار عبر تثبيتها والرجوع إليها مهام تنمية وتطوير المهارات الذاتية للأفراد والجماعات أمراً في غاية الضرورة، وبعد تحديد تلك الثنائيات لا مناص من العمل معها على وفق مبدأ التوازن والعدل في تقسيمها، وهذا ما يلزمنا الالتزام به ضمن محاولة تنمية المهارات الذاتية في المجالات الثلاثة التالية:

المجال الأول: إدارة وتنمية المهارات الفكرية: وتتوازن الثنائيات في إدارة المهارات الفكرية عبر تأصيل مبدئي (الصح والخطأ) أو (الحق والباطل).

المجال الثاني: إدارة وتنمية المهارات النفسية: وتتوازن الثنائيات في إدارة المهارات النفسية عبر تأصيل مبدئي (التحسين والتقبيح الأخلاقيين).

المجال الثالث: إدارة وتنمية المهارات العملية: وتتوازن الثنائنات في إدارة المهارات العملية عبر تأصيل مبدئي (المدح والثواب) أو (الذم والعقاب).

شاهد قرآني: يرشدنا القرآن المجيد إلى ضرورة تأصيل التعامل بمنهج إدارة الثنائيات (الحق والباطل، الثواب والعقاب، المدح والذم) في المجال الإنساني عبر حديثه عن حركة ذي القرنين وسيرته الحافلة بالأحداث، فيقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٣-٨٨].

تعزيز تربوي: وهذا المنهج هو ما تؤكد أهمية استخدامة في بناء وتربية الذات السوية للأطفال أحدث الدراسات التربوية الجادة، وهو المنهج الذي يختزل حقيقة ما يسمى بتنمية الذكاء العاطفي عند الأطفال، وفي ذلك يقول «لورانس إ. شابيرو» صاحب كتاب «كيف تنشئ طفلاً يتمتع بذكاء عاطفي» في ص ١٠٥: (في العديد من الثقافات يكون الإشعار بالخجل طريقة مناسبة للعقاب على السلوك اللاجتماعي، وبالرغم من أن الأمريكيين قد يقللون من شأن المجتمعات التي تمارس الإشعار بالخجل أمام الناس، إلا أنه من الواجب أن نعرف أن مثل هذه المجتمعات يقلّ فيها انتشار الجرائم والقلق الاجتماعي، وبدون شك يمكن أن يعزى عدم الشعور بالراحة لدى الأمريكيين تجاه الإشعار بالخجل أمام الناس، وتضمن ذلك في تقنيات تربية الأطفال إلى عدم التآلف مع هذا النهج).

مسيرة ضياع الفرض والأرض والعرض

قال الإمام علي عليه السلام مخاطباً جنود الأمة: (ألا وإنّي دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسرّاً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يَغزُوكم، فوالله ما غزي قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنَّت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان. وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار، وقد قَتَلَ حسّان بن حسّان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فيَنتَزِع حجلها وقُلبها وقلائدها ورُعُثها، ما تمتنع منه إلاّ بالإسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كَلَمٌ، ولا أريق لهم دم؛ فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً؛ فيا عجباً! عجباً -والله- يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم وتَرَحاً، حين صرتم غرضاً يرمى: يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويعصى الله وترضون!) [نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٧]. لقد أضاعت الأمة ثلاثة أهم أشياء في وجودها وكينونتها، وهي:

١- **إضاعة الفرض**: وهو الجهاد الواجب الذي به يبقى للأمة كرامتها، ويستدام عزها، ولكنها توانت وتخلت عنه فبليت بالصغار والحقارة والدناءة، وهذا ما أفصح عنه عليه السلام بقوله: (ألا وإنّي دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسرّاً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يَغزُوكم، فوالله ما غزي قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم).

٢- **إضاعة الأرض**: وهو ناتج طبيعي للتخلي عن الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ، وضياع الأرض يعني ضياع كل قدرة للأمة على التصرف في مواردها وخيراتها

بما يخدم مصالحها ويتوافق مع رغباتها، وقد أشار عليه السلام إلى هذا التضييع والضياع بقوله: (حتى شُنَّت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان. وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار، وقد قَتَلَ حسّان بن حسّان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها)..

٣- **إضاعة العرض**: وهو أيضاً ناتج من الطبيعي أن يترتب على إضاعة الفرض وتضييع الأرض، وهو أسوأ النتائج التي تمسخ هوية الأمة، وكل ما تبقى لها من شرف وكرامة، وقد عناه عليه السلام بقوله: (ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فَيَنْتَزِع حجلها وقُلبها وقلائدها ورُعُثها، ما تمتنع منه إلاّ بالإسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كَلَمٌ، ولا أريق لهم دم).

النتيجة: حينما يضيع الإنسان فرضه ويتهاون في أداء واجباته والقيام بمسؤولياته، وينقض عهوده مع الله والناس، وحينما تستلب الأرض منه وتصادر حريته في استثمارها، وحينما يستباح عرضه وشرفه من دون أن يدافع عن نفسه فإن الحياة تبقى بلا معنى، وبلا مبرر، ويكون الموت أفضل من الحياة لمثل هذا الإنسان، ولذا قال عليه السلام: (فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً).

المأساة المستمرة: المأساة كل المأساة أن تتخلى الأمة كلها عن أن تستشعر أهمية العيش بكرامة وعزة، وتستلذ العيش الذليل، في ظل فرض مضيع، وحق مهدور، وكرامة مستلبة، وأرض مغتصبة، وشرف مضيع (فيا عجباً! عجباً -والله- يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم وتَرَحاً، حين صرتم غرضاً يرمى: يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويعصى الله وترضون!).

اسمعوها من علي يا أعراب القرن الحادي والعشرين: حينما يهمل الفرض، تضيع الأرض، وحينما تضيع الأرض، يستباح العرض، فلا واجب الفرض رعيتموه، ولا تراب الأرض حفظتموه، ولا شرف العرض صنتموه، فبأساً لكم وتعساً (يا عبيد الأمة! وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن).

النزعة الإنسانية في الثورة الحسينية

قال الإمام الحسين عليه السلام: (وأني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي ابن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين) [البحار، ج٤٤، ص ٣٢٩].

يتحدد «الإصلاح» كمطلب أولي وأساسي في الثورة الحسينية، وهذا ما يضفي عليها سمة إنسانية متعالية، وقد تأصلت هذه النزعة الإنسانية الرفيعة في مسار الثورة الحسينية منذ انطلاقتها الأولى، حتى نهايتها بمقتل الحسين بن علي عليه السلام قائد الثورة، وإن كانت الثورة الحسينية لم تعرف النهاية بالمعنى الدقيق للكلمة، لأنها ما زالت تشتعل في النفوس، ولم تستنفذ غاياتها التي انطلقت من أجلها بعد. وهذه محاولة سريعة لاستثارة الحديث عن معالم استثنائية فريدة في حركة الثورة الحسينية تدلل على عمق النزعة الإنسانية التي اقترنت بها منذ لحظة تشكلها، والتي لم، ولن، تفارقها أبداً:

المعلم الأول: الأهداف والدوافع الإنسانية للثورة: وقد أفصح عنها وبينها الخطاب الحسيني القائل: (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافسا في سلطان ولا التماسا من فضول الحطام ولكن لنري المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك، فإن لم تنصرونا وتنصفونا قوي الظلمة عليكم وعملوا في اطفاء نور نبيكم. وحسبنا الله وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير) [الحرّاني، تحف العقول، ص ٢٣٧].

المعلم الثاني: لا حواجز ولا طبقات في الثورة الحسينية: يقول ابن نما في

مثير الأحزان: (ثم تقدم جون مولى أبي ذر وكان عبدا أسودا فقال له عليه السلام أنت في أذن منى فإنما تبعتنا للعافية فلا تبتل بطريقنا فقال: يا بن رسول الله أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم، والله إن ريحي لمنتن وحسبي للئيم ولوني لأسود فتنفس علي بالجنة فيطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض وجهي، لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم ثم قاتل حتى قتل) [مثير الأحزان، ابن نما الحلي، ص ٤٧].

المعلم الثالث: الثورة من أجل التصحيح مهمة يشترك في إنجازها الجميع:

فقد أشرك الإمام الحسين عليه السلام في الثورة معه كل الأحرار الذين ينتصرون للحق والعدل، ويرفضون الباطل والظلم، وهذا ما أوضحه بعض المحدثين حينما قال في معرض حديثه عن بعض أصحاب الحسين عليه السلام: (ورأيت حديثا أن وهبا هذا كان نصرانيا فأسلم هو وأمه على يد الحسين، فقتل في المبارزة أربعة وعشرين راجلا واثني عشر فارسا ثم اخذ أسيرا فأتي به عمر بن سعد فقال: ما أشد صولتك؟ ثم أمر فضرب عنقه ورمي برأسه إلى عسكر الحسين عليه السلام فأخذت أمه الرأس فقبلته ثم رمت بالرأس إلى عسكر ابن سعد فأصابت به رجلا فقتلته، ثم شدت بعمود الفسطاط فقتلت رجلين، فقال لها الحسين عليه السلام: ارجعي يا أم وهب أنت وابنك مع رسول الله صلى الله عليه وآله فإن الجهاد مرفوع عن النساء، فرجعت و هي تقول: إلهي لا تقطع رجائي، فقال لها الحسين عليه السلام: لا يقطع الله رجاك يا أم وهب) [العوالم، الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ عبد الله البحراني ص ٢٦١].

المعلم الرابع: إشراك المرأة إلى جنب الرجل في الثورة الحسينية:

والمؤرخون للثورة الحسينية يحدثوننا عن دور إنساني كبير قامت به النسوة في الثورة الحسينية كتلك المرأة العجوز التي قتل ابنها في المعركة (فحملت أمه رأسه وقالت: أحسنت يا بني يا سرور قلبي ويا قرة عيني. ثم رمت برأس ابنها رجلا فقتلته وأخذت عمود خيمة وحملت عليهم وهي تقول: أنا عجوز سيدي ضعيفة/ خاوية بالية نحيفة/ أضربكم بضربة عنيفة/ دون بني فاطمة الشريفة. وضربت رجلين فقتلتهما فأمر الحسين عليه السلام بصرفها ودعا لها) [لواعج الأشجان، محسن الأمين، ص ١٦٤-١٦٥].

وحدة المرجعية... الإطار التنظيمي لعمل الجماعة

قال تعالى: ﴿... قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٦-٣٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف ٤].

تمهيد: حينما تتكون جماعة تتحرك باتجاه هدف معين فإن أخطر ما يواجه وجود هذه الجماعة هو عجزها عن الاتفاق على إطار تنظيمي لحركتها ومواقف أفرادها، ومن هنا أكد الإسلام على ضرورة الاتفاق على هذا الإطار التنظيمي حتى لو لم تتجاوز الجماعة الشخصين، وحتى لو كانت المسألة قضية صغيرة وعادية، وأهم إطار تنظيمي يحفظ وحدة الجماعة، وتناسق مواقفها، وقوة أدائها، هو وحدة المرجعية التي تستند إليها الجماعة في كل شؤونها وحركاتها، ومن هنا جعل الله تعالى الاحتكام والرجوع إلى هذه المرجعية الواحدة مقياساً متميزاً يفصل بين إيمان الإنسان وكفره، فقال تعالى في ما اشترطه على من يريد الإيمان بالرسالة: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء ٦٥].

خطورة تشظي وتشطر المرجعيات: أخطر ما يمكن أن تواجهه الجماعات الموحدة هو ظاهرة تشظي وتشطر مرجعيتها، ولاسيما في حال الأزمات والحروب والمنازعات، ومن هنا اهتم الرسول الأكرمﷺ في معاركه التي لم يحضرها أن يجعل مرجعيات طولية (الواحدة تلو الأخرى) للمسلمين، كما حصل في غزوة مؤتة

في السنة الثامنة للهجرة، ففي الخبر إن رسول اللهﷺ قال يوم أن وجّه الجيش للحرب: (زيد بن حارثة أمير الناس فان قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون من بينهم رجلا فليجعلوه عليهم) [شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٥١، ص ٦١].

خطورة تردد القيادة في الأزمات: قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن النبي ﷺ لما التقى الناس بمؤتة جلس على المنبر، وكشف له ما بينه وبين الشام، فهو ينظر إلى معركتهم، فقال أخذ الراية زيد بن حارثة، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة، وكره إليه الموت، وحبب إليه الدنيا، فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبب إلي الدنيا! فمضى قدما حتى استشهد، ثم صلى عليه، وقال: استغفروا له فقد دخل الجنة وهو يسعى، ثم أخذ الراية جعفر بن أبى طالب، فجاءه الشيطان فمناه الحياة وكره إليه الموت، ومناه الدنيا، فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تتمنى الدنيا! ثم مضى قدما حتى استشهد فصلى عليه رسول الله ﷺ ودعا له، ثم قال: استغفروا لأخيكم فإنه شهيد قد دخل الجنة، فهو يطير فيها بجناحين من ياقوت حيث شاء. ثم قال: أخذ الراية عبد الله بن رواحة، ثم دخل معترضا فشق ذلك على الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: أصابته الجراح. قيل يا رسول الله، فما اعتراضه؟ قال: لما أصابته الجراح نكل فعاتب نفسه فشجع فاستشهد، فدخل الجنة فسرى عن قومه. وروى محمد بن إسحاق قال: لما ذكر رسول الله ﷺ زيدا وجعفرا سكت عن عبد الله بن رواحة حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان من عبد الله بعض ما يكرهون، ثم قال: أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل شهيدا، ثم قال: لقد رفعوا لي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير ابن رواحه ازورارا عن سريري صاحبيه، فقلت لم هذا؟ فقيل لأنهما مضيا، وتردد هذا بعض التردد، ثم مضى) [شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٥١، ص ٦٨-٦٩].

الأخطاء القاتلة في أداء الرموز والقيادات

(عن علي بن المسيب قال: قلت للرضا عليه السلام: شقتي بعيدة ولست أصل إليك كل وقت فممن آخذ معالم ديني؟ فقال: من زكريا ابن آدم القمي المأمون على الدين والدنيا) [الاختصاص، الشيخ المفيد، ص ٨٧].

تمهيد: تقع الرموز والقيادات السياسية والاجتماعية والدينية والوطنية في الكثير من الأخطاء القاتلة التي تفشل أداءها، وتضيع الفرص على أتباعها، وأهم هذه الأخطاء القاتلة هي:

١- **تفويت الفرص**: تمرّ أمام كل تجربة بشرية فرص محددة سريعة وخفية، والكثير من التجارب لأنها لا تحسن استغلال الفرص فإن هذه الفرص تمرّ من بين يديها مرّ السحاب، وإذا كانت الجماهير لا تعي أهمية الفرص السانحة في تغيير الأوضاع، فإن من وظائف القيادات والرموز أن تترصد الفرص وتعمل على استثمارها واستغلالها أفضل استغلال من أجل تحقيق مكاسب اجتماعية عامة، وإلا فإن الفرصة إذا ضاعت أو ضيعت فإن من العسير أن تسنح مرة أخرى، أو يمكن استعادتها، وكما يقول الصادق عليه السلام: (إضاعة الفرصة غصة) [بحار الأنوار، ج ٨٦، ص ٢١٧].

٢- **افتعال المعارك الوهمية أو الانخراط فيها**: كثيراً ما تخطأ القيادات في افتعال معارك وهمية تنشغل من خلالها عن قضاياها المصيرية، وفي بعض الأوقات تفتعل السلطات من أجل تمرير مشاريع أخرى معارك جانبية تشغل بها الرموز والقيادات، وفي هذه الحال تكون مواقف الرموز والقيادات مجرد استجابات عكسية وردود أفعال غير مدروسة على أجندة الأولويات التي تحرك وتحدّد من قبل الآخر.

٣- **افتقاد القدرة على إطلاق المبادرات**: اعتادت الكثير من القيادات أن

تتحرك في ضوء الأجندة التي يفرضها ويثيرها الآخرون، وبذلك تبقى مقودة للمسارات التي يريد الآخرون أن يحركوا الأمور من خلالها، بينما يفترض في القيادة الناجحة أن تتوفر على قدرة إطلاق وإبداع المبادرات التي تشغل الآخرين وتجعلهم يتحركون وفق الأجندة التي تحددها هذه القيادات.

٤- **تهميش القدرات الفاعلة**: لا تلتفت الكثير من القيادات إلى أهمية اكتشاف واستثمار وتوظيف كل القدرات والطاقات البشرية ضمن مشروعها الذي يستهدف تحقيق متطلبات جماهيرية عامة، وربما مارست بعض القيادات غير الكفوءة دوراً معاكساً وسلبياً في علاقتها بالقدرات والكفاءات حينما تعمد إلى تحويلها إلى أصفار عبر ممارسة تحبيطية مستمرة لكل مشروع يتمّ التفكير فيه أو اقتراحه من خارج إطار القيادة، وهي بذلك تتماهى مع دور الثقوب السوداء التي تبتلع أكبر المجرات.

٥- **إقحام الشخصيات غير الكفوءة في المشروع**: يلتصق الكثير من الطفيليين بموقع القيادات وشخصيات الرموز، لأنها تؤمن إليهم غطاء يمررون من خلالها مآربهم الذاتية، ويصنعون لأنفسهم رصيداً معنوياً لا يتمكنون من صنعه إلا عبر هذه الوسيلة، ونتيجة لحسن الظن، أو الساذجة التي تتمثلها بعض القيادات فإنها تسمح لهذه العناصر المتطفلة التي تمارس مهام التشويش والإرباك بأن تلتصق بالمشروع، وربما تسلمها مسؤوليات خطيرة وحساسة في الوقت الذي لا ينبغي لهذه الشخصيات أن تشرك في إدارة العملية التغييرية والإصلاحية.

٦- **عدم معرفة القيادة بتحولات الصفوف الخلفية**: تقصّر بعض القيادات أو الرموز في الاهتمام بالتحولات والتغيرات التي يمكن أن تطرأ على أداء وأوضاع الصفوف الخلفية، وهي تدخل معركة التغيير والإصلاح مكتفية بما أبدته هذه الصفوف من مظاهر ولائية سطحية، يمكن أن تتغير وتنقلب ١٨٠ درجة بمجرد ما تواجه الصفوف الخلفية بعض الصعوبات والتحديات في مساراتها، وقد تحدث علي عليه السلام عن بعض من يتبعونه بالقول: (أو منقادا لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة) [نهج البلاغة، قصار الحكم ١٤٧].

إشكالية بناء الدولة في التجربة العربية الإسلامية

لم تستطع التجربة العربية الإسلامية أن تبني الدولة ضمن مواصفاتها المطلوبة، والقائمة على عناصر ثلاثة هي:

١- الهوية المحدّدة. ٢- الأمن الاجتماعي. ٣- الرفاهية المعيشية.

والسبب في ذلك أن تجربة الدولة العربية الإسلامية بعد انقضاء عهد النبوة ظلّت تتردّد بين محورين من دون أن تثبت نفسها ضمن محور الدولة المستقرة، والمحوران اللذان ظلّت تجربة الدولة تتردّد بينهما هما:

المحور الأول: محور الاستبداد السياسي، فالحاكم يظلم ولا يقوم بمتطلبات العدل السياسي.

المحور الثاني: محور فوضى الجماهير، فالجماهير لا تنتظم وتعجز عن تحقيق متطلبات العدل الاجتماعي.

وضعية الدولة: تتركز التجربة السياسية وتثبت في الأمن والاستقرار والتطور، وتنجح التجربة في التحول إلى دولة حينما ينتظم أداء الجهاز الرسمي (السلطة) ويتناسق مع أداء الجهاز الشعبي (الأمة). وهذا لا يكون إلا حينما يتبادل الطرفان القيام بالحقوق والالتزام بالمسئوليات المشتركة، وهو ما أفصح عنه خطاب الإمام علي عليه السلام عن الحقوق والواجبات، والذي يقول فيه: (فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية. فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى إليها الوالي كذلك عز الحق بينهم فقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجرت على إذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطاب به العيش وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليهم وعلا الوالي الرعية

اختلفت هنالك الكلمة وظهرت مطامع الجور وكثر الإدغال في الدين وتركت معالم السنن فعمل بالهواء وعطلت الآثار وكثرت علل النفوس ولا يستوحش لجسيم حد عطل ولا لعظيم باطل أثل فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار وتخرب البلاد وتعظم تبعات الله عز وجل عند العباد) [نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦].

نتيجة ترنح التجربة السياسية بين محوري الاستبداد والفوضى: ظلت تجربة الدولة العربية تترنح بين محور الاستبداد والظلم الذي تمارسه السلطة في أدائها وعلاقتها بالجماهير، ومحور الفوضى واللانتظام الذي تمارسه الجماهير في علاقتها بالسلطة، وهو ما أفرز ثلاثة تداعيات خطيرة هي:

١- غياب التوافق (وهذا يمثل إشكالية الهوية في التجربة السياسية).
٢- غياب الاستقرار (وهذا يمثل إشكالية الأمن في التجربة السياسية).
٣- غياب الرفاهية (وهذا يمثل إشكالية المعيشة في التجربة السياسية).

وقد رصد رسول الله ﷺ هذه التداعيات بشكل مبكر ودقيق حينما بين أن المصائب تتداعى على الأمة حينما تنحرف عن مسارها الذي رسمه لها الدين، كاشفاً عن أبعاد المحنة التي ستواجهها الأمة في ظل ابتعادها عن علمائها بالقول: (سيأتي زمان على الناس [أمتي] يفرون من العلماء كما يفر الغنم من الذئب، فإذا كان كذلك ابتلاهم الله بثلاثة أشياء: الأول يرفع البركة من أموالهم والثاني سلط الله عليهم سلطانا جائرا، والثالث يخرجون من الدنيا بلا إيمان) [بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٥٤]، وفي هذه الكلمة يشخص رسول الله ﷺ تشخيصاً دقيقاً ومحدّداً المحنة ذات الأبعاد الثلاثة التي كانت بانتظار هذه التجربة الفاشلة، وهي: ١- إشكالية الهوية. ٢- إشكالية الأمن. ٣- إشكالية المعيشة.

وقد أنبأت سيدة نساء العالمين عليها السلام عن ذلك المصير الأسود الذي كان بانتظار التجربة السياسية العربية الإسلامية في بناء الدولة والمجتمع حينما قالت بعد الذي جرى عليها وصار: (وابشروا بسيف صارم وهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا) [الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٣٧٤].

كيف يحتفظ الأقوياء بمركز القرار في السلطة؟

سؤال لا يعرف أهمية الجواب عنه إلا من خبر حيل السياسيين وأساليبهم في الاحتفاظ بالسلطة في كل مرة يحاول الآخرون إخراجهم من دائرتها، أو إبعادهم عنها، وفي ضوء الإجابة على هذا السؤال بالتحديد يمكن تفهم القدرة السحرية التي يمتلكها «الحرس القديم» في البقاء في دائرة الضوء رغم المحاولات العديدة التي يقوم بها الكثير من الأغبياء من أجل سحب البساط من تحت أرجلهم من دون جدوى.

إن معرفتك بخفايا الأمور التي يعجز الآخرون عن فهمها ورصدها والتنبوء بها يتيح إليك المجال على الدوام لأن تبقى في مركز القرار، وقريباً من دوائر النفوذ والسلطة، ويذكرنا القرآن المجيد بقصة نافعة في هذا المجال، يستعيد من خلالها الهدهد دوره وموقعه في عرش سليمان رغم جدية وخطورة التهديد الذي أطاقه النبي سليمان، إذ يقول تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّاۤ يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل: ٢٠-٢٨].

في ظل هذا الأمر يمكن لنا أن نتفهم كيف يخسر المعارضون لسلطة الحرس

القديم الفرصة في إزاحتهم عن السلطة، بينما يحظى الحرس القديم في كل مرة بفرصة جديدة في البقاء في السلطة والتشبث بها أكثر وأكثر، ولأجل ذلك يعني رجال الأعمال بتوجيه النصح لأصحاب المبادرات الجديدة بالحذر من التفاف الحرس القديم في الشركة على مبادراتهم، فيقول «غاري هاميل»: (غالباً ما توجه إلى الشركات نصائح «بحماية» مبادراتها الجديدة من التحكم المفرط من قبل الحرس القديم، خصوصاً عندما يتمّ إنشاء المشاريع الجديدة حول تكنولوجيا منافسة. لكن العزل لمدة طويلة يقضي على أي مشروع يحتاج إلى رفد بالمواهب أو بالأموال، أو الذي يكمل بأي شكل من الأشكال أعمالاً قائمة) [غاري هاميل: ريادة الثورة في الأعمال، ص٣٢١-٣٢٢].

وحينما ينعزل من يريدون تصحيح الأوضاع السياسية في أيّ مجتمع عن مراكز القرار في هذا المجتمع فإنهم يلجأون إلى قلاع وهمية يعتقدون أنها تحميهم من هجمات ونظرات الآخرين، ولكن -وكما يقول روبرت غرين-: (يجادل ما كيافيللي بأن القلعة، بالمعنى العسكري الدقيق، هي غلطة على الدوام. إذ أنها تصبح رمزاً لانعزال السلطة، وهي هدف سهل لأعداء بانيه. فالقلاع المصممة للدفاع عنك إنما تقطعك عملياً عن المساعدة وتقلل المرونة المتاحة لك. فهي قد تبدو منيعة. ولكن عند لجوئك إلى إحداها يصبح الجميع على علم بمكانك، وحتى لو لم ينجح الحصار -ولا حاجة لنجاحه- فإنه يحول قلعتك إلى سجن. والقلاع بمساحتها الصغيرة والمحصورة مكشوفة جداً كذلك لانتشار الطاعون والأمراض المعدية. ومن الناحية التخطيطية الاستراتيجية، لا تقدم عزلة القلعة ايّ حماية، بل هي بالفعل تخلق من المشاكل أكثر مما تحلّ) [روبرت غرين: كيف تمسك بزمام القوة، ص٢١٦-٢١٧].

ولأجل ذلك قال علي عليه السلام: (إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه) [نهج البلاغة، قصار الحكم، ١٧٥]، وهذه أروع كلمة اختصرت متطلبات المواجهة والخروج من دائرة الخوف والتردد.

إدارة النظام وإدارة الفوضى

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء ١٠٥]. وقال الإمام علي عليه السلام: (أيّها الناس، إني والله ما أحثكم على طاعة إلاّ وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلاّ وأتناهى قبلكم عنها) [نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥].

أسوأ ما يواجه أيّ تجربة تطوير وإصلاح أمران: الأول: الاستبداد السياسي من قبل الحاكم وصاحب القرار والسلطة. الثاني: الفوضى وتجاوز متطلبات النظم والانتظام من قبل الجماهير.

وهذان الأمران يتواجدان في تجربة الإدارة الفاشلة التي تدير الفوضى، وينتفيان في تجربة الإدارة الناجحة التي تدير النظام، وقد أوضحهما الخطاب العلوي القائل: (فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية. فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجرت على أذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليها وأجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور وكثر الإدغال في الدين وتركت محاج السنن فعمل بالهوى وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس فلا يستوحش لعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل فعل فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار [وتخرب البلاد] وتعظم تبعات الله عز وجل عند العباد) [نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦]. وقد أفصحت سيدة نساء العالمين عليها السلام عن دور عنصري الاستبداد والفوضى في تدمير نتائج التجربة البشرية حينما قالت: (وابشروا بسيف صارم وهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا، وجمعكم حصيدا) [الأمالي،

الشيخ الطوسي، ص ٣٧٤].

وإذا ما أردنا أن نركز الحديث على متطلبات أداء الرموز والقيادات فإننا سنختصر المطلوب كله في ذلك التميز الرائع الذي يفصل من خلاله بعض الإداريين بين القائد الناجح والقائد الفاشل، بعبارة موجزة جداً، هي (إن الأول يدير النظام، بينما الثاني يدير الفوضى). ولكن ما هي معالم الأسلوب القيادي الناجح والأسلوب القيادي الفاشل؟

هذا ما يحدثنا عنه غازي القصيبي عبر التمييز بين أسلوبين في الإدارة هما الأسلوب الهجومي والأسلوب الدفاعي، وهو ما تمثله المفارقات التالية:

المفارقة الأولى: الإداري الهجومي لا ينتظر القرارات ولكن يستبقها؛ والإداري الدفاعي يحاول أن يبتعد عن اتخاذها.

المفارقة الثانية: الهجومي لا ينتظر حتى تتضخم المشاكل؛ أما الدفاعي فلا يتعامل مع أيّ مشكلة إلا بعد أن تتخذ حجماً يستحيل معه تجاهلها.

المفارقة الثالثة: الهجومي لا يدير المؤسسة من مكتبه ويحرص على أن يكون في الموقع أكبر وقت ممكن؛ أما الدفاعي فلا يغادر مكتبه إلا في المحن والأزمات.

المفارقة الرابعة: الهجومي يعتبر نفسه مسئولاً عن تطوير الجهاز وإصلاحه؛ أما الدفاعي فلا يرى لنفسه مهمة تتجاوز الإدارة اليومية.

المفارقة الخامسة: الهجومي لا يخشى أن يكون موضع جدل، أما الدفاعي فيتجنب كل ما يثير الجدل.

المفارقة السادسة: الهجومي ينفق كل الإعتمادات ويطالب بالمزيد؛ أمّا الدفاعي فيستوي عنده الإنفاق والتوفير.

المفارقة السابعة: الهجومي لا يسمح للمعارضة أن تثنيه عن موقفه؛ أمّا الدفاعي فيتراجع عند نقطة اصطدامه بأول جدار.

المفارقة الثامنة: لعل الفارق الكبير أن الهجومي لا يهمه أن يخسر وظيفته أما الدفاعي فكل شيء يهون لديه في سبيل البقاء في موقعه.

الخطاب القرآني وصناعة أجواء الحرب

احتل الخطاب الحربي في القرآن مساحة واسعة، وقد تضمن هذا الخطاب توجيهات هي بمثابة قواعد ومبادئ للمواجهة الناجحة التي يبتغي الإنسان خوضها، وقد وجه الله تعالى خطابه لرسوله الكريمﷺ بتحريض المؤمنين وحثهم على خوض تجربة الحرب فقال عزّ من قائل: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ [النساء ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال ٦٥]. وحينما يعمل الخطاب القرآني على صناعة أجواء الحرب ودق طبولها فهو يستهدف تحقيق المتطلبات التالية:

١- **الاستنفار الدائم**: من المهم بقاء الإنسان في حال استنفار دائم في مواجهة العدو الذي يتربص به الدوائر، وينتظر الفرصة السانحة للانقضاض عليه، وهو ما يستدعي مزيداً من اليقظة والتنبه الدائم، ولذلك قال عليعليه السلام: (انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف وتبوؤوا بالذل ويكون نصيبكم الأخس، وإن أخا الحرب الأرق، ومن نام لم ينم عنه) [ميزان الحكمة، الريشهري ج ١، ص ٥٦٣].

٢- **الوعي بأن الحياة معركة**: منذ اللحظة الأولى التي خلق فيها الإنسان على وجه هذه البسيطة وهو في حال عداء واستعداء ضد أخيه الإنسان، وهو ما أفصح عنه تعالى بقوله: ﴿... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة ٣٦]، ومن المهم أن يعرف الإنسان قواعد المعركة التي لا

مناص له من خوضها، ولا شك أن فهم قواعد الحروب عبر تذكيره بها هو أهم ما يعينه على الانتصار في معاركه ضد النفس والهوى والشيطان.

٣- **إتقان قواعد النجاح في معارك الحياة**: والتي يستلهمها الإنسان من خوضه الحروب والمعارك العسكرية، ومن خلال تجاربه في هذا المجال يستخلص القواعد التي يدير بها المعارك الأخرى في الساحات الأخرى، وهذا ما يوضحه هذا الحديث، والذي يقول: (قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس. ثم قال صلى الله عليه وآله: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه).

٤- **تأصيل منطق الجهاد في حركة الأمة**: ففي كتاب تهذيب الأحكام: (عن جعفر بن حفص بن غياث قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجهاد، أسنة هو أم فريضة؟ فقال: الجهاد على أربعة أوجه: فجهادان فريضة، وجهاد سنة لا يقام إلا مع فرض، وجهاد سنة، فأما أحد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصي الله وهو من أعظم الجهاد، ومجاهدة الذين يلونكم من الكفار فرض، وأما الجهاد الذي هو سنة لا يقام إلا مع فرض، فإن مجاهدة العدو فرض على جميع الأمة، ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب، وهذا هو من عذاب الأمة، وهو سنة على الإمام، وحده أن يأتي العدو مع الأمة فيجاهدهم، وأما الجهاد الذي هو سنة، فكل سنة أقامها الرجل وجاهد في إقامتها وبلوغها، فالعمل والسعي فيها من أفضل الأعمال لأنها إحياء سنة) [مشكاة الأنوار، الطبرسي، ص ٤٣١-٤٣٢].

٥- **العمل على إحقاق الحق وإزهاق الباطل**: وهي غاية لا يسع الإنسان المؤمن برسالته ودينه إلا أن يظل يعمل ويكدح من أجل تحقيقها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٧-٨].

خيارات إصلاح الوضع القيادي الديني

(قال رسول الله ﷺ: العلماء كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر).

حينما نحاول البحث في الخيارات المتاحة أمام القوى الراغبة في إصلاح وتطوير وضع القيادات في المؤسسة الدينية فسنجد أن المتاحات أمامنا تتمثل في خيارات ثلاثة محددة ومحدودة هي:

الخيار الأول: بناء المؤسسة العلمائية، والتي لم تتشكل بوصفها مؤسسة ذات إطار محدد ومنهجية مشخصة، وإنما ظل العلماء حتى القيادات منهم يتحركون ويعملون كحالة تفتقد طابع التنظيم ومتطلبات العمل المؤسساتي، وهو الأمر الذي ساهم في تضييع الكثير من الفرص، والوقوع في العديد من الخسائر، وهو ما يجعل البعض يعتقد بضرورة تحويل الحالة العلمائية في القيادة وإدارة المجتمع إلى مؤسسة منتظمة لها طابعها الخاص والمتميز، والقادر على تطوير أداء المجاميع البشرية التي تؤمن بالرموز العلمائية، وتؤمن بضرورة الحراك من ورائها وإتباع توجيهاتها.

وبطبيعة الحال إن هذا الخيار في الوقت الذي يراه البعض ضرورة لا مناص من تحقيقها إذا ما أردنا انتشال وضع القيادات العلمائية من طابع الفوضى في الأداء، والتضارب في المشاريع، والاختلاف في تحديد الأولويات، فإن البعض الآخر يعتقد أن هذا الخيار قد ينطوي على مخاطر غير يسيرة على مستقبل استقلال الحالة العلمائية وتجردها عن سيطرة السلطة الحاكمة والمسار الرسمي في الدولة.

الخيار الثاني: ضرورة العمل على تهميش وتجاوز هيمنة القيادات التقليدية وإحلال بدائل جديدة محلها، على أساس أن هذه القيادات قد غدت غير قادرة على

القيام بمتطلبات العمل الفاعل، ولاسيما السياسي، فهي تعجز عن متابعة ومقاربة التطورات والتغيرات المتسارعة في الساحة، نتيجة افتقادها الآليات التي تتواصل من خلالها مع متغيرات الساحة، وتكون قادرة على فهمها والتفاعل معها وإدارتها بما يخدم تحقيق المصالح المرجوة للجماعة. ويتجذر هذا الإشكال حينما نعثر على تخلفات كبيرة ومرئية للعيان في أداء القيادات العلمائية المبرّزة في الشأن الثقافي والفكري، فهي لا تتوفر أصلاً على مشروع تغييري، ومازالت تحاول تسيير شؤون الساحة من شعارات ضبابية مبهمة لا ترقى لأن تمثل مشروعاً طموحاً له معالمه الخاصة ومحدداته المتميزة.

ورغم أن هذا الخيار له ما يبرر الاندفاع باتجاهه، لكن عملية القيادة وتوجيه الرأي العام باتجاه شخوصها ورموزها لا تخضع دائماً لما ينبغي ولما هو مطلوب في هذا الشأن، بل هي تجري وفق قناعات جماهيرية قد تبتعد في كثير من الأحيان عن مقتضيات التعقل ومراعاة المصالح بتجرّد ونزاهة.

الخيار الثالث: ضرورة إقناع الرموز الكبيرة وإشراكها في الوعي بمتطلبات الإصلاح في داخل المؤسسة الدينية نفسها، وأولى الأولويات إصلاح وضع القيادات والرموز، وهو جهد غير ميسور التحقق إلا من خلال محاولات دؤوبة لابد أن يبدلها المخلصون والمعنيون بالشأن الديني بشكل عام، ووضع القيادات والرموز الدينية بشكل خاص، من أجل تحريكها واستثارة أفكارها وتفاعلها مع هذا الخيار.

ويعتمد هذا الخيار -كما هو واضح- على ضرورة مساهمة نفس القيادات البارزة في الساحة في مشروع التغيير والتطوير لأدائها، إذ لا يمكن أن يأتي مشروع التطوير والتغيير مفروضاً عليها، لأنها في هذه الحالة إما أن ترفضه كلياً، أو أن تعيقه جزئياً، وفي كلا الحالين سيتلكأ المشروع ولن يتمكن من تحقيق أهدافه، بل سيكون مجرّد سبب لإثارة الأحقاد والضغائن، وإرباك الساحة بمزيد من التشتت والتضارب في الآراء والمواقف، وهو ما لا ينبغي جرّ الساحة إليه، ولا هي تحتمله.

أعمدة الاستبداد السياسي

يقوم الاستبداد السياسي على عدة أعمدة تشكل بمجموعها أجزاء الصورة الاستبدادية للحكم الشمولي المطلق، ولعل نموذج الحكم الفرعوني الذي بالغ القرآن الكريم في الحديث عنه يعدّ المثال الأفضل والأكمل لهذه الصورة من حيث توفره على جميع أعمدة الحكم الاستبدادي، وهي:

أولاً: الأعمدة التأسيسية: وتتمثل في العناصر التالية:

١- **فرعون: استبداد السلطة**: وفيه قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٤].

٢- **هامان: استبداد الإدارة**: وورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص ٣٨].

٣- **قارون: استبداد الثروة**: وذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

وتم ذكر هؤلاء الثلاثة معاً في قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ

جاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت ٣٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

ثانياً: **الأعمدة التكميلية**: وتتمثل في العناصر التالية:

٤- **السحرة: استبداد الإعلام وطيف البهرجة الإعلامية**: وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٦].

٥- **بلعم بن باعورا: استبداد المشروعية**: وفيه يقول تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّ ٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

٦- **الغوغائيون: استبداد فوضى الجماهير**: وفيهم قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥)﴾ [الزخرف: ٥١-٥٥].

٧- **الجيش: استبداد القوة وقدرات القمع والتنكيل**: وفيهم قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ [القصص: ٣٩-٤٢].

العلاقة بين الفكر والممارسة في بناء النظام السياسي

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٠].

يتشكل النظام السياسي من عنصرين:

الأول: فكر سياسي متطور قادر على استيعاب متطلبات كل مرحلة زمنية يعايشها ويتحرك في أجوائها.

الثاني: ممارسة سياسية منتظمة قادرة على تطوير الأداء العملي للسلطة بما تقتضيه المصالح العامة للمجتمع.

وعدو هذين العنصرين المانع من تشكيل النظام السياسي هما:

أولاً: اختلالات الفكر السياسي التي تفتقد قدرات التركيب التي تصيغ من الفكر رؤية منسجمة ومتناسقة في أبعادها وحدودها.

ثانياً: اختلالات الممارسة السياسية التي تعكس اختلالات التفكير في المرحلة السابقة مما يولد حالة من اختلال النظم في الأداء الكلي للسياسي.

عقدة التفكير السياسي: يتواصل بناء النظرية ببناء الممارسة، والعكس صحيح، فالنظرية السياسية الموجهة تؤسس لممارسة سياسية ملتزمة، والممارسة السياسية الملتزمة تكشف عن نظرية سياسية موجهة، وعقدة التفكير السياسي أن يعتمد التوفر على قدرات تفكيكية من دون أن تكون له قدرات تركيبية، والحال أن أهم ما يتطلبه بناء النظام -سياسياً كان أم غيره- هو التوفر على قدرات تركيبية، لأن

جوهر النظام هو البناء والتنسيق والدمج، وهذه كلها تستدعي تفكيراً تركيبياً لا تفكيكياً، ومن أجل ذلك يرتبط الاستبداد السياسي في أيّ مجتمع بوصفه إخلالاً بالمطلوب في الممارسة السياسية العملية، بالعبثية الفكرية بوصفها إخلالاً بالمطلوب في البناء النظري للفكر السياسي، وهكذا ينشأ رباط وثيق بين الاستبداد السياسي والفوضى الفكرية على أساس أن كلاً منهما يمثل إخلالاً بالنظم.

الخطاب القرآني يوضح الفكرة: ما نلحظه في الآيات المتقدمة من سورة الشعراء أن الذكر الحكيم يستعرض مظاهر الفوضى التي تحكم علاقة قوم عاد بالرسالة التي جاءت من الله تعالى، وحمّل مسؤولية إبلاغها إليهم نبي الله هود عليه السلام، وفي الوقت الذي تمثل الرسالة الإلهية في جوهرها نظما إلهياً وانتظاما تشريعيا، تستدعيهما وتقتضيها الطبيعة المدنية والاجتماعية للحياة البشرية، فإن قوم هود يرفضون هذه الرسالة ويكذبونها كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وتكذيب الرسالة من قبل عاد قوم هود يتمظهر في الإسراف الذي ينال:

أولاً: توجيه قدراتهم الفكرية: والتي تتوجه وجهة عبثية لا تبتغي هدفاً ولا تقصد مطلوباً، وقد حكى تعالى هذا البعد في قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾.

ثانياً: توجيه قدراتهم النفسية: والتي تتحرك ضمن مسارات غير سوية لا تنشأ إلا من توهمات وأهواء النفوس المريضة، وقد حكى تعالى هذا البعد في قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

ثالثاً: توجيه قدراتهم العملية: والتي تندفع في ممارسات طاغية تتصف بالتجبر والقهر والاستبداد، مبتعدة عن روح العدل والرفق والرحمة المطلوبة في الممارسة والفعل، وقد حكى تعالى هذا البعد في قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾. وهذه الأبعاد الثلاثة مدارها العدل والاعتدال كما بيّن علي عليه السلام في قوله: (الفضائل أربعة: أولها الحكمة وقوامها في الفكر، وثانيها العفة وقوامها في الشهوة، وثالثها القوة وقوامها في الغضب، ورابعها العدل وقوامه في الاعتدال) [الكراجكي، معدن الجواهر، ص٤٠].

آثار المحبة الإلهية في النفس البشرية

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ...﴾ [البقرة ١٦٥].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة ٥٤].

أسمى نوع من أنواع العلاقات هو ذلك الذي يحركه الحب، فلا تستهدف العلاقة مصلحة أو غاية، بل هي تنشأ لأن العاشق يجد في المعشوق كل رغبته ومناه، فينسى نفسه لأجل ما يحب، ويذهل عن شأنه لأجل ما يهوى، وحينما يسيطر الحب على العلاقة القائمة بين المحبين ينجذب العاشق إلى المعشوق، ويجد نفسه رهن إشارته وطوع بنانه، فلا يخالف له أمراً، ولا يعصي له نهياً، وحينذاك يصنع الحب المعجزات في حياة الإنسان، ويعطيه من الطاقة والقدرة ما يفعل به العجائب والغرائب، ويتجاوز من خلاله حدود المألوف والمعروف. وهذه نبذة يسيرة من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام في الحب الإلهي، الذي يمثل أعلى وأسمى درجات الحب في حياة ووجود الإنسان المؤمن بالله تعالى:

(قال علي عليه السلام: من أحب أن يعلم كيف منزلته عند الله؟ فلينظر كيف منزلة الله عنده فان كل من خير له أمران: أمر الدنيا وأمر الآخرة فاختار أمر الآخرة على الدنيا، فذلك الذي يحب الله، ومن اختار أمر الدنيا فذلك الذي لا منزلة لله عنده.

وقال الصادق عليه السلام: القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله).

مسكن الفؤاد للشهيد الثاني رفع الله مقامه: في أخبار داود عليه السلام **يا داود أبلغ** أهل أرضي أني حبيب من أحبني، وجليس من جالسني، ومونس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني أحد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسي، وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ومؤانستي، وآنسوني اؤنسكم، واسارع إلى محبتكم. وأوحى الله إلى بعض الصديقين أن لي عبادا من عبيدي يحبوني واحبهم ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، فان أخذت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك. قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، ونصبت الأسرّة، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إلى أقدامهم، وافترشوا إلي وجوههم، وناجوني بكلامي وتملقوني بأنعامي، مابين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملوني من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي. أول ما أعطيهم ثلاثا: الأول أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما اخبر عنهم، والثاني لو كانت السماوات والأرضون وما فيهما من مواريثهم لاستقللتها لهم، والثالث أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت عليه بوجهي يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟

(أعلام الدين للديلمي: روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب أخبرني عن آية رضاك عن عبدك، فأوحى الله تعالى إليه: إذا رأيتني أهيئ عبدي لطاعتي وأصرفه عن معصيتي، فذلك آية رضاي. وفي رواية أخرى: إذا رأيت نفسك تحب المساكين، وتبغض الجبارين فذلك آية رضاي).

[مصدر الأحاديث: بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٧٦، ص ٢٥-٢٦].

المفهوم القرآني للتنمية بين التنمية الكمية والتنمية الكيفية

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل ١١٢].

مفهوم التنمية: التنمية ممارسة تطويرية للقدرات والإمكانيات المتاحة في سبيل توظيف الموارد المختلفة في الارتقاء بوضع الفرد والمجتمع والدولة إلى الأفضل والأحسن في مختلف الأصعدة والمجالات.

حركة التنمية: تتحرك التنمية باتجاهين:

اتجاه كمي: يتقوم بالفهم الكمي العددي للتنمية باعتبارها مراكمة للمنافع المادية واستزادة غير محدودة منها، فتتركز الجهود المبذولة في هذا الاتجاه على الاستكثار من المصالح المادية الدنيوية.

اتجاه كيفي: يتقوم بالفهم النوعي والمعنوي للتنمية، على اعتبار أنها وظيفة يطور الإنسان من خلالها أداءه في مختلف المجالات الإنسانية التي ينتظر منه أن يحرز تقدماً ونمواً فيها، بما يتناسب وقيمه الإنسانية.

أقسام التنمية: في ضوء التفريق المتقدم تنقسم التنمية إلى قسمين:

تنمية بسيطة: وهي التي تأتي في سياق منفصل عن التنمية الكيفية، وقد ضرب الله عزّ وجل لها العديد من الأمثال، منها قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١-٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: ١-٣] وقوله عزّ اسمه: ﴿... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة ٣٤].

تنمية مركبة: وهي التي تأتي في سياق متصل بالتنمية الكيفية، وهي التي مدحها وحظّ عليها الذكر الحكيم، وذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. . .﴾ [الأعراف ٩٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ. . .﴾ [المائدة ٦٦]،

خيارات التنمية: يمكننا تحديد خيارات ثلاثة للتنمية:

تنمية كمية مجردة: وهذه تستهدف تحريك كل طاقات الإنسان وقدراته باتجاه المادة، وتسخير كل إمكانياته في سبيل هذه الدنيا واللهث وراء سرابها، وقد بين الله تعالى أن هذا خيار خاطئ في التنمية، على الإنسان الحذر من الوقوع في شراكه، مهما بدى مغرياً، فقال سبحانه: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران ١٧٨]، وقال جلّ جلاله: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران ١٨٠].

تنمية كيفية مجردة: وهي تعمل على تحفيز قدرات الإنسان ضمن البعد الأخروي متناسية الاهتمام ببقية الأبعاد في حياة ووجود الإنسان، وفي نقد هذا التوجه التنموي الناقص قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٣٢].

تنمية اندماجية مركبة: وهي تعمل على المزج بين الكم والكيف في منهجها التنموي قاصدة تطوير وتزكية الإنسان في مختلف شؤونه الدينية والدنيوية، وأحسن مثل ضربه تعالى لهذا النوع من التنمية قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٢].

استمرار آلية المقاومة
شرط انتصار الضعيف على القوي

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف ١٣٧].

تفكيك النص القرآني: في هذا النص القرآني المبارك نجد ثمة ثلاثة عناصر أساسية، تشكل مجموع الصورة التي أراد هذا النص رسمها، وهي:

العنصر الأول: وراثة القوم المستضعفين لمشارق الأرض ومغاربها.

العنصر الثاني: آلية الانتصار التي لجأ إليها هؤلاء المستضعفون وهي الصبر وتحمل الأذى.

العنصر الثالث: تدمير ما كان يصنع فرع وقومه وما كانوا يعرشون.

إعادة تركيب النص القرآني: بعد أن عمدنا إلى تفكيك عناصر النص القرآني من أجل فهم كل واحد على حده، نعود لتركيبها لنخرج برسم واقعي للصورة يتطابق مع أهدافها ومتطلباتها كما أرادها النص، وباعتقادنا أن السؤال المهم الذي ينطوي عليه هذا النص، والذي تمثل الإجابة عنه الإطار للصورة التي يريد النص وضعها بداخله يتمثل في السؤال التالي:

كيف يكسب المستضعفون معاركهم مع المستكبرين؟

وقبل الإجابة على السؤال لا بد أن نشير إلى أن تعبيري الاستضعاف والاستكبار اللذين يستخدمهما القرآن الكريم للإشارة إلى اختلال موازين القوى بين طرفين، هما أكثر فصاحة وبلاغة من تعبيري القوي والضعيف، لأن القوة والضعف

تتحدث عن هاتين الصفتين وكأنهما حالتان ذاتيتان في الشخص الموصوف بهما، والحال أن كل قوي فيه نقطة ضعف مهما بلغت قوته، وكل ضعيف فيه عنصر قوة مهما بلغ ضعفه، ولذلك فالإنسان يفتعل الضعف حينما يركز كل نظره على عناصر الضعف فيه في معركته مع الآخر، كما أنه يفتعل القوة حينما يركز كل نظره على نقاط القوة المتوفرة لديه، وهو ما أراد القرآن بيانه من خلال استخدام صيغة الاستفعال في التعبير عن الاستكبار والاستضعاف، ليشير من خلال ذلك أن بإمكان الضعيف تحويل ضعفه إلى قوة إذا التزم شرائط محددة، كما أن القوي يمكن أن يفتقد مظهر القوة إذا افتقد الالتزام بشرائط معينة، وهذا ما عناه الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: (الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه) [نهج البلاغة، الخطبة ٣٧].

عنصر القوة في حركة المستضعفين: نصل من خلال ما تقدم إلى استنباط نقطة القوة في حركة المستضعفين، والتي تتمثل في صبرهم وتحملهم، وهو جوهر روح المقاومة، فالمقاومة لا تعني الاستسلام والخضوع والركون، ولكنها تعني أنني حينما افتقد القدرة على المواجهة المباشرة لقلة العدة أو العدد أو افتقاد الظرف المناسب، أن أتحرك بصمت وبذكاء من أجل اكتشاف نقاط الضعف في الطرف المستكبر، والعمل على تضخيم نقاط الضعف حتى تضعف أداءه، ويتمكن منه الضعيف، وهكذا يتحول الصبر إلى تخطيط لكسب المعركة ولكن في المستقبل وفي نهاية المطاف، وهو ما يتضمنه مبدأ التقية بوصفه استراتيجية ذكية لإدارة المعركة في ظل اختلال موازين القوى بين الطرفين وانعدام فرص التكافؤ، فالتقية التي تحمل معنى الصبر على الأذى والتظاهر بالاستسلام هي في جوهرها خدعة يمارسها الأذكياء المستضعفون تحيناً لفرصة الانقضاض، وهي نفس الصورة التي يرسمها حيوان الأبوسوم (عندما يتظاهر بالموت فإنه يمارس لعبة التغابي. لذا فإن كثيراً من الحيوانات المفترسة تتركه وشأنه. فمن يمكن أن يعتقد أن مثل هذا المخلوق القبيح الغبي العصبي الضئيل يمكن أن يقدر على هذا الخداع؟) [روبرت غرين: كيف تمسك بزمام القوة، ص٢٦٢].

كيف يمارس الساسة صناعة الإرباك؟

هناك جملة أساليب يمارسها الساسة من أجل إفشال المشاريع التي تقف في مواجهة مشاريعهم، وكلها تندرج تحت صناعة الإرباك الذي يتقن الساسة فنه وقواعده، في الوقت الذي لا يفقه البسطاء من الناس مجرياته، لذلك يقعون في حبائله وينساقون إليه من دون شعور منهم بخطورة نتائجه وتداعياته على معركتهم مع أعدائهم، ويهمنا أن نعرض إلى عدة مواقف تاريخية في مجال صناعة الإرباك وإفشال المشاريع:

١- **ابن زياد في الكوفة**: وهذا ما فعله ابن زياد حينما دخل الكوفة وأفشل مشروع ابن عقيل والجماعة المؤمنة بعد أن كان الوضع يسير لصالحهم، إذ يقول الشيخ المفيد في الإرشاد: (وأقام الناس مع ابن عقيل يكثرون حتى المساء وأمرهم شديد، فبعث عبيد الله إلى الأشراف فجمعهم، ثم أشرفوا على الناس فمنوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوفوا أهل العصيان الحرمان والعقوبة، وأعلموهم وصول الجند من الشام إليهم. وتكلم كثير حتى كادت الشمس أن تجب، فقال: أيها الناس الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهدا: لئن قمتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلتكم في مغازي الشام، وأن يأخذ البريء بالسقيم والشاهد بالغائب، حتى لا تبقى له بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جنت أيديها. وتكلم الأشراف بنحو من ذلك، فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرقون، وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول: غدا يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف، فيذهب به فينصرف).

٢- **الخوارج في صفين**: وفي حرب صفين حينما أوشك جيش معاوية أن يهزم ابتدع عمرو بن العاص تلك الفكرة الشيطانية التي أربكت جيش علي عليه السلام وأضاعت كل جهوده المضنية، فأمر برفع المصاحف على رؤوس الرماح داعياً إياهم إلى الاحتكام إلى كتاب الله تعالى، وفي الإرشاد يقول الشيخ المفيد: (ومن كلامه عليه السلام حين رجع أصحابه عن القتال بصفين، لما اغترهم معاوية برفع المصاحف فانصرفوا عن الحرب: لقد فعلتم فعلة ضعضعت من الإسلام قواه، وأسقطت منته [أي قوته]، وأورثت وهنا وذلة. لما كنتم الأعلين، وخاف عدوكم الاجتياح، واستحر بهم القتل، ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف ودعوكم إلى ما فيها ليفثؤوكم [أي يكسروكم] عنهم، ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم، ويتربص بكم ريب المنون خديعة ومكيدة. فما أنتم إن جامعتموهم على ما أحبوا، وأعطيتموهم الذي سألوا إلا مغرورون. وأيم الله، ما أظنكم بعدها موافقي رشد، ولا مصيبي حزم) [الإرشاد، المفيد ج١، ص ٢٦٨].

٣- **المرجفون في المدينة**: وقد أنزل الله تعالى في شأن المرجفين الذين يشيعون الأكاذيب ويخوفون الناس ويهولون صغائر الأمور قرآنا صريحاً يتوعدهم بالعذاب، فقال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢]، وقد بيّن الباري تعالى للمؤمنين الموقف اللازم اتخاذه تجاههم بالقول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥] .

دور القيادة في تطوير المهارات الإدارية للأفراد والجماعات

في (الخبر المشهور عن علي وهو أشجع البشر: كنا إذا اشتد البأس وحمى الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ ولذنا به) [ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٣، ٢٧٩]. تتطور المهارات الإدارية للأفراد والمجتمعات ضمن شكل هرمي نسميه «هرم التطور الإداري»، وتمارس القيادات الملهمة والناجحة دوراً أساسياً في تطوير مهارات التجربة البشرية التي تديرها على مستوى الأفراد والجماعات، وهذا ما نلحظه بشكل واضح في تجربة رسول الله ﷺ الذي تحرك ضمن محاور أربعة من أجل تطوير التجربة البشرية التي قادها، وتلك المحاور هي:

١- **إدارة الحروب والمعارك (تقنيات الإدارة العسكرية)**: وهي البداية الطبيعية التي رغم مرارتها لا مناص من أن تخوضها المجتمعات من أجل أن تتقن قواعد الإدارة ومبادئها، ومن هنا خاطب القرآن الكريم الرسول الأكرم ﷺ بالقول: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ [النساء ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال ٦٥]، وهنا تحدث القرآن الكريم عن النظام بوصفه المبدأ الأساس في كسب المعارك والنجاح فيها فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف ٤].

٢- **إدارة المجتمع والدولة (تقنيات الإدارة السياسية)**: وتقنيات الإدارة السياسية تؤسس نظرياً وتستلهم عملياً من قواعد النجاح في إدارة المعارك

والحروب، وهو ما شهدناه في التجربة الأوروبية الغربية الحديثة التي طورت نظمها السياسية الديموقراطية من خلال الاستفادة من الخبرات الإدارية التي راكمتها الحروب، ولاسيما الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومن هنا أرشدنا الله تعالى إلى الخير الكثير الذي يمكن أن تنطوي عليه المعارك والحروب، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢١٦]، وفي ضوء المعارك والحروب أصل القرآن الكريم مبدأ العدل كأول وأهم مبدأ إداري ينبغي أن ينطلق الإنسان منه في كل شؤونه ابتداء من قاعدة هرم الممارسة الإدارية إلى رأسه، فقال سبحانه مرشداً إلى هذا الأصل الأصيل: ﴿. . . وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة ٢]، فمن يتمكن من انتهاج العدل مع أعدائه أولى أن يتمكن من انتهاجه مع أفراد مجتمعه وأتباعه، ولذا كان العدل منهجاً لا يجوز الاستثناء فيه والتخلف عنه مع كل الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [النساء ٥٨].

٣- **إدارة الشركات والمؤسسات (تقنيات الإدارة العامة)**: ونلمح إشارة قوية وصريحة يوجهها الذكر الحكيم لرسول الله ﷺ في ضرورة التعامل مع المؤسسة ضمن قواعد إدارية صارمة ومحددة، فيقول في مجال التمييز بين الأدوار الإيجابية والسلبية التي يمكن أن تقوم بها أول وأقدس وأعظم مؤسسة في الإسلام، وهي المسجد: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ

قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

٤- إدارة المعلومات والأفكار (تقنيات إدارة المعرفة): وفي هذا المجال يكفينا تلك الإشارات والعبارات المتكررة التي يفصح فيها القرآن الكريم عن أكبر المهام المعرفية التي يتحملها الرسول الأكرمﷺ في مجال تنمية وتطوير الأداء المعرفي للمجتمع عبر تلاوة الكتاب وتعليم الحكمة، فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة ٢].

فن التواصل
منهجيات إسلامية في إدارة العلاقات الثنائية

يعتمد استمرار وارتقاء مبدأ التواصل بين الأفراد والجماعات على توفر جملة من المنهجيات تتحكم في إدارة العلاقات الثنائية بين الأطراف المختلفة، وقد عنى الإسلام ببيان الكثير من هذه المنهجيات، وأهمها:

المبدأ الأول: تواصل مع الآخرين من خلال ما يستوعبونه ويمكن لهم أن يفهموه، وفي ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: (ما كلم رسول الله صلى الله عليه وآله العباد بكنه عقله قط، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنا معاشر الأنبياء امرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم) [الكافي، الشيخ الكليني ج ١، ص ٢٣]

المبدأ الثاني: ألن الكلام وأحسن القول، وفي ذلك يقول تعالى فيما أمر به موسى وهارون حينما بعثهما إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٤]، وكمبدأ عام يأمرنا الله عزّ وجلّ بحسن القول مع كل الناس، إذ يقول: ﴿. . . وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً. . .﴾ [البقرة ٣٨].

المبدأ الثالث: لا تقل ما ينكره الآخرون ولا تقبله نفوسهم، وفي هذا الشأن ينصح الإمام السجاد عليه السلام الزهري بالقول: (إياك وأن تعجب من نفسك، وإياك أن تتكلم بما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره، فليس كل من تسمعه شرا يمكنك أن توسعه عذرا) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٧١، ص ١٥٥-١٥٧]، وعن (رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تحدثوا أمتي من أحاديثي إلا بما تحمله عقولهم. وعنه صلى الله عليه وآله: ما أنت محدث حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة) [ميزان الحكمة، محمدي الريشهري ج ١، ص ٥٥٠].

المبدأ الرابع: استخدم كل مظاهر الهدوء النفسي أثناء تواصلك مع الآخرين، فالصوت الهادئ هو علامة على هذا الهدوء الداخلي النفسي، والابتسامة المشرقة على شفتيك تعطي انطباعاً إيجابياً عن شخصيتك مما يعزز من إمكانيات التواصل والتفاهم، وقد أوصى لقمان الحكيم ابنه بالقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

المبدأ الخامس: استخدم الأسلوب المناسب لتوصيل أفكارك ورغباتك بما فيها تجسيد الفكرة كصورة وكممارسة عملية تغنيك عن كثير من القول، ففي قضايا الإمام الكاظم عليه السلام يروى (إنه كان بالمدينة رجل من ولد عمر بن الخطاب يؤذيه ويشتم عليا (صلوات الله عليه)، وكان قد قال له بعض حاشيته: دعنا نقتله. فنهاهم عن ذلك أشد النهي، وزجرهم أشد الزجر، وسأل عن العمري، فذكر له أنه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه في مزرعته فوجده فيها، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمري: لا تطأ زرعنا، فوطأه بالحمار، حتى وصل إليه، فنزل وجلس عنده، وضاحكه، وقال له: كم غرمت في زرعك هذا؟ قال له: مائة دينار. قال: فكم ترجو أن تصيب فيه؟ قال: لا أعلم الغيب. قال: إنما قلت لك: كم ترجو فيه؟ قال: أرجو أن يجيئني مائتا دينار. قال: فأعطاه ثلاثمائة دينار، وقال: هذا زرعك على حاله. قال: فقام العمري فقبل رأسه، وانصرف. قال: فراح إلى المسجد فوجد العمري جالسا، فلما نظر إليه قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته. قال: فوثب أصحابه فقالوا له: ما قصتك؟! قد كنت تقول خلاف هذا! فخاصمهم وسابهم، وجعل يدعو لأبي الحسن موسى عليه السلام كلما دخل وخرج. قال: فقال أبو الحسن موسى عليه السلام لحاشيته الذين أرادوا قتل العمري: أيما كان أخير: ما أردتم أو ما أردت؟ أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار) [دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري (الشيعي) ص ٣١١].

منهجية بناء المنطق الجمعي العاقل

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ ٤٦].

المنهجية الأساسية لبناء المنطق الجمعي: تقوم الرؤية الأساسية للقرآن في محاولة بناء المنطق الجمعي على دعوة صريحة للتفكر والتأمل قبل اتخاذ المواقف وتكوين الرؤى، وهذا ما أفصحت عنه الآية المتقدمة التي اختزلت كل الموعظة الإلهية في مطلب واحد هو القيام لله مثنى وفرادى ثم التفكر.

مجالات بناء المنطق الجمعي: الدعوة الإلهية تستهدف تحديد أنماط التفكير الصحيح وجمع الناس كلهم عليها من أجل بناء منطق جمعي يحكم ويؤطر وجود الجماعة المؤمنة في مجالات ثلاثة هي:

المجال الأول: الفاعلية العقلية: وتقوم على مبدأ أصيل يتمثل في الوحدة العقيدية التي عناها تعالى بقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٩٢].

المجال الثاني: الفاعلية الشعورية: وتقوم على مبدأ التساوي بين كل الخلق وأن لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى، وفي ذلك يقول عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات ١٣].

المجال الثالث: الفاعلية العملية: وهي ناتج طبيعي للتوحد في المجالين السابقين، وهي التي تحكي عنهما، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف ٤].

معيقات بناء المنطق الجمعي الواعي: اهتم الإسلام كثيراً بالإفصاح عن المعيقات التي تعيق بناء منطق جمعي عاقل وحذر المسلمين أشد الحذر من التلبس بهذه المعيقات أو السماح بها، وقد عنى القرآن الكريم ببيان هذه المعيقات التي تجزأ منطق الجماعة الواحدة وتشتت اهتمامها من خلال قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (٤) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ (٦) وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٨) وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (١٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (١٣)﴾ [الحجرات: ١-١٣].

مغاليق التفكير المنطقي

التفكير المنطقي تفكير يعتمد الموضوعية والربط بين الأسباب والمسببات في التوصل إلى النتائج الفكرية، ولكن الإنسان كثيراً ما يصادر هذا التفكير المنطقي عبر حبسه في العديد من الصناديق وإغلاقها عليه، وهذه الصناديق التي تمثل مغاليق للفكر المنطقي عنى القرآن الكريم بالكشف عنها، وأهمها:

١- **إتباع الهوى**: ولإتباع الهوى دوره في الصد عن الحق في المسارين الفردي والاجتماعي، ففي المجال الفردي قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص ٢٦]. وقال تعالى في مجال النهي عن إتباع الهوى في سياق التجربة الاجتماعية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء ١٣٥].

٢- **الخشية من إتباع الحق والقيام بمستلزماته**: وفي هذا الشأن يتحدث القرآن بالقول: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص ٥٧].

٣- **افتعال معايير غير منطقية**: وهذا ما حكاه الذكر الحكيم حينما كشف عن المبررات التي أثارها البعض من المشركين لرفض الإيمان بالرسالة وتصديق الرسولﷺ، فقد قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُوا۟ لَوْلَا

نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٥].

٤- الاستعجال وعدم التريث في نقل الأخبار: وهو ما حذرنا الله تعالى من الوقوع فيه عبر قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١١-١٧].

٥- **سوء الظن وتفعيل الوهم في الحكم على الأمور**: وهو ما نهى الله تعالى عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ...﴾ [الحجرات ١٢].

٦- **التطير وسيطرة الهواجس النفسية على تفكير الإنسان**: وقد أفصح الباري عزّ وجلّ عن بعض تلك النماذج البشرية التي تتحكم هواجسها النفسية في علاقتها بالرسالة الإلهية بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعـــراف: ١٣٠-١٣١].

صناعة الإرباك الاجتماعي

صناعة الإرباك الاجتماعي مهنة يتقنها الكثير من الناس ممن يعملون على إرباك الساحة الاجتماعية بشكل أو آخر، وهذه المهمة تتعدد دوافعها، ومن الناس من يقوم بها من دون وعي بتداعياتها وتأثيراتها، وهناك من يقوم بها من أجل تحقيق أهداف مقصودة يجنيها من وراء إرباك الساحة وخلط الأوراق فيها، وصناعة الإرباك مهنة يشترك في تحقيقها عدة أشخاص من خلال ممارسة أدوار ثلاثة رئيسية:

الدور الأول (مهام التخطيط): وتنجزها عناصر تقوم بالتخطيط لإرباك الساحة عبر التفكير الشيطاني الخبيث.

الدور الثاني (مهام الإثارة): وتحركها عناصر تستهدف الإثارة وتهييج الوضع عبر إطلاق الشائعات وتناقلها.

الدور الثالث (مهام التنفيذ): والتي تتحرك من خلالها العناصر المنفذة لتحقيق الغايات النهائية لمهمة الإرباك التي تستهدف إضعاف المجتمع وتشتيت توجهاته.

وفي هذا الشأن يحدثنا القرآن عن «صناعة الإرباك الاجتماعي» بوصفها مهمة في غاية الخطورة يشترك في إنجازها عناصر متعددة فيقول الله تعالى عبر محاولة مهمة جداً لتسليط الضوء على صناعة الإرباك من خلال الكشف عن كثير من العناصر التي تسهم في تحقيقها: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ

ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤١-٤٩].

وفي قضية أخرى ترتبط بصناعة الإرباك الاجتماعي عبر إشاعة الفاحشة بين المؤمنين وما يترتب عليها من تداعيات غير مدروسة من قبل بعض الجماعات يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١١-١٧].

وفي مورد ثالث يفتح القرآن الكريم أعيننا على وضع ينتج الإرباك من خلال ممارسة هي في غاية الخطورة في المجال الاجتماعي تتمثل في إثارة وتناقل الخبر الذي يأتي به الفاسق من الناس، فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات ٦].

المبدأ الثالث في إدارة السلطة

قال الإمام علي عليه السلام: (إن قوما عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا، فتلك عبادة الأحرار).
وعنه عليه السلام: (إلهي ما عبدتك خوفا من عقابك، ولا طمعا في ثوابك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك) [الإمام علي عليه السلام، أحمد الرحماني الهمداني، ص ٦٣٢].

أهمية هذا النهج العلوي في إدارة مهام السلطة: لا تقتصر أهمية هذه التوجيهات العلوية الصادرة من قبل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على تحديد طبيعة العلاقة المطلوبة بين الخالق والمخلوق، بل هي تتسع من حيث شموليتها وفاعليتها لتشمل كل علاقة بين آمر ومأمور، لتخرج هذه العلاقة من حد السيطرة التي تقوم على مبدئي الترهيب أو الترغيب، إلى حد السلطة التي تقوم ممارستها على مبدأ الاحترام والقناعة. ومن هذا يتضح لنا أن هناك ثلاثة مسارات أو مبادئ لإدارة السلطة أو القوة تتمثل في:

أولاً: إدارة السلطة من خلال مبدأ القوة (منطق العصا).
ثانياً: إدارة السلطة من خلال مبدأ الشهوة (منطق الجزرة).
ثالثاً: إدارة السلطة من خلال مبدأ التقدير (منطق العقل).

وهذا ما يتحدث عنه غازي القصيبي في كتابه «حياة في الإدارة» إذ يقول في ص ٢٨-٢٩ ما نصه: (لقد تعلمت في الولايات المتحدة الكثير عن الإدارة، ولكني استقيت أهم ما تعلمته في هذا المجال، من دراستي المعمقة لعالم السياسة الألماني/ الأمريكي الشهير هانس. ج. مورجنثاو، الذي كتبت عنه رسالة الماجستير. يرى هذا الباحث أن السياسة كانت، منذ الأزل، وتبقى، إلى الأبد، صراعاً على القوة. وما المقصود بالقوة؟ محاولة إخضاع الآخرين لسلطة المرء.

يمضي مورجنثاو فيقول إنك لا تستطيع أن تخضع الآخرين لسلطتك، أي تجعلهم ينفذون ما تريد أن ينفذوه ويمتنعون عما تريد أن يمتنعوا عنه، إلا عن طريق ثلاثة دوافع، الرغبة في الثواب، أو الخوف من العقاب، أو الحب والاحترام).

شدة في دين وحزم في لين: من أجل أن يحقق الإنسان متطلبات السلطة لابد أن يتوفر على مواصفات كثيرة تقنع الطرف المقابل به، وقد تحدث الإمام علي عليه السلام عن أساس هذه المواصفات التي تمزج بين القوة واللين فقال في خطبته في وصف المتقين: (ومن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزما في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا على العلم، وفهما في فقه، وعلما في حلم، وكسبا في رفق، وشفقة في نفقة، وقصدا في غني، وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة) [بحار الأنوار، المجلسي ج ٤٦ ص ٣٤٣-٣٤٥].

وتتكلم فاطمة الزهراء عليها السلام عن منهج الإمام أمير المؤمنين في الحكم والإدارة والذي كان يقوم على مبدأ فرض الاحترام والتقدير من دون ترهيب أو ترغيب بقولها: (ويحهم أنى زغرعوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين. وما الذي نقموا من أبي الحسن، نقموا منه والله نكير سيفه، وقلة مبالاته بحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله. وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردهم إليها، وحملهم عليها، ولسار بهم سيرا سجحا لا يكلم خشاشه، ولا يكل سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلا نميرا صافيا رويا تطفح ضفتاه، ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطانا، ونصح لهم سرا وإعلانا، ولم يكن يحلي من الغنى بطائل، ولا يحظى من الدنيا بنائل، غير ري الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٤٣، ص ١٥٩].

تقنية تسويق الأنماط الاجتماعية

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النمل: ٥٤-٥٨].

ما هي الأنماط الاجتماعية؟

النمط الاجتماعي هو كل ظاهرة تطفو على السطح من قبل فرد ما في المجتمع ثم يتمّ تسويقها وترويجها لتتحول إلى عادة مستحكمة، ثم بعد مدة من الزمن تترسخ وتتجذر في الوعي الاجتماعي للناس لتكون جزءاً لا يتجزأ من الموروث الثقافي والديني للشعوب، وهو ما يطلق عليه مصطلح «البدعة» في الدين.

لماذا يتم افتعال وتسويق الأنماط الاجتماعية المبتدعة؟

تتآزر عدة عوامل لدفع الإنسان باتجاه ابتداع وتسويق الأنماط الاجتماعية الخاطئة والمنحرفة، ولعلّ أهم تلك العوامل هي: الجهل والشهوة والرغبة في سلوك أسهل وأقرب الطرق إلى المراد، كما أن الرغبة في ملء فراغ يراه الإنسان وفق وجهة نظره قد تحركه باتجاه محاولة ملء هذا الفراغ بما يراه مناسباً، وهذا ما يدفعه لابتداع وتسويق أنماط اجتماعية خاطئة وغير سوية، وهذا ما دفع أئمة أهل البيت عليهم السلام لتبني الشدة والرفض كموقف في مواجهة كل الظواهر الأولية التي تحرك الإنسان بهذا الاتجاه من دون وعي وشعور، ففي الحديث (عن عبد الرحيم القصير قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك إني اخترعت دعاء قال:

دعني من اختراعك إذا نزل بك أمر فافزع إلى رسول الله ﷺ وصل ركعتين تهديهما إلى رسول الله ﷺ [إلى أن يقول:] قال أبو عبد الله عليه السلام: فأنا الضامن على الله عز وجل أن لا يبرح حتى تقضى حاجته) [الكافي، الكليني ج ٣، ص ٤٧٦-٤٧٧].

كيف يتمّ تسويق الدين كنمط اجتماعي مبتدع؟

(عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر نعم البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون يريد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله) [صحيح البخارى، البخاري ج ٢، ص ٢٥٢].

خطورة تحول الأنماط المبتدعة إلى جزء من الدين: وهذا ما يوضحه هذا الحديث الشريف إذ يقول: (عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: كان رجل في الزمان الأول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها، فطلبها حراما فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال: يا هذا قد طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها، وطلبتها من الحرام فلم تقدر عليها، أفلا أدلك على شيء يكثر به دنياك ويكثر به تبعك؟ قال: نعم، قال: تبتدع دينا وتدعو إليه الناس، (قال:) ففعل، فاستجاب له الناس فأطاعوه وأصاب من الدنيا (قال:) ثم إنه فكر وقال: ما صنعت شيئا؟ ابتدعت دينا ودعوت الناس إليه، ما أرى لي توبة إلا أن آتى من دعوته إليه فأرده عنه (قال:) فجعل يأتي أصحابه الذين أجابوه فيقول: إن الذي دعوتكم إليه باطل وإنما ابتدعته كذبا، فجعلوا يقولون له: كذبت، هو الحق ولكنك شككت في دينك فرجعت عنه (قال:) فلما رأى ذلك عمد إلى سلسلة فأوتد لها وتدا ثم جعلها في عنقه فقال: لا أحلها حتى يتوب الله عليّ (قال:) فأوحى الله تعالى إلي نبي من أنبيائه أن قل لفلان بن فلان: «وعزتي وجلالي لو دعوتني حتى تنقطع أوصالك ما استجبت لك حتى ترد من مات على ما دعوته إليه فيرجع عنه») [المحاسن البرقى ج ١، ص ٢٠٧].

إشكاليات مسألة الأحوال الشخصية

تواجه قضية تقنين ما يسمى بالأحوال الشخصية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية ثلاث إشكاليات أساسية تحوّل المسألة إلى قضية، والقضية إلى أزمة تتضارب بشأنها الرؤى والأفكار النظرية، وتتباين حولها التوجهات والمواقف العملية، وتلك الإشكاليات الثلاث تتمثل في:

أولاً: الإشكالية التشريعية في مسألة الأحوال الشخصية: والمتمثلة في ما يواجهه المعنيون بالشأن الشرعي من علماء الشريعة والقانون في التوفيق بين متطلبات وإثارات الواقع من جهة، وحدود وضوابط الشريعة الإسلامية من جهة أخرى.

ثانياً: الإشكالية الاجتماعية في مسألة الأحوال الشخصية: الإشكالية الاجتماعية في مسألة الأحوال الشخصية: والمتمثلة أساساً في من تتدهور أوضاعهم الأسرية وشؤونهم العائلية وعلاقاتهم الاجتماعية في ظل غياب قانون عادل وفاعل يتمكن من حلّ أزماتهم واسترداد حقوقهم المضيعة أو المعطلة.

ثالثاً: الإشكالية السياسية في مسألة الأحوال الشخصية: الإشكالية السياسية في مسألة الأحوال الشخصية: وتتمثل في تضارب القوى الفاعلة في الساحة الاجتماعية على امتداد العالمين العربي والإسلامي، والتي تتصارع في هذا المجال من أجل أن يكسب كل منها معركة الوجود والاستئثار بالساحة والتحكم في توجهاتها.

وفي مواجهة هذه الإشكاليات الثلاث نستقرب الرؤى الثلاث التالية:

الرؤية الأولى في الشأن التشريعي: لا مفرّ من لزوم تحرك القائمين على الشأن التشريعي ولاسيما دعاة تطبيق الشريعة باتجاه صياغة رؤية متكاملة حول

الأحوال الشخصية ضمن ثلاث محددات:

١- البحث عن حلول معاصرة لمشاكل الأسرة والتداعيات السلبية لقيم الحداثة على كيانها وعضويتها.

٢- ضرورة متابعة ورصد التغيرات الكبيرة التي طرأت وما زالت تطرأ في مجال الصياغات القانونية والتشريعية للأحكام والتشريعات المدنية.

٣- عدم النظر إلى قضية الأحوال الشخصية بوصفها قضية منفصلة ومعزولة عن مجمل التغيرات الاجتماعية والمفاهيمية والقيمية التي تطال بتأثيرها وهيمنتها المجتمع البشري المعاصر.

الرؤية الثانية في الشأن الاجتماعي: من الضروري أن يتم التحرك الجاد والسريع من أجل إنشاء وتكثير مؤسسات الرعاية الاجتماعية والتأهيل التربوي المعنية برعاية شؤون الأسرة وتطوير الوعي التربوي بالحقوق والواجبات ضمن النطاق الأسري الخاص، في الوقت الذي يتمّ التوجه لإعداد كفاءات عملية وكوادر متخصصة في رصد وحل مشاكل الشأن الأسري، والعمل على المنع من تفاقمها وازدياد معدلاتها، ولاسيما في ظل اشتراك عناصر جديدة من خارج البيت والعائلة في صياغة وفرض التوجهات التربوية على الأولاد.

الرؤية الثالثة في الشأن السياسي: ليس من الممكن أن يتم التوصل إلى حلول جذرية لقضايا الأحوال الشخصية في عالمنا العربي والمسلم في ظل تصارع وتضارب الأنظمة المعيشية ومن ورائها الأنظمة الثقافية التي تسهم في تشطير أبناء المجتمع الواحد، فالصراع الديني العلماني الذي يشهده عالمنا العربي الإسلامي منذ وقت طويل لم يسفر لحد اليوم عن تحديد الوجهة المعينة التي سيتحرك باتجاهها هذا العالم، والتي وفق رؤيتها سيتمكن من صياغة أنظمته المعيشية، والتي تحتل قضايا الأحوال الشخصية أهم موقع فيها، ولذا لا مناص من العمل على الخروج من حالة التباين والتضارب في الرؤى إذا ما استهدفنا التوصل إلى توافق مشترك في هذا الشأن.

الإنسان الفاسد وتفكيك النظام

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم ٤١].

هناك نوعان من النظام والانتظام في الوجود:

١- **النظام التكويني**: وهو التناسق والانسجام والتوازن الذي يرتبط بحركة الموجودات في هذا الكون الفسيح من حيث انتظام مسارها الوجودي، وفق مبادئ تنطلق منها، وآليات تسير من خلالها، وغايات تنتهي إليها، وهذا ما عناه الباري بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

٢- **النظام التشريعي**: وهو مجموع الإرشادات والأوامر والنواهي التي يوجهها المشرّع من أجل تحقيق النظم والانتظام في الحياة البشرية في ما يفعله الإنسان من أفعال اختيارية حرة بهدف تحقيق مصالح نوعية وفردية عقلائية ومشروعة، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

ضرورة النظام التشريعي: وإيجاد هذا الانتظام التشريعي في حياة البشر عبر إنزال وتبيين النظام التشريعي من قبل الله تعالى هو أمر ضروري بمقتضى العقل والدين، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٤٢]، وقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة ٢١٣].

دور الفساد والمفسدين في مواجهة النظامين التكويني والتشريعي: من طبيعة الإنسان الفاسد والمفسد أن يعمد إلى تفكيك النظام سواء في المجال التكويني أم التشريعي، فحركة الفساد أساساً هي حركة تصادر النظام الطبيعي للأشياء وتستهدف إلغاءه وتعطيله، وهذا ما يفصح عنه تعالى من خلال حديثه عن دور المفسدين في الأرض، إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٤]، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦-١٤].

يقول الفيزيائي كارل فريدريك فون فايتسكر: (إن الفترة التي نعيش فيها فترة قلق متزايد، ينحدر كل شيء فيها: الثوابت الأخلاقية والبنى الموروثة والأشكال التقليدية للعائلة، وكذلك الدين والتقنيات والاقتصاد، حتى أن قواعد القيم والمبادئ وقوانينها القائمة تتداعى وتنهار فعلاً. إن العالم الذي عشنا في إطاره نحن والآخرون لم يعد يؤدي دوره الذي فهمناه. لقد انتهت فترة استئثارنا بهذا العالم الذي تفكك نظامه. . .) [نوربرت هرمان: الإدارة بالتوافق، ص ٢٢٦-٢٢٧].

نظام السلطة

مقاربة تأسيسية للمفهوم الإسلامي للسلطة

تبتني السلطة كمفهوم وكممارسة في الرؤية الإسلامية على عناصر ثلاثة هي بمثابة مستويات لممارسة السلطة في المجتمع البشري، وهذه المستويات أو العناصر الثلاثة تأتي متناسقة مع الطبيعة الإنسانية من حيث ممارستها التأثير في الدوائر الوجودية الثلاث في الإنسان، وهي دائرة الأفكار والمشاعر والممارسات، وهذه العناصر الثلاثة لنظام السلطة تتمثل في:

أولاً: الوحدة العقيدية في المجال العقلي: وتتأسس هذه الوحدة على الإيمان بالله رباً وإلها واحداً لجميع أفراد المجتمع، لا يصح ولا يجوز أن يتخذ من دونه إلها ورباً، وتبني هذه الوحدة العقيدية في الفكر الإسلامي هي من المسلمات الواضحة التي لا تحتاج إلى بيان وتبيين، فالله عزّ وجلّ يقول: ﴿. . . وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة ٣١].

وهذه الوحدة العقيدية لا تتبدى كمفهوم عقيدي مجرد يرتبط بالعلاقة الشخصية بين الخالق والمخلوق، بل هي الأساس الذي تبتني عليه المركزية السياسية في المجال المشاعري التالي.

ثانياً: المركزية السياسية في المجال المشاعري: وتتأسس هذه المركزية على اعتبار إمام المسلمين الرابط المحسوس بين كل أفراد الأمة الواحدة المنطوية تحت راية لا إله إلا الله، والتي تحمل لواء الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى، والتي تتحمل مهام الاستخلاف في الأرض، وفي هذا الشأن يتحدث الإمام الرضا عليه السلام عن مقام الإمامة بالقول: (إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين، إن الإمامة أس الإسلام النامي وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء

الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف، الإمام يحل حلال الله ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة) [الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٧٧٣ -٧٧٩].

ثالثاً: الخدمة المدنية في المجال العملي: وقوام هذه الخدمة المدنية بأصول ثلاثة هي:

١- إخلاص العبودية لله تعالى، أو ما يؤسس لنظام إدارة القيم عند العاملين في الدولة الإسلامية.

٢- التفاني في خدمة العباد، أو ما يؤسس لنظام إدارة العلاقات عند العاملين في الدولة الإسلامية.

٣- إعمار الأرض وحسن الاستخلاف فيها، أو ما يؤسس لنظام إدارة الثروات عند العاملين في الدولة الإسلامية.

وتجتمع الإشارة إلى هذه الأصول الثلاثة في قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢].

وتترابط العناصر الكلية لنظام السلطة في الرؤية الإسلامية بشكل وثيق ودقيق، وهذا ما نستلهمه من الأوامر الإلهية التالية:

١- قوله تعالى في مجال تأصيل الوحدة العقيدية: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٩٢].

٢- قوله تعالى في مجال تأصيل المركزية السياسية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء ٥٩].

٣- قوله تعالى في مجال تأصيل الخدمة المدنية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء ٥٨].

إشكالية المفهوم الشرقي للسلطة

قال المجلسي في البحار: (ومن خطبة له ﷺ عند خروجه لقتال أهل البصرة قال عبد الله بن العباس دخلت على أمير المؤمنين بذي قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت لا قيمة لها. قال: والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا ثم خرج فخطب الناس فقال: إن الله سبحانه بعث محمدا ﷺ وليس أحد من العرب يقرأ كتابا ولا يدعي نبوة فساق الناس حتى بوأهم محلتهم وبلغهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنت صفاتهم. أما والله إن كنت لفي ساقتها حتى تولت بحذافيرها ما عجزت ولا جبنت وإن مسيري هذا لمثلها فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه. ما لي ولقريش والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٢٣، ص ٧٦].

السلطة كممارسة تتحدد تاريخياً ضمن مفهومين:

الأول: المفهوم الشرقي للسلطة: والذي قام على مبدأ الاستئثار وسوء استغلال السلطة واعتبار الموقع فرصة تتاح أمام الإنسان عليه أن يستغلها بكل مقاييس الاستغلال من دون رادع من دين أو عقل أو وجدان، وأن السلطة إطار قمعي لكل القوى الفاعلة والمؤثرة في المجتمع، ماعدا أصحاب السلطة والمحسوبين عليها فحسب، وهذا ما لحظه الإمام أمير المؤمنينﷺ في ممارسة عثمان وعشيرته يوم وصلوا إلى سدة الحكم في التجربة الإسلامية فقال عنهم: (فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى، أرى تراثي نهبا. حتى إذا مضى لسبيله فأدلى بها لأخي عدي بعده، فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته فصيرها في حوزة

خشناء يخشن مسها ويغلظ كلمها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها فصاحبها كراكب الصعبة إن عنف بها حرن وإن أسلس بها غسق، فمنى الناس بتلون واعتراض وبلوا، وهو مع هن وهن. فصبرت على طول المدة وشدة المحنة حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني منهم، فيا لله وللشورى متى اعترض الريب في مع الأول منهم، حتى صرت أقرن إلى هذه النظاير. فمال رجل لضغنه وأصغى آخر لصهره، وقام ثالث القوم نافجا حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبت الربيع، حتى أجهز عليه عمله، وكبت به مطيته) [علل الشرائع، الشيخ الصدوق ج ١، ص ١٥٠-١٥١].

الثاني: المفهوم الغربي للسلطة: والذي يرى أن السلطة إطار تنظيمي لعمل القوى الفاعلة والمؤثرة في المجتمع، وهذا ما يفصح عنه الإمام الرضا عليه السلام في ثنايا حديثه عن الإمام والإمامة إذ يقول: (إن الإمامة خلافة الله عز وجل وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام، إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين، إن الإمامة أس الإسلام النامي وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وتوفير الفيء، والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف، الإمام يحل حلال الله ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة) [الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٧٧٣ -٧٧٩].

القانون صمام الأمان في أداء السلطة السياسية: ما يمنع السلطة من أن تتحول إلى وسيلة استغلال وقمع هو وجود قانون عادل قد شرع من جهة نزيهة، وتتكفل جهة أخرى بتطبيقه، كما تقوم جهة ثالثة بمهام مراقبة التنفيذ العملي للقانون وتمنع من وقوع أية خروقات عبثية للقانون، واستقلال كل واحدة من هذه الجهات الثلاث عن الأخرى أمر لا يقل أهمية عن أصل وجود قانون عادل يحكم أداء السلطة وعلاقتها بالأمة.

إشكالية الفكر المعياري في الثقافة العربية الإسلامية

طبيعة بناء المعرفة الإنسانية: تتراوح طبيعة الفكرة أو المعلومة التي يكونها الإنسان تجاه أي مجهول يبتغي اكتشافه والتعرف عليه والإحاطة به بين ثلاثة أنواع من المعلومات:

الفكرة الحسية: الفكرة الحسية هي الفكرة القابلة للتحقق من صدقها أو كذبها (مطابقتها للواقع أو عدمه) من خلال الحس، وهي الحد الأدنى المشترك بين كافة البشر، ومجالها العلوم التجريبية والتقنية والطبيعية.

الفكرة العقلية: الفكرة العقلية هي الفكرة القابلة للتحقق من صدقها أو كذبها (مطابقتها للواقع أو عدمه) عبر البرهان العقلي القائم على أوليات لا تقبل الجدل والإنكار وهي الحد الأعلى المشترك، ومجالها العلوم الفلسفية والمنطق.

الفكرة المعيارية: الفكرة المعيارية هي الفكرة القابلة للتحقق من صدقها أو كذبها (مطابقتها للواقع أو عدمه) من خلال انتهائها إلى يقينيات الحس، أو بديهيات العقل التي لا تقبل الإنكار والاختلاف، ومجالها العلوم الأدبية والإنسانية والنظريات.

إشكالية التأصيل المعياري للمعرفة الإنسانية: قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك ١٠].

الشاهد في الآية المباركة: توضح الآية أن أهل النار يسندون السبب في استحقاقهم لعذاب النار في أمرين، وأنهم لو كان لهم أحد الأمرين لما كانوا من أصحابها ومستحقيها، وهذان الأمران هما:

الأول: السمع: وهو تعبير عن قدرة الإنسان على نقل المعرفة أو الفكرة من

إطارها المعياري إلى إطارها الحسي، لأن السمع هو أهم آلية يتلقى الإنسان من خلالها المعارف والأفكار، ورغم أن الإنسان يتلقى الأفكار أول ما يتلقاها معيارية الطابع، إلا أنه دائما يحاول أن يتجه بها -من أجل أن يستوعبها ويقبلها- إلى أحد اتجاهين، إما الاتجاه الحسي بمعنى التأكد من أنها واقعية أم لا عبر مطابقتها للمحسوسات على ما هي عليه أو عدم مطابقتها، أو أنه يحاول أن يعقلن الفكرة، وهو الاتجاه الثاني التالي:

الثاني: التعقل: بمعنى البحث عن الأسس العقلية التي تقوم عليها الفكرة المعيارية، والتي تبقى معيارية مادامت غير محسوسة أو غير معقولة. وهذا الأمر يعطينا انطباعاً بأن الدين يريد أن يحرك الإنسان باتجاه البحث عن أسس محسومة لا تقبل الجدل والاختلاف، وترفع الشك والتردد عن النفس في ما تتبناه من أفكار ورؤى، بغض النظر عن كون هذه الأسس، معقولة أو محسوسة.

المعيارية من المعرفة إلى الاجتماع: لا تتحدد المعيارية بوصفها مجرّد إشكالية معرفية فحسب، بل هي تنال حتى طبيعة التناول الاجتماعي للأمور والأشياء من قبل الإنسان، فالمجتمع ذو الطبيعة المعيارية -وهو المجتمع الذي تتسع فيه مساحة وفاعلية الأفكار المعيارية- يكون مجالاً خصباً لتضارب الرؤى وتناقض الممارسات، لأنه لم يستقر على توافقات حسية أو عقلية مشتركة، وحينما نقارن تجربة المعرفة والاجتماع الأوروبيين أو الغربيين نجدها تتباين مع تجربة المعرفة والاجتماع في العالم العربي والإسلامي من حيث انتهاء الأولى إلى إطار حسي يمثل جامعاً مشتركاً في طبيعة التناول المعرفي والاجتماعي، بينما لم تفلح التجربة العربية الإسلامية في المقابل على تحقيق هذا الإجماع المشترك، وبالرغم من كون التجربة الغربية أوغلت في إضفاء الطابع الحسي حتى على المفاهيم والقيم المجردة، إلا أن ذلك كان يمثل إطاراً يخرج الفكرة من طابعها المعياري الذي ظلت التجربة العربية الإسلامية تتردد فيه اجتماعيا ومعرفياً من دون أن تحسم الرأي والموقف تجاه كل القضايا الأولية والثانوية المثارة في أجوائها ومن قبل مختلف الفرقاء في الساحتين المعرفية والاجتماعية.

الغدير .. تحديد إلهي لمتطلبات القيادة الدينية

الارتباط بين استكمال الدين وارتضاؤه للناس وبين تحديد الشخصية القيادية في المجتمع: قال الله تعالى: ﴿... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ...﴾ [المائدة ٣].

دراسة سبب النزول: يلقي سبب نزول هٰذه الآية المباركة الضوء على القضية التي أراد هذا النص القرآني التفكير فيها من قبلنا -نحن المسلمين- وهي القضية التي ظلت طوال مدة مديدة مغيبة عن اهتماماتنا ودراساتنا القرآنية منها، وغير القرآنية، فلم ندرس مفهوم القيادة وتداعيات ومستلزمات هذا المفهوم في الرؤية الإسلامية، مما ضيع علينا أهم نقطة ارتكاز ونظام في حياتنا العامة، ولأجل ذلك تحولت هذه الحياة رغم وجود الإسلام كإطار تنظيمي معرفي إلى فوضى مستمرة، عبرت عنها الزهراء البتول في خطبتها: (بالهرج الشامل)، وذلك حينما حددت النتائج الوخيمة المترتبة على الخطأ الاستراتيجي القاتل في السير خلف القيادات غير الكفوءة ولا المؤهلة، إذ قالت: (أما لعمري لقد لقحت فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دما عبيطا وذعافا مبيدا، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون، غب ما أسس الأولون ثم طيبوا عن دنياكم أنفسا، واطمئنوا للفتنة جأشا، وابشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدا وجمعكم حصيدا، فيا حسرة لكم، وأنى بكم، وقد عميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٤٣، ص ١٥٩].

حيثيات المقارنة: إن المقارنة التي لا تنشأ إلا من وضع الخطاب القرآني

المتقدم إلى جنب الخطاب الفاطمي الأخير هي ما يتمكن فحسب من فضح التداعيات الكارثية التي جرت بين مرحلة تنصيب القيادة الشرعية في الغدير من قبل رسول الله ﷺ، وبين استبدالها بمن لا يمتلك أدنى مؤهلاتها في الفترة التي شهدت عليها فاطمة الزهراء عليها السلام من خلال خطبتها هذه، ناصة على أسوأ عملية استبدال في التاريخ البشري ومؤرخة لها، وذلك حينما قالت في نفس هذه الخطبة: (استبدلوا والله الذنابى بالقوادم، و العجز بالكاهل، فرغما لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ويحهم أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون) [ن م].

متطلبات القيادة الدينية: يؤسفني القول أننا -أعني الشيعة- دائما نضع هذه النصوص والشواهد في قبال الاحتجاج على الآخر من أهل السنة والجماعة، وكأننا قد فضينا من استلهام واستيعاب وممارسة متطلبات القيادة ومفاهيمها، والتي جاءت كل هذه النصوص والشواهد مؤصلة لمبادئها ومؤسسة لقواعدها، ولكنني أرى أن حال المسلمين سنة وشيعة لا تتفاوت في هذا الشأن، فمازال مفهوم القيادة يتحرك في مماحكات التنظير، والتنظير المضاد، من دون أن نعي أن القيادة مفهوم ميداني متحرك، لا يمكن الحكم عليه إلا من خلال ما يستطيع إثباته على أرض الواقع وميدان الممارسة، بعيداً عن الاحتجاجات والبرهنات العقلية والنقلية، التي تتعامل مع القضية من خلال ما ينبغي على الله فعله، في الوقت الذي ينبغي أن نشتغل بما يلزمنا نحن البشر فعله من أجل تحديد منهجية واعية وعملية في كيفية اختيار القيادة، والتعرف على متطلباتها وشؤونها، والتي تختزل في:

أولاً: قدراتها المعرفية: فالقيادة قدرة على بلورة الرؤى واستثارة الأفكار.

ثانياً: قدراتها النفسية: فالقيادة قدرة على امتصاص الصدمات، واستصغار الكوارث، وتخطي المحن التي تواجه الجماعة في حركتها.

ثالثاً: قدراتها الحركية: فالقيادة قدرة مستمرة على تجاوز الصعاب وتطوير متواصل لمهارات الجماعة المقادة وتوجيهها ميدانياً خطوة خطوة.

إدارة الحلقة الأضعف في معركة النفس والشيطان

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩١-٩٢]. وقال الإمام علي عليه السلام في شأن أهل العراق: (أما بعد يا أهل العراق فإنما أنتم كالمرأة الحامل حملت فلما أتمت أملصت ومات قيمها وطال أيمها وورثها أبعدها) [نهج البلاغة، الخطبة ٧١].

تمهيد: دائما ما يتم استغلال المرأة في أيّة معركة أو مواجهة بين الخصوم والفرقاء في الساحة الاجتماعية والسياسية، وحتى العسكرية والحربية، بل وبشكل عام ساحة الصراع الوجودي بين الإنسان والشيطان، على أساس أن المرأة هي الحلقة الأضعف التي ينفذ منها العدو (شياطين الإنس والجن) إلى الآخر الذي يستهدف السيطرة عليه، ويتمكن منه تمام المكنة عبر تسخير المرأة في تحقيق هذه المهمة، ومن هنا قال الإمام علي خطبته في ذم المرأة بعد واقعة الجمل بالضبط، إذ يقول الشريف الرضي: (ومن خطبة له عليه السلام بعد حرب الجمل في ذم النساء: معاشر الناس إن النساء نواقص الإيمان نواقص الحظوظ نواقص العقول. فأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن. وأما نقصان حظوظهن فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال. وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد. فاتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر) [نهج البلاغة، الخطبة ٨٠].

شياطين الإنس والجن يعرفون أن المرأة هي الحلقة الأضعف في كل معركة مع الصلحاء والمصلحين، ومن هنا يسعون لاستغلال موقعها ودورها وتحريكها

بالاتجاه الذي يخدم أهدافهم ورغباتهم، وهذا ما عمل المنافقون على تحقيقه في قضية الإفك، وهي القضية التي قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١١-١٧].

وفي ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء تحولت هذه النقطة الأضعف إلى أقوى نقطة في إدارة الصراع مع جيش البغي والطغيان بعد مقتل الحسين عليه السلام، فلقد وقفت زينب المرأة المثكولة الموتورة في مجلس زيد لتفضحه بالقول: (الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين صدق الله كذلك يقول ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسراء إن بنا على الله هوانا وبك على الله كرامة فشمخت بأنفك ونظرت الى عطفك حين رأيت الدنيا لك مستوثقة وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلا مهلا أنسيت قوله تعالى ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ثم تقول غير متأثم: فأهلوا واستهلوا فرحا * ثم قالوا يا يزيد لا تشل متنحيا على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء الذرية الطاهرة وتهتف بأشياخك لتردن موردهم اللهم خذ بحقنا وانتقم لنا من ظالمنا فما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك بأس للظالمين بدلا وما ربك بظلام للعبيد فإلى الله المشتكى وعليه المتكل فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا والحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة ولآخرنا بالشهادة ويحسن علينا الخلافة انه رحيم ودود) [مثير الأحزان، ابن نما الحلي، ص ٨٠].

ما هي غاية السلطة السياسية؟

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد ٢٥].

هناك ثلاثة اتجاهات في تحديد الغاية الأصلية للسلطة السياسية في دنيا البشر:

الاتجاه الأول: (الطور الطبيعي والحيواني للسلطة) ويرى أن غاية السلطة أن يكون الناس أغنياء، وهذا الاتجاه يرى أن سعادة الإنسان إنما تتحقق حينما يحصل على كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه.

الاتجاه الثاني: (الطور العقلي والإنساني للسلطة) ويرى أن غاية السلطة أن يكون الناس أحراراً، وهذا الاتجاه يرى أن سعادة الإنسان إنما تتحقق حينما يكون حراً بلا قيد ولا حد.

الاتجاه الثالث: (الطور الديني والإلهي للسلطة) ويرى أن غاية السلطة أن يكون الناس عدولاً يلتزمون العدل في كل شؤونهم، وهذا الاتجاه يرى أن سعادة الإنسان إنما تتحقق حينما يستطيع أن يحقق العدل في كل شؤونه ودنياه. وهذا الطور مطلوب لأنه مقتضى العدل الذي مفهومه إعطاء كل ذي حق حقه، وعدم تجاوز الحدود بالإفراط أو التفريط.

الأصل في السلطة: الأصل في السلطة أنها علاقة بين آمر ومأمور، فهي تستلزم الأمر والنهي بالضرورة، وهذا حق هو في الأصل مختص بالله عزّ وجلّ بالذات، ولا يكون لغيره أن يمارسه إلا بالعرض وبمقتضى الضرورات العقلائية

والشرعية، ولذا احتاج إلى جعل وتحديد من قبله تعالى لأنه مالك الملك بالأصالة، وغيره إنما يمارس السلطة السياسية (الولاية العامة على الناس) بمقتضى النيابة عنه، ولأجل ذلك قال عزّ شأنه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

الربط بين السلطتين التكوينية والتشريعية: وفي الآية ربط واضح بين السلطة التكوينية التي له عزّ وجلّ على جميع الموجودات وبين الولاية التشريعية (التي هي سلطة الأمر والنهي)، فالولايتان التكوينية والتشريعية من حقوقه وكمالاته الذاتية، مما يعني أن أيّ مقدار مشروع يناله الإنسان منهما لا يمكن أن يكون إلا بمقتضى ما يخوله وما يمكنه صاحب الحق، الذي هو الله تعالى.

مدار المشروعية في السلطة السياسية: يتضح لنا من النصين القرآنيين المتقدمين أمرين مهمين:

الأمر الأول: أن السلطة بالأصل هي شأن إلهي مختص به سبحانه وتعالى، وأنه يفوضها إلى من يشاء، كيف يشاء، وهذا هو المستفاد من قوله المتقدم: ﴿... مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ...﴾.

الأمر الثاني: أن غاية بعث الأنبياء والرسل وإنزال الكتب والميزان إنما هو أن يقوم الناس -كل الناس- بالقسط والعدل.

والنتيجة: أن مشروعية السلطة إنما تتأتى من قدرتها على إقامة العدل والقسط، وإذا ما عجزت عن ذلك، ولم تتوفر على المؤهلات اللازمة لتحقيق ذلك سقطت مشروعيتها وألغيت بمقتضى العقل والشرع. وحينئذ تتحول السلطة التي تفتقد المشروعية السياسية إلى سيطرة تفتقد القيمة الأخلاقية التي تسمح لها بممارسة مهام الولاية على الآخرين والتدبير لشؤونهم العامة، وهذا ما يفصح عن أن الغاية الأصلية للسلطة قبل كل شيء إنما هي تحقيق «العدل والعدالة» في دنيا الإنسان.

أبعاد المشكلة الزوجية في المجتمعات العربية الإسلامية

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم ٢١].

للمشكلة الزوجية أبعاد متعددة أهمها:

البعد الأول: هناك الكثير من عوامل الإثارة للشهوة الجنسية عند الطرفين في مقابل صعوبة المتاحات الشرعية بسبب تعقيد كثير من الأمور التي تعيق إنشاء العلاقة الزوجية المشروعة بين الرجل والمرأة، وهذا الوضع هو أحد منتجات الوضع الأخلاقي العام في مجتمعاتنا الحديثة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء ٢٧].

البعد الثاني: اختلال ضوابط العلاقات بين الرجل والمرأة وتجاوزها الكثير من الحدود الشرعية، بينما عمل الدين على تقنين وضبط هذه العلاقة ضمن أطر محددة لكي لا ينتشر الفساد والإفساد في المجتمع فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣٠-٣١].

البعد الثالث: عدم مراعاة الحقوق الزوجية والقيام بها على حسب أصولها

ومقتضاها مما يفرز الكثير من المشاكل التي تهدد بيت الزوجية بل ربما أدت إلى هدمه وخرابه، ومن هنا حرص الشرع الحنيف على تذكير الزوجة بضرورة مراعاة هذه الحقوق، ففي الحديث: (قال أبو عبد الله عليه السلام: أيما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حق لم تقبل منها صلاة حتى يرضى عنها وأيما امرأة تطيبت لغير زوجها لم تقبل منها صلاة حتى تغتسل من طيبها كغسلها من جنابتها) [الكافي، الكليني ج ٥ ص ٥٠٧]، و(عن أبي عبد الله عليه السلام أن قوما أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالو: يا رسول الله إنا رأينا أناسا يسجد بعضهم لبعض فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) [ن م].

البعد الرابع: غياب الثقافة الزوجية عند الطرفين أو أحدهما مما يفقد علاقتهما الانسجام والقدرة على التناغم، ومما تقتضيه هذه الثقافة أن لا يتطاول أحدهما على الآخر ولا يعيبه ولا يؤذيه، ولاسيما الطرف الضعيف في العلاقة الزوجية وهو المرأة، والذي يحتاج إلى الرحمة كما عبرت الآية في صدر الحديث، وفي الحديث (عن شهاب بن عبد ربه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما حق المرأة على زوجها؟ قال: يسد جوعتها ويستر عورتها ولا يقبح لها وجها فإذا فعل ذلك فقد والله أدى حقها، قلت فالدهن؟ قال غبا يوم ويوم لا، قلت: فاللحم قال: في كل ثلاثة فيكون في الشهر عشر مرات لا أكثر من ذلك، قلت: فالصبغ؟ قال: والصبغ في كل ستة أشهر ويكسوها في كل سنة أربعة أثواب ثوبين للشتاء وثوبين للصيف ولا ينبغي أن يفقر بيته من ثلاثة أشياء: دهن الرأس والخل والزيت ويقوتهن بالمد، فإني أقوت به نفسي وعيالي وليقدر لكل إنسان منهم قوته فإن شاء أكله وإن شاء وهبه وإن شاء تصدق به ولا تكون فاكهة عامة إلا أطعم عياله منها ولا يدع أن يكون للعيد عندهم فضل في الطعام أن يسني من ذلك شيئا لا يسني لهم في سائر الأيام) [ن م، ص٥١١].

متطلبات البناء الذاتي

هناك ثلاثة مجالات أساسية ومحورية في عملية البناء الذاتي للشخصية الإنسانية، وهذه المحاور هي:

المحور الأول: علاقة الإنسان بالله تعالى وفيها تدخل علاقة الإنسان بذاته.

المحور الثاني: علاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

المحور الثالث: علاقة الإنسان بالطبيعة والعالم.

وهذه الثلاثة جمعها تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

ومن أجل أن يحقق الإنسان متطلبات البناء الذاتي لشخصيته ضمن هذه المحاور الثلاثة لا مناص من أن يكون له منهجياته الدقيقة والمتزنة والمنضبطة في شؤون حياته المختلفة، والتي لا تخرج عن تلك المحاور الثلاثة التي تتمحور كل حياته حولها، وأهم المنهجيات التي لابد أن تتوفر من أجل تحقيق مضمون البناء الذاتي للنفس هي:

١- **منهجية إدارة الأفكار:** يمكن أن ننطلق في تأسيس هذه المنهجية من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى

رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨].

٢- **منهجية إدارة الانفعالات**: يمكن أن ننطلق في تأسيس هذه المنهجية من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٦].

٣- **منهجية إدارة المواقف**: يمكن أن ننطلق في تأسيس هذه المنهجية من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ [الفرقان ٦٣].

٤- **منهجية إدارة الوقت**: يمكن أن ننطلق في تأسيس هذه المنهجية من قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣]. و(عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة) [معاني الأخبار، الشيخ الصدوق ص ٣٤٢].

٥- **منهجية إدارة العلاقات**: يمكن أن ننطلق في تأسيس هذه المنهجية من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً...﴾ [البقرة ٨٣].

٦- **منهجية إدارة الخيرات**: يمكن أن ننطلق في تأسيس هذه المنهجية من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان ٦٧].

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين

سقوط طاغية العراق.. الدرس الأبلغ للنظام العربي الرسمي

قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [القصص: ٣٩-٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾ [الكهف ٥٩].

في ظل سقوط النظام البعثي الوحشي في العراق في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣م يحسن التوقف كثيراً عند ما حصل والاعتبار بما كان، وهنا ينبغي لأطراف أربعة أن تعي الدرس الذي حصل لهذا النظام، وهذه الأطراف هي:

أولاً: الشعوب والجماهير المستضعفة: فعلى هذه الشعوب أن تزداد يقينا بأن الظلم مهما كبر وعظم، ومهما بدأ قوياً ومستحكما لابد أن ينتهي ويزول، وقد شهدنا خلال العقود الأخيرة تهاوي العديد من الأنظمة الاستبدادية التي أمعنت في ظلم الشعوب وقهرها، فقد تهاوى النظام الشاهنشاهي في ١٩٧٩م، ولحقه النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي في ١٩٩١م، وأخيراً وليس آخراً انهار النظام المستبد الطاغي الذي حكم الشعب العراقي بقوة الحديد والنار خلال ما يقارب ٣٥ عاماً في العام ٢٠٠٣م.

ثانياً: الاستكبار العالمي: والذي يتمثل اليوم في أمريكا بالتحديد، والتي لم تتعظ من هذا الدرس وغيره من الدروس التي سبقته، ورغم أن أمريكا قد دعمت وأيدت وساندت النظام البعثي في وقت سابق، وأمدته بكل أنواع الأسلحة الفتاكة التي

قهر بها شعبه، واستباح بها حرمات جيرانه، إلا أنها اليوم تتجرع غصص المرارة والخذلان بعد أن استنفذت أغراضها من وجود هذا النظام فعادت لتتحمل وحدها ثقل المهمة في تخليص الناس منه بعد أن رعته ودافعت عنه طويلاً، وفي هذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال ٣٦].

ثالثاً: القوى النخبوية المغفلة: رغم كل الجرائم والمجازر التي ارتكبها هذا النظام طوال عهده المديد إلا أنه ما زال هناك من يرغب في التسبيح بفضائل ذلك النظام، وهؤلاء لا يخل حالهم من أن يكونوا مغفلين أو منتفعين، وفي كلا الحالين لا يخرجون عن كونهم من بقايا سيئات هذا النظام الذي رفع كل الشعارات الجميلة والمغرية ويوم أن حكم الناس أهلك الحرث والنسل، وشرد الملايين من أبناء الشعب العراقي في المنفي والمهاجر، وحول العراق بلد النفط والزراعة إلى خراب فكان كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

رابعاً: النظام العربي الرسمي: إن الدرس الأكبر في سقوط النظام البعثي الذي حكم العراق خلال ٣٥ عاماً ينبغي أن يستلهمه النظام العربي الرسمي الذي قد دعم هذا النظام لوقت طويل، وغالب الشعوب من أجل أن تسكت عن جرائم هذا النظام وأن تدعمه على أساس أنه حارس البوابة الشرقية للعالم العربي من نفوذ وانتشار تطلعات الثورة الإسلامية في إيران، واليوم يحاول النظام العربي الرسمي أن يتملص من ارتباطاته السابقة بهذا النظام ويتغافل عن سكوته المطبق عن جرائمه المروعة التي ارتكبها في فترات سابقة، ولكن هذا كله لا يغير من حقيقة شراكة الكثير من الأنظمة العربية الرسمية للنظام البعثي في ما ارتكبه من جرائم فظيعة وشنيعة، وما يعطي انطباعاً أكبر على أن النظام العربي الرسمي يرفض الاستفادة من هذا الدرس هو إمعانه في انتهاج الأساليب ذاتها التي انتهجها ذلك النظام.

الاستخدام المضاد لعناصر التنمية البشرية

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل ١١٢].

عناصر التنمية البشرية: يمكننا القول أن أهم ثلاثة عناصر لتحقيق التنمية البشرية في أي مجتمع هي: الثروة والقوة والمعرفة. وهذه العناصر يمكن أن تستخدم استخداماً صحيحاً فتكون بالفعل عناصر للتنمية البشرية، ويمكن أن توظف توظيفاً خاطئاً أو سيئاً فتتحول إلى عناصر خراب وإفساد ويفتقد بالتالي المجتمع القدرة على تحقيق معدلات مقبولة للتنمية.

إشارات قرآنية لهذه العناصر بوصفها عناصر للتنمية البشرية:

الثروة بوصفها عنصراً تنموياً: قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٢].

القوة بوصفها عنصراً تنموياً: قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٤-٩٨].

المعرفة بوصفها عنصراً تنموياً: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة ٢].

وكما أشرنا قد تفتقد هذه العناصر الثلاثة خاصية التنمية البشرية وتعمل عمل معاكساً حينما توظف توظيفاً خاطئاً أو سيئاً، وهذه صور قرآنية لهذا التوظيف السيئ لهذه العناصر في حياة المجتمع البشري:

الثروة بوصفها عنصراً يفتقد خاصية التنمية: قال تعالى: ﴿. . . وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

القوة بوصفها عنصراً يفتقد خاصية التنمية: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

المعرفة بوصفها عنصراً يفتقد خاصية التنمية: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة ١٥٩].

وإذا افتقدت هذه العناصر الثلاثة خاصية التنمية فإن ما تفرزه هو ظاهرة الفساد بوصفها الظاهرة التي تنتج من خلال:

١- الاستئثار بالثروة نتيجة لتأصل الهاجس النفعي عند من يحوزها.
٢- الاستئثار بالقوة نتيجة لتأصل الهاجس الأمني عند من يمتلك أسبابها.
٣- الاستئثار بالمعرفة نتيجة لتأصل الهاجس الإعلامي عند من يسيطرون على وسائل إنتاج وإدارة المعرفة.

العضو الغبي... من تخوم البيولوجيا إلى آفاق الانثربولوجيا

العضو الغبي في عالم البيولوجيا: هو العضو الذي يقوم بوظيفة لا يعرف عن أهدافها ولا عن أهداف من يستخدمه في تحقيقها شيئاً، فلأجل ذلك يقوم بوظيفة لا ينتفع منها شيئاً هو في النهاية، ويكون مآل النفع فيها إلى من استخدمه في الوصول إليها، ولذا وصف بالغباء، وهذا كما هو الشأن بالنسبة إلى ذكر الرجل الذي ليس له من وظيفة إلا المتعة التي يستخدمه فيها الرجل.

العضو الغبي في عالم الانثربولوجيا: وهو العضو أو الأكثر الذي يستخدم استخداماً سيئاً من قبل غيره، ومثاله من يبيع آخرته بدنيا غيره، ومثاله في القرآن الكريم ما حكاه تعالى عن الإنسان الذي يستخدمه الشيطان لأغراضه فيركبه ويسوقه رغم كل ما يتوفر عليه الإنسان من إمكانيات ذاتية للإنقلاب على الشيطان والفكاك من عقاله، إذ يقول تعالى في شأن أحد هذه النماذج الغبية من أعضاء المجموعة البشرية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

مبررات الموقف السلبي من العضو الغبي: العضو الغبي لا ينبغي أن يشرك في مهام التطوير والتغيير لأنه يفسدها ويعيقها، وهذا ما نستفيده من قوله عزّ وجلّ للمؤمنين في شأن من يخرج معهم للحرب والقتال في سبيل الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ

وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٤-٤٧].

وفي هذا السياق يقع أيضاً موقف الإسلام من النهي عن مصاحبة الأحمق لأنه يريد أن ينفعك فيضرك لأنه غبي.

خطورة العضو الغبي: تتمثل أساساً في أمرين أو في حالتين:

الأول: أن يحاول أن يمارس مهمة غير مهمته التي تتناسب ووصفه وطبيعته الأولية.

الثاني: أن يتضخم دوره بمستوى لا يوازي حجمه الطبيعي في المركب الذي يمثل جزءاً منه.

التعامل مع العضو الغبي: لا تحاول إلغاءه ولكن أيضاً لا تفكر في إصلاحه، إذ هو مثل الضلع الأعوج إن رمت إصلاحه انكسر ولم تنتفع منه بشيء. وقد مثل له في القرآن بمثال في غاية الروعة والجمال حكاه الكريم تعالى بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل ٧٦].

الثور العضو الغبي في أسطورة الخلق والتكوين: تقول إحدى الأساطير القديمة أن إله السماء رق لحال الناس الذين كانوا يزرعون ولا ينتجون إلا ما يكاد يكفيهم بالكاد فأرسل إليهم الثور الذي كان نجماً في السماء لينقل لهم رسالة مفادها أنكم إذا عملتم بجد في كل ثلاثة أيام استحققتم وجبة واحدة تأكلونها، ولكنه قلب الرسالة وأخبرهم أنكم إذا عملتم بجد في اليوم الواحد أكلتم ثلاث وجبات، وأراد إله السماء أن يحمله مسؤولية خطئه في نقل الرسالة فأمره بأن يشتغل في حرث الأرض مع المزارعين، ولأجل ذلك مازال الثور مقيداً منذ ذلك اليوم بالمحراث يقلب الأرض ويزرعها. ونحسب أن هذه نتيجة دائمية لا مناص من أن ينتهي إليها الغبي في حياته وعلاقاته، فإياك ثم إياك أن تكنه. . .

هواجس الإصلاح الشامل في التجربة العلوية

تطالب الجماهير وربما تشاركها بعض الأحيان السلطات السياسية الحاكمة بالإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي ولكنها بعد أن تقدم الكثير من أجل الإصلاح تنكفأ عن مواصلة المهمة لأنها تصطدم بالكثير من العقبات التي تتمثل كجبال راسية يصعب إزاحتها لأنها ترتبط بالكثير من الجهات المطالبة بالإصلاح، ويحتاج تجاوزها إلى مزيد من الشجاعة في الاعتراف بالخطأ والتقصير، وهذا ما كان قد واجهه الإمام علي عليه السلام في تجربته الإصلاحية الجديدة، وهذا ما تبينه هذه المواقف من قبله عليه السلام تجاه الملفات الخطيرة والحساسة التي صادفها في عملية الإصلاح، وهذه الملفات التي مثلّ كل واحد منها هاجساً عند المشاركين مع علي عليه السلام في محاولة الإصلاح هي:

١- **الموقف من أهل البصرة**: (روينا عن على صلوات الله عليه أنه لما هزم أهل الجمل جمع كل ما أصابه في عسكرهم مما أجلبوا به عليه فخمسة وقسم أربعة أخماسه على أصحابه ومضى، فلما صار إلى البصرة قال أصابه: يا أمير المؤمنين، اقسم بيننا ذراريهم وأموالهم. قال: ليس لكم ذلك، قالوا: وكيف أحللت لنا دماءهم ولا تحل لنا سبى ذراريهم؟ قال: حاربنا الرجال فحاربناهم، فأما النساء والذراري، فلا سبيل لنا عليهم لانهن مسلمات وفى داره هجرة، فليس لكم عليهن سبيل، فأما ما أجلبوا عليكم به واستعانوا به على حربكم، وضمه عسكرهم، وحواه، فهو لكم. وما كان في دورهم فهو ميراث على فرائض الله تعالى لذراريهم، وعلى نسائهم العدة، وليس لكم عليهن ولا على الذراري من سبيل. فراجعوه في ذلك، فلما أكثروا عليه قال: هاتوا سهامكم واضربوا على عائشة أيكم يأخذها. فهي رأس الأمر. قالوا: نستغفر الله، قال وأنا أستغفر الله، فسكتوا. ولم يعرض لما كان

في دورهم ولا لنسائهم ولا لذراريهم. وهذه السيرة في أهل البغي)

٢- **الموقف من أموال البغاة:** وعنه عليه السلام أنه قال: ما أجلب به أهل البغي من مال وسلاح وكراع ومتاع وحيوان وعبد وأمة وقليل وكثير، فهو فيء يخمس ويقسم كما تقسم غنائم المشركين)

٣- **الموقف من أموال عثمان الخليفة السابق:** روينا عن علي عليه السلام أنه لما بايعه الناس أمر بكل ما كان في دار عثمان من مال وسلاح، وكل ما كان من أموال المسلمين، فقبضه، وترك ما كان لعثمان ميراثا لورثته).

٤- **الموقف من عمال عثمان:** وعنه عليه السلام أنه حضر الأشعث بن قيس، وكان عثمان استعمله على أذربيجان، فأصاب مائة ألف درهم، فبعض يقول: أقطعه عثمان إياها، وبعض يقول: أصابها الأشعث في عمله. فأمره علي صلوات الله عليه بإحضارها فدافعه وقال: يا أمير المؤمنين، لم أصبها في عملك. قال: والله لئن أنت لم تحضرها بيت مال المسلمين، لأضربنك بسيفي هذا أصاب منك ما أصاب. فأحضرها وأخذها منه وصيرها في بيت مال المسلمين، وتتبع عمال عثمان، فأخذ منهم كل ما أصابه قائما في أيديهم وضمنهم ما أتلفوا)

٥- **لزوم العمل بالحق والعدل مهما كلف:** وروينا عنه صلوات الله عليه أنه خطب الناس بعد أن بايعوه، فقال في خطبته: ألا، وكل قطعة أقطعها عثمان أو مال أعطاه من مال الله فهو رد على المسلمين في بيت مالهم، فإن الحق لا يذهبه الباطل، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو وجدته قد تزوج به النساء وتفرق في البلدان لرددته على أهله، فإن في الحق والعدل لكم سعة، ومن ضاق به العدل فالجور به أضيق).

الأحاديث الواردة كلها نقلت من [دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي ج ١ ص ٣٩٥].

ميكانيزما تحويل توجهات الكتلة الحرجة

في عملية التحول والتغير الاجتماعي عند البشر نجد ثمة أربعة عناصر أساسية تشكل حدود وطبيعة وتوجهات هذه العملية، وهي:

١- **المصلح (العنصر الإيجابي بالذات)**: ونرمز إليه رياضياً بالرمز (+)، وهو نسق ثابت غير متحول لا يقبل التغير في طبعته الذاتية.

٢- **الصالح (العنصر الإيجابي بالعرض)**: ونرمز إليه رياضياً بالرمز (+/-)، وهو نسق متحول غير ثابت قابل للانتقال من وضع إلى وضع آخر.

٣- **المفسد (العنصر السلبي بالذات)**: ونرمز إليه رياضياً بالرمز (-)، وهو نسق ثابت غير متحول لا يقبل التغير في طبعته الذاتية.

٤- **الفاسد (العنصر السلبي بالعرض)**: ونرمز إليه رياضياً بالرمز (-/+)، وهو نسق متحول غير ثابت قابل للانتقال من وضع إلى وضع آخر.

تعريف الكتلة الحرجة: هي أحد العنصرين الموجهين في العملية الإصلاحية والتغييرية، والتي يتوقف كسب الصراع بين المصلح والمفسد على تحويلها إلى جانبه، لأن تحويل أيّ عنصر من العنصرين إلى إحدى الجهتين معناه تشكيل كمية كبيرة ذات أطراف ثلاثة في قبال كمية صغيرة ذات طرف واحد فحسب، هو الطرف المتبقي بعد خروج الكتلة الحرجة من تحت تصرفه. فالإخلال بمعادلة التوازن في الصراع بين المصلح والمفسد يتوقف على حركة الكتلة الحرجة وانتقالها من جهة إلى جهة معاكسة.

معطيات تحويل الكتلة الحرجة:

التحول الإيجابي: يكون بتحول العنصر الفاسد إلى جهة المصلح والصالح بنفي جهته السلبية، فتكون النتيجة رياضياً بهذه الصورة: المصلح + الصالح +

الفاسد [المتحول] مقابل المفسد.

التحول السلبي: يكون بتحول العنصر الصالح إلى جهة المفسد والفاسد بنفي جهته الإيجابية، فتكون النتيجة رياضياً بهذه الصورة: المفسد + الفاسد + الصالح [المتحول] مقابل المصلح. ويلقي القرآن الكريم الضوء على هذه التحولات في حركة الكتلة الحرجة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٣٨-٥١].

الحقبة السامرية الرمزية التاريخية لمراحل التيه البشري

قال الله تعالى متحدثاً عن الحقبة السامرية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ
وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا
تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى
أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)
فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ
عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا
أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)
فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا
يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ
إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ
يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً
مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي
الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا
(٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠)﴾ [طه: ٨٠-١٠٠].

معالم الحقبة السامرية من البدء حتى المنتهى:

المعلم الأول: خروج التجربة الاجتماعية من وضعية الخطر ودخولها مرحلة

التشكل والتميز ضمن خصوصياتها الثقافية والاجتماعية والمرجعية.

المعلم الثاني: غياب المرجعية الأصلية المؤسسة واختفائها عن الساحة.

المعلم الثالث: تأسيس مرجعية الأصل لمرجعية الفرع في مرحلة غيابها.

المعلم الرابع: في ظل غياب المرجعية المؤسسة وسلطتها التي تمتلكها على الأتباع تبرز أدوار فضولية متطفلة سرعان ما تتحول إلى مرجعيات تنافس المرجعية الشرعية على تمثل الأصل المؤسس.

المعلم الخامس: بروز دور الأكثرية العمياء المغفلة في التأسيس لمرجعية السامري (الشخصية التي تجيد استغلال الظروف وإرباك الساحة ومصادرة كل النتائج الإيجابية التي تحققت في المرحلة السابقة).

المعلم السادس: استضعاف الأقلية الواعية التي ظلت تمتلك البصيرة النافذة وإخراجها من قبل الأكثرية العمياء عن التأثير في مجريات الأحداث.

المعلم السابع: اكتشاف السامري (المخادع) عنصر التحويل الذي يعطيه قدرة على خداع المغفلين وأصحاب المصالح والمرتبطين بمرحلة ما قبل الإصلاح والتغيير.

المعلم الثامن: استلزامات حمل أثقال المرحلة السابقة التي أخذها بنو إسرائيل من فرعون وقومه وأضافوها إلى زينتهم، وكل ذلك استغله السامري لبناء صورة موازية للدين الجديد.

المعلم التاسع: الحبكة السامرية التي أشار إليها تعالى بقوله في شأن السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ. . .﴾ ما كان بالإمكان أن تكشف من قبل الجماهير العمياء مهما استمر مداها.

المعلم العاشر: العودة لعبادة الجسد الذي يتحايل السامري لبعث الروح فيه بكل حيلة ووسيلة.

المعلم الحادي عشر: نسف كل تأسيسات الحقبة السامرية مع استمرارها كنسق مكبوت في حياة البشر يعاود الظهور كلما سنحت له الفرصة.

المعلم الثاني عشر: إعادة اكتشاف الأصول واستخراج المدفون تحت تراكمات الحقبة السامرية.

أنماط الارتباط الثنائي في العلاقات البشرية

يقوم الارتباط الثنائي بين الأفراد والجماعات في أي مجتمع بشري وفق أحد الأنماط الثلاثة التالية:

النمط الأول: التظالم والقهر في العلاقات (مجتمع الطبيعة): وبشأن هذا النمط يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٤].

النمط الثاني: العدل والإنصاف وحسن السيرة (مجتمع العقل): وبشأن هذا النمط يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ [الأنفال ٧٢]. ويقول سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة ٧١]. وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥].

النمط الثالث: المحبة والإيثار والتفضل (مجتمع الشريعة): وبشأن هذا النمط يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر ٩].

وفي الخبر (عن المعلى بن خنيس قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما حق المؤمن على المؤمن؟ قال: سبع حقوق واجبات ما فيها حق إلا وهو عليه واجب إن خالفه خرج من ولاية الله وترك طاعته، ولم يكن لله عز وجل فيه نصيب، قال: قلت: جعلت فداك حدثني ما هن؟ قال: يا معلى إني شفيق عليك أخشى أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل، قلت: لا قوة إلا بالله. قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، والحق الثاني أن تمشي في حاجته وتبتغي رضاه ولا تخالف قوله، والحق الثالث أن تصله بنفسك ومالك، ويدك ورجلك، ولسانك، والحق الرابع أن تكون عينه ودليله ومرآته وقميصه، والحق الخامس أن لا تشبع ويجوع، ولا تلبس ويعرى، ولا تروي ويظمأ، والحق السادس أن تكون لك امرأة وخادم وليس لأخيك امرأة ولا خادم أن تبعث خادمك فتغسل ثيابه، وتصنع طعامه، وتمهد فراشه، فان ذلك كله إنما جعل بينك وبينه، والحق السابع أن تبر قسمه، وتجيب دعوته، وتشهد جنازته، و تعوده في مرضه، وتشخص بدنك في قضاء حاجته، ولا تحوجه إلى أن يسألك، ولكن تبادر إلى قضاء حاجته، فإذا فعلت ذلك به، وصلت ولايتك بولايته، وولايته بولاية الله عز وجل) [بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ١٧، ص ٢٢٤].

وقال (الإمام الكاظم عليه السلام - لجعفر بن محمد العاصمي -: يا عاصم! كيف أنتم في التواصل والتواسي؟ قلت: على أفضل ما كان عليه أحد، قال: أيأتي أحدكم إلى دكان أخيه أو منزله عند الضائقة فيستخرج كيسه ويأخذ ما يحتاج إليه فلا ينكر عليه؟! قال: لا، قال: فلستم على ما أحب في التواصل) [ميزان الحكمة - الريشهري ج ٤، ص ٣٥٢٨].

صناعة الأغبياء لرمزيات الأشقياء
برمجيات إنتاج الأنساق المهيمنة في الاجتماع البشري

الرمزيات كثيراً ما يصنعها الأغبياء سواء على مستوى الشخصيات أم على مستوى الأفكار والقيم، وهنا نهتم بإبراز دور الأغبياء في صناعة الرموز والشخصيات الرمزية، وهذا الدور الذي يقوم به الأغبياء ينصب أساساً ضمن صناعة الأغبياء للرمزيات المهيمنة ضمن الفضاءات التالية:

أولاً: صناعة علماء السوء والمسوخ العلمية في الفضاء المعرفي: وقد أشار الباري تعالى في جملة من الآيات إلى دور الأغبياء في صناعة مثل هذه الرموز كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٠-٣٥].

ثانياً: صناعة الطغاة والمستبدين في الفضاء السياسي: وقد أشار الباري تعالى

في جملة من الآيات إلى دور الأغنياء في صناعة مثل هذه الرموز كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤].

ثالثاً: صناعة المترفين وأصحاب رؤوس الأموال في الفضاء الاقتصادي: وقد أشار الباري تعالى في جملة من الآيات إلى دور الأغنياء في صناعة مثل هذه الرموز كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

ملاحظة أساسية: كما هو واضح أن الدور الذي يقوم به الأغنياء بالتعاون مع هذه الرمزيات المهيمنة يرتبط بعناصر ثلاثة هي الأهم والأساس في إدارة الاجتماع البشري، وأعني بها: المعرفة، والسلطة، والثروة، وهي المفاصل الأهم في تشكيل وصياغة كل مجتمع بشري.

الحسين عليه السلام.. ولادة متجددة للأمة والمشروع والقيادة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (هذا الحسين خير الناس جدا وخير الناس جدة جده رسول الله وجدته خديجة سابقة نساء أمتي إلى الإيمان بالله ورسوله. هذا الحسين خير الناس أبا وخير الناس أما أبوه فعلي أخو رسول الله ووزيره وابن عمه وأمه فاطمة سيدة نساء أهل الجنة من الأولين والآخرين. وهذا الحسين بن علي أخير الناس عما وأخير الناس عمة، عمه جعفر بن أبي طالب المزين بالجناحين يطير بهما مع الملائكة حيث شاء وعمته أم هانئ بنت أبي طالب. وهذا الحسين أخير الناس خالا وأخير الناس خالة خاله القاسم بن رسول الله وخالته زينب ابنة رسول الله ثم وضعه على منكبه فدرج بين يديه. ثم قال: أيها الناس هذا الحسين بن علي جده في الجنة وجدته في الجنة وأبوه في الجنة وأمه في الجنة وعمه في الجنة وخاله في الجنة وخالته في الجنة وأخوه في الجنة. ثم قال: يا أيها الناس إنه لم يعط أحد من ورثة الأنبياء المرسلين ما أعطي الحسين بن علي ما خلا يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم فلا تخالجكم الأمور في أن الفضل والشرف والمنزلة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولذريته وأهل بيته فلا يذهبن بكم الأباطيل) [مناقب أمير المؤمنين عليه السلام، محمد بن سليمان الكوفي ج ٢، ص ٤٢٢]. في ذكرى ولادة الإمام الحسين عليه السلام نحن أمام ثلاث معطيات لابد أن نجدد استذكارها والنظر فيها، وتلك المعطيات الثلاث التي ترتبط بولادة هذه الشخصية العظيمة المباركة هي:

أولاً: الأمة: فولادة الحسين عليه السلام ترتبط ربطاً مباشراً بواقع الأمة المسلمة في كل زمان ومكان، لأنها كانت المعنية بجهاد وجهود هذه الشخصية والتي قالت: (وأني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي

وأبي علي ابن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين) [البحار، ج٤٤، ص ٣٢٩].

ثانياً: المشروع: فالدين الذي جسد مشروع الحسين عليه السلام استمر وبقي خالداً منزها من ألاعيب السلاطين بفضل الثورة التغييرية الكبرى التي أطلقها الإمام الحسين عليه السلام والتي رفضت الاعتراف بمشروعية أيّ تلاعب يكون باسم الدين من قبل السلطة الأموية الحاكمة، ولذلك قال عليه السلام حينما طلب منه الوليد بن عتبة والي المدينة البيعة ليزيد: (إن البيعة لا تكون سرا ولكن إذا دعوت الناس غدا فادعنا معهم. فقال مروان: لا تقبل أيها الأمير عذره ومتى لم يبايع فاضرب عنقه. فغضب الحسين عليه السلام ثم قال: ويل لك يا بن الزرقاء! أنت تأمر بضرب عنقي؟ كذبت والله ولؤمت. ثم أقبل على الوليد فقال: «أيها الأمير! إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله، وبنا ختم الله، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة؟). [اللهوف في قتلى الطفوف، ابن طاووس، ص ٣٨-٣٩].

ثالثاً: القيادة: وقد استطاعت شخصية الحسين عليه السلام أن تكشف عن الدور البالغ الأهمية التي تلعبه القيادة الواعية في توجيه الأمة وتحريك جموعها عبر الزمن لتحقيق غايات المشروع والوصول إلى أهدافه، وقد أفصح عن رؤيته الثاقبة في تحمل متطلبات المهمة القيادية التي ألقيت على عاتقه بالقول: (ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنين وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلة الناصر) [ن م، ص٥٩].

المحاور الأساسية في تطوير إمكانيات الاستقطاب المعرفي

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل ٧٨].

تتبلور عناصر الاستقطاب المعرفي ضمن ثلاثة محاور أساسية هي:

المحور الأول: الذات: (الذات المتعلمة)، وهذا العنصر يتمثل دوره الإيجابي في العملية التعليمية من خلال تطوير الإمكانيات الذاتية للاستيعاب المعرفي وهو لا يتمّ إلاّ من خلال السير في آفاق النفس واكتشاف وتوجيه طاقاتها وقدراتها الداخلية، وفي هذا الشأن روي هذا الخبر في بعض الكتب السالفة: (يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزله ولا في تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به العلم محصور في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا بأخلاق الصديقين أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم ويعمركم انتهى) [فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ج ٤ ص ٥١٠].

وعن الإمام علي عليه السلام: (يا كميل إن هذه القلوب أوعية، وخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك) [شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي ج ٢ ص ٣٦٩].

المحور الثاني: الكتاب: (كتاب التدوين)، ومن أجل إبراز أهمية هذا المحور نبه القرآن الكريم على حقائق عدة في التعامل مع الكتاب المدون، أهمها:

١- أن تكون الكلمة المدونة من الله، قال تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم ١]، وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ١-٣]، وقال عزّ اسمه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء ١٠٥].

٢- أن تقرأ الكلمة المدونة باسمه، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥].

٣- أن تنتهي الكلمة إليه، قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر ١٠].

المحور الثالث: الكون: (كتاب التكوين)، وهو الكتاب الذي دعانا الله عزّ وجلّ لفتحه وتصفحه على الدوام، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك ١٩]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣-٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٤٦].

آليات التواصل المعرفي في المحاور الثلاثة: يشير القرآن إلى الآليات الثلاث المتمثلة في السمع والبصر والفؤاد بوصفها آليات التواصل المعرفي في المحاور الثلاثة للاستقطاب المعرفي، فالسمع وسيلة المعرفة للكتاب التدويني، والبصر وسيلة المعرفة للكتاب التكويني، والقلب أو الفؤاد وسيلة المعرفة بالذات، ومن خلال تفعيل مهام هذه الوسائل الثلاث يتعرف الإنسان على الحق وتستقطب معرفته حقائق الوجود كلها، وهو المنتهى الذي تنتهي إليه أيّة معرفة حقة وواضحة، ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت ٥٣].

القيم الدينية في مواجهة تأثيرات ثورة الإنفوميديا

القيم الدينية في مواجهة تحديات العصر: تواجه القيم الدينية اليوم بالعديد من الإشكاليات في ظل أنظمة التواصل المعلوماتي التي أفرزتها تقنية الحداثة وما بعد الحداثة في مجتمعات لا تتوفر على انسجام فكري ونفسي وسلوكي مع منظومة الحداثة، وقد أوجدت حالة فقد التوافق والانسجام مع فروضات وضرورات العصر وضعية مضطربة ما برحت ذات المسلم المعاصر ترزح تحت وطأتها، ولعل السبب الأساس في هذه الوضعية هو افتقاد المسلم قدرة التكيف مع ضرورات الزمن التي باتت تسبقه وتستقطب اهتماماته من دون أن يتمكن من مواجهتها والتحكم فيها، وقد وعت النصوص الدينية التي يفترض أن تكون أساساً لمعرفتنا الدينية عمق هذه الإشكالية بين الإنسان والزمن، ونكتفي بذكر هذه المجموعة من النصوص التي يمكن لها أن تلقي الضوء على طبيعة المشكلة التي نواجهها كمسلمين في علاقتنا بعصرنا الحاضر، وتلك النصوص هي:

١- قول الإمام الصادق عليه السلام: العالم بزمانه، لا تهجم عليه اللوابس.

٢- قول الإمام علي عليه السلام: حسب المرء من عرفانه، علمه بزمانه.

٣- قوله عليه السلام: أعرف الناس بالزمان، من لم يتعجب من أحداثه.

٤- قوله عليه السلام: من وثق بالزمان صرع.

٥- قوله عليه السلام: من أمن الزمان خانه، ومن أعظمه أهانه.

٦- قوله عليه السلام: من أمن الزمان خانه، ومن تعظم عليه أهانه، ومن ترغم عليه أرغمه، ومن لجأ إليه أسلمه، وليس كل من رمى أصاب، وإذا تغير السلطان تغير الزمان.

٧- قوله عليه السلام: الزمان يخون صاحبه، ولا يستعتب لمن عاتبه.

٨- قوله عليه السلام: من تشاغل بالزمان شغله[ميزان الحكمة، محمدي

الريشهري ج ٢ ص ١١٥٨].

وفي ظل هذه العلاقة الملتبسة مع العصر بكل تداعياته أصبح لدينا مجموعة من الإشكاليات تستدعي مجموعة من الحلول المقاومة، ولأجل توضيح هذه الإشكاليات مع حلولها المنظورة نقول:

الإشكالية الأولى: وهي إشكالية معرفية تتمثل في إخفاقات المعرفة الدينية التقليدية. والحل المنظور لهذه الإشكالية يتمثل في ضرورة الإسراع في مهام تطوير المعرفة الدينية في ما يرتبط باهتمامات الإنسان المعاصر وفي مختلف الشؤون والمجالات، ولاسيما المجالات التي ظلت بعيدة عن بؤرة الاهتمام الديني المعرفي بها كما هو الشأن بالنسبة إلى موضوعة «إدارة المعرفة».

الإشكالية الثانية: وهي إشكالية شعورية تتجسد في تهاوي القيم الأخلاقية المنغلقة التي صارت تغلف أحاسيسنا وتمنعنا من التنفس والتفاعل مع ما يدور من حولنا، وقد تحطم الجدار السميك لهذه الأحاسيس واخترق من قبل الآخر الفاعل والمؤثر. والحل المنظور أنه لا يمكن لأية منظومة أخلاقية من القيم أن تبقى بعيدة عن التأثر بما يدور حولها من تغيرات، ولاسيما إذا ما كانت التغيرات متسارعة وعاصفة وشاملة، وهذا ما يستوجب إصلاح أعطاب منظومة الردع الأخلاقي عند المسلمين من خلال تطويرها وتحديثها وترقيتها وتطعيمها بعناصر جديدة تنشط فاعليتها.

الإشكالية الثالثة: وهي إشكالية مظهرية عملية تتمثل في انفلات السلوكيات العملية وتحررها وتبدل المعايير الاجتماعية للقيم والطبائع والعادات والأعراف، وهو أمر طبيعي في ظل استحكام سيطرة منظومة القيم الوافدة والدخيلة. والحل المنظور يستدعي تطوير إمكانيات المواجهة بين منظومتين حضارتين متضاربتين أشد التضارب، وهنا يتبلور مبدأ التدافع بوصفه مبدأ أساسي يحكم العلاقات المتدافعة والرغبات المتضاربة بين بني الإنسان، إذ يقول تعالى: ﴿... وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة ٢٥١].

أساسيات الإدراكات الترابطية بين الكلمات والأشياء

الإدراك الترابطي هو العملية التي يقوم من خلالها الذهن بمهام الربط بين المفاهيم والكلمات والأشياء والأحداث ومستلزماتها بصورة سريعة وصحيحة، وفي ضوء ذلك تنقسم الناس إلى ثلاثة أقسام من حيث ما تتوفر عليه من قدرات الربط والانتقال بين اللازم والملزوم، وهذا ربما يفصح عنه الحديث الآتي عن الإمام الصادق عليه السلام الذي يبيّن فيه مراتب الناس في تحقيق عملية ألفهم والإدراك، والذي يرجع في النهاية إلى ضعف أو قوة قدرات الإدراك الترابطي عند الإنسان، ف(عن إسحاق، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل آتيه أكلّمه ببعض كلامي فيعرف كلّه، ومنهم من آتيه فأكلّمه بالكلام فيستوفي كلامي كلّه ثم يردّه عليّ كما كلّمته، ومنهم من آتيه فأكلّمه فيقول: أعد عليّ. فقال: يا إسحاق أو ما تدري لم هذا؟ قلت: لا. قال: الذي تكلّمه ببعض كلامك فيعرفه كلّه فذاك من عجنت نطفه بعقله، وأمّا الذي تكلّمه فيستوفي كلامك ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركّب عقله في بطن أمّه، وأمّا الذي تكلّمه فيقول أعد عليّ فذاك الذي ركّب عقله فيه بعد ما كبر، فهو يقول أعد عليّ) [البحار، ج١، ص٩٧].

ففي هذا الحديث يبدو الناس بين ثلاثة مراتب هي: الضعف والتوسط والقوة. وتوضيح هذه المراتب الثلاث بالقول:

١- الفهم الضعيف أو الغبي هو الذي يعجز عن تفهم الكلمات والأشياء في حدّ ذاتها، ويعجز أيضاً عن إدراك الترابطات في ما بينها.

٢- الفهم المتوسط أو الغالب هو الذي يفهم المراد من الكلمات والأشياء ولكنه إما أن يعجز عن إدراك ارتباطاتها ولوازمها المطلوبة من رأس، أو أنه يتأخر في

فهم المطلوب من ورائها.

٣- الفهم القوي أو الذكي هو الذي يفهم مرادات الكلمات والأشياء وينتقل إلى لوازمها المطلوبة منها بسرعة واقتدار.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه النماذج الثلاثة من خلال تقسيمه الثلاثي في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة: ٧-١٤]. فأصحاب المشئمة هم أولئك الذين افتقدوا القدرتين العلمية والعملية اللازمتين لتحصيل السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة. وأصحاب الميمنة هم من توفروا على قدرة عملية نالوا بها النجاة الأخروية والسعادة الدنيوية، ولكنهم عدموا القدرة العلمية التامة في إدراك الترابطات والوصول إلى كنه المعرفة الحقة. وأما السابقون فهم أولئك المقربون الذين حظوا بتمام الكمال والتكامل فحازوا درجات السعادة كلها وارتقوا في مراتب النجاة بأجمعها وسقاهم ربهم شراباً طهوراً، طهرت به عقولهم وقلوبهم وأجسادهم، فصح علمهم وسلم عملهم من كل ما سوى الله، فكانوا كما قال إمامهم وسيدهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله).

ويذكر القرآن الحكيم بالعديد من النماذج البشرية التي تقصر عن فهم الترابطات بين الكلمات وبين الأشياء مما يجعلهم غير قابلين للتعلم والتطور، فيقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٦-١٧]، وقال عز اسمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٣] [الأنفال ٢٠-٢٣].

أنظمة توجيه السلوك الإنساني

هناك ثلاثة أنظمة لتوجيه السلوك الإنساني، ومن خلالها يصدر الإنسان في أفعاله وممارساته، وتلك الأنظمة الثلاثة هي:

١- **النظام الطبيعي الحيواني**: وهو الذي يصدر الإنسان في أفعاله عنه بمقتضى طبيعته الأولية الحيوانية غير الملتزمة بمقتضيات العقل ولا ضوابط الدين، وقد ألمح القرآن الحكيم إلى كيفية صدور الكثير من النماذج البشرية في مواقفها وتصرفاتها من هذه الطبيعة الحيوانية الأولية.

فقال تعالى في شأن من لا يتحمل مسؤولية العلم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة ٥].

وقال في شأن العالم الذي ينسلخ من العمل بمقتضى علمه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وقال في شأن الكافرين من بني البشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد ١٢].

٢- **النظام العقلائي البشري**: وهو الذي يصدر الإنسان في أفعاله وممارسته عنه بمقتضى ما ركب فيه من عقل قادر على الإدراك الكلي لمصالح ومفاسد معينة

ومحدودة في ما ينبغي فعله وما ينبغي تركه، ورغم تطور هذا النظام إلاّ أنه غير كاف لوحده في توجيه السلوك الإنساني لأمر مهم وهو أن العقل الإنساني إنما يدرك الأمور بنحو الكلية ويعجز عن تشخيص جزئياتها، والمفيد في مقام الأمر والنهي إنما هو العلم بالجزئيات، لا إدراك الكليات فحسب، ومن هنا فإنه كثيراً ما تخفى عليه الملاكات الخاصة في المأمور به أو المنهي عنه مما لا يجعله يلتفت إلى مقتضيات الأمر والنهي الإلهيين الذين لا يعزب عن علمهما شيء.

ومن هنا احتاج نظام التوجيه العقلائي إلى نظام توجيه إلهي ليستتم ما نقص منه ويستعلم ما خفي عنه، وهو الأمر الذي يوضحه هذا الحديث عن إمامنا الصادق عليه السلام، فقد روي (عن الحسن بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: أن أول الأمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلا به، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونورا لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنهم مخلوقون، وأنه المدبر لهم، وأنهم المدبرون، وأنه الباقي وهم الفانون، واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليلة ونهاره، وبأن له ولهم خالقاً ومدبرا لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وأن الظلمة في الجهل، وأن النور في العلم، فهذا ما دلهم، عليه العقل. قيل له: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟ قال: إن العاقل لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته، علم أن الله هو الحق، وأنه هو ربه، وعلم أن لخالقه محبة، وأن له كراهية، وأن له طاعة، وأن له معصية، فلم يجد عقله يدله على ذلك وعلم أنه لا يوصل إليه إلا بالعلم وطلبه، وأنه لا ينتفع بعقله، إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الذي لا قوام له إلا به) [الكافي، الكليني ج ١ ص ٢٩].

٣- **النظام الديني الإلهي**: وهو الذي يصدر الإنسان عنه في أفعاله وممارساته بمقتضى الأمر والنهي الإلهيين الصادرين عن علمه الشامل الذي لا يعزب عنه شيء في السماء ولا في الأرض، قال تعالى: ﴿. . . وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل ٨٩].

إشكاليات تقنين الأحوال الشخصية

تمهيد: يستثار الحديث عن قانون الأحوال الشخصية على الدوام في بداية أيّة تجربة إصلاحية أو تحديثية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وتنقسم الناس كما هو العادة بين مؤيد ومعارض، ويشغل الرأي العام بالتصريحات والتصريحات المضادة من دون أن تسفر القضية في النهاية عن تغييرات ملموسة في الخلفية التي انطلق الحديث عن قانون الأحوال الشخصية استناداً إليها وبسببها، مما يعني أن للمشكلة أوجهاً وأبعاداً أخرى ينبغي أخذها بعين الاعتبار حين مناقشة هذه القضية.

وبودنا أن نسجل هنا ملاحظات عدّة على السجال الدائر بهذا الشأن:

الملاحظة الأولى: تسييس موضوعة قانون الأحوال الشخصية: إن الصراع بين المؤيدين والمخالفين لطرح وتقنين الأحوال الشخصية عادة ما يدور بين دعاة العلمنة ودعاة الأسلمة، في الوقت الذي ينبغي أن ينطلق الاختلاف من الأجواء التي يفرضها غياب مرجعية قانونية قادرة على حل المشكلات المتنامية والمتفاقمة في دائرة الأحوال الشخصية.

الملاحظة الثانية: غياب دور فاعل للقضاء الشرعي في تطوير وإصلاح مؤسسة القضاء: عادة ما يمتنع القضاء الشرعي في الدول الإسلامية عن تطوير نفسه بحسب متطلبات العصر وطبيعة المشاكل المثارة في عالمنا المعاصر، والتي تختلف من حيث أسبابها وترابطاتها مع طبيعة المشاكل المثارة قديما، وإن اتحدت معها من حيث الصورة والمظهر، وهذا ما يوجب على القائمين على القضاء الشرعي من تطوير آلياتهم وإمكانياتهم بالشكل الذي يحدّ من تفاقم الظواهر والأزمات ضمن إطار الأحوال الشخصية. وعدم قدرة القضاء الشرعي على تطوير وتحسين أوضاعه

يضغط على السلطات الوضعية في عالمنا الإسلامي باتجاه القبول بقانون مدني مقنن للأحوال الشخصية اعتقاداً منها أن هذا هو السبيل الوحيد للخروج من الأزمة.

الملاحظة الثالثة: غياب المؤسسات الاجتماعية المكملة لمهام ودور القضاء: لا ينبغي الاقتصار على القضاء الشرعي أو المدني في حل المشاكل الاجتماعية التي تندرج تحت اهتمام ما يسمى بقانون الأحوال الشخصية، فمجتمعاتنا تفتقد المؤسسات التي تتفهم طبيعة المشاكل التي تحدث ضمن دائرة الأحوال الشخصية، كما أنه ليس هناك من مؤسسات فاعلة بالقدر المطلوب في التصدي لهذه المشاكل والاهتمام بوضع حلول عملية لها.

الملاحظة الرابعة: غياب آليات المراقبة والمحاسبة التي تكفل نزاهة القضاء وعدم إمكانية استغلال السلطة أو سوء استخدامها أو الفوضى في إدارتها: فالكثير من المشتغلين بمهام القضاء المدني، والشرعي بشكل أخص يفتقدون أولاً القدرات اللازمة لإدارة مهام القضاء، وبتعبير حديث: يفتقدون المهارات اللازمة لتأدية العمل على وجهه المطلوب، وثانياً تغيب عن القضاء أجهزة الرقابة والرصد التي يستشعر القاضي من خلالها أن الباب موصد أمامه لاستغلال الصلاحيات الممنوحة له. وقد أثار الإمام الصادق عليه السلام هذه الإشكالية في مواجهة القاضي بن أبي ليلى حين قال له: (اخبرني عنكم - معاشر القضاة - ترد عليكم القضية في المال والفرج والدم، فتقضي فيها انت برأيك، ثم ترد تلك القضية على قاضي مكة فيقضي فيها بخلاف قضيتك، وترد على قاضي البصرة، وقاضي اليمن، وقاضي المدينة، فيقضون فيها بخلاف ذلك، ثم تجتمعون عند خليفتكم الذي استقضاكم، فتخبرونه باختلاف قضاياكم، فيصوب رأي كل واحد منكم، [والهكم واحد] ونبيكم واحد ودينكم واحد، فأمركم الله باختلاف فاطعمتوه؟ أم نهاكم عنه فعصيتموه؟ أم كنتم شركاء الله في حكمه، فلكم أن تقولوا وعليه أن يرضى؟ أم أنزل دينا ناقصا فاستعان بكم في إتمامه؟ أم أنزله تاما فقصر رسول الله صلى الله عليه وآله عن أدائه؟ ماذا تقولون؟) [مستدرك الوسائل، النوري ج ١٧، ص ٢٤٦-٢٤٨].

الإمام الخميني ومتطلبات تأسيس النموذج الإسلامي

عمل الإمام الخميني (قدس سره) على أن ينجز مشروعاً إسلامياً يخرج الإسلام من حيز النظرية إلى حيز التطبيق، وبدل أن يبقى العلماء والإسلاميون بشكل عام في حيز مواجهة إشكاليات الفكر والنظر أقحمهم الإمام الراحل في مواجهة جدية مع إشكاليات الواقع والعمل، وقد جاءت محاولة تأسيس النموذج الإسلامي من قبل الإمام الراحل عبر العمل على تحقيق المتطلبات التالية:

متطلبات نظرية معرفية: تمثلت في محاولة الإمام الخميني لإعادة ترسيخ جذور الثقافة الإسلامية وتأكيد الاعتزاز بها في مواجهة المشروع التغريبي الثقافي، إذ يقول: (إن ما يبني الأمة هو الثقافة السليمة)، و(إن الثقافة هي مبدأ سعادة أو تعاسة الأمة) و(إذا ما وجدت الثقافة السليمة فإن الدولة ستصلح)، ويتحسر الإمام الراحل على إغفال الكثير من المسلمين لأهمية تراثنا الإسلامي الزاخر بمنظومة معرفية وحقوقية متكاملة، فيقول: (كل الأسف إن بلداننا الإسلامية التي تتوفر على منظومة للحقوق الإسلامية والقضاء الإسلامي والثقافة الإسلامية لا تعير أهمية لهذه الثقافة وتلك المنظومة الحقوقية وتلهث وراء الغرب من أجل أن تستعير منه).

متطلبات نفسية وروحية: من أجل أن يحقق الإمام الراحل نموذجه النظري حول مشروع الدولة الإسلامية والكيان السياسي ويخرجه من حيز النظرية إلى الواقع ويستمر في الحفاظ على هذا المشروع بعد ولادته وتأسيسه كان لابد من أن يقوم بمهمة التحفيز المتواصل والدؤوب والعمل على دفع كل الطاقات وتسخيرها باتجاه تأسيس النموذج المنشود أولاً، والحفاظ عليه وتطويره ثانياً، وهي المهمة التي أتقنها وأجادها الإمام الراحل بكل اقتدار فقد امتلك من العزم والإرادة ما حقق من خلاله

المستحيل في منطق العصر والزمان، وقد كان يستحث كل القوى المستضعفة بالقول: (يجب على كل مستضعفي العالم إن يسترجعوا حقوقهم بكل اقتدار وقوة، وأن لا ينتظروا من المستكبرين أن يعيدوا إليهم حقوقهم المسلوبة فإن المستكبرين لن يرجعوا إلى أحد حقه).

متطلبات عملية وإدارية: لم يكن الإمام الخميني (رحمه الله) مجرّد منظر بارع في صياغة الأفكار والنظريات التي تبدو جميلة ورائعة في مقام الفكر والنظر، ولكنها تخفق حينما تقارب الواقع وتلامس مجالات الفعل والعمل، لأنها لا تفهم الواقع ولا يمكن أن تتواصل معه أو أن تغيره، بل كان يقرن القول بالعمل ويهتم بتحديد الآليات ومواجهة الإشكاليات التي تعيق الفكرة عن أن تتحول إلى ممارسة، ولأنه كان رجل قيادة وإدارة فقد استوفى الأسباب والشرائط اللازمة لنجاح مهام إدارة الدولة والمجتمع، وفي الواقع لقد مثل هذا الرجل نموذجاً يحتذى به في منهجية العمل الإسلامي، فلقد أصل أصولاً عملية كان المشروع الإسلامي في العصر الحديث بحاجة إلى إعادة انتباه إليها، ولعل أهمها:

١- الاهتمام بتفعيل وإبراز عناصر التحفيز الاجتماعي للأمة والمتمثلة بمخزونها من التراث الديني والروحي.

٢- الكشف عن القدرات الكامنة التي تنطوي عليها الأمة في مجال الإبداع والتجديد المعرفي والاجتماعي والسياسي والإداري والصناعي.

٣- مسح وإلغاء أي مظهر من مظاهر الخنوع والاحتقار للذات في مواجهة الآخر وقدراته، والتأكيد على القدرات الذاتية للأمة.

٤- فهم العصر ومتطلباته على مستوى الفكر والخطاب والممارسة، وعدم التحجر أو الانغلاق في مواجهته بكل تداعياته، أو الانسحاق والتراجع أمام وطأته وثقله. ومن خلال ذلك استطاع الإمام الراحل أن يحظى بحقق وحقيقة بلقب: (مجدد الإسلام ومحي الشريعة في القرن العشرين).

الحرية والعقل والدين
مثلث التكامل في الأنظمة الإنسانية

يمثل كل واحد من «الحرية» و«العقل» و«الدين» أنظمة مترتبة ومتصاعدة ومتكاملة في توجيه وصياغة السلوك الإنساني، وهذا ما نوضحه بالقول:

١- **الحرية**: الحرية نظام أولي يتميز به الإنسان عن بقية الموجودات، ومن خلال الحرية التي يتمتع بها يصيغ أفعاله وتصرفاته ويوجهها حسب ما تتطلب منه حريته، وهكذا تكون الحرية شرطاً تكوينياً للفعل الإنساني، فما يعطي الفعل صبغة الإنسانية هو صدوره عن الفاعل الحر المختار.

الحرية أساس دولة الطبيعة: في الطور الإنساني الأول عاش الإنسان بوصفه موجوداً طبيعياً له الحق في التصرف كيف ما شاء من دون مقيدات أو تحديدات أو توجيهات من عقل أو دين، ولكن الإنسان فارق هذا الطور بحكم العقل الذي توفر عليه ووهبه الله تعالى إياه.

٢- **العقل**: العقل نظام ثان أكرم به الإنسان وتميز به عن سائر الحيوانات، وهو الشيء الذي خرج به الإنسان بالحقيقة من أفق الطبيعة والحيوانية إلى مستوى العقل وشرف الفهم والتعلم، ومن هنا فالعقل شرط تكليفي تحمل الإنسان بموجبه المسؤولية، وقيد حريته المطلقة في الفعل الحيواني الطبيعي بمنطق العقل ومقتضياته.

العقل أساس دولة العقل: لأن الإنسان مزود بالعقل فقد رجع إليه في تكوين نظامه العام وأقام منظومة الحقوق والواجبات المتبادلة على أساس عقلي من أجل أن يبني الدولة المدنية التي تقوم على أساس عقلي مشترك بين كافة البشر، وقيام الإنسان بهذه الخطوة هو بمقتضى احترامه لعقله.

٣- **الدين**: يأتي الدين كنظام ثالث أكثر رقياً وتطوراً، وليس ملغياً لتأثير الطبيعة ودور العقل وإنما هو مكمل لهما، كأنظمة الترقية في أجهزة الحاسوب التي تتطور جيلاً بعد جيل متلافية نواقص الأنظمة السابقة ومكملة لقصوراتها، فالدين إذن نظام يتكامل مع نظامي الطبيعة والعقل.

الدين أساس دولة الشريعة: الدين شرط تكميلي تستدعيه الطبيعة الإنسانية لأنها قادرة على التوافق معه كنظام توجيه وتحكم، وهي تطلبه لقصور نظامي الطبيعة والعقل عن تحقيق كل متطلبات الإنسان في الرقي العقلي والسمو النفسي والتطور السلوكي، ومن هنا كانت الشريعة أساس الدولة الدينية بوصفها نظاماً إلهياً يتجاوز قصور الطبيعة وتقصير العقل.

تكامل التجربة الفردية والاجتماعية: وفي ضوء ما ذكرناه تكتمل التجربة الفردية للإنسان عبر توافق وتكامل الأنظمة الثلاثة المتمثلة في: الحرية والعقل والدين. كما أن التجربة الاجتماعية والسياسية للبشرية تتكامل من خلال تكامل وتوافق الحرية والعقل والدين في تأسيس دولة الطبيعة ومن ثم دولة العقل ومن بعدها دولة الشريعة.

نصوص دينية تكشف عن التواصل بين الحرية والعقل والدين:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب ٧٢].

٢- قول الرسول ﷺ: (يا علي إن أول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب) [الجواهر السنية، الحر العاملي ص ١٤٥].

٣- قول علي عليه السلام: (هبط جبرئيل على آدم عليه السلام فقال: يا آدم إنّي أخيّرك واحدة من ثلاث، فاختر واحدة ودع اثنتين، فقال له آدم: وما الثلاث يا جبرئيل؟ فقال: العقل والحياء والدين. قال آدم: فإني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين انصرفا ودعاه، فقالا له: يا جبرئيل إنّا أمرنا أن نكون مع العقل حيثما كان، قال: فشأنكما، وعرج) [بحار الأنوار، المجلسي، ج١، ص٨٦].

الإمامة... تأصيل لمفهوم القيادة في إدارة الجماعات

قال الله تعالى: ﴿... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا...﴾ [المائدة ٣].

عناصر التجربة الناجحة في الإدارة العامة في ضوء يوم الغدير:

وتتمثل هذه العناصر في: ١- المشروع، ٢- الأمة، ٣- القيادة.

متطلبات كل واحد من هذه العناصر:

المشروع: متطلبات المشروع الناجح: ١- الوضوح. ٢- الشمولية. ٣- ترابط العناصر. ٤- الواقعية.

وهذه العناصر الأربعة تكاملت وتوافرت في المشروع الديني الإسلامي الذي جاء به رسول الله ﷺ بوصفه الرؤية التنظيرية المتكاملة والكافية بوصفها عنصراً أولياً لتشكيل تجربة اجتماعية ناجحة في إدارة الشأن العام، فقد قال الله تعالى في حق هذا الدين الجديد الذي مثل مشروع التجربة الإسلامية: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة ٣٣].

الأمة: متطلبات الأمة الفاعلة: ١- ثبات الموقف. ٢- استمرار الأداء. ٣- تطور إيجابي. ٤- تماسك اجتماعي.

وهذه العناصر ألمح القرآن الكريم إلى توفرها بنسبة مقبولة في الأداء العام للأمة في عهد الرسول الأكرم ﷺ، إذ قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾
وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥].

وقد جمع الذكر الحكيم بين العنصرين الأولين في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٩٢].

القيادة: متطلبات القيادة المفلحة: ١- العلم. ٢- التقوى. ٣- الشجاعة. ٤- الزهد. وفي هذه الصفات يقول الإمام علي عليه السلام: (وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة) [نهج البلاغة، الخطبة ١٣١]

دلالات التنصيب في يوم الغدير: في يوم الغدير نص رسول الله صلى الله عليه وآله على من توفرت فيه هذه الصفات ضمن أفضل مستوياتها، وكان من الضروري أن يحدده باسمه وشخصه فقام خطيباً في القوم بعد فراغه من حجة الوداع قائلاً: (فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله).

وقد تمّ هذا التنصيب مقترنا بعدة إشارات:

الأولى: إنه كان استتماماً لمتطلبات نجاح التجربة الإسلامية، والمسبوقة بتحديد ملامح المشروع وهوية الأمة.

الثانية: إنه كان تحديداً للقيادة التي عرفت بقدرتها على خوض معارك الذات والانتصار فيها بالمستوى التي كانت قادرة على الانتصار في معاركها مع الأعداء.

الثالثة: إنه كان فرزاً في مسار الإسلام بين إسلام الشباب المندفع والفاعل وبين إسلام الشيوخ الباهت والذي مرد على النفاق واعتاد.

الدلالات الرمزية للثورة في وعي وحياة الأمة

قال الله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٤-٧٨].

ها هنا سؤالان مهمان يقفان في مواجهة الباحث عن تأثيرات حضور أو غياب الثورة عن وعي وحياة الأمة، وهذا السؤالان هما:

السؤال الأول: ما الدلالة التي يمكن أن تنطوي عليها حياة الأمة حينما تشكل الثورة بما هي عملية تغيير هادفة وواعية عنصراً حاضراً في وعيها الإنساني؟

الجواب: لحضور الثورة في وعي الأمة دلالات كثيرة أهمها:

أولاً: في المجال النفسي: إن الثورة تتحول إلى أسطورة يعتاش عليها المجتمع في مواجهة أصعب وأقسى الأزمات السياسية، فهي التي تعطيه ما يحتاجه من مخزون نفسي في مواجهة كل محنة خانقة وأزمة مستعصية.

ثانياً: في المجال الفكري: تتحول الثورة على مدى الأيام في وعي الجماهير إلى مدرسة فكرية قادرة على تأصيل منهج معيشي يستلهم على الدوام من الثورة الرمز الخطوط العريضة، وربما حتى النقاط التفصيلية لمنهج الأمة في الحياة.

ثالثاً: في المجال العملي: إن الثورة قادرة دائماً على أن تثير في مشاعر الأمة ووعيها استذكاراً مستمراً لحالات البطولة والفداء والعطاء اللامحدود من أجل الآخر، ومن أجل رمزية الذات في الوقت نفسه، وهذا ما يؤصله بشكل كبير مفهوم الشهادة حينما يقترن بواقع الثورة الرمز.

السؤال الثاني: ما الدلالات التي يمكن أن ينطوي عليها غياب أو تغييب الثورة التصحيحية الناقدة للأوضاع عن وعي وحياة الناس؟

الجواب: لغياب أو تغييب الثورة عن وعي الأمة دلالات كثيرة أهمها:

أولا: على المستوى النفسي: يتسارع الإنكسار والإحباط لمواقف الأمة في مواجهة المحن والأزمات حينما تفتقد الثورة الحضور في الوعي الجماهيري للناس، لأنها تنسج على غير منوال، وتفتقد الصورة المحفزة.

ثانياً: على المستوى الفكري: تعجز الأمة التي تفتقد الثورة كرؤية ومنهج عمل في وعيها الفكري عن استكمال أجزاء الصورة المعيشية للإنسان في مواجهة الواقع الحياتي، والذي لا يمكن أن تختزل الثورة كل ألوان الطيف فيه، ولكنها من المؤكد أحد أهم ألوانه الأساسية، والتي في كثير من الأحيان لا يكتمل جمال الصورة البشرية المعاشة إلا من خلال تواجده وحضوره، ولذا قال عزّ من قائل: ﴿. . . وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة ٢٥١].

ثالثاً: على المستوى العملي: تفتقد الأمة قدرة الحراك الفعلي في مواجهة اعتداء الآخر وتجاوزاته، لتتحول إلى أمة منفعلة غير فاعلة.

الثورة الحسينية.. منهج في الالتزام والثبات

من تجربة كربلاء وما سطرتها شخصياتها من ملاحم رائعة وفذة في البطولة والالتزام بالقضية والثبات على المبدأ نستفيد أن شخصية الفرد الملتزم ينبغي أن تبنى في ثلاثة اتجاهات متوازية:

الاتجاه الأول: التأسيس العقيدي والفكري للإنسان الملتزم: وفي هذا الشأن يبدو التأسيس العقيدي القوي والمحكم سمة تميز مواقف شخصيات كربلاء، وهذا هو مظهر لأحد مواقف الثبات والوضوح في الرؤية يحكيه لنا هذا المشهد التاريخي الذي يرويه عقبة بن سمعان عن الحسين عليه السلام وابنه علي الأكبر، إذ يقول: (سرنا معه ساعة فخفق وهو على ظهر فرسه خفقة ثم انتبه، وهو يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين» ففعل ذلك مرتين أو ثلاثا، فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين عليهما السلام على فرس فقال: مم حمدت الله واسترجعت؟ فقال: «يا بني، إني خفقت خفقة فعن لي فارس على فرس وهو يقول: القوم يسيرون، والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا» فقال له: يا أبت لا أراك الله سوءا، ألسنا على الحق؟ قال: «بلى، والذي إليه مرجع العباد» قال: فإننا إذا لا نبالي أن نموت محقين، فقال له الحسين عليه السلام: «جزاك الله من ولد خير ما جزى ولدا عن والده») [الإرشاد، الشيخ المفيد ج ٢ ص ٨٢].

الاتجاه الثاني: التأسيس النفسي والروحي للإنسان الملتزم: وفي هذا المجال نرى انشراح الصدر وطمأنينة النفس سمة لازمت الحسين عليه السلام وأصحابه في مواجهة الباطل بكل قواه وقدراته، ففي الخبر الذي يرويه الشيخ المفيد في الإرشاد يقول: (فقال حميد بن مسلم: فوالله ما رأيت مكثورا قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه

أربط جأشا ولا أمضى جنانا منه عليه السلام، إن كانت الرجالة لتشد عليه فيشد عليها بسيفه، فتنكشف عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب) [ن م، ص١١١].

الاتجاه الثالث: التأسيس العملي للإنسان الملتزم: وقد تجلّت في الثورة الحسينية بكل معطياتها ومواقفها مظاهر الصلابة، فكل العناصر التي ساهمت في صياغة ملحمة الطف جسدت مواقف إنسانية رائعة ومبدعة، وأهم تلك المواقف هي المواقف التي صاغها الشباب في واقعة الطف، والتي تمثلت أفضل تمثيل في موقف القاسم بن الحسن عليه السلام فقد خاض المعركة بعد أن أصرّ على عمه الحسين عليه السلام وهو فتى لم يخط عارضاه، وعنه يتحدث حميد بن مسلم قائلاً: (خرج إلينا غلام كأن وجهه شقة قمر في يده السيف وعليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى فقال عمرو بن سعيد بن نفيل الازدي: والله لأشدن عليه، فقلت له: سبحان الله وما تريد إلى ذلك، يكفيك قتله هؤلاء الذين تراهم قد احتوشوه من كل جانب قال والله لأشدن عليه فما ولى وجهه حتى ضرب رأس الغلام بالسيف فوقع الغلام لوجهه وصاح: يا عماه. قال: فوالله لتجلى الحسين كما يتجلى الصقر ثم شد شدة الليث إذا غضب فضرب عمرا بالسيف فاتقاه بساعده فأطنها من لدن المرفق ثم تنحى عنه وحملت خيل عمر بن سعد فاستنقذوه من الحسين ولما حملت الخيل استقبلته بصدورها وجالت فتوطأته فلم يرم حتى مات. لعنه الله وأخزاه. فلما تجلت الغبرة إذا بالحسين على رأس الغلام وهو يفحص برجليه وحسين يقول: بعدا لقوم قتلوك خصمهم فيك يوم القيامة رسول الله -صلى الله عليه وآله- ثم قال: عز على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا تنفعك إجابته يوم كثر واتره، وقل ناصره ثم احتمله على صدره وكأني أنظر إلى رجلي الغلام تخطان في الأرض حتى ألقاه مع ابنه علي ابن الحسين فسألت عن الغلام فقالوا: هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين) [مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني ص ٥٨].

المعادلة العامة للمشكلة والحل في الحياة الإنسانية

تعريف المشكلة: المشكلة هي نسق غير صحي مضاد لطبيعة العلاقات بين الأشياء يفرز تداعيات غير مرغوبة في الأوضاع والروابط الإنسانية.

تعريف الحل: هو محاولة لإعادة الأشياء والعلاقات إلى طبيعتها وإزاحة التوتر الحاصل بسبب وجود المشكلة.

المفارقات الكلية بين المشكلة والحل في حياة البشر:

المفارقة الأولى: إن المشكلة تحدث بوتيرة متصاعدة بينما الحلول تأتي في عددها غير متناسقة مع عدد المشاكل.

المفارقة الثانية: إن المشكلة تنشأ بشكل عفوي وغير مدروس مما يسهل حدوثها وتكرارها، بينما الحل يحتاج إلى مزيد من العناية والتوجه، وربما تتطلب الحلول إمكانيات وقدرات أكبر مما تتطلبها المشاكل عادة.

المفارقة الثالثة: إن المشكلة تعاود الحصول والظهور في حياة الناس لوجود الأرضية والخلفية التي تعين على حصولها وتكرارها، بينما الحل غالباً ما يكون خلاف الطبيعة الأولية لأطراف المشكلة فلذلك يصعب الالتزام به وتنفيده والاستمرار عليه.

المفارقة الرابعة: إن ما يستغرقه ويحتاجه الحل من وقت يكون عادة أكثر بكثير مما تستدعيه وتتطلبه المشكلة.

نتيجة هذه المفارقات: النتيجة المتحصلة من وراء هذه المفارقات بين المشكلة والحل أن المشاكل يتراكم وجودها في حياة الناس بشكل تصاعدي، بينما تقلّ كمية الحلول الفعلية عن كمية المشاكل الحاصلة، وهذا ما يحول المشكلة إلى أزمة تضغط وتضغط على واقع الإنسان حتى تصل ذروتها بالإنفجار والتلاشي،

ليعود التوازن والهدوء من جديد إلى الحياة البشرية، والتي يعود الإنسان مرة أخرى للإخلال بتوازنها وهدوئها عبر إحداث ومراكمة المشاكل من جديد، وهكذا تستمر الحياة البشرية وتتواصل وتتراكم الخبرات والمعارف، وتتقوى القدرات والإمكانيات المتاحة للإنسان للتعرف على المشاكل وحلولها.

نصوص دينية في تفسير أسباب المشاكل وكيفية الحلول:

النص الأول: في عدم القدرة على الخروج بنتائج كلية من وراء المشكلة:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٢]، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: ١٢٦-١٢٧].

النص الثاني: في عدم تفهم أسباب المشكلة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١].

النص الثالث: نقص القدرات المعرفية لحل المشكلة: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء ٨٣].

النص الرابع: في ضرورة وجود رغبات الحل للخروج من أية مشكلة:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٤-٣٥].

أولويات السياسة الأمريكية في القرن الحادي والعشرين

ستتحدّد أو بالأحرى تحدّدت أولويات السياسة الأمريكية في هذا القرن ضمن الاستراتيجيات التالية:

١- السيطرة على مصادر أسلحة الدمار الشامل (مصادر التفوق العسكري).

٢- السيطرة المباشرة على مصادر الثروات النفطية والمائية.

٣- تغيير النظام القيمي لبقية دول العالم وعولمة النظام القيمي الأمريكي.

وهكذا تتلخص السياسة الأمريكية في القرن الحادي والعشرين في محاولة الاستحواذ المطلق على: ١- السلطة. ٢- الثروة. ٣- القيم.

وانطلاقاً من ذلك ستتحرك الولايات المتحدة في العالم باتجاهات ثلاثة:

الاتجاه الأول: إنشاء أنظمة سياسية موالية لأمريكا، بل هي صناعة أمريكية كاملة.

الاتجاه الثاني: إنشاء أنظمة اقتصادية يتكامل دورها ويتواصل مع دور وأهداف السوق الأمريكية وسياسات الشركات الاقتصادية الكبرى.

الاتجاه الثالث: إنشاء أنظمة قيمية ومعرفية تستلهم النموذج الأمريكي وتروج إليه بوصفه النموذج الإنساني الأكمل والأمثل.

وفي ضوء ذلك تحلم أمريكا بأن تأخذ على عاتقها مهمة تحقيق الجنة الأرضية التي يتمتع فيها كل الناس بالقدرة والثروة والمعرفة، وهي العناصر الأهم

التي لا يتحقق الكمال الإنساني إلا من خلال الجمع بينها.

ومن هنا ستضطر أمريكا من أجل فرض نموذجها الموعود للإمعان في استخدام:

١- القوة لفرض السيطرة. ٢- المال لاستجلاب الرغبات. ٣- إدعاءات التفوق الأخلاقي والمعرفي لتحقيق الهيمنة النفسية والعقلية.

ولكن هل ستنجح أمريكا في تحقيق أي واحد من مزاعمها وادعاءاتها؟

إن الرؤية السطحية لمسار الأحداث والوقائع فضلاً عن الرؤية المعمقة والفاحصة تدلل على أن أمريكا لن تفلح في تحقيق ما تحلم به، وذلك للاعتبارات التالية:

أولاً: على مستوى التفوق العسكري والسياسي تبدو أمريكا اليوم أعجز ما تكون عن تحقيق الأمن المطلوب داخل حدودها فضلاً عن خارج تلك الحدود، وذلك لأن التفوق العسكري اليوم لا يقاس بما يمتلكه طرف المواجهة من أسلحة دمار وهجوم، ولأن الوقائع التاريخية أثبتت أن الإنسان قادر دائماً على تحطيم أسطورة وهيبة السلاح الذي يقمع رغباته في التحرر والانعتاق من هيمنة رغبات التسط والقهر التي تمارس ضده.

ثانياً: على مستوى التفوق في امتلاك الثروات ومصادر الرفاهية تبدو أمريكا اليوم أكثر الدول التي تعاني أزمات اقتصادية خانقة تهدّد اقتصادياتها بالإنهيار والتداعي، وليس أدل من ذلك سلسلة الفضائح المتتالية للشركات الكبرى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، والمنافسة الحادة التي باتت تستشعرها الولايات المتحدة من قبل أطراف جديدة صاعدة مثل أوروبا.

ثالثاً: على مستوى التفوق في امتلاك القيم والمعارف فإن أمريكا اليوم لم تعد تحظى بأيّ احترام وتقدير حتى من الشعوب التي مثّلت في يوم من الأيام النواة الأولى لتشكيل ما يعرف اليوم باسم" الولايات المتحدة الأمريكية"، وإذا كانت

أمريكا اليوم تشعر بأنها باتت مفصولة ومنفصلة عن أصولها وجذورها فمن الأولى أن تشعر بالغربة في عالم لا تنتمي إليه ولا ينتمي إليها، وهو يوماً بعد يوم يصرّ على أن يتمايز عنها رغم كل ما تزعم أنها تقدمه إليه من خدمات، وما تزعم أنها تبدله من أجل تطويرها وتنميته، وهكذا تبدو أمريكا خاسرة في كل الاتجاهات مما يجعلها تواجه مصيراً أسود يهدد بإسقاطها رمزياً قبل أن تسقط سياسياً وعسكرياً.

المحتويات

تقديم ٥
دور علماء الدين بين الدولة والأمة ٧
إشكالية السلطة في المجال العربي الإسلامي ٩
غياب آلية التوافق الإشكالية الدائمة المطردة في الاجتماع السياسي العربي الإسلامي .. ١١
التطور التكاملي للأنظمة الاعتقادية ١٣
المبادئ الأساسية لثقافة إنسانية مشتركة ١٥
تحديات المسلم المعاصر بين متطلبات المسجد وضرورات السوق ١٧
معادلة النجاح في الإدارة العامة ١٩
دور الفتنة في مهام الفرز الشخصي والتمحيص الاجتماعي ٢١
منطق المنافسة ٢٣
قضية المهدي ومنطق الفتنة ٢٥
الإنسان بين التحرير والتعبيد المفارقات العميقة بين خطاب الدين وخطاب السياسة ... ٢٧
بناء العقول الثلاثة تحديات النهضة في العالم الإسلامي ٢٩
القرآن الكريم بوصفه كتاب إرشاد يومي ٣١
مراحل الفتنة في الخطاب القرآني ٣٣
التوازن بمنطق الاعتدال في إدارة الثنائيات ٣٥
التأصلات الأولى للعنف في التاريخ البشري ٣٧
التعقل كغاية للتدين ٣٩
تجاذبات التجربة البشرية بين الحرب والسلام ٤١
محاكمة نظرية الإمامة عند الشيعة في ضوء معطيات العلوم الإدارية الحديثة ٤٣
محدّدات الدور المعرفي منهجيات بناء مهارات التفكير العلمي ٤٥
العقلانية الإسلامية. . . مبادئ إدارة العقل في الإسلام ٤٧

أوليات العقل إعادة اكتشاف وتأصيل دور العقل في النظام الوجودي الإسلامي ٤٩
إشكاليات الدور الجماهيري في مواجهة الاستبداد السياسي ٥١
السلوك الإنساني بين نوازع الطبيعة الأولى ومقتضيات الطبيعة الثانية ٥٣
الإصلاحي الأحمق ٥٥
إعادة تركيب العلاقة بين الصورة والواقع ٥٧
التأطير الاجتماعي للمعرفة الدينية تطبيقات عملية لاستنتاجات علم اجتماع المعرفة ٥٩
الشرعية الدينية للأخطاء السياسية اختلالات مسار العلاقة بين المثقف والسلطة ٦١
مبادئ العلاقات الأخوية في الإسلام ٦٣
الأدوار المبتورة ٦٥
الحياة المؤسسة معرفيا ٦٧
متطلبات إدارة العمل في المؤسسات الخيرية ٦٩
التنمية التكاملية في الاقتصاد الإسلامي ٧١
مقال في الالتزام العام ٧٣
العقلانية السياسية بين خطاب التحريض وخطاب الترويض ٧٥
الإيمان . . . التجربة الذاتية في تجلياتها الإنسانية ٧٧
بناء مهارات التحكم الذاتي ٧٩
أخلاقيات البطل القدوة مفارقات الصورة بين الثقافتين الأمريكية والإسلامية ٨١
المجاميع غير المؤهلة للإصلاح ٨٣
تجاذبات الدعوة والدولة في تاريخ الإسلام ٨٥
ثلاثية أنظمة الصيانة والتوجيه والتحكم في إدارة الذات الإنسانية ٨٧
الأساس الفلسفي للسلوك الإداري في السلطة ٨٩
الوجودية التوحيدية التأسيس الأممي لمستقبل إنساني مشترك ٩١
إعادة إنتاج الإسلام ٩٣
بناء الحياة وفق منطق الطبيعة والعقل والدين ٩٥
إدارة الجماعات في ظل تحولات الوضع القيادي ٩٧
الثقافة المدينية في التجربة العربية الإسلامية ٩٩
صناع الإرباك ١٠١

في اليوم العالمي للأسرة مقاربة لأدوار عناصر الأسرة الإبراهيمية ١٠٣
انهيارات التجربة الإنسانية في العالم الإسلامي ١٠٥
أبطال كربلاء والمسير وفق خطة عمل ١٠٧
مجتمعات الثقوب السوداء ١٠٩
الوسطية.. منهج الإسلام في مواجهة مبدئي الإفراط والتفريط ١١١
إشكاليات التأصيل في التجارب الإنسانية العامة ١١٣
توحد الإيقاع الزوجي ١١٥
ادفع بالتي هي أحسن ١١٧
صقل المهارات الإنسانية ١١٩
العقل المسلم بين ضرورات التحريض ورغبات الترويض ١٢١
مفاهيم القيادة والإدارة في حياة الإمام الخميني ١٢٣
الطغيان في الميزان.. اختلالات موازين الحق عند بني الإنسان ١٢٥
رصد اختلالات موازين الحق في حديث الرويبضة ١٢٧
السعي المقدس ١٢٩
المرأة.. الحلقة الأضعف في التحولات الاجتماعية ١٣١
فن التصرف في اللحظات الحرجة ١٣٣
النسيج الاجتماعي الزائف البدائل المتوقعة في ظل غياب السلم الأهلي ١٣٥
مسارات النجاة الثلاثة ١٣٧
ثلاث تجارب سياسية ناجحة ١٣٩
دور النبي المصطفىﷺ في تحقيق مهام التغيير الاجتماعي الشامل ١٤١
الحرب والسلام في حركة نبي الإسلام ١٤٣
بناء وتطوير أنظمة العلاقات الإنسانية ١٤٥
رؤية نقدية لعلم البرمجة اللغوية العصبية وتأسيسية لعلم البرمجة الذاتية ١٤٧
الرسول الداعية البشير النذير ١٤٩
الرسول القائد والمشروع الرائد ١٥١
حروب في ديار المسلمين في سبيل إعادة صياغة وإنتاج مفاهيم المشروعية السياسية الدينية ١٥٣
كشف المستور عن حديث الرويبضة المشهور ١٥٥

كيف تصبح مثقفاً إسلامياً؟ . . أصول بناء الثقافة الإسلامية ١٥٧
الممارسة المؤسسة معرفياً ١٥٩
أساسيات العمليات الأربع في التواصل المعرفي ١٦١
إشكالية الإلزام والالتزام في الحقوق المدنية ١٦٣
كيف تتحول مفاهيم حقوق الإنسان إلى ثقافة؟ ١٦٥
صناعة مجتمع المعرفة رؤية إسلامية في تحقيق متطلبات الثورة المعرفية ١٦٧
استشراف مستقبل الأسرة في عالم مضطرب ١٦٩
مهام الترويج والدعاية والإعلان في الخطاب الديني ١٧١
السياق الموحد للسقوط الحضاري ١٧٣
السياق الموحد للسقوط الحضاري في حديث الرويبضة ١٧٥
الإصلاح السياسي والديني المطلب الدائم القائم في كل الأحوال والظروف ١٧٧
إشكالية النهضة والتغيير في البيئة العربية ١٧٩
إعادة إنتاج الفساد كيف يتحول الفساد إلى مؤسسة بديلة عن الإصلاح؟ ١٨١
تأثير غياب الجماعات المنظمة في تشكيل الاجتماع السياسي الإسلامي ١٨٣
الوضع الحقوقي وإشكالية التعسف في استخدام الحق ١٨٥
يوم الغدير . . قراءة في متطلبات تحديد خريطة المسار ١٨٧
معركة الإنسان والشيطان تجاذبات العقل والهوى في إدارة النفس البشرية ١٨٩
الثورة الحسينية . . منهجية راقية في الوعي والممارسة ١٩١
الواقعية السياسية عند الشيعة بين الثورة والتقية ١٩٣
إشكاليات القيادة والإتباع في دائرتي الفهم والالتزام ١٩٥
مرتكزات الإصلاح الشامل في الثورة الحسينية ١٩٧
اختلال نظام العلاقات الإنسانية ١٩٩
العزم والإرادة سبيل تحقيق المطلوب ٢٠١
برمجيات التوافق البشري ٢٠٣
ولادة الأمير عليه السلام لحظة إعادة النظر في متطلبات المرجعية الدينية ٢٠٥
معاوية بن أبي سفيان مؤسس قواعد إدارة السلطة في تجربة الدولة العربية ٢٠٧
مواجهة الأساليب الدعائية المضادة شواهد ومواقف من حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ٢٠٩

القرية الكونية اختلالات البنى التكوينية في عصر العولمة ٢١١
اختيار أسلوب الحياة ونظام المعيشة ٢١٣
تكوين الشخصية الثائرة والناقدة في الإسلام الإمام الحسين نموذجاً ٢١٥
محددات الرخاء الاقتصادي في الدولة المهدوية ٢١٧
محنة الفقر.. تشخيصات وحلول ٢١٩
مهارات حل المشاكل الاجتماعية ٢٢١
برمجيات الضبط الاجتماعي ٢٢٣
مهام الرقابة الإدارية ٢٢٥
مهارات بناء التوافقات الاجتماعية ٢٢٧
غثاء السيل تداعيات الفوضى القاتلة في سلوكيات الأمة ٢٢٩
تنمية مهارات التدبير المعيشي في الشخصيات القيادية ٢٣١
العلاقة الحرجة بين القادة والأتباع ٢٣٣
قيام دولة وسقوط أمة ٢٣٥
بناء مهارات البعد الرابع ٢٣٧
مفارقات دور المؤسسة التعليمية في التجربتين العربية والأمريكية ٢٣٩
صناعة القدرة على حل المشاكل واتخاذ القرارات ٢٤١
بناء منظومة الحقوق الإنسانية بين التأسيس النظري والتأصيل العملي ٢٤٣
المأزق الفلسفي في التأسيس الحديث لحقوق الإنسان ٢٤٥
المنهجية الشاملة لتحليل مسار النظم السياسية ٢٤٧
التنمية المستدامة وعلاقتها بالتفكير المنظوماتي ٢٤٩
إدارة الحلقات النقاشية السبيل الأفضل لتطوير مهارات التواصل الاجتماعي ٢٥١
زاوية الإدراك والحكم إشكالية الموضوعية في تكوين المعرفة الإنسانية ٢٥٣
تعزيز المشروعية السياسية من إدارة الحرب إلى إدارة المعرفة ٢٥٥
عصر الجسد الأنثوي ٢٥٧
علاقة الجماعات المعرفية بالسلطة السياسية ٢٥٩
متطلبات تحسين الأداء في العمل التطوعي ٢٦١
صناعة الإنسان الفاسد الدور اليهودي العالمي في تجربة الفساد البشري ٢٦٣

الثورات غير الناضجة ٢٦٥
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... .... ٢٦٧
ممارسة السلطة السياسية بين مبدأ الولاية العامة ومفهوم الرعاية الاجتماعية ٢٦٩
تمحورات الحداثة الغربية من الفردية الضيقة إلى الكونية المطلقة ٢٧١
دور التجربة النبوية في بناء منظومة الحقوق السياسية ٢٧٣
المناهج الكلية لبناء الممارسة الإدارية ٢٧٥
إدارة الجودة الشاملة الخيط الواصل بين الدين والدنيا في مجال الإدارة الناجحة ٢٧٧
إشكاليات المسألة الجنسية في بناء العلاقات الثنائية بين الرجل والمرأة ٢٧٩
مرجعية الحسم العملي ٢٨١
النفاق السياسي الممارسة الممهدة للاستبداد السياسي ٢٨٣
إدارة الثنائيات في العمل الإداري ٢٨٥
سلطة المعرفة في دائرة الولاية والإمامة ٢٨٧
دور التزيين والمعاتبة في بناء الذات السوية ٢٨٩
الواقعية... منهج الإسلام في إدارة وضبط الشهوة ٢٩١
الإمام الخميني رجل المشاريع المكتملة ٢٩٣
مبدأ مشروعية البقاء في الحياة الإنسانية ٢٩٥
أوهام التميز ٢٩٧
مقدمات توضيحية حول التفكير ٢٩٩
السيدة زينب عليها السلام.. منهج في الدفاع عن الموقف ٣٠١
العمل الإسلامي والتفكير من خارج الأطر المعيقة ٣٠٣
سقوف الحراك الإنساني ٣٠٥
دور أنماط التفكير الأساسية في صياغة النظم السياسية ٣٠٧
إسهام في نقد وتحليل المنطق الجمعي ٣٠٩
دراسة قرار السقيفة في ضوء معطيات علم الاجتماع السياسي وقواعد الإدارة الحديثة . ٣١١
سن التكليف الشرعي مرحلة النضج الجسدي والإثارة العاطفية والتحفز العقلي ٣١٣
إدارة الثنائيات الأساسية في مجال تنمية وتطوير المهارات الذاتية ٣١٥
مسيرة ضياع الفرض والأرض والعرض ٣١٧

النزعة الإنسانية في الثورة الحسينية ٣١٩
وحدة المرجعية. . . الإطار التنظيمي لعمل الجماعة ٣٢١
الأخطاء القاتلة في أداء الرموز والقيادات ٣٢٣
إشكالية بناء الدولة في التجربة العربية الإسلامية ٣٢٥
كيف يحتفظ الأقوياء بمركز القرار في السلطة؟ ٣٢٧
إدارة النظام وإدارة الفوضى ٣٢٩
الخطاب القرآني وصناعة أجواء الحرب ٣٣١
خيارات إصلاح الوضع القيادي الديني ٣٣٣
أعمدة الاستبداد السياسي ٣٣٥
العلاقة بين الفكر والممارسة في بناء النظام السياسي ٣٣٧
آثار المحبة الإلهية في النفس البشرية ٣٣٩
المفهوم القرآني للتنمية بين التنمية الكمية والتنمية الكيفية ٣٤١
استمرار آلية المقاومة شرط انتصار الضعيف على القوي ٣٤٣
كيف يمارس الساسة صناعة الإرباك؟ ٣٤٥
دور القيادة في تطوير المهارات الإدارية للأفراد والجماعات ٣٤٧
فن التواصل منهجيات إسلامية في إدارة العلاقات الثنائية ٣٥٠
منهجية بناء المنطق الجمعي العاقل ٣٥٢
مغاليق التفكير المنطقي ٣٥٤
صناعة الإرباك الاجتماعي ٣٥٦
المبدأ الثالث في إدارة السلطة ٣٥٨
تقنية تسويق الأنماط الاجتماعية ٣٦٠
إشكاليات مسألة الأحوال الشخصية ٣٦٢
الإنسان الفاسد وتفكيك النظام ٣٦٤
نظام السلطة مقاربة تأسيسية للمفهوم الإسلامي للسلطة ٣٦٦
إشكالية المفهوم الشرقي للسلطة ٣٦٨
إشكالية الفكر المعياري في الثقافة العربية الإسلامية ٣٧٠
الغدير . . تحديد إلهي لمتطلبات القيادة الدينية ٣٧٢

إدارة الحلقة الأضعف في معركة النفس والشيطان ٣٧٤
ما هي غاية السلطة السياسية؟ ٣٧٦
أبعاد المشكلة الزوجية في المجتمعات العربية الإسلامية ٣٧٨
متطلبات البناء الذاتي ٣٨٠
فانظر كيف كان عاقبة الظالمين سقوط طاغية العراق.. .... ٣٨٢
الاستخدام المضاد لعناصر التنمية البشرية ٣٨٤
العضو الغبي... من تخوم البيولوجيا إلى آفاق الانثربولوجيا ٣٨٦
هواجس الإصلاح الشامل في التجربة العلوية ٣٨٨
ميكانيزما تحويل توجهات الكتلة الحرجة ٣٩٠
الحقبة السامرية الرمزية التاريخية لمراحل التيه البشري ٣٩٢
أنماط الارتباط الثنائي في العلاقات البشرية ٣٩٤
صناعة الأغبياء لرمزيات الأشقياء برمجيات إنتاج الأنساق المهيمنة ٣٩٦
الحسين عليه السلام.. ولادة متجددة للأمة والمشروع والقيادة ٣٩٨
المحاور الأساسية في تطوير إمكانيات الاستقطاب المعرفي ٤٠٠
القيم الدينية في مواجهة تأثيرات ثورة الإنفوميديا ٤٠٢
أساسيّات الإدراكات الترابطية بين الكلمات والأشياء ٤٠٤
أنظمة توجيه السلوك الإنساني ٤٠٦
إشكاليات تقنين الأحوال الشخصية ٤٠٨
الإمام الخميني ومتطلبات تأسيس النموذج الإسلامي ٤١٠
الحرية والعقل والدين مثلث التكامل في الأنظمة الإنسانية ٤١٢
الإمامة... تأصيل لمفهوم القيادة في إدارة الجماعات ٤١٤
الدلالات الرمزية للثورة في وعي وحياة الأمة ٤١٦
الثورة الحسينية.. منهج في الالتزام والثبات ٤١٨
المعادلة العامة للمشكلة والحل في الحياة الإنسانية ٤٢٠
أولويات السياسة الأمريكية في القرن الحادي والعشرين ٤٢٢
المحتويات ٤٢٥